دروس في التفسير

تفسير جزء عَمَّ

الإمام يوسف القرضاوي

المقدمة

بقلم سماحة العلامة يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } [الكهف1– 5].

وأزكى صلوات الله وتسليماته على من كان مرجعه القرآن، ونوره القرآن، وخلقه القرآن، محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين. وعلى آله الطيبين، ورضي الله عن صحابته أجمعين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فقد أكرمني الله تعالى – وهو أكرم الأكرمين– بصحبة كتابه منذ طفولتي المبكرة. فقد أتممت حفظه وتجويده، وأنا دون العاشرة، ومنذ ذلك الوقت، وأنا قرينه وملازمه، في كل مراحل حياتي: طفولتي وشبابي، ويفاعتي وكهولتي وشيخوختي. وكان هو مصدري الأول في توجهاتي وتوجيهاتي، ودروسي وخطبي، ومحاضراتي وكتبي ورسائلي، وبرامجي الإذاعية والتلفازية. منذ بدأت رحلتي في الدعوة إلى الله تعالى، وأنا طالب بالقسم الابتدائي بالأزهر الشريف: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: 33].

وقد حفظنا من أحاديث رسولنا الكريم، ما رواه عنه عثمان بن عفان: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". رواه البخاري.

وما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله أهلين من الناس!" قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : "أهل القرآن هم أهل الله وخاصته ". رواه أحمد وابن ماجه والحاكم.

وليس أحب إلى مثلي أن يكون من أهل القرآن، أهل الله وخاصته، وأن يكون القرآن شفيعًا له يوم القيامة. كما قال عليه الصلاة والسلام، فيما رواه عنه أبو أمامة الباهلي قال: " اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه" رواه مسلم.

وقد عُنيت بدراسة التفسير في المرحلة الثانوية، والمرحلة الجامعية بكلية أصول الدين، وكنت أحصل في الغالب على أعلى الدرجات.

وكنت أدخل المسابقات التي تعقدها الكلية للطلاب في فترة الصيف، وفي الغالب كانت في جزء من القرآن، من تفسير المنار للعلامة رشيد رضا. وفي سنة كان في المنطق وموسوعاته. وقد كنت بحمد الله أول الفائزين في هذه المسابقات.

لقد حفظت القرآن في كُتَّاب الشيخ حامد أبو زويل، أحد الكتاتيب الأربعة في قريتنا الكبيرة (صفط تراب).

وكان الشيخ حامد قارئا متقنا لكتاب الله، عفيف النفس، لا يذهب إلى المقابر مع بقية القراء كل يوم خميس. وكان محفظًا جيدًا، ومعلمًا حازمًا، وكان يدعو لي أن أكون عالمًا كبيرًا.

وكان أهلي وأقاربي، وأهل بلدتي بصفة عامة يعتبرونني (ابن القرآن) كما كنت أعتبر نفسي الابن الأول للقرآن. كنت أحسن حفظه، وأحسن تلاوته، فكان الناس من

صغري يحبون تلاوتي. ومنذ انتسبت إلى الأزهر الشريف بالمعهد الديني في طنطا، وكان عمري أربعة عشر عاما. بدأ الناس يصرون على أن أصلي بهم إماما في بعض الصلوات. وخصوصا في فجر شهر رمضان، ولا سيما فجر الجمعة. وقد كنت أختم فيها سورة السجدة في الركعتين، وكانت تغلبني دموعي فابكي، ويبكي الناس من خلفي.

وقد كتبت في وقت مبكِّر في كتابي (ثقافية الداعية) ما يتَّصل بالقرآن الكريم وخصائصه ، وما يتعلَّق بثقافة المفسِّر ، وأشرت إلى كثير من الضوابط المهمة في فهم كتاب الله عزَّ وجل وتدبُّره ، وحذَّرت من عدد من الأخطاء، وتقصيرا في فهم كتاب الله تعالى، ثم توسَّعت بذكر هذه الضوابط والمحاذير، في الفهم والتأويل لكتاب الله سبحانه ، في كتابي : (المرجعيّة العليا للقرآن والسنة)، ثم أفردتُ كتاباً كبيراً مهماً في بابه وهو : (كيف نتعامل مع القرآن الكريم).

وأنا منذ أكثر من سبعين عاماً ، أصاحبُ كتابَ الله تبارك وتعالى ، فما من درس من دروسي، ولا محاضرة من محاضراتي، ولا خطبة من خطبي ، ولا كتاب من كتبي، ولا برنامج من برامجي، إلا ويرتكز على كتاب الله عزَّ وجل.

وفي الفتاوى التي حرَّرتها بأجزائها الأربعة الكبار عدد من الموضوعات القرآنية المهمة التي تتصل بعلوم القرآن والتفسير.

وقد عُنيت بالتفسير القرآني بكل أنواعه وبكل ألوانه: التَّحليلي لكتاب الله عزَّ وجل ، والتفسير الموضوعي ، وقد صدر لي في التفسير الموضوعي كتابان هما : (الصبر في القرآن) و (العقل والعلم في القرآن) ، وعندي مخطَّط لمئات الموضوعات القرآنية.

وكان محور خطبي في السنوات الأخيرة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، حول موضوعات القرآن الكريم ، فتحدثتُ في عدد من الخطب عن (الإيمان في القرآن)،

ووقفت عند عدد من (أسماء الله عزَّ وجل الحسنى) وصفاته العلى ، وعن (المال في القرآن)، و(الآباء والأبناء في القرآن) ، و(الحكم والسياسة في القرآن)، و(المرأة في القرآن) ، وما أزال أتابع الخطب حول هذه الموضوعات القرآنية.

ولا عجب بعد ذلك أن يجد القارئ في كتبي جميعًا آيات القرآن الكريم، تنتشر في كل صفحة من صفحاته، أستقي منها في تأصيل المفاهيم ، وتحرير المصطلحات، وتحديد الأحكام، وتجديد الأفهام، وتنوير العقول، وتطهير القلوب، وإصلح الأسر والمجتمعات، وأربطها بالواقع والحياة.

ومنذ قدمت إلى قطر في أوائل الستينيات من القرن العشرين، كنتُ أصلِّي إماماً في صلاة التراويح في شهر رمضان، وأقف في الصلاة في درس كلّ ليلة على تدبر بعض الآيات التي تلوتها أو تلاها القارئ بعد انقطاعي – جزئيا أو كليا – عن الإمامة، وكانت هذه الدورس القرآنية، تسجل باستمرار فرديًا أو رسميًا.

وقد قام بعض الإخوة العاملين في مكتبي بمحاولة استقصاء ما أمكنهم من الدروس القرآنيَّة المسجَّلة، وقاموا بتفريغها ، وستصدر بعون الله سبحانه .

وكنتُ عقدت دروساً لتفسير سورة يوسف عندما كنت معارا من قطر إلى الجزائر ، مديرا للبحث العلمي في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، ومعاونا لوزير (الشئون الدينية) في العاصمة، ولم يتيسَّر لي نشرها، وضاعت مني أصولها المسجَّلة، ولعلَّ الله سبحانه ييسِّر لها باحثًا جادًّا يجتهد أن يقف عليها، ويفرغها وينشرها.

كما أقمتُ دروساً في تفسير كتاب الله عزَّ وجل في جامع الشيوخ بقطر ، فسَّرت فيها سورة الرعد، وقام الأخ محمود عوض بنشرها ، ثم أعدتُ النظر فيها ، واستدركتُ ما وقع فيها من نقص وأخطاء ، وصدرت الطبعة الثانية في مكتبة وهبة، ثم تابعت تلك الدروس المسجديَّة القرآنيَّه، وفسَّرت فيها سورتي الحِجْر وإبراهيم ، وقد قام بالعناية

بهما ، ومراجعتهما الأخ الكريم الأستاذ مجد مكي ، ويسَّر الله صدور هذين الكتابين قريباً في مكتبة وهبة.

ولقد كان من أكبر أمنياتي التي أرجو الله أن يحقِّقها لي، أن أتوجَّه لكتابة تفسير مختصر للقرآن الكريم ، وعَزَمت على ذلك ، وأعلنت عن هذا الأمل المتجدد ، ودعوتُ الله أن يحقِّقه لي ، ليكون على حاشية مصحف قطر بخط الخطاط المتقن عبيدة البنكي السوري.

وبدأت بتفسير سورة الفاتحة، وسورة النبأ، ولكنِّي وجدتُ أن التزامي بحواشي صفحات المصحف يُقيِّدني ، ويحول دون كتابة كثير من المعاني التي أرغب في بيانها ، فخرجت عن هذه الخطَّة إلى الكتابة المسترسلة على طريقتي ومنهجي.

وقد وفَّقني الله تعالى لإتمام تفسير هذا الجزء الأخير من كتاب الله سبحانه ، كتبته بقلمي، في أوقات غير منتظمة، وبارك الله في وقتي مع كثرة الصوارف والهموم المتواصلة ، والأسفار المتلاحقة.

وقد بدأت كذلك في تفسير جزء تبارك ، وأنهيت كتابة عدد من السور، أسأل الله سبحانه أن يبارك في الوقت والعمر لإنجاز ما أؤمِّله من تفسير كتاب الله سبحانه.

وهذا الجزء (عمَّ) من الأجزاء التي تكثُر قراءة آياتها في الصلوات، ويحفظه أكثر أبناء المسلمين ، وفيه تقرير لحقائق العقيدة ومكارم الأخلاق، وأصول الدعوة، ومجادلة المشركين. وقد أفرده في التأليف عدد من العلماء القدامى والمعاصرين، أشهرهم الإمام محمد عبده، ولكلِّ مفسر منهجه وطريقته، وأسلوبه وقراؤه.

وقد قدَّمت لكلِّ سورة بذكر أهم مقاصدها ، جاعلا أول اهتمامي أن أفسر القرآن بالقرآن، جامعا بين العقل والنقل، وبين الرواية والدراية ، وهذا هو منهجي في التفسير، وهو ما سَبَق أن بيَّنته في كتبي الأولى في (ثقافة الداعية)، وفي مقدمتي

التي كتبتها لتفسير (سورة الرعد) ، وما فصَّلته في كتابي : (كيف نتعامل مع القرآن).

وهذا الكتاب الذي أقدِّمه اليوم في (تفسير جزء عمَّ) زادٌ نافع مبارك – إن شاء الله – للداعية والمحاضر والمدرس والخطيب.

وأسجِّل شكري في هذه المقدِّمة للإخوة العاملين في مكتبي العلمي بالدوحة، وفي مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد، على ما قاموا به من خدمة الكتاب، جزاهم الله تعالى عني خيرا.

وأسأل الله سبحانه أن يبارك فيما بقي من أعمارنا، ويعمرها بالعمل والإخلاص في خدمة كتاب الله سبحانه، وإخراج ما يوفق الله إليه من تفسير، وأن يتقبَّل مني هذا العمل وينفع به .

{ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127]، { وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 128]

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوي

الدوحة 9 شعبان 1434هـ

18 يونيو 2013م

سورة الفاتحة

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)}

تُسمَّى سورة الفاتحة بأسماء أخرى مثل: (سورة الحمد)، و(أم القرآن) و(أم الكتاب) و(السبع المثاني).

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

سنَّ لنا القرآن الكريم سنَّة بدء كلِّ أمر ذي بال باسم الله وحده، لا باسم عرش، أو وطن، أو ملك، أو زعيم، كما أمر الله تعالى رسوله، في أول آية أنزلت عليه: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [العلق:1]، وكما قال سيدنا نوح عليه السلام حين صنع بأمر الله سفينة الإنقاذ **{ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا}** [هود:41]، وكما كان في كتاب سليمان لملكة سبأ: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}** [النمل:30-31].

أسماء ثلاثة تضمَّنتها البسملة:

اشتملت البسملة على أسماء ثلاثة:

الاسم الأول: هو لفظ الجلالة **{اللَّهِ}**، وهو عَلَم على الذات الإلهيَّة، غير مشتقٍّ على الصحيح، وهو المتَّصف بكلِّ كمال، المنزَّه عن كلِّ نقص، **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}**[طه:8].

والاسم الثاني: هو اسم **{الرَّحْمَنِ}**، وهو أيضاً عَلَم على الذات الإلهيَّة، ولكنه مشتق من الرحمة، وهو أبلغ من **{الرَّحِيمِ}**، وهو يعامل معاملة لفظ الجلالة، في إيقاعه مبتدءاً يخبر عنه، أو يُدعى كما يُدعى الله، كما في قوله تعالى: **{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ}** [الرحمن:1-2]، **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}**[طه:5]، **{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [الإسراء:110]، **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا**

وَمَا الرَّحْمَنُ}[الفرقان:60]، **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}**[الفرقان:63]، **{أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}**[مريم:91-93].

والاسم الثالث: هو اسم **{الرَّحِيمِ}**، وهو مع **{الرَّحْمَنِ}** يعنيان: أنه تعالى صاحب الرحمة الواسعة، التي وُصفت بأنها: **{وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}**[الأعراف:156]، وقال بعضهم: الرحمن: مَن وسعت رحمته كلَّ شيء. والرحيم: مَن كثُرت رحمته.

والرحمة عند الإنسان: انفعال وجداني، أو رقَّة في القلب، تؤدِّي إلى العطف على الآخرين، والإحسان إليهم، وإيصال الخير اليهم، وإزالة الضرر عنهم.

ولكنها بالنسبة إلى الله تعالى، ليست انفعالاً ولا رقَّة قلب، بل هي صفة ذاتيَّة لائقة به تعالى، بها يعطف على عباده، ويُنعم عليهم بسائر نعمه، جليلها ودقيقها.

ومن حقِّها أن تكون صفة كسائر صفات المعاني التي أثبتها الأشاعرة، مثل: القدرة، والإرادة، والحياة، والسَّمع، والبصر، فكما أنَّ له تعالى صفة تُسمَّى: الحياة أو السَّمع، ليست كحياة البشر، أو سمعهم، كذلك له صفة تسمَّى الرَّحمة، ليست كرحمة البشر.

تكرار اسمي: الرحمن والرحيم:

وقد اجتمع الاسمان **{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}**، معاً في خمس مواضع في القرآن الكريم، غير مائة وثلاث عشرة مرَّة في ابتداء سور القرآن الكريم، وتكرَّر اسم الرحمن وحده: (52) مرة، واسم الرحيم وحده معرَّفاً ومنكَّراً، مرفوعاً ومجروراً (94) مرَّة، ومنصوباً (20) مرة.

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

الحمْد مقابل الذمِّ، وهو الثناء على الله بما هو أهله، بصفات الجمال والجلال والكمال، كما يُحمد على ما أسبغ من نعمه ظاهرة وباطنة، فهو حينئذ ثناء يتضمَّن معنى الشكر، ولهذا كثيراً ما يُذكر بعد النِّعم، كما في حَمْد أبي الأنبياء: إبراهيم عليه السلام، في قوله: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}**[ابراهيم:39].

وكما في حَمْد داود وسليمان، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}** [النمل:15].

وكذلك حَمْد أهل الجنَّة، بعد دخولهم الجنَّة، وقولهم: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}** [الأعراف:43].

وكما في قول الله تعالى لنوح: **{فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [المؤمنون: 28]، وغيرها. فهذه كلُّها حَمْد على نعم، وهو شكر باللسان.

قال الراغب في (مفردات القرآن): (الحمْد أعمُّ من الشُّكر، فكلُّ شكر حمْد، وليس كلُّ حمد شكرا)[1]. فمن الحمد ما هو ثناء على الله، وليس شكراً على نعمة. قال ابن كثير: (ولكن الشكر أعم من ناحية أخرى، وهو أنه يكون بالقول والعمل والنيَّة، أما الحمد فيختصُّ باللسان)[2].

وقد افتتح الله في القرآن خمس سور من سوره المكيَّة بالحمد لله، هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

ليس في القرآن كله: إنّ الحمد لله:

وأودُّ أن أنبِّه هنا على مسألة مهمَّة، وهي أن القرآن في كلِّ المواضع التي ذُكر فيها **{الْحَمْدُ لِلَّهِ}**، ذكرها بدون حرف (إن) الذي هو للتوكيد، لأن الصيغة وحدها كافية في التوكيد، لأن (أل) في (الحمد) إما للاستغراق أو للجنس، وفيه من العموم ما لا يحتاج إلى مؤكِّد آخر.

[1]- مفردات القرآن للأصفهاني صـ256.

[2]- تفسير ابن كثير (128/1)

ولهذا أستغرب أن كثيراً من الخطباء والكتَّاب، أصبحوا ملتزمين بافتتاح خطبهم، أو كتبهم، بقولهم: (إنَّ الحمد لله). بناء على رواية وردت عند مسلم بهذا[3]! وكلُّ الأحاديث بعد ذلك جاءت بدون (إنَّ)، كما جاء القرآن، فكيف نَدَع استعمال القرآن الكريم في آياته الكثيرة، وفي مختلف المواقف، مثل ما نقله عن ابراهيم، وداود وسليمان عليهم السلام، ومثل قول أصحاب الجنة، ومثل أمره بصيغة (الحمد لله) كقوله تعالى: { **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا**}[النمل:93]، {**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**}[الاسراء:111]، وقوله لنوح عليه السلام: {**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**}[المؤمنون: 28].

فلعل في هذه الأدلة الناصعة ما يقنع، أولئك الذين يتردَّدون في إيثار النصوص القرآنية والحديثية الواضحة على دليل واحد غير بيِّن من الحديث.

معنى ربوبيَّة الله للعالمين:

{رَبِّ الْعَالَمِينَ}

وُصف الله المحمود هنا بـ{**رَبِّ الْعَالَمِينَ**}. ولفظ {**رَبّ**}، يعني: المالك، والسيد، والراعي، والمربِّي، وكلُّها ثابتة في حقِّه سبحانه بالنسبة للعالمين.
والعالمون لها معنيان:

المعنى الأول: العوالم التي يشتمل عليها هذا الكون الكبير، كما سأل فرعون موسى: {**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**}[الشعراء:23-28]، فهو ربُّ العالمين: بمعنى أنه ربُّ السموات والأرض وما بينهما، ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين، وربُّ المشرق والمغرب، فهناك عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم

[3]- رواه مسلم في الجمعة (868) عن ابن عباس.

النبات، وعالم البحار، وعالم الجبال، وعالم الأفلاك، وعالم الجنِّ، وعالم الملائكة، وغيرها من العوالم.

وكلٌّ عالم من هؤلاء ينقسم إلى عوالم، فعالم الحيوان مثلاً، ينقسم إلى: عالم الدواب، وعالم السباع، وعالم الطير، وعالم الحشرات، وعالم الزواحف، وعالم الأحياء المائية، إلى آخره.

أما المعنى الثاني : فهو كلُّ العقلاء والمكلَّفين من الخلق، كما قال تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}**[الفرقان:1]، وقال تعالى عن القرآن: **{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}**[ص:87]، وكما قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}**[الأنبياء:107].

تأكيد القرآن لرسالته العالمية:

بهذا أكَّد القرآن الكريم من أول آية بعد البسملة: رسالته العالميَّة، ورفضه للعنصريَّة، والقبليَّة والإقليميَّة، وكل ألوان العصبيَّة. على حين تتحدَّث التوراة عن الربِّ: أنه (رب إسرائيل)، أو (رب الجنود).

وما قرَّره القرآن في أول آية في فاتحة القرآن، أكَّده في آخر الآيات في آخر سورة في القرآن، وهي سورة الناس، وهي قوله تعالى: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}**[الناس:1-6]، وقد تكرَّرت كلمة (رب العالمين) في القرآن (34) مرة.

تكرار (الحمدلة) في القرآن:

وكما جاءت هذه الجملة آية كاملة في أول الفاتحة، جاءت جزءا من آية في سياقات شتَّى في القرآن. كما في قوله تعالى: **{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[الأنعام:45]، وقال عن أهل الجنة: **{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[يونس:10]، **{هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[غافر:65]، **{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[الزمر:75].

كما تكرَّرت (الحمدلة) في آيات أُخر، كما في قوله تعالى: **{لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}**[القصص:70]، وقوله: **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}**[الروم:18]، وقوله: **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآَخِرَةِ}**[سبأ:1]، وقوله: **{فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[الجاثية:36]، وقوله: **{لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[التغابن:1].

تكرار اسمَي الرَّحمن الرَّحيم:

{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

تكرير وتأكيد لهذين الاسمَين الكريمَين، مع ذكرهما في البسملة، ليزيد في تقرير وتأكيد معنى (الرحمة الواسعة)، المأخوذ من تكرير الرحمانيَّة والرحمة، ولتكون أبلغ ردٍّ على الذين يزعمون أن إله المسلمين إله جبَّار منتقم، واسم (الجبار) إنما ذُكر مرَّة واحدة في القرآن، وهو جبَّار على الجبابرة، كما أنه ينتقم من البُغاة المجرمين، كما قال تعالى: **{إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}**[السجدة:22].

أما اسما (الرحمن) و (الرحيم)، فقد ذكرا في الفاتحة وحدها مرَّتين، وهي التي أُمر المسلم أن يردِّدها في اليوم على الأقل سبع عشرة مرَّة، في صلواته اليوميَّة.

مالك يوم الدين وملك يوم الدين:

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}

وفي قراءة: **(مَلِك يَوْمِ الدِّينِ)**، ويوم الدين هو يوم الدينونة والحساب والجزاء، والله تعالى مالك هذا اليوم، وملك هذا اليوم، يظهر مِلْكه لهذا اليوم في قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}**[الانفطار:17-19].

ويظهر مُلكه في هذا اليوم، كما في قوله تعالى: **{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}**[غافر:16]، فهو المالك والملك جلَّ شأنه.

وهذه الآية تُقرِّر أهمَّ قضية وأخطرها بالنسبة للإنسان، إنها قضية المصير الأبدي، أهي جنة أم نار؟ إنها ليست مجرَّد أرحام تدفع، وأرض تبلع! كما قال الملحدون.

إنَّ الموت ليس نهاية المطاف، إنَّه رحلة إلى عالم آخر، فإنَّ الله يميتنا ثم يحيينا لتجزى كلُّ نفس بما كسبت، من خير أو شرٍّ.

لا شفاعة في هذا اليوم إلا بإذنه:

لا يشفع أحد في يوم الدين إلا بإذنه، لا نبيّ ولا ملَك، **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}**[النجم:26]، وقال تعالى عن الملائكة: **{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}**[الأنبياء:28]، وقال في آية الكرسي: **{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}**[البقرة:255].

أما الأصنام التي اتَّخذوها آلهة، وزعموا أنهم سيشفعون لهم عند الله، فقد قال الله تعالى: **{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}**[مريم:81-82].

إثبات أسس العقائد الإسلامية بهذه الآيات الثلاث:

وفي هذه الآيات الثلاث، ثبتت أُسس العقائد الإسلامية الثلاثة، التي يحصرها العلماء، في الإلهيَّات، والنبوات، والسمعيَّات.

وبعبارة أخرى: في المبدأ: وهو الله خالق الكون، وربِّ العالمين. وفي الواسطة: وبعبارة أخرى: النبوَّة، التي هي أثر الرحمة الإلهيَّة. وفي المعاد أو الجزاء: الذي يتجلَّى يوم الدين.

حقيقة التوحيد: إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، انتقال من أسلوب الغائب إلى أسلوب الخطاب، فبعد أن تلا العبد ما أثنى الله به على نفسه بما هو أهله، كما جاء في الحديث: "لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[4]. تَفتَّح قلبه ليناجي ربَّه، ويخاطبه بما يستحقُّه، فيفرده تعالى بالعباده، ويفرده بالاستعانة، وهما حقيقة التوحيد: أن يخصَّه تعالى وحده ويفرده بالعبادة، وبالاستعانة.

فلا يستحقُّ أن يُخاطَب بتخصيص العبادة إلا هو، ولا يُخصَّص بالاستعانة به إلا هو، والعبادة: أن تجعل له غاية الخضوع والذلِّ، المقترن بغاية الحبِّ والولاء له، فالعبادة مركَّبة من عنصرين اثنين: منتهى الخضوع له، ممزوجاً بمنتهى الحبِّ له سبحانه، فلو وُجد خضوع من غير حبٍّ، لم يكن عبادة، كما قد يخضع بعض الرعيَّة لبعض الجبَّارين، ويحنُون لهم رؤوسهم، في غاية من الذلِّ، ولا يُعَدُّون عابدين لهم؛ لأنهم لا يحبُّونهم، بل يبغضونهم ويلعنونهم في قرارة أنفسهم.

وقد يحبُّ بعض الناس رجلاً أو امرأةً، وينزل حبُّه في شَغَاف قلبه، ولا يُعَدُّ عابدا له؛ لأنه لا يخضع له غاية الخضوع.

وجملة **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**، تمثل توحيد الإلهيَّة، أوتوحيد العبادة، وجملة **{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**، تمثل توحيد الربوبيَّة، وأُفضِّل تسميته (توحيد الخالقية)، ولا بدَّ من التوحيدَيْن.

---

[4]- رواه مسلم في الصلاة (486)، وأحمد (24312)، وأبو داود في الصلاة (879)، والترمذي في الدعوات (3493)، عن عائشة.

وقد يعترف الناس بتوحيد الخالقيَّة، ولا يعترفون بتوحيد العبادة، مثل عرب الجاهلية، الذين أقرُّوا بأن الله ربِّ كلِّ شيء، ومع هذا عبدوا الأصنام، ليقرِّبوهم إلى الله زلفى، وقالوا: **{وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}**[يونس:18]، والقرآن يأمر بتجريد التوحيدين جميعاً لله، كما قال تعالى: **{رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**[الممتحنة:4]، أي: لا نتوكَّل إلا عليك، ولا ننيب إلا إليك، كما قال شعيب عليه السلام: **{وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}**[هود:88]، وكما أَمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}**[هود:123].

لماذا قدَّم الله العبادة على الاستعانة؟

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قدَّم العبادة لأنها الغاية، والاستعانة وسيلة إليها، وليس معنى تخصيص الله بالاستعانة: الاستغناء عن الخلق جميعاً، بل هو يردُّ على الذين يستعينون بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يستعينون بالأصنام والكَهَنة وأمثالهم.

وقوله: **{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**، يردُّ على الجبريَّة الذين نفوا كلَّ قدرة أو إرادة للإنسان؛ لأن الذي يستعين لا بدَّ أن يكون له جهد، ولكنه يحتاج إلى معونة غيره، ولهذا أمر الله المؤمنين أن يتعاونوا على البرِّ والتقوى.

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، جاءت الآية الكريمة بصيغة الجمع : (**نعبد، ونستعين**)، ولم تجئ بصيغة المفرد: (إياك أعبد، وإياك أستعين)، وإن كان المسلم وحده لا أحد معه، ينطقها بصيغة الجماعة، ويدعو ربَّه بصيغة الجماعة، **{اهْدِنَا}**، ليستشعر الجماعة أبدا، وتكون في ضميره، وعلى لسانه، وبهذا يتربَّى المسلم على التفكير الجماعي، وعلى الشعور الجماعي، وعلى السلوك الجماعي، و"يد الله مع الجماعة"[5].

الشفاء من مرض فساد القلب والقصد:

5- رواه الترمذي في الفتن (2166)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في إصلاح المساجد (61)، عن ابن عباس.

قال ابن القيم: (والتحقق بـ { إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّـاكَ نَسْـتَعِينُ} علمًا ومعرفة، وعملًا وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد. فإنَّ فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعَي قصده فاسداً. وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتَّبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتَّبعين لإقامة رياستهم بأيِّ طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدّون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدًا أعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم، صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين. لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [النور: 48- 50] .

الشفاء من مرَضي الرياء والكِبْر :

قال (ابن القيم): ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد، تراميا به إلى التلف ولا بد. وهما الرياء، والكبْر.

فدواء الرياء بـ { إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، ودواء الكبْر بـ { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } .

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ} تدفع الرياء، { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } تدفع الكبرياء.

فإذا عُوفي من مرض الرياء بـ { إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، ومن مرض الكبرياء والعُجْب بـ { وَإِيَّـاكَ نَسْـتَعِينُ}، ومن مرض الضلال والجهل بـ {اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ} عوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَلَ في أثواب العافية، وتمَّت عليه النعمة. وكان من المنعَم عليهم { غَيْـرِ

{الْمَغْضُــوبِ عَلَــيْهِمْ } وهـم أهـل فسـاد القصـد، الـذين عرفـوا الحـق وعـدلوا عنـه. { **والضَّالِّين**} وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

شفاء الأبدان :

وأما تضمنها لشفاء الأبدان : فنذكر منه ما جاءت به السنة: ففي الصحيح عن أبي سعيد الخدري (أنَّ ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرّوا بحيٍّ من العرب . فلم يقْروهم ولم يضيفوهم فلُدِغ سيِّد الحي . فأتوهم فقالوا : هل عندكم من رقية ، أو هل فيكم من راق ؟ فقالوا : نعم ، ولكنكم لم تقرونا . فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا ، فجعلوا لهم على ذلك قطيعا من الغنم ، فجعل رجل منهم يقرأ عليه بفاتحة الكتاب . فقام كأن لم يكن به قلبه. فقلنا : لا تجعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم . فأتيناه ، فذكرنا له ذلك فقال: ما يدريك أنها رقية؟ كلوا ، واضربوا لي معكم بسهم[6]) [7].

طلب الهداية إلى الصراط المستقيم:

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}

بعد الثناء على الله بما يستحقُّ من المحامد، وبعد مناجاته بما يستحقُّ من إفراده بالعبادة والاستعانة، جاء التَّوجُّه إلى الله بالدعاء، وكان التوجُّه بالدعاء هنا إلى طلب (الهداية) من الله تعالى.

في فاتحة النصارى كان دعاؤهم من ربِّهم متوجِّهاً إلى الجانب المادي: آتنا خبزنا كفافنا! وفي فاتحة كتاب المسلمين: كان التوجُّه إلى سؤال الهداية، فإنَّ نعمة الهداية إلى الإيمان هي أعظم النعم، كما قال تعالى: **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**[الحجرات:17]، وكلُّ حسنة أو فضل أو

---

[6]- متفق عليه: رواه البخاري في الإجارة (2276)، ومسلم في السلام (2201)، عن أبي سعيد الخدري.

[7]- مدارج السالكين (1/76– 79)، بتصرف.

نعمة، فلا قيمة لها إذا لم تتحقَّق هذه الهداية، وكلُّ سعادة في الدنيا والآخرة بعد ذلك؛ فإنما هو ثمرة لهذه الهداية.

أنواع الهداية:

والهداية هدايتان: هداية بيانيّة معرفيّة، وهداية عمليّة توفيقيّة، توصِّل المكلَّف إلى الحقِّ ليؤمن به، ويعمل بمقتضاه.

أولا: الهداية البيانية ومراتبها:

وللهداية البيانية التي بمعنى بيان الحقِّ، والدلالة عليه: عدَّة مراتب:

المرتبة الأولى: الهداية الكلية العامَّة:

التي بثَّها الله في الكون، وجعل لكلِّ شيء فيه حظَّه منها، حتى الأرض والجبال والمياه، والشمس والقمر والنجوم وعالم الأفلاك على سَعَته، يهدى إلى غايته التي يتمُّ بها ما خُلق له. وهي التي أشار إليها القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام: **{ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**[طه:50].

المرتبة الثانية: هداية الحواس:

مثل السمع والبصر، والذوق والشمّ واللمس، وهي التي تهدي الإنسان في عالم المحسوسات، وهي الهداية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان والطير.

المرتبة الثالثة: هداية العقل:

وهي فوق هداية الحِسِّ، وهي التي تفضح غلط الحواس، مثلما ترى العين الظلَّ ساكناً، وهو يتحرَّك ببطء، ومثلما ترى النجم صغيراً، وهو أكبر من الأرض آلاف أو ملايين المرات. وهي ما يدرك بالفؤاد أو القلب – وهو العقل –كما يقول القرآن، قال تعالى: **{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ**

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[النحل:78]، فالسمع والإبصار: للهداية الحسية. والأفئدة: للهداية الفعلية.

والمرتبة الرابعة: هداية الوحي، أو النبوة:

وهي أعلى مراتب الهداية، وهذه تستدرك على العقل ما غلط فيه، كما استدرك العقل على الحواسّ، ثم هي تمنح العقل المعرفة فيما لا سبيل إلى معرفته مثل: الإيمان بالغيب، وما يتضمَّنه من الإيمان بالله وصفاته، وواجبه على خلقه، والإيمان بالعالم غير المنظور، وعالم الآخرة والجزاء، مما لا يدخل تحت دائرة المختبرات، ونحوها. ولا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي، ولكنه ليس من المستحيلات عقلاً، بل هو جائز في نظر العقل، بل هو موافق للحكمة، كما قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}**[ص:27-28].

فهذه المرتبة الرابعة والعليا من الهداية البيانية، هي التي تنكشف فيها الحقائق لبصائر المؤمنين، وهي التي يسألها المؤمنون من ربِّهم.

ثانيا:الهداية التوفيقية:

ومع هذه الهداية البيانية، هناك هداية أخرى، يسعى إليها كلُّ مَن يحبُّ الحقيقة، وهي التوفيق إلى نور هذه الهداية، واتِّباع طريقه، وهي التي جاء بها قوله تعالى لرسوله: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}**[القصص:56]، وهي التي يسألها المؤمنون من ربِّهم، في سورة الفاتحة: أن يعرفوا الحقَّ ويتَّبعوه، وهي التي وُصفت في القرآن بقوله تعالى: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**[المائدة:15-16].

معنى سؤال المهتدي الهداية:

ومعنى قوله **{اهْدِنَا}** – مع أن الذي يدعو قد هُدي إلى الإيمان – أن المراد به: زدنا هدى. كما قال تعالى: **{ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى }**[مريم:76]، **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}**[محمد:17]، أو معناه: ثبِّتنا على هذه الهداية، وعلى نور الإيمان.

والهداية المطلوبة إنما هي إلى **{الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}**، وهو الطريق الذي لا ينحرف يَمْنة ولا يَسْرة، وهو أقرب طريق موصِّل إلى الغاية المطلوبة، وهي رضوان الله تعالى ومثوبته، ودخول جنَّته، والتنعُّم برؤيته.

وهذا الصراط هو الذي أقسم الشيطان اللعين أمام ربِّه: أنه سيقف بالمرصاد لبني آدم، ليضلَّهم عنه بكلِّ وسائله، وفي هذا قال: **{فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}**[الأعراف:16-17].

ولقد اتَّخذ اللعين أسلحته، واستطاع بجنوده وأعوانه أن يغويَ أكثر الخلق، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}**[سبأ:20].

المقصود بالصراط المستقيم:

ومفهوم الصراط المستقيم بيِّن واضح، وهو الطريق الذي لا عوج فيه ولا انحراف، إلى اليمين أو اليسار، ولكن ما المراد به؟ ورد عن الصحابة والسلف: أنهم قالوا: الصراط كتاب الله. وبعضهم قال: الصراط الاسلام. ومنهم مَن قال: الصراط طريق رسول الله. ومنهم مَن قال: طريقه وطريق الخلفاء الراشدين من بعده.

وهذا الاختلاف في الأقوال –كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – هو اختلاف تنوُّع لا اختلاف تضادٍّ[8]. أو القول بأن الصِّراط هو الإسلام، أو القرآن، أو سنَّة رسول الله صلى الله

[8]- مجموع الفتاوى (333/13).

عليه وسلم، أو سنَّة الخلفاء الراشدين من بعده، ليس بينها تضادّ أو تناقض، وإنما هي تتكامل ويفسِّر– أو يُكمِّل – بعضها بعضاً، فهو الطريق الذي يدعو إلى الإسلام، ويهدي إليه القرآن، وبيَّنته سنَّة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وامتثل به أصحابه، وخصوصاً الراشدين المهديين من خلفائه.

و**{الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}**، هو: أساس (الوسطيَّة) في التصوُّر الإسلامي، وفي المنهج الإسلامي، فهو لا ينحاز إلى منهج أهل اليمين، ولا منهج أهل اليسار، بل هو الصراط، وما حوله سبل متعرجة، على رأس كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه، **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}**[الأنعام:153].

{الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} كما قال بعض الصحابة هو القرآن، ومعنى هذا – كما يقول شيخنا دراز – إن القرآن هو إجابة لسؤال المؤمنين: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}**. كما أن طلب المؤمنون هذه الهداية، أو هذا الدستور الإلهي حتى جاءهم الجواب بعد الفاتحة، **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}**[البقرة:2].

إلى مَن ينسب هذا الصراط؟

وقد ينسب هذا الطريق إلى الله تعالى، باعتباره هو الغاية، وباعتباره شارعه والهادي إليه، كما قال تعالى: **{صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}**[الشورى:53]، وقال تعالى: **{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**[يونس:25].

وقد ينسب إلى محمد صلى الله عليه وسلم، بوصفه الداعي إليه، والهادي إليه بإذن الله، كما قال تعالى: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}**[الأنعام:153]، وقال تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}**[الشورى:52، 53].

وقد ينسب هذا الطريق إلى المؤمنين، الذين يسلكون هذا الصراط المستقيم، كما قال تعالى: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}**[الفاتحة:7].

انقسام الناس مع هذا الصراط ثلاثة أقسام:
{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}

يتَّضح من هذه الآية الكريمة التي خُتمت بها السورة: أن الناس مع هذا الصراط ثلاثة أقسام:

الأول: قسم (أنعم الله عليهم):

من النَّبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، كما بيَّنتهم سورة النساء. وهم الذين هداهم الله، وعرَفوا الحقَّ، وتبيَّن لهم، فميَّزوا بينه وبين الضلال والباطل، فسلكوه على بصيرة، وأصبحوا أهله علما وإيمانا وعملا ودعوة.

الثاني: وقسم عرفوا الحق، ولكنهم لم يتبعوه:

ولم يذعنوا لمن دعاهم إليه، ركوناً إلى التقليد، أو حبِّ الدنيا، أو اتِّباع الهوى، أو العصبية العمياء، أو الكِبْر، أو الحسد، **{حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}**[البقرة:109]، فاستحقُّوا غضب الله.

الثالث: وقسم عميت بصائرهم:

فلم يميِّزوا بين حقٍّ وباطل، وهدى وضلالة، ولم يُكلِّفوا أنفسهم عناء البحث وراء الحقيقة، فعاشوا وماتوا ضالِّين، بعيدين عن الحقِّ، فاستحقُّوا أن يوصفوا بالضلالة.

وقد جمع الله هذه الأصناف الثلاثة في هذه الآية الأخيرة من الفاتحة: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}**.

فوائد:

تضمنت الفاتحة مجموعة من الفوائد:

الفائدة الأولى: الفاتحة كلها ذكر الله:

الفاتحة كلُّها ذكر لله، فأولها: ذكر ثناء، وآخرها: ذكر دعاء. أولها: ثناء من الله على نفسه، وهو يتضمَّن أمر عباده بالثناء عليه، فهو يقول: الحمد لله، وكأنه يقول: قولوا: الحمد لله.

وقد أفادتنا الفاتحة: أن ذكر الثناء يسبق ذكر الدعاء، فكأنه مقدِّمة وتمهيد لسؤال الله عزَّ وجلَّ، فقبل أن تسأل ربَّك أثنِ عليه بما هو أهله.

الفائدة الثانية: الفاتحة في الصلاة:

روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجلَّ: أنه قال: "قسمتُ الصلاة بين وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**. قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال: **{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}**. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي.

وإذا قال: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**. قال: مجَّدني عبدي. – وقال مرة: فوض إلى عبدي – فإذا قال: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}**. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل[9].

الفائدة الثالثة: الفاتحة تذكير للإنسان بأخطر قضايا المصير:

---

[9]– رواه مسلم في الصلاة (395)، وأحمد(7291)، وأبو داود في الصلاة (821) والترمذي في التفسير(2953)، والنسائي في الصلاة (909) وابن ماجه في الأدب (3784) عن أبي هريرة.

إن الفاتحة – على وجازتها – تذكير للإنسان بأعظم قضايا الوجود وأخطرها، وإجابة عن الأسئلة الخالدة للإنسان، الأسئلة الكبرى التي سألها الإنسان منذ بدأ يفكر عن وجوده: من أين؟ وإلى أين؟ ولمَ؟ وبمَ؟ أعني: السؤال عن المبدأ، وعن المعاد، وعن الغاية والرسالة، وعن الواسطة.

فأما المبدأ فجوابه في: {**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**}. فخلْق الإنسان من آثار فيض الربوبيّة والرحمانيّة.

وأما المعاد فجوابه في : {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**}. فلا بدَّ من يوم تُجزى فيه كلُّ نفس بما كسبت، وتخلَّد فيما عملت، من خير أو شرٍّ. وهكذا ترى: أنَّ آفة الحضارة السائدة، والحياة المعاصرة، أنها نسيت الله، ونسيت الآخرة، ونسيت رسالة الإنسان في الحياة، وفي الفاتحة: تذكير لها بما نسيته، وما لا يجوز أن يُنسى.

وأما الغاية والرسالة، فجوابها في : {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**}. وهذه القضايا المصيريّة، المنسية في الحضارة الغربية الحديثة. فإنما خُلق ليقوم بعبادة الله وحده، فرسالته هي التوحيد بقسميه: توحيد الإلهيّة والعبادة: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**}، وتوحيد الربوبيّة أو الخالقيّة {**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**} فالعبادة له وحده، والاستعانة به وحده.

وأجابت الفاتحة عن السؤال الرابع: بمَ؟ وهو سؤال عن الواسطة بين الحقِّ والخلق، أو عن الطريق والمنهج، بقوله تبارك وتعالى: {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} وهو هنا يشير إلى هداية الوحي، أو النبوة، وهي أعلى مراتب الهداية، بعد هداية الحس، وهداية العقل.

الفائدة الرابعة: كلمة (آمين) ليست من الفاتحة:

كلمة (آمين) ليست من الفاتحة بالإجماع، وتعني: اللهمَّ استجب. ويستحبُّ للإمام أن يُمدَّ بها صوته بعد قراءة الفاتحة، ويقولها المأموم، والمنفرد كذلك؛ لقول النبي صلى الله عليه

وسلم: "إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا"[10]، وقوله: "إذا قال الإمام: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}**. فقولوا: آمين؛ فإنه مَن وافق قوله قول الملائكة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه"[11].

وإنَّ من فضل التأمين قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا قال الإمام: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}**. فقولوا: آمين؛ فإذا وافق كلام الملائكة غُفر لمن في المسجد"[12].

وقال البخاري: قال عطاء: (آمين) دعاء، وأمَّن ابن الزبير ومَن وراءه، حتى إن للمسجد لَلَجَّةً. وكان أبو هريرة ينادي الإمام: لا تَفُتْنِي بآمين. أي: لا تسبقني، وقال نافع: كان ابن عمر لا يَدَعُهُ وَيَحُضُّهُمْ عليه[13].

الفائدة الخامسة: الفاتحة تتضمَّن الإشارة إلى منهج الوسطيَّة:

والفاتحة تتضمَّن كذلك الإشارة إلى منهج الوسطيّة، حين تُعلِّم المؤمنين أن يسألوا الله كلَّ يوم الهداية إلى (الصراط المستقيم). فالصراط المستقيم هو الذي يوصِّل إلى الهدف من أقصر طريق، دون ميْل إلى اليمين أو اليسار، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم بتمام الهداية، وكمال الإيمان من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وليس طريق الذين ضلوا عن الحق فلم يعرفوه، أو عرفوه، ولكن اتَّبعوا أهواءهم أو آثروا دنياهم، أو قلَّدوا آباءهم، أو تبعوا سادتهم وكبراءهم، فاستحبُّوا العمى على الهدى، واستحقوا غضب الله عليهم.

الفائدة السادسة: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم:

هذا الدعاء الذي شرعه الله سبحانه للمسلمين عامَّة في سورة الفاتحة، وأمرهم أن يقرؤوه كلَّ يوم خمس مرات في صلاتهم المفروضة يوميا: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}**: يتضمَّن – مع الهداية إلى

[10]– متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (780)، ومسلم في الصلاة (410)، عن أبي هريرة.
[11]– متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (782)، ومسلم في الصلاة (415) ،عن أبي هريرة.
[12]– رواه أحمد(9682).
[13]– صحيح البخاري (156/1).

الصراط المستقيم الموصِّل إلى رضوان الله تعالى، والسعادة الأبديّة بدخول الجنَّة – أنَّ هذا الصراط – صراط المؤمنين الصادقين الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، كما بيَّنهم القرآن – هو مغاير ومخالف بطبيعته لمِن ليسوا على عقيدتهم ولا طريقتهم، ممَّن سمَّاهم القرآن (المغضوب عليهم والضالين).

فإذا كان الأولون الذين أنعم الله عليهم من أهل الجنة، فإنَّ خصومهم ممَّن غضب الله عليهم، فعرفوا الحقَّ ورفضوه عناداً وحسداً واستكباراً، أو ضلُّوا عنه وشردوا عن طريقه عمىً وتقليداً، وانغماس بصيرة.

وهو ما سمَّاه شيخ الإسلام ابن تيمية: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم)، وهو اسم لأحد كتبه الشهيرة المعروفة والمتميِّزة، وإن لم يصرح – فيما قرأتُ له – أنه أخذ هذا من سورة الفاتحة، مع أن الناظر في العنوان بأناة ودقَّة، يتبيَّن له ذلك.

كلام ابن القيم عن أسرار سورة الفاتحة :

وقد أطال الإمام ابن القيم النّفس، وفصَّل وأجاد في بيانه أسرار الفاتحة، وما فيها من فوائد ومنارات، وذلك في كتابه القيم: (مدارج السالكين) وكان مما ذكره فيها:

(اشتملت سورة الفاتحة على شفاءين اثنين: هما **شفاء القلوب وشفاء الأبدان.**

فأما اشتمالها على **شفاء القلوب،** فإنها اشتملت عليه أتمّ اشتمال، فإنَّ مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتَّب عليهما داءان قاتلان، وهما: الضلال، والغضب. فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها.

الشفاء من مرض الضلال:

فهداية الصِّراط المستقيم: تتضمَّن الشفاء من مرض الضلال. ولذلك كان سؤال هذه الهداية (أي: بقوله تعالى: {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** }): أفرض دعاء على كل عبد،

وأوجبه عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة، لشدَّة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه)[14].

14 - مدارج السالكين (76/1).

سورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

**{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ
لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12)
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14)
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا
(17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ
أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
(21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا
شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا
يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا
(29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ
وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا
لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36) رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ
وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ
الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)}**

هذه السورة: تُسمَّى سورة (النبأ), أو سورة (عمَّ), أو سورة (عمَّ يتساءلون). وهي مكيَّة بالإجماع, يدلُّ على ذلك موضوعها وأسلوبها. ومعنى أنها مكية: أنها نزلت في الفترة التي كانت قبل الهجرة إلى المدينة.

{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النبأ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}

تبدأ السورة بطرح هذا السؤال أو الاستفهام: **{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ}**؟ أي عن أيّ شيء يتساءلون؟! والتساؤل تفاعل من السؤال, أي: يسأل بعضهم بعضا عنه, بمعنى أنه أمر شغلهم عن غيره, فبات يسأل بعضهم بعضا عنه.

والميم في **{عَمَّ}** أصلها (ما) الاستفهامية, حُذفت ألفها تخفيفا, كما تحذف بعد حروف الجرِّ, مثل (لِمَ) (فيمَ) و(إلامَ) وفي بعض القراءات إثباتها (عما).

وضمير الجمع في **{يَتَسَاءَلُونَ}** يعود إلى المشركين في مكة, وإن لم يكن لهم ذكر فيما سبق, ولكنهم حاضرون وإن غابوا, فالمعركة معهم مستمرَّة, منذ أعلن محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله إليهم خاصَّة، وإلى الناس كافَّة.

وبعض المفسِّرين يقولون: إن الضمير في **{يَتَسَاءَلُونَ}** للمشركين وللمسلمين[15].

وأُرجِّح أنه للمشركين وحدهم؛ لأن المسلمين لم يشاركوا في هذا التساؤل, كما أنهم لا ينطبق عليهم الوعيد الذي ذكره الله في شأن المتسائلين: **{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}** [النبأ:4، 5].

{عَنِ النبأ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}

والنبأ كما يقول أهل اللغة: الخبر الذي له شأن. فإذا وصف بأنه (عظيم) بالتنكير, فقد أصبح ذا خطر, فكيف إذا عُرِّف بـ(ال) وأنه **{النبأ الْعَظِيمِ}**؟!

أيُّ نبأ هذا، الذي بات الشغل الشاغل للقوم، يتساءلون عنه: أصدق هو أم كذب؟ حقٌّ أم باطل؟ يقين أم ظنٌّ لا يغني من الحقِّ شيئا؟

15- انظر: للكشاف للزمخشري (684/4).

اتَّفق كثير من المفسِّرين على أنه: (البعث بعد الموت)، الذي أنكره أهل مكة, ومعهم سائر العرب. {**وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا**} [الإسراء:49], {**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**} [يس:78].

ودلَّ على صحَّة هذا القول: أنه سبحانه وتعالى بدأ يردُّ بعدها عليهم ببيان مظاهر القدرة، التي تظهر مقدرته على إعادة الخلق, فهو أهون من بدئه؛ وذلك في قوله تعالى: {**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ...**} [النبأ:6– 8], إلى آخر الآيات في السياق.

وهناك من مالَ إلى أن {**النبأ الْعَظِيمِ**}: هو (التوحيد) الذي نقض أساس دينهم الأول، وهو الشرك, أو الوثنية التي ورثوها عن آبائهم, حتى قالوا: {**أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**} [ص:5].

وذهب بعض المفسِّرين إلى أن {**النبأ الْعَظِيمِ**} هو: القرآن الكريم، أو أنه نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم، وما نزل عليه من وحي[16].

النبأ العظيم هو الوحي الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم:

والذي يترجَّح لي هنا، من خلال تدبُّري للقرآن, وربط بعضه ببعض: أن {**النبأ الْعَظِيمِ**} الذي يتساءلون عنه، هو الوحي الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم, ومنه القرآن الكريم، فهو أعظم ما أوحى ربُّه إليه، كما قال تعالى: {**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ**

16- انظر: تفسير الرازي (7/31).

أَمْرِنَـا} [الشورى:52]، **{بِمَـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ}** [يوسف:3]، وفيه أعلن عقيدة التوحيد ونبذ الشرك, كما أعلن عقيدة البعث، ومن ورائه الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

وقد قال الله في سورة (ص): **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ}** [ص:65–68].

فهذا النبأ العظيم هو الوحي الذي أرسله الله به بشيرا ونذيرا, وبه دعا إلى التوحيد وإلى البعث, كما قال تعالى: **{بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}** [ق:2، 3]، وهو الذي حكاه القرآن عنهم حين قال: **{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا}** [يونس:2]، وهو الذي عجب منه أقوام الرسل من قبل، من عهد نوح، الذي عجب قومه من رسالته لهم, فردَّ عليهم بما ذكره القرآن: **{أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** [الأعراف:63]، وكذلك كان قوم هود من بعده، الذين ردَّدوا ما قاله قوم نوح, فقال لهم: **{أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ}** [الأعراف:69].

اختلاف المشركين وحيرتهم وتناقضهم في شأن الوحي :

وهذا هو النبأ العظيم الذي اختلفوا فيه, وفي حقيقة من جاء به, فقالوا: كاهن. وقالوا: شاعر. وقالوا: ساحر. وقالوا: مجنون. وقالوا عن القرآن: **{أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [الفرقان:5]، وقالوا: **{إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}** [النحل:103].

ويصف القرآن حيرتهم وتردُّدهم في حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء به من وحي: **{بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ}**

[الأنبياء: 5]، وفي مقام آخر قال تعالى مبيِّناً تناقض مواقفهم, وعدم ثباتهم على أمر موحد, فقال سبحانه: **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** [سبأ: 43].

فهكذا نرى شدَّة اختلافهم في شأن الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإرساله من الله تعالى إليهم، على حين نراهم متَّفقين على موقفهم من البعث, فهو موقف الإنكار والاستبعاد: **{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}** [الأنعام: 29], **{وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا}** [الإسراء: 49], **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ}** [سبأ: 7– 8]. فمن بواعث عجبهم واستغرابهم من بعثته: ما جاءهم من أمر بعث الموتى من قبورهم، بعد أن رمَّت أجسادهم وتفتَّت, ومُزِّقت كل ممزَّق!

وقد رأيتُ بعض المفسِّرين قد اختار أن **{النبأ الْعَظِيمِ}** هو: القرآن، أو نبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام, ومنهم مَن رجَّح أنه البعث بعد الموت على المشهور, وهو ما لم نرتضِهِ رأيا.

وقد ألَّف شيخنا العلاَّمة الدكتور محمد عبد الله دراز كتابه عن القرآن سمَّاه: **(النبأ العظيم)**، مما يشير إلى أنه اختار ما اخترناه هنا.

{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}

{كَـلَّا}: حرف ردع وزجر, ولهذا اختصَّ بـه القرآن المكِّي, ولـم تعرف فـي النصف الأول من القرآن.//////////

وفي سورة العلق: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى}** [العلق:6–7], **{كَلَّا لَئِنْ لَـمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ}** [العلق:15].

والفعل المضـارع المتعدِّي فـي **{سَـيَعْلَمُونَ}**، نـزل منزلـة الـلازم, كمـا فـي قولـه تعـالى: **{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُـونَ}** [الزمر:9]، إذ لا يقصد معلوما معيَّنا, فكأنـه يقول: سينكشف عنهم الغطاء, وتتجلَّى لهم الحقائق, ويعرفون الأمور كما هي.

وعبَّر بالسين لا بـ(سوف)؛ لأن (السين) للمستقبل القريب, و(سـوف) للمستقبل البعيد, وكأنـه يقول: إن حقيقـة هذا **{النبـأ الْعَظِـيمِ}** ستتجلَّى لكم عن قريب, وتعرفون أن محمدا صلى الله عليـه وسلم هو رسول الله حقًّا, وأنَّ القرآن منـزَّل عليـه من الله تعـالى, وسيؤيِّده بنصـره، ويُعلـي كلمتـه، كمـا قـال سبحانه: **{وَقُـلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ سَـيُرِيكُمْ آَيَاتِـهِ فَتَعْرِفُونَهَـا}** [النمل:93]، **{سَـنُرِيهِمْ آَيَاتِنَـا فِـي الْآَفَـاقِ وَفِـي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّـى يَتَبَـيَّنَ لَهُـمْ أَنَّـهُ الْحَـقُّ}** [فصلت:53].

وكرَّر الجملة لتكرير الوعيد, على غرار ما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى: **{أَوْلَـى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَـى لَكَ فَأَوْلَى}** [القيامة:34، 35], وقولـه: **{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُـونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}** [التكاثر:3، 4].

وإذا لم يظهر لكم هذا في الدنيا، فسيظهر في الآخرة، وما أقربها! **{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}** [النحل:77].

دلائل نعمته, وآيات رحمته

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}

في هذا المقطع الثاني من السورة، الذي تضمَّن إحدى عشرة آية, وفيها يُعدِّد الله آياته، وبديع صنعه في الكون, الذي أحسن فيه كلَّ شيء خلقه, وسخر كلَّ ما في سماواته وأرضه لمصلحة الإنسان.

فهذه الأشياء التي ذكرها الله جلَّ شأنه في هذه الآيات, ينظر إليها المفسِّرون الذين فسَّروا {**النبأ الْعَظِيمِ**} بأنه (البعث): على أنها دلائل واضحة على عظيم قدرة الله تعالى على أنه يحيي الموتى, وأنه يحيي العظام وهي رميم, فلا يعجز من جعل {**الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ...**} إلخ, أن يعيد الأموات كما خلقهم أول مرَّة.

كما ينظر إليها الآخرون الذين فسَّروا {**النبأ الْعَظِيمِ**} بأنه الوحي المنزَّل, أي: القرآن، ونبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام, بأنها دلائل نعمته, وآيات رحمته, فلا يُستغرب ممَّن خلق هذه الأجرام العظام, ووضعها في مواضعها على مقتضى الحكمة, لتؤدِّي مهمَّتها في إمداد الإنسان بكلِّ ما يحتاج إليه: ألا يَدَع الناس هملا, ولا يتركهم سدى. بل إن حكمته البالغة, ونعمته السابغة, ورحمته الواسعة, كلُّها تقتضي أن يرسل إلى الناس رسولا منهم {**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**} [الجمعة:2]، ويعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون, وهو ما نميل إليه.

ولننظر بإجمال في معاني هذه الآيات:

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا}

أي: فراشا يُعدُّ لراحتكم, كما يُعدُّ مهد الصبي لينام عليه ويستريح, كما قال تعالى: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}** [طه:53].

وقد عبَّر عن هذا المعنى بعبارات شتَّى, فقال: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}** [البقرة:22], وفي سياق آخر على لسان نوح عليه السلام: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}** [نوح:19، 20], فهي مهاد وفراش وبساط, وهذا لا يتنافى مع كونها مكوَّرة, لأنها لكِبَرها وسَعتها لا يظهر فيها هذا التكوير, وهذا التكوير هو مقتضى الحكمة, وإلا لو كانت بكيفية مربعة أو مستطيلة لكان سكانها يواجهون خطر السقوط الهائل عند حوافها!

والاستفهام الداخل على (لَمْ) يفيد الإنكار التقريري, كأنه يقول: قد جعلنا الأرض مهادا.

{وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}

أي: وقد جعلنا الجبال أوتادا للأرض, يُرسيها الله بها حتى لا تميد أو تضطرب, كما قال تعالى: **{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}** [لقمان:10], أي تثبِّت الأرض حتى لا تميد وتضطرب, كما تُثبِّت الأوتاد الخيام التي يبنيها العرب في الصحاري والسهول.

{وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}

أي: منقسمين إلى ذكر وأنثى, ليسكن كلٌّ من الصنفين إلى الآخر, ويكتمل به ويكمِّله, كما قال تعالى: **{بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}** [آل عمران:195], وينتظم أمر المعاشرة والمعايش, وينشأ التناسل, ويستمرُّ النوع الإنساني كما أراد الله, ويتكامل أمر الإنسان مع أمر الكون, الذي أقامه الله على قاعدة الزوجية, التي تتمثَّل في الشيء ومقابله, من ذكورة وأنوثة, وموجب وسالب, حتى الذرَّة، قاعدة البناء الكوني كلِّه تقوم على الازدواج, كما قال تعالى: **{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}**

[يس:36], وقال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات:49], هكذا بإطلاق وتعميم {مِنْ كُلِّ شَيءٍ}.

{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}

خلق الله الإنسان والحيوان بحيث يحتاج إلى النوم, وجعل هذا النوم سباتا, أي قاطعا للإنسان عن العمل المرتبط بحال اليقظة، فيأخذ جسمه حقَّه من الراحة, وعبَّر بـ(السبات) عن الموت, لما بينهما من التشابه التام في انقطاع الحياة, ولهذا قيل: النوم هو الموتة الصغرى, والموت هو النومة الكبرى! والنوم موت خفيف, والموت نوم ثقيل! وفي هذا جاء قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام:60], وقوله: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر: 42], ومن وصايا لقمان: يا بني كما تنام فتُوقظ, كذلك تموت فتُنشر[17]!

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا}

وهذه نعمة أخرى يمتنُّ الله بها على عباده, فلكي يتمَّ النوم براحة وهدوء, هيَّأ الله الليل, وهو نظام حركة الأرض مع الشمس, ليكون الظرف المناسب للنوم المريح, فجعله بمثابة اللباس الذي يستر الإنسان, كاللحاف ونحوه, فجعل الليل كاللباس يستر الناس بظلامه, كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} [يونس:67], {قُلْ

17- انظر: الكشاف للزمخشري (284/3).

أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ} [القصص:72].

{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}

أي: صالحاً للحركة والسعي لطلب المعاش وابتغاء الرزق, والمشي في مناكب الأرض, وفي سياق آخر قال: **{وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا}** [الفرقان:47], والنشور: الحياة بعد الموت. كأنما يقوم فيه الناس من موتهم، حين استيقظوا من نومهم.

وهذا هو النظام الفطري لحياة الإنسان, الموافق للنظام الكوني, ولكن في كثير من الأحيان يتمرَّد الناس على نظام الفطرة, ونظام الطبيعة, فيسهرون طويلا, ولا ينامون إلا متأخِّرين, وبالتالي لا يستيقظون إلا متأخِّرين, وبذلك ضاعت منهم بركة البكور، الذي دعا الرسول لأصحابه بالبركة فيه: "اللهم بارك لأمتي في بكورها"[18].

{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}

بعد أن تحدَّث عن الأرض وما فيها ومَن فيها, انتقل إلى العالم العلوي, عالم السماوات, فقال: **{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}**، يشير إلى السماوات السبع, فقد بناها الله وأحكم بناءها, ورفعها بغير عمد نراها, كما قال عزَّ وجلَّ: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}** [الذاريات:47], **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}** [ق: 6], فهي بناء قوي مُحكم الخلق، لا يؤثِّر فيه كرُّ الدهور, ومرُّ العصور.

وقد أكَّد القرآن في كثير من آياته: أن السماوات سبع, كما قال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا}** [الملك:3]، وقال: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}** [الطلاق:12], ولكنه لم يبيِّن المثلية في أيِّ شيء, هل هي في العدد؟ هل هي في التكوين؟ هل هي في الأهمية والتأثير؟ الله أعلم.

18- رواه أحمد (15443) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في الجهاد (2606)، والترمذي في البيوع (1212) وقال: حسن، وابن ماجه في التجارات (2236) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (2345) عن صخر الغامدي.

السماوات السبع:

تكرَّر في القرآن الكريم ذكر (السماوات السبع) بصيغ مختلفة، فذكرها في هذه السورة: **{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}**، وفي سورة تبارك: **{سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** [الملك:3]، وكذلك في سورة نوح على لسانه لقومه: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** [نوح:15]، وفي سورة المؤمنين سمَّاها طرائق: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}** [المؤمنون:17].

وقد اختلف المفسِّرون، وخصوصا المعاصرين منهم، في تحديد مدلول السماوات. وذهب بعضهم مثل الإمام محمد عبده في تفسير (جزء عم) أن (السبع الشداد) هي: (الطرائق السبع، وهي ما فيه الكواكب السبعة السيارة المشهورة، وخصَّها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها، وإلا فقد بُني على ما هو أعظم منها، وهو ما وراءها من عوالم السموات، ووصفها بالشدَّة لأنها مُحكمة متينة، لا يؤثِّر فيها مرور الزمان)[19].

وكذلك فسَّرها بالسيَّارات السبع: الشيخ عبد القادر المغربي في تفسيره لجزء تبارك، في تفسير قول الله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** [الملك:3][20].

وكذلك العلاَّمة الطاهر بن عاشور، الذي قال: (يجوز أن يراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر

وهذا المحمل هو الأظهر؛ لأن العبرة بها أظهر، لأن المخاطبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيارات ويعهدونها دون غيرها من السيارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد)[21].

والحقيقة: أن هذه ليست تسمية لغوية، ولا اصطلاحية لأهل الفلك، وكلمة (السماوات) لغة وعُرفا أوسع وأشمل من (السيارات السبع). كما أن عامة الناس لا يعرفون من هذه

19- تفسير جزء عم للإمام محمد عبده صـ8، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت.
20- تفسير جزء تبارك: عبد القادر المغربي ص5.
21- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (22/15، 23).

السيارات السبع إلا الشمس والقمر، والأخريات لا يعرفها إلا أهل العلم بها، وكلُّ ما نراه من النجوم إنما يظهر في مواقعه من السماء الدنيا.

أما حقيقة السماوات السبع وما يجري فيها، وما فوقها من الكرسي الذي قال الله فيه: **{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}** [البقرة:255]، ومن العرش الذي هو أعظم المخلوقات عامة، ولذا قال تعالى: **{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}** [المؤمنون:86، 87].

{وجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}

وفي هذا العالم العلوي, عالم السبع الشداد, **{وجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}**, السراج هو المصباح, والوهَّاج هو الوقَّاد المتلألئ, من وهجتْ النارُ إذا أضاءت, أو البالغ في الحرارة من الوهج, والعلميون يقدِّرون حرارة الشمس الداخلية بـ (16) مليون درجة مئوية.

وللشمس تأثيرها في حياة الإنسان, فهي التي تمدُّه بالضوء والحرارة, ولولاها ما بقي إنسان ولا حيوان ولا نبات, كما قال تعالى في سورة أخرى: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا}** [يونس:5]، فغاير بين ضياء الشمس ونور القمر, فإن نوره انعكاس من ضوء الشمس, ولا حرارة فيه مثل ضوء الشمس، وقد قال نوح لقومه: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** [نوح:15، 16].

{وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا}

المعصرات: السُّحب إذا عُصرت, أي شارفت أن تعصرها الرياح فتُمطر, كما في قولهم: أحصد الزرع إذا حان له أن يحصد, **{مَاءً ثَجَّاجًا}**، أي منصبًّا بكثرة, يقال: ثجَّ الماء إذا نزل بكثرة, والماء نعمة كبيرة يمتنُّ الله بها على الإنسان دائما, كما قال تعالى:

{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء:30], **{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}** [إبراهيم:32].

{لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا}

لنُظهر ونُبرز بالماء النازل من السماء حبًّا يُقتات به, كالقمح والشعير والذرة والأرز. **ونباتاً وهو ما ينبت من شجر وغيره . وهو من عطف العام على الخاص.**

{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}

الجنَّات جمع جنَّة, وهي الحديقة ذات الشجر التي تجنُّ مَن فيها وتسترهم بكثرة أشجارها, **{أَلْفَافًا}**جمع لفيف، كشريف وأشراف ، أي: ذات نخل وشجر متكاتف مظلَّل بالنبات والأغصان.

وبيَّن الغاية من إنزال الماء الثجَّاج، بأنها متاع للإنسان، وحياة ما يحتاجه من الأنعام والنبات, كما قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** [النحل:10، 11], وفي سورة أخرى: **{وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}** [يس:33–35].

من مشاهد يوم القيامة

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) }

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا}

يوم الفصل:اسم من أسماء يوم القيامة، مثل يوم الدين، ويوم الحساب، ويوم البعث، ويوم الحشر، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد.

وسُمِّي يوم الفصل؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين أصحاب العقائد المختلفة، كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** [الحج:17]، وفي سورة المرسلات: **{وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}** [11–15].

{كَانَ مِيقَاتًا}، أي: إن يومَ فصلِ الله تعالى بين الخلائق بالحساب والجزاء، كان في علمه وتقديره ميقاتا وميعادا، أي: وقتا مُحدَّدا مؤقَّتا لبعث الأولين والآخرين، وما يترتَّب عليه من السؤال والحساب، والوزن وقراءة الكتاب، والجزاء ثوابا وعقابا. فيخبر الله تعالى أنه مؤقَّت بأجل معدود، لا يُزاد عليه ولا يُنقَص منه، ولا يعلم وقته علم اليقين إلا الله، كما قال تعالى: **{وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ}** [هود:104].

{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا}

بدلٌ من **{يَوْمَ الْفَصْلِ}**، وعطف بيان له، يوم يُنفخ الملك إسرافيل الذي كلَّفه الله بالصور والنفخ فيه. وهذه هي النفخة الثانية، فالأولى نفخة الصعق، والثانية نفخة البعث، **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}** [الزمر:68]. فهذه هي النفخة الأخرى.

ما حقيقة هذا البوق، وما كيفيته، وكيف يؤدي عملـه؟ الله هو الذي أعدَّه، وهو الذي يعلم حقيقته، وما علينا إلا أن نؤمن به، ما دام قد نطق به القرآن.

بعد النفخ في الصور يُبعث الناس من قبورهم، ويأتون إلى المحشر أفواجا، أي: أُمما وشعوبا، كلٌّ أمة مع إمامها، كما قال تعالى: **{يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}** [الإسراء:71]، أو زُمَرا وجماعات، كل أصحاب ديانة بعضهم مع بعض، وكل أتباع كذاب بعضهم مع بعض، وكل عُبَّاد صنم بعضهم مع بعض، لا بدَّ أن هناك رابطا يربطهم بعضهم ببعض.

{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا}

أي: كثرت أبوابها المفتّحة لنزول الملائكة نزولا غير معتاد، حتى صارت كأنها ليست إلا أبوابا مفتَّحة، كقوله تعالى في الطوفان: **{وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا}** [القمر:12]، كأن كلَّها عيون متفجِّرة. وهو المراد بقوله تعالى: **{وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا}** [الفرقان:25].

وقيل: الأبواب: الطرق والمسالك لنزول الملائكة. أي: بتغيير نظام الكون، كما عرفه الناس، فتفتح السماء، فينفتح مكانها، وتصير طرقاً لا يسدُّها شيء. ومعنى هذا وقوع الاضطراب في الكون كلِّه، وبذلك يخرب الكون العلوي، كما يخرب الكون السفلي.

{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}

أي: حُرِّكت وأُجْريت في الجَوِّ على هيئاتها، بعد قلعها من مَقَارِّها، كما يعرب عنه قوله تعالى: **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}** [النمل:88]، أي: نراها رأي العين ساكنة في أماكنها، والحال أنها تمرُّ مَرَّ السَّحاب، الذي تُسيِّره الرياح سيْراً حثيثا، وذلك أن الأجرام العظام إذا تحرَّكت نحوا من الأنحاء، لا تكاد تتبيَّن حركتها، وإن كانت في غاية السرعة لا سيما من بعيد.

(وقد أدمج في هذا التَّشبيه – كما قال أبو السعود – تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها، كما ينطق به قوله تعالى: **{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}** [القارعة:5].

يبدِّل الله تعالى الأرض ويغيِّر هيأتها، ويسيِّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة، عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها، ثم يفرقها في الهواء، وذلك قوله تعالى: **{فَكَانَتْ سَرَابًا}**)[22].

يُخَيَّل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، بعد هذا تذهب بالكليَّة، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا}** [طه:105–107]، وقال: **{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً}** [الْكَهْفِ:47]. ومعناها: أن الجبال – وهي الأجرام العظيمة التي يرى الناس ضخامتها – حين يُسَيِّرها الله، تصير مثل السَّراب، كقوله تعالى: **{وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}** [الْوَاقِعَة:5، 6]. أي: غبارًا منتشرًا، وهي وإن اندكَّت وانصدعت عند النفخة الأولى، لكن تسييرها وتسوية الأرض، إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما تدلُّ على ذلك آيات سورة طه السابقة، وبعدها قال: **{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ}** [طه:198]، وقوله تعالى: **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [إبراهيم:48]، فإن اتِّباع الداعي، وبروز الخلق لله تعالى، لا يكون إلا بعد النفخة الثانية.

22- تفسير أبي السعود (90/9)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

جهنم معدَّة للطاغين المكذِّبين

{ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) }

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا}

أي: مرصدة ومعدَّة، والمرصاد: اسم للمكان الذي يُرصد فيه، أي: يُراقب فيه ويحدث فيه الاطلاع على مَن يريدون. كالمضمار، الذي هو اسم للمكان الذي تضمَّر فيه الخيل. أي: إنَّ جهنم كانت في حكم الله وقضائه موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار، ليعذِّبوهم فيها.

أتى الحسن على هذه الآية {**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا**} فقال: ألا على الباب رَصَد، فمَن جاء بجواز جاز، ومَن لم يجئ بجواز حُبس[23].

وعن قتادة: يُعلمنا أنه لا سبيل إلى الجنَّة حتى يقطع النار[24].

{لِلطَّاغِينَ مَآبًا}

يذكر الله تعالى هنا: أن جهنم مآب، أي: مرجع للطاغين. جمع طاغٍ، والطاغي: هو الذي يتجاوز الحدَّ في ظلمه وفسقه وانحرافه. كما قال تعالى: {**كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**} [الْعَلَقِ:6، 7]، وقال تعالى: {**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى**} [النازعات:37–39]، وقال الله تعالى لموسى: {**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**} [طه:24]، فبيَّن أن طغيانه وتجبُّره على خلق الله، جعله أحوج ما يكون إلى الرسالة.

23- رواه الطبري في تفسيره (20/24)، البيهقي في الشعب باب الخوف من الله (874).
24- رواه الطبري في تفسير (21/24).

وذمَّ الله الأمم المستكبرة على الله تعالى، وعلى عباده من عاد وثمود وفرعون وأمثالهم، بقوله: {**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**} [الفجر:11–13]. فلا غرو أن يُعدَّ الله جهنم لأهل الطغيان، الذي يقترن عادة بالفساد، ليحمي الحياة والأمم، فبقاء هؤلاء المتجبِّرين في الأرض يفسدونها، ويعطِّلون عمارتها، التي أمر الله بها، حين قال على لسان صالح: {**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**} [هود:61].

{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}

ماكثين في جهنم دهورا ومُدَدًا متطاولة متتابعة، كلَّما مضى حُقْب شيَّعه حُقْب آخر. و{**أَحْقَابًا**} جمع حُقْب أو حُقُب، بضم الحاء، وبضم القاف وسكونها. وقد اختُلف فيه اختلافا كثيرا، من ثمانين سنة إلى عشرات آلاف السنين، وكلُّها لم تأت عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

هل تنتهي عقوبة أهل النار في جهنم ؟

وهذه إحدى الآيات، أو ثالث الآيات القرآنية، التي دلَّت على أن لله تعالى فضلا ورحمة ونعمة بأهل النار، بحيث يمكن أن تنتهي فيها عقوبتهم، وينهي الله عذابهم في جهنم، بعد ما يشاء الله من ألوف السنين أو ملايينها.

وهناك ثلاث آيات في القرآن الكريم، رصدها أهل التأويل، دالَّة على ذلك، كلُّها في القرآن المكي.

أولها: قوله تعالى في سورة الأنعام: {**قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**} [الأنعام:128].

ثانيها: ما جاء في سورة هود: {**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا**

الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود:106–108].

فقد ذكر الله في شأن الذين شَقُوا وأُدخلوا النار: أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض، إلا ما شاء ربك. فكان هذا الاستثناء مبيّنا أن أمر الخلود الأبدي مُعلَّق بالمشيئة الإلهية، وأكَّد هذا بقوله تعالى: {**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**}، هو خالق الخلق، ومالك الملك، وصاحب الإرادة المطلقة، فإذا أراد شيئا لم يمنعه مانع، ولم يقف في وجهه شيء، وخصوصا إذا كان هذا الأمر مما تقتضيه رحمته التي سبقت غضبه، والتي وسعت كلَّ شيء، والتي بها سُمِّي أرحم الراحمين.

ولذا قال هنا في أمر نعيم أهل الجنة، ما يدلُّ على بقاء نعيمهم، وأنه لا يزول أبدا، فبعد أن قال: {**إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**} أعقبها بقوله تعالى: {**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**}، أي: غير مقطوع.

والآية الثالثة في هذا السياق: هي هذه الآية التي معنا في سورة النبأ: {**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**}.

هذه الآيات الثلاث في كتاب الله تبعث الأمل في رحمة الرحمن الرحيم، خير الراحمين، وأرحم الراحمين، الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها: أن يريح عباده الكافرين بعد أن عذَّبهم ما عذَّبهم من ألوف السنين أو ملايينها، أن يجري عليهم الفناء، ويبقي أهل الإيمان وحدهم في الجنة، فهذا هو اللائق برحمانيته ورأفته بعباده، وله وحده ما يريد، وإذا أراد شيئا قال له: كن. فيكون.

وهذا مذهب الإمامين الكبيرين: شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن القيم، الذي دوَّنه في كتابين معروفين له، أولهما: (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)، والثاني: (شفاء

العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل). وزبدة ما ذكره في كتابيه يتلخص فيما يلي:

أولاً: ذكر في أبدية النار أو فنائها سبعة أقوال:

أفاض القول في سابعها وهو: أنَّ للنار أمدًا تنتهي إليه، ثم يفنيها ربُّها وخالقها تبارك وتعالى. وقد أيَّد هذا القول بوجوه عديدة منها:

1. **أن الله تعالى أخبر في ثلاث آيات عن النار بما يدلُّ على عدم أبديَّتها:**

آية سورة النبأ: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [الآية:23]. فتقييد لبثهم فيها بالأحقاب يدلُّ على مدَّة مقدَّرة يحصرها العدد؛ لأن ما لا نهاية له لا يقال فيه: هو باقٍ أحقابًا، وقد فَهِم ذلك من الآية الصحابةُ، وهم أفهم الأمة لمعاني القرآن.

آية سورة الأنعام: {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:128].

آية سورة هود: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [الآية:107]. وقال بعدها في الجنة وأهلها: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}** [الآية:108]. ولولا الأدلَّة القطعية الدالَّة على أبديَّة الجنة ودوامها، لكان حكم الاستثناءين في الموضعين واحدًا. كيف، وفي الآيتين من السياق ما يفرِّق بين الاستثناءين؟ فإنه قال تعالى في أهل النار: **{إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}**، فعلمنا أنه تعالى يريد أن يفعل فعلاً لم يخبرنا به، وقال في أهل الجنة: **{عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}**، فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبدًا. وسنذكر ما قاله الصحابة في الاستثناء.

2. **هذا القول منقول عن عدد من الصحابة والتابعين وجلة الأئمة:**

فمن الصحابة: عمر رضي الله عنه قال: لو لبث أهل النار في النار عدد رمل (عالج) لكان لهم يوم يخرجون فيه[25].

وابن مسعود رضي الله عنه قال: ليأتينَّ على جهنَّم زمان تخفق أبوابها، ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا[26].

وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه روي عنه نحوه[27].

وأبو هريرة قال: أما الذي أقول: إنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد. وقرأ: **{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا...}** الآيتين [هود:106–108] [28].

وأبو سعيد الخدري قال في آية: **{إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}** [هود:107]: أتت على كلِّ آية في القرآن، أي آية وعيد[29].

وابن عباس في رواية عنه قال في الآية: **{إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}** [هود:107]: استثنى الله قال: أمر الله النار أن تأكلهم[30].

3. أخبر الله تعالى أنَّ رحمته وسعت كلَّ شيء:

وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه كتب على نفسه الرحمة، فلا بدَّ أن تَسَع رحمته هؤلاء المعذِّبين، فلو بقوا في العذاب إلى غير غاية لم تَسَعهم رحمته، وهذا ظاهر جدًّا، والثابت

25- ذكره ابن القيم في حادي الأرواح صـ 354، وعزاه لعبد بن حميد في تفسيره،وقال عقبه: وحسبك بهذا الإسناد جلالة، والحسن وإن لم يسمع من عمر فإنما رواه عن بعض التابعين ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (422/11) بعد أن ذكره : وهو منقطع ولفظه لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه. وعن ابن مسعود ليأتين عليها زمان ليس فيها أحد قال عبيد الله بن معاذ راويه كان أصحابنا يقولون يعني به الموحدين قلت وهذا الأثر عن عمر لو ثبت حمل على الموحدين وقد مال بعض المتأخرين إلى هذا القول السابع ونصره بعدة أوجه من جهة النظر وهو مذهب رديء مردود على قائله وقد أطنب السبكي الكبير في بيان وهائه فأجاد.

26- رواه ابن جرير في تفسيره (582/12)، : حدثت عن المسيب عن من ذكره عن ابن عباس (فذكر أثرا له) قال : وقال ابن مسعود . . . فذكره.

27- رواه البزار (2478)، والفسوي في تاريخه (103/2)، قال أبو داود – الطيالسي، أحد رواه الحديث-: وحدثنا علي بن سلمة عن ثابت قال: سألت الحسن عن هذا الحديث فأنكره.

28- عزاه السيوطي في الدر المنثور (478/4) لإسحاق بن راهويه.

29- ذكره ابن القيم في شفاء العليل صـ257.

30- رواه الطبري في تفسيره (582/12).

أن رحمته لا بدَّ أن تنتهي حيث ينتهي العلم كما قالت الملائكة: **{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا}** [غافر:7].

وقد تسمَّى الله بالغفور الرحيم، ولم يَتَسَمَّ بالمعذِّب ولا بالمعاقب، بل جعل العذاب والعقاب في أفعاله: **{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}** [الحجر:49، 50]، وغيرها من الآيات، فإنه يتمدَّح بالعفو والمغفرة والرحمة والحلم ... إلخ، ويتسمَّى بها، ولم يتمدَّح بأنه المعاقب ولا الغضبان ولا المنتقم، إلا في الحديث الذي فيه تعديد الأسماء الحسنى، ولم يثبت[31].

4. أهل السنة على أنه يجوز تخلُّف الوعيد:

بل إخلافه كرم وعفو وتجاوز يُمدح الربُّ تعالى به، ويُثنى عليه به، لأنه حقُّه، والكريم لا يستوفي حقَّه، فكيف بأكرم الأكرمين؟ واستشهد ابن القيم لذلك بآثار وأشعار.

هذا في وعيد مطلق، فكيف بوعيد مقرون باستثناءٍ معقَّب بقوله: **{إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}** [هود:107]؟ ولهذا قالوا: أتت على كلِّ وعيد في القرآن.

ثانيًا: فنَّد ابن القيم الأدلة التي استند إليها القائلون بدوام النار:

وأهمُّها:

1. الآيات التي دلَّت على خلود الكفار وتأبيدهم في النار، وقد قال: إنَّ ذكر الخلود والتأبيد لا يقتضي عدم النهاية، والخلود هو المكث الطويل، كقولهم: قيد مخلَّد. والتأبيد

31- إشارة إلى الحديث: " إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ..." رواه الترمذي في الدعوات (3507) وقال: غريب، ... ولا نعلم في شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذه الطريق، وقد روي بإسناد آخر عن أبي هريرة، فيه ذكر الأسماء وليس له إسناد صحيح. وابن حبان في الرقائق (808) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات صفوان بن صالح والوليد بن مسلم: كلاهما صرح بالتحديث إلا انه أعل بالاضطراب واحتمال ان يكون التعيين مدرجا من بعض الرواة، وبالوقف، والحاكم في الإيمان (16/1) وقال: لم يخرجا الأسامي لتفرد الوليد بها، وليس ذا بعلة، فالوليد أوثق وأحفظ من أبي اليمان وعلي بن عياش، وقال الحافظ في فتح الباري (215/11) : وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب وتدليسه واحتمال الإدراج. وقال ابن كثير في تفسيره (515/3): والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه.

في كلِّ شيء بحسبه، فقد يكون لمدَّة الحياة، ولمدَّة الدنيا. وقد ورد النصُّ بالخلود على بعض الكبائر من الموحِّدين، وقيِّد في بعضها بالتأبيد، كما في قاتل المؤمن عمدًا: **{فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا}** [النساء:93]، وكما في قاتل نفسه: "فحديدته في يده، يتوجَّأ بها في نار جهنم، خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا"[32].

2. الآيات التي دلَّت على عدم خروجهم منها: **{وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}** [البقرة:167]، **{وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ}** [الحجر: 48]، **{لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا}** [فاطر:36]، إلى آخر تلك الآيات قال: فطائفة قالت: إنّ إطلاقها مقيَّد بآيات التقييد بالاستثناء بالمشيئة، فيكون من باب تخصيص العموم، وكأن هذا قول مَن قال من السلف في آية هود: أتت على كلِّ وعيد في القرآن.

والذي صحَّحه ابن القيم: أن هذه الآيات على عمومها وإطلاقها، فهم باقون فيها لا يخرجون منها ما دامت باقية، ولكن ليس فيها ما يدلُّ على أن نفس النار دائمة بدوام الله لا انتهاء لها، وفرق بين أن يكون عذاب أهلها دائمًا بدوامها، وبين أن تكون هي أبدية لا انقطاع لها، فلا تستحيل ولا تضمحل.

3. الإجماع، قال ابن القيم: وإنما يظنُّ الإجماع في المسألة مَن لم يعرف النزاع، وقد عُرف النزاع فيها قديمًا وحديثًا، كيف وقد نقل عن الصحابة والتابعين التصريح بخلاف ما يدَّعون[33]؟

ثالثًا: بعد هذا كله مال ابن القيم إلى التفويض في المسألة إلى مشيئة الله:

فلا جزْمَ بفناء النار، كما لا جزْمَ بدوامها. قال في شفاء العليل: (وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين علي؛ فإنه ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ووصف ذلك أحسن صفة ثم قال: ويفعل الله بعد ذلك في خلقه ما يشاء.

32- متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (5778)، ومسلم في الإيمان (109) ، عن أبي هريرة.
33- حادي الأروح صـ361، ط. مطبعة المدني، القاهرة.

وعلى مذهب ابن عباس حيث يقول: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا. ذكره في تفسير قوله تعالى: **{قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}** [الأنعام:128][34].

وعلى مذهب أبي سعيد الخدري حيث يقول: انتهى القرآن كلُّه إلى هذه الآية: **{إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}** [هو:107] [35].

وعلى مذهب قتادة حيث يقول: **{إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}** [هود:107]: الله أعلم بِثُنْيَاهُ: علام وقعت[36]؟

وعلى مذهب ابن زيد حيث يقول: أخبرنا الله بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: **{عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}** [هود:108]، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار[37].

والقول بأن النار وعذابها دائمان بدوام الله: خبر عن الله بما يفعله، فإن لم يكن مطابقًا لخبره عن نفسه بذلك، كان قولاً عليه بغير علم، والنصوص لا تفهم ذلك)[38] انتهى.

{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}

أي لا يجد هؤلاء الطاغون في جهنم التي أرصدها الله لهم: بردا لقلوبهم, ولا غذاء يتغذَّون به, أو شرابا يروي ما يشعرون به من حَرَق يكوي أكبادهم. فهذا برد ينفعهم، بخلاف الزمهرير، فهو برد يؤذيهم, فلا ينفعهم.

وقال بعضهم: البَرْد في الآية: النوم؛ لأن النوم استقرار وهدوء يبرد فيه الجسم ، أي يهدأ ويرتاح . وهو قول أبي عبيدة وغيره. قال الشاعر:

34- رواه الطبري في تفسيره (557/9).
35- المصدر السابق (581/12).
36- المصدر السابق (579/12).
37- المصدر السابق (582/12- 583).
38- شفاء العليل في مسائل القضاء صـ 264، ط. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

وَإِن شِئْتِ حرَّمتُ النِّسَاء سواكم وَإِن شِئْت لم أطْعم نقاخًا ولا بردًا[39]

النُّقاخ: الماء العذب. والبرد: النوم. والعرب تقول: منع البردُ البردَ, بمعنى: أذهب البردُ النومَ.

{إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}

الحميم: الماء الحار. قال أبو عبيدة وقال النحاس: أصل الحميم الماء الحار. ومنه اشتُقَّ الحمَّام. ومنه: الحُمَّى. ومنه: **{وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}** [الواقعة:34], إنما يُراد به النهاية في الحرِّ.

والغسَّاق: صديد أهل النار وقيحهم. والعياذ بالله.

فلم يجدوا في جهنم أيَّ رَوْح أو راحة, خلال هذه المدَّة.

{جَزَاءً وِفَاقًا}

أي: جُوزوا بذلك جزاء موافقا لأعمالهم, فالوفاق بمعني, الموافق, كالقتال بمعني المقاتلة، و **{جَزَاءً}**: نصب على المصدر، أي: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم. أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وَفْق أعمالهم الفاسدة, التي كانوا يعملونها في الدنيا.

قال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك, ولا عذاب أعظم من النار[40].

وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة, فأتاهم الله بما يسوءهم.

{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا}

39- البيت منسوب إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان العَرْجي كما في " الصحاح (456/1), و لسان العرب (330/2).

40- انظر: تفسير مقاتل (358/3)، دار إحياء التراث – بيروت، ط الأولى: 1423 هـ. تحقيق : عبد الله محمود شحاته.

أي إنَّ هؤلاء الكفَرَة الطاغين المتجاوزين للحدود لم يكونوا يتوقَّعون أن يحاسبهم الله على ما فعلوا, فإنهم لم يكونوا يعتقدون بعد الدنيا دارًا أخرى, يحيون فيها بعد مماتهم، ويُجزون فيها بما عملوا, ويحاسبون على ما قالوا، وما نوَوا وما فعلوا. فمَن كان لا يؤمن بالآخرة, ولقاء الله فيها, كيف يرجو حسابا, وما بعد الحساب من ثواب وعقاب؟!

{وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا}

أي: كذَّبوا بما جاءت به رسل الله، وبما أنزلنا من الكتب, وكانوا يُكذِّبون الله ودلائله على خلقه, التي أنزلها على رسله, والتي غرسها في فِطَر عباده, وجعلها ثابتة في عقولهم التي في رؤوسهم, فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة والمعاداة, ومعنى **{كِذَّابًا}**، أي: تكذيبا, وهو مصدر من غير الفعل, قال الفرَّاء: هي لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذبت به كِذَّابا، وخرقت القميص خِرَّاقا، وكل فعل في وزن (فَعَّل) فمصدره فِعَّال مشدَّد في لغتهم. هكذا نقل القرطبي[41].

وقرئ: **(كِذَابًا)** بتخفيف الذال. وقد قالوا: التخفيف والتشديد جميعا لقول الأعمش:

فصَدَقتها وكذَبَتها   والمرء ينفعه كِذَابه!

وأقرَّه الزمخشري في الكشَّاف: وهو مثل: **{أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً}** [نوح:17], يعني: وكذَّبوا بآياتنا، فكذَّبوا كِذَّابا[42].

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا}

أي: قد علمنا كلَّ شيء من أعمال العباد كلِّها, وكتبناها عليهم, كتابة دقَّة وإحصاء, لا يفوتها شيء وإن صغر وقلَّ، وسيجزيهم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر, كما قال

41- انظر: الجامع لأحكام القرآن (181/19)، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: الثانية، 1384هـ - 1964 م.
42- انظر: الكشاف للزمخشري (689/4)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الثالثة - 1407 هـ.

تعالى: {**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**} [المجادلة:6].

فهذه كتابة صدرت عن الملائكة المُوكَّلين بالعباد، بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة والتَّسجيل لكلِّ شيء, كما قال تعالى: {**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ**} [الانفطار:10، 11]، وقال تعالى: {**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**} [الزخرف:30].

{**فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا**}

أي يقول الواحد القهَّار سبحانه وتعالى لأهل النَّار بعد كفرهم بالحساب, وتكذيبهم بالآيات, مخاطبا لهم ومهدِّدا ومتوعِّدا: تحسّسوا وقاسوا العذاب فلن نضاعفكم ونزيد إليكم إلا عقوبة وتنكيلا. أي: كلَّما مرَّ العذاب عليهم ازداد شدَّة وقوَّة، كما قال تعالى: {**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**} [الإسراء:97], وقال تعالى: {**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**} [النساء:56], فهم في مزيد من العذاب أبدًا.

قال ابن كثير: يقال لأهل النار : (ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه، {**وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**} [ص:58].

وعن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية: {**فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا**}. قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا)[43]. اللهمَّ أعذنا من النار.

43- تفسير ابن كثير (307/8)، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ 1999م.

جزاء المتقين

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا}

بعد أن حدَّثنا الله عن الأشقياء، الذين استحقُّوا عقوبة النار بتكذيبهم وعدوانهم, وِفاقا لأعمالهم, يحدِّثنا الله بعد ذلك عن السعداء من عباده، وما أعدَّ لهم عزَّ وجلَّ من الكرامة والسعادة والرضوان والنعيم المقيم.

فحدَّثنا سبحانه عن (المتقين) الذين أعدَّ لهم جنات عرضها السَّموات والأرض, والذين نجاهم من النار, والذين جعل الله لهم من أمرهم يسرًا, وكفَّر عنهم سيئاتهم وأعظم لهم أجرهم, إلى آخر ما مدحهم به في القرآن الكريم.

هؤلاء المتقون أخبرنا الله في كتابه أن لهم **{مَفَازًا}**، أي: موضع فوز وظفر ونجاة وخلاص ممّا فيه أهل النار. ولذلك قيل للفلاة إذا قلَّ ماؤها: مفازةً. تفاؤلا بالخلاص منها. وقد بيَّن لنا القرآن متى يحقِّق الإنسان الفوز, فقال تعالى: **{فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}** [آل عمران:185].

{حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}

ثم شرح القرآن الكريم حقيقة هذا المفاز ومشتملاته, فقال: **{حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}**، والحدائق: جمع حديقة, وهي البستان المحُوط عليه من النخيل والأشجار وغيرها. يقال: أحدق به, أي: أحاط. **{وَأَعْنَابًا}** جمع عنب, أي: كُرُومُ أعناب, فحذف. وهي جزء من هذه الحدائق, ولكن خصَّه بالذكر لأهميته, كأنه وحده ليس جزءا من هذه الحدائق.

{وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا}

كواعب: جمع كاعب, وهي المرأة الناهد. أي: هنّ نواهد، يعني: أن أَثْداءهنَّ نواهد, لم يتدلين؛ لأنهنّ أبكار عُرب أتراب. كما قال تعالى **{وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا}**، والأتراب: الأقران المتشابهات ممَّن كُنَّ في سنٍّ واحدة, قال تعالى: **{إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ}** [الواقعة:35–38], وقال الضحَّاك: الكواعب: العذارى. ومنه قول قيس بن عاصم:

وكم مِن حَصانٍ قد حَوَيْنا كريمةٍ ومِن كاعبٍ لم تَدْرِ ما البؤسُ مُعْصر[44]

{وَكَأْسًا دِهَاقًا}

الكأس: هو الإناءُ الذي يُشرب فيه الخمر، وهي من شراب الجنة, الذي ليس فيه غَول, كما قال القرآن: **{مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ}** [محمد:15].

والدهاق: المملوءة، المُتْرعة؛ لأن الخمر عندهم كانت عزيزة، فلا يكيل الحانوتي للشارب إلا بمقدار, فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسرُّ للشارب, ولهذا تميَّزت كأس الجنة بأنها دِهاق, أي ممتلئة. ومنه قول الشاعر:

أتانا عامرٌ يَبْغي قِرانا فأَتْرَعنا له كأساً دِهاقا[45]

وقيل أيضا: دِهاقا، أي: متتابعة يتبع بعضها بعضا, واستدلُّوا لذلك بما ردَّدوا من الشعر:

لأنْتِ إلى الفؤادِ أَحَبُّ قُرْبًا مِن الصّادي إلى كأسٍ دِهَاقِ

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا}

44- من شعر قيس بن عاصم.

45 - من شعر خداش بن زهير.

ممَّا منَّ الله به على المتقين من أهل الجنة من نعيم: أن الله هيَّأ لهم فيها الحياة الطَّيِّبة, مما يؤْكل ويُشرب ويستظلُّ به, وينظر إلى ينعه, وكذلك نزَّه أسماعهم من أن يسمعوا فيها اللغو والكذب, مما لا يحبُّون أن يقولوه ولا أن يسمعوه.

ولذلك وصف الله المؤمنين في الدنيا بقوله: **{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}** [المؤمنون:3]، **{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ}** [القصص:55], فلا عجب أن يكافئهم الله في دار ثوابه بمنع ما يُكدِّر عليهم صفاءهم من الكلام الذي لا فائدة منه, أو الكلام الكاذب، لهذا قال تعالى:

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا}

أي: باطلا, وهو ما يُلقَى من الكلام ويُطرح, ومنه الحديث: "إذا قلت لصاحبك أنصت, والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوتَ"[46]، وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا من الكأس الدهاق لم تتغيَّر عقولهم, ولم ينطقوا بلغو ولا باطل, بخلاف أهل الدنيا.

{وَلَا كِذَّابًا}، أي: لا يُكذِّب بعضهم بعضا, ولا يسمعون كذبا.

{جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا}

أي: هذا الذي ذكرنا من نعيم الجنَّة, جزاهم الله به وأعطاهموه, بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته, لا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما، وقد جعل هذا الجزاء هنا **{مِنْ رَبِّكَ}**، الذي يملك أمرك, ويربِّيك ويرعاك, ويرفعك في مدارج الكمال, ويغمرك بإحسانه, وفضله على الدوام.

{عَطَاءً حِسَابًا}، أي: أعطاهم الله تعالى من عنده عطاء من المعطي الذي لا يبخل, والغني الذي لا يفتقر, والكريم الذي لا يستقل ولا يستكثر ما يمنح, ومعني **{حِسَابًا}**، أي:

46- متفق عليه: رواه البخاري (934)، ومسلم (851)، كلاهما في الجمعة، عن أبي هريرة.

كافيا وافرا شاملا كثيرا، تقول العرب: أعطاني فأحسبني. أي: جعلني أقول: حسبي. ومنه حسبي الله. أي: الله كافيَّ.

عظمة الله وكبرياؤه

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ

إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا }

قُرئ بخفض كلمة **{رَبِّ}** كما هي قراءتنا الشهيرة لحفص عن عاصم، على أنها نعت لقوله تعالى: **{مِنْ رَبِّكَ}**، وقرأ الآخرون: **(رَبُّ السَّمَاوَاتِ)**[47]، على أنه خبر، أي: هو ربُّ السموات. فهو سبحانه الذي خلق هذه السموات والأرض وما بينهما، وهو الذي يملكها ويحفظها ويرعاها ويُدبِّرها ويسيِّرها على أحسن نظام، بما فيها من نجوم وشموس وأقمار، كما قال تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}** [الفرقان:61]، **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}** [نوح:19، 20].

هذا الربُّ العظيم لهذه المخلوقات الكبيرة، التي قال الله فيها: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ}** [الذاريات:47، 48]، هو الرحمن، أي: ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت جميع خلقه، ورزقت المؤمن والكافر، وأنعمت على البرِّ والفاجر، وأطلعت على الجميع شمسها وقمرها، وأنزلت عليهم أمطارها، وأطعمتهم من نباتها وأشجارها، وجعلت منها متاعا لهم ولأنعامهم.

هذا الربُّ الرحمن، **{الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا}**، أي: لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لهم فيه. وقال الكسائي: لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه[48]. كما قال تعالى: **{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** [البقرة:255]، وقيل: أراد الكفّار خاصَّة، فهم الذين لا يملكون منه خطاباً، حيث لا تجوز لهم الشفاعة لأحدٍ، وكيف يشفع مَن هو من

47- انظر: الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (164/6- 165)، دار المأمون للتراث – دمشق، ط. الثانية، 1413 هـ - 1993م، تحقيق: بدر الدين قهوجي.
48- تفسير القرطبي (186/19).

أهل النار واستحقاق العذاب؟ فأما المؤمنون فيشفعون، كما قال تعالى: **{يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا}** [طه:109].

وقوله تعالى: **{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا}**، استئناف مُقرِّر لما أفادته الربوبيَّة العامَّة، من غاية العظمة والكبرياء، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء، من غير أن يكون لأحد قدرة عليه.

والضمير في **{لَا يَمْلِكُونَ}**، لأهل السماوات والأرض، أي: لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم، خطاباً ما، في شيء ما، والمراد: نفيُ قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء من نقص العذاب، أو زيادة الثواب، من غير إذنه على أبلغ وجه وآكده، وكيف وليس في أيديهم ممَّا يخاطب الله به ويأمر به، في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد، فيتصرَّفون فيه تصرُّف المُلاَّك، فيزيدون فيه أو ينقصون منه؟

{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}

من هو الرُّوح المذكور في الآية الكريمة؟ اختلف المفسِّرون فيه اختلافات شتَّى.

والذي يلوح لي: أن الرُّوح هو جبريل، أمين الوحي الذي نزل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، وقد سمَّاه الله تعالى في كتابه الرُّوح الأمين، كما قال سبحانه: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}** [الشعراء:193-195]. وهو المذكور في سورة القدر، حيث قال تعالى: **{تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}** [القدر:4]، وهو المذكور في هذه الآية.

فمن أوصاف يوم القيامة ويوم الفصل ويوم الحساب للخلائق جميعا: أن يقوم فيه جبريل ملك الوحي، وحامل القرآن أعظم كتب الله، إلى أعظم رسل الله محمد صلى الله عليه وسلم، والذي وصفه الله في كتابه، في سورة التكوير بقوله: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}** [التكوير:19-21].

يقوم جبريل والملائكة الكرام معه، وهم جنود الله في السموات والأرض، لا يعلمهم إلا الله، وقد اصطفُّوا مع جبريل عليهم السلام، صامتين لا يتكلَّمون إلا مَن أذن له الرحمن وقال صوابا، أي: يتكلَّمون بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن لهم الرحمن بالكلام. وفي هذا اليوم لا يتكلَّم أحد إلا بإذنه.

والشرط الثاني: أن يقول صواباً. أي: سداداً من القول، مثل أن يشفع لمَن يستحقُّ الشفاعة، كما قال تعالى: **{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}** [الأنبياء:28]، ولا يرتضي الشفاعة لمَن أشرك به، فقد قال تعالى: **{مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ}** [غافر:18]. قال تعالى: **{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}** [المدثر:48].

فهؤلاء المقرَّبون من الله تعالى: الرُّوح والملائكة، لا يقدرون أن يتكلَّموا إلا بإذن الله وقول الصواب، فكيف بالآخرين؟ إنه يوم عظيم، **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [المطففين:6].

الاستعداد ليوم القيامة والتخويف من عذاب الله القريب

{ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا 39 إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا }

ذكر ذلك إشارة إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور، وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد المشار إليه، للإيذان بعلوِّ درجته، وبُعْد منزلته في العلو والفخامة، واليوم الحقُّ هو الكائن المتحقِّق الثابت، لا محالة ولا ريب فيه، من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه.

إذا كان الأمر كما ذُكر من تحقُّق هذا اليوم، فمَن أعطاه الله تعالى مشيئة ينفذ بها،

فليتَّخذ له مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه، ومنهجا يمرُّ به عليه، إلى ثواب ربِّه، الذي ذَكَر شأنَه

العظيم.

فعل ذلك بالإيمان به والطاعة له والعمل الصَّالح، كأنه إذا عمل خيرًا ردَّه إلى الله تعالى، وإذا عمل شرًّا عدَّه منه، وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: "الخير كلُّه بيديك، والشرُّ ليس إليك"[49].

{إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}

الإنذار: التخويف بالخطر قبل وقوعه، وأعظم الخطر: ما أعدَّه الله من عذاب لمَن كفروا به، وكذَّبوا رسله، وجحدوا ما توعَّدهم به من عذاب الآخرة.

49- رواه مسلم في صلاة المسافرين (771)، عن علي بن أبي طالب.

والخطاب في {**أَنْذَرْنَاكُمْ**}، لجميع العالم، وإن كانت المخاطبة لمَن حضر النبي صلى الله عليه وسلم، من الكفَّار.

ووصف العذاب بالقُرب لتحقُّق وقوعه، وأنه آتٍ ولا بدَّ، وكلُّ آتٍ قريب، والجميع داخل في النذارة منه، وقد قال تعالى: {**يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**} [النازعات:46].

يقول ابن عطية: (قرب العذاب مستعمل مجازا في تَحقُّقه وإلا فإنه بحسب العرف بعيد، قال تعالى: {**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا**} [المعارج:6، 7]، أي لتحقُّقه فهو كالقريب.

على أنَّ العذاب يصدق بعذاب الآخرة، وهو ما تقدَّم الإنذار به، ويصدق بعذاب الدنيا من القتل والأسر في غزوات المسلمين لأهل الشرك. وعن مقاتل: هو قتل قريش ببدر[50]. ويشمل عذاب يوم الفتح ويوم حُنين، كما ورد لفظ العذاب لذلك في قوله تعالى: {**يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ**} [التوبة:14]، وقوله: {**وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ**} [الطور:47])[51].

والأظهر: أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة وما وراءها من أهوال؛ لأن الله تعالى يقول: {**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**} [النحل:77]، ولأن من مات قامت قيامته. فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة، وإن كان من أهل النار لقي الخزي والهوان. ولهذا قال تعالى: {**يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**}.

يبيِّن الله تعالى وقت ذلك العذاب، أي: {**أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا**} في ذلك اليوم، وهو {**يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**}، أي يرى كلَّ ما عمله من خير أو شرٍّ.

50- انظر: تفسير القرطبي (188/19).
51- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (56/30)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة الطبع1984 هـ.

وقيل: **{الْمَرْءُ}** هنا: المؤمن. في قول الحسن[52]. أي: يجد لنفسه عملا؛ فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا، فيتمنَّى أن يكون ترابا. ولما قال: **{وَيَقُولُ الْكَافِرُ}**، عُلم أنه أراد **{الْمَرْءُ}** المؤمن.

والأوْلى أن يكون ذلك عامًّا في كلِّ أحد وإنسان، يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسب. كما سنرى استعمال مثله في القرآن، كقوله تعالى: **{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}** [عبس:34، 35]. فهو يشمل المؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر.

{وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}

يتمنَّى في ذلك اليوم الهائل أن لو كان في الدنيا، أي: ظلَّ ترابا في هذا اليوم، فلم يخلق، أو لم يكلَّف! فلم يبعث إذ قامت!

* * *

52- رواه الطبري في تفسيره (54/24).

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

**{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3)
فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا
الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَإِنَّا
لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14) هَلْ
أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ
فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى
(22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ
الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26) أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ
السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا
(31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ
الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى
(36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى
(39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمَأْوَى (41) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ
ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45)
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)}.**

مقاصد السورة:

السورة مكيَّة, ولها مقاصد يعرفها مَن قرأها بتدبُّر كما أمر الله.

مقدِّمتها القسم بالنازعات وما يتبعها، وجواب القسم محذوف أو قوله تعالى: {**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**}, ثم تقرير البعث بقوله تعالى: {**يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً**}، ثم التذكير بقصة موسى وفرعون, وبها عبرة لمَن يخشى.

وبعد ذلك التساؤل عمَّا خلق سبحانه من السماء والأرض وما فيهما وما بينهما: {**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا**}، وما بعدها إلى قوله: {**مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**}.

يأتي بعدها حديث عن القيامة وما فيها: {**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**}، وفيها ينقسم الناس إلى أهل النار وأهل الجنة: {**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**}.

وتنتهي السورة بخاتمة, كما بدأت بمقدمة: {**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**}، إلى آخر السورة.

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) }

السور الخمس المفتتحة بالقسم بالمخلوقات :

هذه رابع سورة في القرآن الكريم من سور خمس, تُفتتح بهذا القسم بمخلوقات لها أوصاف تميّز مَن اتَّصف بها, وإن لم تعرفهم في الغالب تعريفا دقيقا يتَّفق الناس عليه.

كلُّ ما يميّز هذه السورة أنها كلَّها مكيَّة, وأنها كلَّها مبدوءة بهذا القسم, وأنها جميعا تُقسم بالمخلوقات, كما هو شأن الله تبارك وتعالى الذي من حقِّه وحده أن يقسم بما شاء من عباده, ليلفت عقولنا وقلوبنا إليه.

هذه السور بدأت بسورة الصافات: **{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ}** [الآيات:1–4].

والثانية: سورة الذاريات: **{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ}** [الذاريات:1–5].

والثالثة: سورة المرسلات: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ}** [المرسلات:1–7].

والرابعة: هي سورتنا, سورة النازعات: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}** إلى آخره.

والخامسة: سورة العاديات: **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}** [العاديات:1–6].

فهذه هي السور الخمس التي جاء بها القرآن الكريم، ونحن الآن أمام واحدة منها, وهي الرابعة في ترتيب سور القرآن: النازعات.

ما المراد بالنازعات؟

قد اختلف في تعيينها وتحديدها مفسِّرو السلف؛ فمنهم مَن قال: إنها الملائكة. يعنون: حين تنزع أرواح البشر, فمنهم مَن تأخذ رُوحه بعنف فتُغرق في نزعها، ومنهم مَن تأخذ رُوحه بسهولة وكأنما حلَّته من أنشوطة وعقال.

قال الإمام الرازي في تفسيره الكبير: (اعلم أن هذه الكلمات الخمس, يحتمل أن تكون صفات لشيء واحد، ويحتمل أن لا تكون كذلك؛ أما على الاحتمال الأول, فقد ذكروا في الآية وجوها: أحدها: أنها بأسرها صفات الملائكة، فقوله: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}**، هي: الملائكة الذين ينزعون نفوس بني آدم، فإذا نزعوا نفس الكفار نزعوها بشدَّة، وهو مأخوذ من قولهم: نزع في القوس فأغرق. يقال: أغرق النازع في القوس، إذا بلغ غاية المَدى، حتى ينتهي إلى النصل. فتقدير الآية: والنازعات إغراقا. والغرق والإغراق في اللغة بمعنى واحد.

وقوله: **{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}**، النشط: هو الجذب، يقال: نشطتُ الدلو أنشُطها وأنشطتها نشطا: نزعتُها برفق، والمراد هي: الملائكة التي تنشط رُوح المؤمن فتقبضها، وإنما خصصنا هذا بالمؤمن، والأول بالكافر؛ لما بين النزع والنشط من الفرق، فالنزع جذب بشدَّة، والنشط جذب برفق ولين، فالملائكة تنشط أرواح المؤمنين، كما تنشط الدلو من البئر، فالحاصل أن قوله: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}**، قسم بملك الموت وأعوانه، إلا أن الأول إشارة إلى كيفيّة قبض أرواح الكفار، والثاني: إشارة إلى كيفية قبض أرواح المؤمنين.

السابحات هم ملائكة قبض الأرواح أم سائر طوائف الملائكة؟

أما قوله: {**وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا**}، فمنهم مَن خصَّصه أيضا بملائكة قبض الأرواح، ومنهم مَن حمله على سائر طوائف الملائكة.

أما الوجه الأول: فنُقل عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما، وعن مسروق رحمه الله: أن الملائكة يسلُّون أرواح المؤمنين سلاًّ رفيقا. فهذا هو المراد من قوله: {**وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا**}، ثم يتركونها حتى تستريح رويدًا، ثم يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة، كالذي يسبح في الماء فإنه يتحرَّك برفق ولطافة؛ لئلا يغرق، فكذا هاهنا يرفقون في ذلك الاستخراج، لئلا يصل إليه ألم وشدَّة، فذاك هو المراد من قوله: {**وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً**}.

وأما الذين حملوه على سائر طوائف الملائكة، فقالوا: إن الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، فجعل نزولهم من السماء كالسباحة. والعرب تقول للفرس الجواد: إنه السابح.

السابقات هم ملائكة قبض الأرواح أم سائر طوائف الملائكة؟

وأما قوله: {**فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً**} فمنهم مَن فسَّره بملائكة قبض الأرواح يسبقون بأرواح الكفار إلى النار، وبأرواح المؤمنين إلى الجنَّة، ومنهم مَن فسَّره بسائر طوائف الملائكة.

وجوه السبق للملائكة الكرام :

ثم ذكروا في هذا السبق وجوها:

أحدها: قال مجاهد وأبو رَوْق: إن الملائكة سبقت ابن آدم بالإيمان والطاعة[53]. ولا شكَّ أن المسابقة في الخيرات درجة عظيمة، قال تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}** [الواقعة:10].

وثانيها: قال الفرَّاء والزجَّاج: إنَّ الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء؛ لأن الشياطين كانت تسترق السمع[54].

وثالثها: ويحتمل أن يكون المراد: أنه تعالى وصفهم – أي الملائكة – فقال: **{لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ}** [الأنبياء:27]، يعني قبل الإذن لا يتحرَّكون ولا ينطقون تعظيما لجلال الله تعالى، وخوفا من هيبته، وها هنا وصفهم بالسبق يعني إذا جاءهم الأمر، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله، ويتبادرون إلى إظهار طاعته، فهذا هو المراد من قوله: **{فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً}**.

الملائكة المدبرات والحكمة من قوله : أمراً دون أموراً ؟

وأما قوله: **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرا}**، فأجمعوا على أنهم هم الملائكة ...

وهنا سؤال: لِمَ قال: **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرا}**، ولم يقل: أمورًا. فإنهم يدبِّرون أمورًا كثيرة، لا أمرًا واحدًا؟

والجواب: أن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع.

وسؤال ثان: قال تعالى: **{إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}** [آل عمران:154]، فكيف أثبت لهم ها هنا تدبير الأمر؟

53- انظر: تفسير القرطبي (193/19).
54- انظر: معاني القرآن للزجاج (278/5)، عالم الكتب – بيروت، ط. الأولى 1408 هـ -1988 م، تحقيق: عبد الجليل شلبي.

والجواب: لما كان ذلك الإتيان به، كان الأمر كأنه له، فهذا تلخيص ما قاله المفسِّرون في هذا الباب)[55] اهـ.

التأويل بأنها النجوم:

(الوجه الثاني تأويل هذه الكلمات الخمس – في نظر الرازي – أنها النجوم. وهو قول الحسن البصري[56], ووصف النجوم بالنازعات يحتمل وجوها:

أحدها: كأنها تُنزع من تحت الأرض، فتنجذب إلى ما فوق الأرض، فإذا كانت منزوعة كانت ذوات نزع، فيصحُّ أن يقال: إنها نازعة، على قياس اللابن والتامر (أي: ذو اللبن وذو التمر).

وثانيها: أنَّ النازعات من قولهم: نزع إليه، أي ذهب نزوعا، هكذا قاله الواحدي، فكأنها تطلع وتغرب بالنزع والسَّوْق.

والثالث: أن يكون ذلك من قولهم: نزعت الخيل إذا جرت. فمعنى: **{وَالنَّازِعاتِ}**، أي: والجاريات على السَّيْر المقدَّر، والحدِّ المعين.

وقوله: **{غَرْقاً}**، يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون حالاً من النازعات، أي: هذه الكواكب كالغرقى في ذلك النزع والإرادة، وهو إشارة إلى كمال حالها في تلك الإرادة، فإن قيل: إذا لم تكن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة، فما معنى وصفها بذلك؟

قلنا: هذا يكون على سبيل التشبيه، كقوله تعالى: **{كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}** [الأنبياء:33]، فإن الجمع بالواو والنون يكون للعقلاء، ثم إنه ذُكر في الكواكب على سبيل التشبيه.

55- تفسير الفخر الرازي (29/31-28). دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط. الثالثة - 1420 هـ.
56- رواه الطبري في تفسيره (58/24).

والثـاني: أن يكون معنى غرقها: غيبوبتها في أفق الغرب، فالنازعات إشارة إلى طلوعها، وغَرْقا إشارة إلى غروبها، أي تنزع، ثم تغرق إغراقا، وهذا الوجه ذكره قوم من المفسِّرين.

أما قوله: {**وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً**}، فقال صاحب الكشاف: معناه أنها تخرج من برج إلى برج[57]. من قولك: ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد.

وأقول: يرجع حاصل هذا الكلام إلى أن قوله: {**وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً**}، إشارة إلى حركتها اليومية، {**وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً**}، إشارة إلى انتقالها من برج إلى برج، وهو حركتها المخصوصة بها في أفلاكها الخاصة، والعجب أن حركاتها اليومية قسريّة، وحركتها من برج إلى برج ليست قسريّة، بل ملائمة لذواتها، فلا جرم، عبَّر عن الأول بالنزع، وعن الثاني بالنشط، فتأمَّل أيها المسكين في هذه الأسرار.

وأما قوله: {**وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً**}، فقال الحسن وأبو عبيدة رحمهما الله: هي النجوم تسبح في الفلك. لأن مرورها في الجوِّ كالسبح، ولهذا قال: {**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**} [الأنبياء:33].

وأما قوله: {**فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً**}، فقال الحسن وأبو عبيدة: هي النجوم يسبق بعضها بعضا في السير، بسبب كون بعضها أسرع حركة من البعض، أو بسبب رجوعها أو استقامتها.

وأما قوله تعالى: {**فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً**}، ففيه وجهان:

أحدهما: أن بسبب سيرها وحركتها يتميَّز بعض الأوقات عن بعض، فتظهر أوقات العبادات على ما قال تعالى: {**فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ**} [الروم:17، 18] وقال: {**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**}

57- انظر: الكشاف للزمخشري (693/4).

[البقرة:189] وقال: {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس:5]؛ ولأن بسبب حركة الشمس تختلف الفصول الأربعة، ويختلف بسبب اختلافها أحوال الناس في المعاش، فلا جرم أُضيفت إليها هذه التدبيرات.

والثاني: أنه لما ثبت بالدليل، أن كلَّ جسم مُحْدَث، ثبت أن الكواكب مُحْدَثة مفتقرة إلى موجِد يوجدها، وإلى صانع يخلقها. ثم بعد هذا لو قدَّرنا أن صانعها أودع فيها قوى مؤثِّرة في أحوال هذا العالم، فهذا يطعن في الدين البتَّة. وإن لم نقل بثبوت هذه القوى أيضا، لكنا نقول: إن الله سبحانه وتعالى أجرى عادته بأن جعل كلَّ واحد من أحوالها المخصوصة سببا لحدوث حادث مخصوص في هذا العالم، كما جعل الأكل سببا للشبع، والشرب سببا للري، ومماسَّة النار سببا للاحتراق، فالقول بهذا المذهب لا يضرُّ الإسلام البتة بوجه من الوجوه، والله أعلم بحقيقة الحال)[58].

الكلمات الخمس صفات لأشياء مختلفة:

والاحتمال الثاني الذي ذكره الإمام الرازي وغيره من المفسرين: أن الكلمات الخمس التي أقسم الله بها، ليست لشيء واحد, كما ذهب التأويل الأول, بل هي لأشياء مختلفة.

منهم مَن قال: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}**: هي القِسِيّ – جمع قوس – **{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}**: هي الأوهاق. **{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا}**: هي السفن. و**{السَّابِقَاتِ}**: الخيل, و**{الْمُدَبِّرَاتِ}**: الملائكة.

وعن مجاهد: **{النَّازِعَاتِ}**، **{وَالنَّاشِطَاتِ}**،**{والسَّابِحَاتِ}**: هي الموت. وإضافة النزع وما بعده إليه, على أنه مجاز, بمعنى أنها حصلت عند حصوله. وأما **{السَّابِقَاتِ}** و**{الْمُدَبِّرَاتِ}**: فهي الملائكة[59].

58- انظر: تفسير الرازي (31/31-30).
59- رواه وكيع في الزهد (43).

وقال قتادة: الجميع هي النجوم, إلا {**الْمُدَبِّرَاتِ**}, فإنها هي الملائكة[60].

والذي نرجِّحه: أن الكلمات الخمسة المُقسَم بها صفات لشيء واحد, بدليل وجود العطف بالفاء بينها, {**وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**}، فهذا العطف يقتضي أنها سلسلة, يتبع بعضها بعضا, ويؤثِّر بعضها في بعض, وليست أشياء متباينة متغايرة.

وما أبلغ ما قاله الإمام الرازي رحمه الله: (واعلم أن الوجوه المنقولة عن المفسِّرين غير منقولة عن رسول الله صلي الله عليه وسلم، حتى لا يمكن الزيادة عليها, بل إنما ذكروها لكون اللفظ محتملا لها)[61].

{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}

أين جواب القسم؟

الكلمات الخمس السابقة التي أقسم الله بها, أين جواب القسم فيها, هل هو محذوف أو مذكور؟

بعضهم قال: إنه محذوف, والتقدير: لتبعثنَّ أو لتحاسبنَّ, أو لتجزونَّ، والدليل عليه أنه تعالى حكى عنهم قولهم: {**أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً**}، أي: أَنُبْعَث وننشر إذا كنا عظاما نخرة؟!

وهناك مَن قال: إنَّ الجواب المضمر هو: أن القيامة واقعة؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال في مثل هذا القسم: {**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ**} [الذاريات:1-5]، وقال تعالى: {**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ***

60- رواه الطبري في تفسيره (65/24).
61- تفسير الفخر الرازي (32/31).

فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ [المرسلات:1-7]، فكذلك هنا، فإن القرآن كالسورة الواحدة.

والقول الثاني: إن جواب القسم مذكور, وهو قوله تعالى: {**قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**}، والتقدير: {**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا**}, وما بعدها من المُقسَم عليها: إنه يوم ترجف الراجفة, تحصل منها قلوب واجفة, وأبصارها خاشعة, كأنه تعالى قال: لترجفنَّ قلوب يوم كذا. ولما دلَّت القلوب على أصحابها, ذكر بعد ذلك أبصارها وخشوعها وذلَّها, وما يظهر منها من الهمِّ بالحال.

وقال ابن عباس في قوله: {**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**}، هي النفختان الأولى والثانية[62]. ومعه غير واحد من مفسِّري السلف. أما الأولى – وهي قوله تعالى: {**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**} – فهي كقوله تعالى: {**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا**} [المزمل:14]. والثانية – وهي الرادفة – فهي كقوله تعالى: {**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**} [الحاقة:14].

ما المراد بالراجفة:

الواقعة التي ترجف عندها الأجرام الساكنة. أي: تتحرَّك حركة شديدة، وتزلزل زلزلة عظيمة, كالأرض والجبال. وقيل: {**الرَّاجِفَةُ**}، الأرض والجبال نفسها.

والرجف هو: الحركة, كما قال تعالى: {**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ**} [المزمل:14]، وكذلك الرجف هو: الهَدَّة المنكرة, والصوت الهائل. من قولهم: رجَف الرعد, يرجف رجفا ورجيفا, وذلك تردُّد أصواته المنكرة، وهدهدته في السحاب. ومنه قوله تعالى: {**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**} [الأعراف:91], فعلى هذا الوجه {**الرَّاجِفَةُ**}: صيحة عظيمة فيها هول وشدَّة، كالرعد.

62- رواه الطبري في تفسيره (65/24).

وأما {**الرَّادِفَةُ**}, فكلُّ شيء جاء بعد شيء آخر، يقال: ردفه, أي: جاء بعده.

القلوب المضطربة الخائفة :

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8)) القلوب الواجفة، هي المُضْطربة الخائفة. يقال: وَجف قلبه، يجف وجفا ووجوفا: إذا اضطرب، ومنه إيجاف الدابة وحملها على السير الشديد.

وللمفسرين عبارات كثيرة في تفسير (الواجفة)، ومعناها واحد. قالوا: خائفة، وجِلة، زائلة عن أماكنها، قلقة، مستوفزة، مرتكضة، شديدة الاضطراب، غير ساكنة.

الأبصار الذليلة المنكسرة :

وصف الله سبخانه أبصارأصحاب القلوب الواجفة بالخشوع فقال: { **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**}**أي: ذليلة لهول ماترى** ، فهو كقوله تعالى: {**خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ**} [الشُّورَى:45].

المنكرون للبعث وسهولته عليه سبحانه ومقدماته

{ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)}

{ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) }

حكاية لما يقوله المنكرون للبعث، المكذِّبون بالآيات الناطقة به، إثرَ بيان وقوعِه بطريق التوكيد القَسَمي، وذكر مقدِّماته الهائلة، وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار.

أي: يقول هؤلاء المُكذِّبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم: **{إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ}** [هود:7]، قالوا منكرين متعجبين: أنردُّ بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: **{أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا}** [الإسراء:49].

يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته، أي: رجع من حيث جاء. وأنشد ابن الأعرابي:

أحافرة على صلع وشَيْب   معاذَ الله من سفه وطيش

يقول: أأرجع إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغزل والصبا، بعد أن شبت وصلعت!

ويقال: رجع على حافرته، أي: الطريق الذي جاء منه.

{أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً}

أي: بالية ومُفتَّتة، وهو تأكيد لإنكار الردِّ ونفيه، بنسبته إلى حالة منافية له، أي: أئذا كنا عظاماً بالية، نردّ ونبعث، مع كونها أبعد شيء عن الحياة؟

وفسَّر ابن عباس نخْر العظام: إذا بلي ودخلت الريح فيه. وقُرئ: **(نَـاخِرَةً)**[63]، وكلاهما يؤدِّي المعنى.

{قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}

أي: رجعة خائبة، كاذبة باطلة، أي: ليست كائنة، أن نرجع أحياء بعد الموت. والكَرَّة: الرجوع. وقيل: خاسرة، أي: ذات خسران، أو: خاسرة أصحابها. والكلام هنا حكاية لكفر آخر لهم، متفرِّع على كفرهم السابق. ولعل توسيط **{قَـالُوا}** بينهما؛ للإيذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطِّراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمرِّ صدوره عنهم في كلِّ أوقاتهم، حسبما ينْبني عنه حكايته بصيغة (المضارع). أي: قالوا بطريق الاستهزاء، مُشيرين إلى ما أنكروه من الرد في الحافرة، مشعرين بغاية بُعدها من الوقوع: **{تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}**.

{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}

ذكر الله تعالى سهولة البعث عليه، فأخبرهم أنها صيحة واحدة، أو نفخة في الصور، ينفخها الملك المُكلَّف، فإذا الناس قد بُعثوا من الأجداث، إلى ربِّهم ينسلون. **{فَـإِذَا هُـمْ}**، أي: الخلائق جميعا من كلِّ الأجناس والألوان والأديان، صاروا على الأرض، ووجهها الأعلى المسمَّى بـ(الساهرة). أي: صاروا على وجهها بعد أن كانوا في بطنها أمواتا.

قال الفرَّاء: سُمِّيت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهره[64]. والعرب تُسمِّي الفلاة ووجْه الأرض ساهرة، بمعنى: ذات سهر؛ لأنها يُسهَر فيها خوفا منها، فوصفها بصفة فيها.

63- تفسير الطبري (72/24).

64- فتح القدير للشوكاني (453/5)، دار ابن كثير – دمشق، ط. الأولى - 1414 هـ.

وهـي أرض غيـر الأرض السـابقة، لـم تُعمَل عليها خطيئـة، ولـم يُهرق عليها دم، كمـا قـال تعـالى: **{يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْـرَ الْأَرْضِ وَالسَّـمَاوَاتُ وَبَـرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَهَّـارِ}** [إبراهيم:48]، وقـال تعـالى: **{وَيَـوْمَ نُسَـيِّرُ الْجِبَـالَ وَتَـرَى الْأَرْضَ بَـارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}** [الكهف:47]، وقال سبحانه: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}** [طه:105–107].

حديث موسى عليه السلام

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ

أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}

انتقل القرآن إلى موضوع جديد له صلة بتقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم، لما يلقاه من إنكار قومه وتكذيبهم، ليُلقي إليه نبأ بعض المرسلين الكبار من قبله، ليجد في سيرتهم، وما لَقَوه، ما ينزل في قلبه السكينة والثقة بنصر الله تعالى وتأييده.

وقد جاء بهذه الصيغة التي تكرَّرت في القرآن، بمثل: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}** [الغاشية:1]. وهنا يقول الله تعالى لرسوله محمد خاتم رسله: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى}**، تشويق له ليستمع إلى هذا الحديث، ويأخذ منه العظة والعبرة، كما قال تعالى: **{وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}** [هود:120].

ولعل هذه الآيات هي أول ما أنزله الله على محمد في قصَّة موسى، فلم يكن أتاه قبلها من نبئها ما يعرِّف حقيقتها، وإن اعتبر أنه أتاه هذا الحديث قبل ذلك، اقتضى ذلك حمله عليه السلام على أن يقرَّ بأمر يعرفه قبل ذلك، كأنه قيل: أليس قد أتاك حديثه؟ أي: قد جاءك وبلغك حديثه. وهذا تسلية للرسول الكريم. أي: إن فرعون كان أقوى من كفَّار بلدك وعصرك، ثم أخذناه أخذا أليما شديدًا، وكذلك هؤلاء.

{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}

بدأ القرآن يقصُّ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم طَرَفاً يسيراً من قصَّة موسى، **{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}**، حين كلَّمه ربُّه سبحانه بلا واسطة بين موسى وبينه، ولذا قال تعالى: **{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [النساء:164]. والوادي: ما كان بين جبلين. والمُقَدَّس: المُطَهَّر. وطوى: اسم لهذا الوادي، على الصحيح، كما يقول ابن كثير[65].

65- في التفسير (315/8).

فهو تعالى يخبر عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، الذي بعثه إلى فرعون، وأيَّده الله بالمعجزات، ومع هذا استمرَّ على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وكذلك عاقبة مَن خالفك، وكذلك يفعل الله به، ولهذا قال تعالى في آخر القصة: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}**.

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}

كان من النداء الذي ناداه ربه: أمرُه بالذهاب رسولاً من الله إلى فرعون. وفرعون هو لقب لملوك مصر في ذلك الزمن، كان كلُّ حاكم فيها يُسمَّى (فرعون)، كما كان كلُّ حاكم لفارس أو إيران يُسمَّى (كِسْرى)، وكلُّ حاكم للرومان يُسمَّى (قيصرًا)، وكلُّ حاكم للحبشة يُسمَّى (النجاشي)، وكلُّ حاكم لليمن يُسمَّى (تُبَّعا). والقرآن يعامل اسم فرعون، كما يعامل العلم المفرد، كأنه اسم لشخص .

لماذا أرسل الله موسى إلى فرعون ؟

نادى الله تعالى موسى عليه السلام ، وقال له: **{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}**، أرسل الله موسى إلى فرعون، لماذا؟ القرآن ذكر سبباً واحداً، استحقَّ به أن يرسل موسى إليه، هو: الطغيان، **{إِنَّهُ طَغَى}**.

والطغيان: هو مجاوزة الحدِّ. وفرعون قد تجاوز كلَّ حدٍّ في عبوديته لله وحده، وفي اعتدائه على خلق الله، فاستكبر عن عبادة الله، وادَّعى أنه إله الناس، وقال لهم: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [النازعات:24]، واستكبر على خلق الله، وعلا في الأرض، واستضعف طائفة من أهل مصر، **{يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}** [القصص:4]. ولهذا تضمَّنت المسألة أمرين أساسيين:

الأمر الأول: تحرير بني إسرائيل من قبضة فرعون الحديديَّة، وإعادتهم كما خلقهم الله، وكما ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

والأمر الثاني: الخضوع لله، والاعتراف بربوبيَّته وإلهيَّته، وسلطانه على خلقه، وطرح الاستكبار على الله، كما قال في سورة الدخان: **{وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}** [الدخان:17-19].

موقف القرآن من الطغيان :

القرآن يعتبر الطغيان شرًّا مستطيرا، ويُربِّي المسلم على أن يرفضه في نفسه، ويقاومه في غيره، ويعُد انتشاره فسادًا عظيما، يوجب سخط الله تعالى ونقمته في الدنيا والآخرة. يقول تعالى: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}** [الليل:6، 7]، وقال سبحانه: **{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [هود:112]، وقال: **{أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** [الرحمن:8-9]، دعوة إلى الوسطية بين الطغيان في الميزان، والإخسار في الميزان.

وذمَّ الله كثيرًا من الكفار والمشركين بأنه تعالى: **{يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}** [البقرة:15].

ويجعل القرآن الطغيان وراء كلِّ الشرور والمصائب: **{أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}** [الذاريات:53]، ويصف شرار الأمم السابقة، التي نزل بها عذاب الله من عاد وثمود وفرعون بقوله: **{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}** [الفجر:11، 12].

ويُذكِّر الله تعالى الناس بيوم القيامة، ومواقفهم فيه: **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات:37–41].

ومن الطغيان اشتُقَّ اسم **الطاغوت**، وهو اسم للأصنام، وكلُّ ما يعظَّم ويطاع طاعة مطلقة، من دون الله، **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** [النحل:36].

فلا عجب أن يقول الله لواحد من أولي العزم من الرسل، موسى عليه السلام: **{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}**.

{فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}

أمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله موسى: أن يكون رفيقا ورقيقا في دعوته لفرعون، فيأخذه بالرفق لا بالعنف، وباللين لا بالشدَّة، كما جاء في سورة (طه) حين خاطب الله موسى وأخاه هارون معه، فقال: **{فَقُولَا لَهُ}**، أي: لفرعون، **{قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [طه:44].

ومن هذا القول اللين المأمور به، جاء هذا القول: **{هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}**؟ أمره الله أن يخاطبه بأسلوب الاستفهام، الذي معناه العَرض، ليستدعيَه بالتلطُّف في القول، ويستنزله بالمداراة من عتوِّه. والمعنى: هل لك رغبة وتَوجُّه إلى أن تزكِّي نفسك؟

والتَّزكِّي كلمة صغيرة في اللفظ كبيرة في المعنى، فهي في العربية تعني عنصرين: الأول: الطهارة. والثاني: النماء. تعني التخلية والتحلية، يتخلَّى عن الرذائل، ويتحلَّى بالفضائل. وممَّا ربطه الله بها الفلاح، وهو السلامة من الشرِّ المكروه، والحصول على الخير والمحبوب. قال تعالى: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ***

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس:7-10]، وقال تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}** [الأعلى:14]، وقال سحرة فرعون في أهل الجنة: **{وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}** [طه:76].

وأحيانا يراد بكلمة زَكَا وأزكى ونحوها: النماء فقط، كما في قوله تعالى: **{ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ}** [البقرة:232]، وقوله: **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}** [التوبة:103]، ولا ريب أن أول التَّزَكِّي هو: التوحيد، والتَّطهُّر من دنس الكفر والشرك بالله.

لا تكون الخشية إلا بعد معرفته تعالى :

{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}

بعد أن عرض عليه أن يتطهَّر ويتنمَّى، فيكوِّن شخصيته المؤمنة قال له : **{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}** ، أي: وأُرشدك إلى معرفته سبحانه، فتخشى، فيدخل قلبَه خشيتُه والخوفُ من عذابه عزَّ وجلَّ. إذ الخشية لا تكون إلا بعد معرفته تعالى، كما قال: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}** [فاطر:28]، فدلَّت الآية الكريمة على أنَّ معرفة الله مُقدَّمة على طاعته؛ لأنه ذكر الهداية، وجَعَل الخشيةَ مؤخَّرةً عنها ومفرَّعةً عليها، ونظيره قوله تعالى في أول سورة النحل: **{أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ}** [النحل:2]، وفي طه: **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}** [طه:14]. فالخشية ملاك

الخيرات؛ لأن مَن خشي الله أتى منه كلُّ خير، ومَن أمن اجترأ على كلِّ شرٍّ، وفي الحديث: "مَن خاف أدلج، ومَن أدْلج[66] بلغ المنزل"[67].

الآية الكبرى :العصا واليد:

{فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى}

ذهب موسى إلى فرعون، كما أمره الله، فأطلعه وبصّره عيانا الآية الكبرى، الأعظم مما سواها ، وهي الدليل القاطع الذي يستوجب اليقين . والمراد بها: مجموع ما آتاه الله من الآيتين الظاهرتين: العصا واليد. كما ذكر ذلك في سورة طه، ثم قال بعد ذلك: **{لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}** [طه:23].

رأى العصا يلقيها موسى من يده، فتنقلب حيَّة تسعى، أو ثعباناً مُبيناً، ويخرج يده من جَيْبه، فتراها بيضاء من غير سُوء، من غير بَرَص ولا مَرض. وهنا قال فرعون: **{إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}** [الشعراء:34]، ودعا بالسَّحَرة وحدث ما حدث. وقال موسى: **{مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}** [يونس:81، 82].

تكذيب فرعون وعصيانه:

{فَكَذَّبَ وَعَصَى}

الفاء للترتيب والتعقيب، فهي تدلُّ على سرعة تكذيب فرعون لموسى، لأنه كذَّب

بدلالة ذلك المُعجِز على صدقه، حيث زعم أنه ليس بأمر مُعجِز، وأنه ليس إلا نوعًا

من السحر، وأن عنده مثل موسى كثيرون، يمكن أن يأتي بهم، ويتحدَّى بهم موسى.

66 - إذا سار من أول الليل.

67- رواه الترمذي في صفة القيامة (2450)، وقال: حسن غريب، والحاكم في الرقائق (307/4)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (2335)، عن أبي هريرة.

وكان مع تكذيبه لموسى عصيان لربّه، الذي بعثه إليه. ولذا قال: **{فَكَذَّبَ وَعَصَى}**، أي: فكذَّبَ بالحقِ، وخالف ما أمره ربُّه من الطاعة، وحاصله: أنه كفر بقلبه، فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمُه بأنَّ ما جاء به حقٌّ، لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب، والإيمان عمله، وهو الانقياد للحق، والخضوع له.

امتناع فرعون عن الإيمان بإصرار وسعيه في الأرض فسادا:

{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى}

وبعد فترة من الزمن، تدل عليه كلمة **{ثُمَّ}**، أدبر فرعون عن الإيمان، أو انصرف عن المجلس، وإدباره في مقابلة الحقِ بالباطل، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى من المعجزات الباهرات، وإدباره يدلُّ على أنه كان مرعوبًا، حينما رأى ثعبان موسى، ومع هذا مشى بسرعة، وهو يُمنِّي النفس، ليقف في وجه موسى.

جمع فرعون السحرة والجند وادعاؤه الربوبية :

{فَحَشَرَ فَنَادَى23 فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى 24}

حشر: أي: جمع. ومعناه: أنه جمع السَّحَرة من أنحاء البلاد في مصر كلّها، الوجه القبلي والوجه البحري، كما قال تعالى: **{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ}** [الشعراء:53]، **{فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى}** [طه:60]، ومعنى: كيده، أي: ما كاد به من السحرة وآلاتهم، وما يحيط بهم من جنود وتجمُّع شعبي.

وبعد أن حشرهم وجمعهم، أسرع فنادى في قومه، أو في الجمع نفسه، أو بواسطة المنادي: **{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}**، هكذا يعلن فرعون في قومه: أنه الربُّ الأعلى! وما دلالة ربوبيَّته لقومه ؟ هل هو الذي خلقهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ؟ هل هو الذي رزقهم منذ كانوا أجنَّة في بطون أمهاتهم؟ هل هو الذي يطعمهم من جوع ؟ هل هو الذي يؤمِّنهم من خوف؟ هل هو الذي أوجد لهم السمع والأبصار والأفئدة؟ هل هو الذي علَّمهم البيان؟ هل هو الذي أنشأ السماء التي تظلُّهم وأنشأ الأرض التي تقلُّهم؟ أو خلق النيل الذي يسقيهم؟ بأيِّ حقٍ يدَّعي الربوبيَّة عليهم؟ وليست مجرَّد الربوبيَّة، بل الربوبية العليا، **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}**.

قد يسمح لهم أن يكون لهم أرباب صغرى، يصنعونها أو تُصنع لهم، ولكن المهم أن يكون هو الربُّ الأعلى الأكبر والأعظم.

ما أعظم غرور فرعون!! أيُّ ربٍ هذا، وهو لا يستطيع أن يتَحرَّر من بعوض يقرصه، أو ذباب يغدو على طعامه، أو مرض ينزل به في رأسه أو في بطنه؟ بل هو أسير بوله وبرازه.

ومن قبلُ قال فرعون لقومه: **{مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** [القصص:38].

عقوبة فرعون عقوبة شديدة جعله عبرة في الدنيا والآخرة :

{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى}

العطف بالفاء دلالة على أنَّ عقوبة الله عزَّ وجلَّ، كانت له بالمرصاد، فسرعان ما أخذه أخذًا أليماً شديداً، كما يأخذ الظالمين أبداً. كما جاء في حديث أبي موسى:

"إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته"، ثم قرأ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود:102][68].

والمعنى: أن الله تعالى انتقم من هذا المُتجبِّر انتقاماً جعله به عبرةً ونكالاً لأمثاله من المُتمرِّدين والمُتألِّهين في الدنيا، كما قال تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود:99]. وقال عزَّ وجلَّ: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ} [القصص:40، 41].

قال ابن كثير: (وهذا هو الصحيح في معنى الآية: أن المراد بقوله تعالى: {نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} أي: الدنيا والآخرة)[69].

فالنَّكال بمعنى التَّنكيل، كالسلام بمعنى التَّسليم. وهو التَّعذيب الذي ينكِّل مَن رآه أو سمعه، ويمنعه من تعاطي ما يفضي إليه. وهو منصوب على أنه مصدر، كقوله تعالى: {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ} [الروم:6] {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} [البقرة:138].

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}

يذكر القرآن أبدا قصص الرسل وأقوامهم، وقصص المؤمنين والكافرين، ليتَّخذ الناس عبراً وعظاتٍ، ولهذا جمع في القرآن قصص آدم ونوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين والمؤتفكات، وذكر لنا قصة موسى وفرعون، وقصة المسيح وأمه، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة مؤمن سورة يس، ومؤمني أصحاب الأخدود، ومؤمني الكهف، والمؤمنين من أصحاب محمد وغيرهم، ليكون لنا فيهم الهداية والعبرة، كما قال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ

68- متفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (4686)، ومسلم في الآداب والصلة (2583)، عن أبي موسى.
69- تفسير ابن كثير (317/8).

فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود:120]، وقال في ختام سورة يوسف: **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** [يوسف:111].

قال الرازي: (والمعنى أن فيما قصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحلَّه الله بفرعون من الخزي، ورزق موسى من العلو والنصر، عبرة لمَن يخشى. وذلك أن يَدَع التَّمرُّد على الله تعالى، والتكذيب لأوليائه، خوفا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلما بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبروا معاشر المكذِّبين بمحمد بما ذكرناه. أي: اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم)[70] اهـ.

70- تفسير الرازي (42/31).

توبيخ المنكرين للبعث وذكر الأدلة المشاهَدَة على وقوعه

{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}

من قدر على خلق السماء -مع عظمتها- أقدر على بعث الإنسان:

نقلة جديدة يلتفت فيها القرآن بعد خطاب الرسول، إلى خطاب أهل مكة ومَن حولها من العرب المنكرين للبعث, بناء على صعوبته - بل استحالته - في زعمهم, بطريقِ التوبيخِ والتبكيتِ، يستدلُّ لهم وينبِّههم إلى أمر يُعلَم بالمشاهدة, وهو أنَّ خلق الإنسان على صغره وضعفه، إذا أضيف إلى خلق السماء - على عظمها وعظم أحوالها- يسير. فيُبيِّنُ تعالى أنَّ خلق السماء أعظم, وإذا كان كذلك فخلقهم على وجه الإعادة أولى أن يكون مقدوراً لله، فكيف ينكرون ذلك؟ ولذا قال الله تعالى مُحتجَّاً عليهم: أأنتم أيها الناس أشدُّ خلقا أم السماء؟ لا شك أنَّ السماء أشدُّ خلقا منكم, كما قال تعالى: **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [غافر: 57], وقال عزَّ وجلَّ: **{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}** [يس:81]. فالآية تعني: السماء أشدُّ خلقا؛ لأن الله تعالى **{رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}**, أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكلَّلة بالكواكب في الليلة الظلماء.

ونحن نعلم الآن ممَّا علَّمه لنا علم الفلك الحديث, أن الأرض كلَّها بما فيها من الجنس الإنساني وما يسكنها معه، من جنٍّ وحيوان وطير وزواحف وحشرات, وأحياء مائيَّة ونباتيَّة، تعد فصائلها بالألوف وعشرات الألوف, هذه الأرض وما عليها من البشر، الذين أصبحوا يملكون من وسائل العلم ما يملكون، ممَّا علَّمهم الله تعالى ما لم يكونوا يعلمون .. هذه الأرض جزء صغير من المجموعة الشمسيَّة, التي هي جزء

صغير في مَجرَّتنا التي نعيش فيها, والتي يُسمُّونها (سكة التبانة)، أي السكة التي يسير فيها الذين يحملون التبن على رواحلهم أو بغالهم أو حميرهم, وتنتشر منه حفينات أو ذرَّات، تملأ الطريق به، مما يُرى أثره، وتشم رائحته. وكذلك نرى في هذه السكة النجوم التي لا حصر لها.

وهذه المجرَّة واحدة من المَجرَّات العُظمى، التي يمتلئ بها هذا الكون الكبير الذي خلقه الله تعالى ودبَّره وأشرف عليه, وهو تحت سيطرته وأمره, وهو بكلِّ شيء عليم, وعلى كل شيء قدير, ونحن نقول في صلواتنا إذا قمنا من الركوع: "ربنا لك الحمد ملء السماوات, وملء الأرض, وملء ما شئتَ من شيء بعد"[71].

ذكر القرآن لنا هنا: أن الله بنى هذه السماء, أي: رفعها فوقكم مشيدة كالبناء، كما قال تعالى: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}** [الذاريات:47], وقال تعالى في سورة البقرة حين أمر الجميع بعبادته سبحانه: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}** [البقرة:22], وقال تعالى: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}** [الأنبياء:32], وقال سبحانه في سورة النبأ: **{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}** [النبأ:12].

وقد فسَّر تعالى بناءه لهذه السماء, فقال: **{رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}**، أي: رفع سقفها في الهواء. يقال: سمكتُ الشيء, أي: رفعتُه في الهواء, وسمك الشيء سمكاً وسموكاً: ارتفع, ومعنى **{فَسَوَّاهَا}**, أي: خلقها خلقا مستويًا لا تفاوت فيه ولا شقوق ولا فطور, كما قال تعالى: **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}** [ق:6], وقال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** [الملك:3].

71- رواه مسلم في الصلاة (476)، عن ابن أبي أوفى.

قال الرازي: (قوله: {فَسَوَّاهَا} عامٌّ, فلا يجوز تخصيصه بالتَّسوية في بعض الأشياء, ثم قال: هذا يدلُّ على كون السماء كُرة، لأنه لو لم يكن كُرة لكان بعض جوانبه سطحاً، والبعض زاوية، والبعض خطًّا، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض أبعد، فلا تكون التَّسوية الحقيقة حاصلة، فوجب أن يكون كُرة حتى تكون التسوية الحقيقة حاصلة)[72].

{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا}

أي: جعله مظلما لا ضياء فيه, يقال : غطش الليل, وأغطشه الله, كما يقال: ظَلَم الليل, وأظلمه الله، ومعناه: أن العتمة الحاصلة في ذلك الزمان ما بين الغروب والفجر، إنما حصلت بتدبير الله تعالى.

{وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا}

أي: أبرز نهارها لظهور شمسها, عبَّر عنه بالضحى, لأنه أشرف أوقات النهار وأطيبها، فكان أحقّ بالذكر في مقام الامتنان, وهو السرُّ في تأخُّر ذكره عن ذكر الليل, وعبَّر عن إحداثه بالإخراج, فإنَّ إضافة النور بعد الظلمة أتمُّ في الإنعام, وأكمل في الإحسان.

وإضافة الليل والضحى إلى السماء؛ لدوران حدوثهما على حركتها, ولأن الليل يكون بغروب الشمس, والشمس تضاف إلى السماء، ويقال: نجوم الليل؛ لأن ظهورها بالليل. ومن المقرَّر: أن الليل والنهار, إنما يحدثان بغروب الشمس وطلوعها.

{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}

أي: بسطها ومدَّها وجعلها صالحةً لسُكنى أهلها، وتقلُّبهم في أقطارها.

72- تفسير الرازي (45/31).

ولأهل اللغة في هذه اللفظة طريقتان يقال: دحوتُ أدحو, ودحيتُ أدحي. ويقال: أصل الدَّحو أو الدحي : الإزالة للشيء من مكان إلى مكان.

وهذا يدلُّ على أن دحو الأرض أو دحيها بعد خلق السماء, ولكن خلق الأرض كان قبل خلق السماء, كما دلَّت على ذلك بوضوح آيات سورة فصلت: **{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}** [فصلت:9-11].

ولذا قال العلاَّمة ابن كثير: (وقد تقدَّم في سورة (حم السجدة)[73] – وهو اسم آخر لسورة فصِّلت – أنَّ الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل, قال: وهذا معني قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير)[74] اهـ.

وقد فسَّر القرآن الكريم كلمة **{دَحَاهَا}** هنا بقوله بعدها: **{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}**, فبعد البسط والتمهيد لا بدَّ من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب حتما, فأخرج من الأرض العيون المتفجِّرة بالماء, ووضع في قلبها المياه الدفينة في باطن الأرض, كما أخرج المرعى, أي: النبات الذي ترعاه الحيوانات والأنعام، التي تحتاجون إليها من الإبل والبقر والغنم.

(قال القتبي: دلَّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام, من العشب والشجر، والحبِّ والثمر، والعصف والحطب واللباس, والنار والملح, لأن النار من العيدان، والملح من الماء)[75].

73 - عند تفسير الآية: 9.

74- تفسير ابن كثير (316/8). وينظر : تفسير الطبري (94/24).

75- تفسير القرطبي (205/19). والقتبي هو ابن قتيبة . وينظر كلامه في تأويل مشكل القرآن صـ12 .

ولكن كيف يقول: {**أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا**}، والمعروف: أن الماء ينزل من السماء إلي الأرض, كما دلَّت على ذلك آيات كثيرة: {**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ**} [ق:9]؟

والجواب: أن هذا الماء النازل من جهة السماء, أو من السحاب، إنما هو في الواقع أصله من الأرض، ومن بحار الأرض ومحيطاتها على مساحات واسعة هائلة، ولكنه متبخِّر بفعل الشمس، حسب السنن الإلهية، فتصعد إلى جهة السماء، أي: إلى السحب من فوق، ووَفق قوانين أجراها الله تعالى أنزله إلى الأرض, ليحييها بعد موتها, ويسقيه أنعاما وأناسيَّ كثيرا. وقد عرَف العرب ذلك, فقال شاعرهم في ممدوحه:

كالبحر يمطره السحاب وما له ... فضل عليه لأنه من مائه[76]

ويقول شاعر آخر أقدم منه عن السحاب:

شَرِبنَ بماء البحر ثم ترفعت ... متى لُجَج خُضْر لهنَّ نَئِيجُ[77]

ويقول الله تعالى: {**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**} [النور:43].

{**وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**}

---

76 - من شعر عبد الله الأسطرلابي.

77- من شعر أبي ذؤيب الهذلي. و(متى) هنا: عند هذيل حرف جر بمعنى (من) أو (في) أو (اسم بمعنى وسط).

ومن تتمَّة دحو الأرض التي أتمَّها الله على الأرض: أنه أكمل ذلك فأرساها بالجبال, حتى لا تميد وتضْطرب بأهلها, أي: إنه قرَّرها وثبَّتها وأكَّدها في أماكنها, وهو الحكيم العليم, الرؤوف الرحيم.

قال تعالى: **{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}** [النحل:15], وكرَّر المعنى نفسه في سورة لقمان [الآية:10].

لماذا كان هذا الإرساء والتَّرسيخ للجبال, وإخراج ماء الأرض ومرعاها, وهل ينتفع الله منها بشيء؟!

لا والله, إنه غنيٌّ عن العالمين, وعن كلِّ ما خلق, ولكنه خلق هذه الأشياء وأنعم بها من أجل البشر من عباده, ولهذا قال سبحانه وتعالى: **{مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}**.

أي: دحا الأرض, فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها, وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها, وثبَّت جبالها, لتستقرَّ بأهلها ويقرَّ قرارها, كلُّ ذلك إنما فعله سبحانه متاعاً لكم أيُّها الخلق المحتاجون إليه، وإلى نعمه، أنتم وأنعامكم التي تخدمكم وهي صحيحة, وتأكلونها وهي ذبيحة، وهي تعطيكم من ألبانها وجلودها، وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

وكثيراً ما يذكِّرنا القرآن بهذه الحقيقة, وهي أنه سبحانه يخلق لنا من أشيائه ونعمه، من النباتات والزروع والحيوانات البريَّة والأحياء المائيَّة, ما نحتاج إليه وأنعامنا, كما قال في سورة (عبس) بعد هذه السورة: **{مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}** [عبس:32].

وأحيانا يقدِّم الأنعام على الناس؛ لكثرة انتفاعهم بما خرج من الأرض, قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ**

وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [السجدة:27], فانظر كيف قدَّم أنعام الناس عليهم في هذا السياق, حيث يأكلون من الزرع أضعاف ما يأكل الإنسان منه.

{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) }

{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}

كما تبيَّن أنه سبحانه القادر الذي لا يعتريه عجز، فهو الذي ينشر الأموات من قبورهم, وهو الذي خلق الأكوان جميعاً ولم تكن شيئاً, تَبيَّن صدق ما جاء به نبيُّه محمد من العقائد الصحيحة, ومنها: اليوم الآخر, الذي يُبعث الناس فيه إلى ربِّهم, ويُجزون بما عملوا, ومن هنا نبَّه على ذلك بقوله: **{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}**.

أسماء يوم القيامة ودلالتها:

يختار القرآن الكريم للقيامة أسماء يُراعي فيها صيغتها اللفظية, وحروفها, ووقعها على السمع, لتعبِّر عن الهول الشديد والأحداث الجسام التي تقع في هذا اليوم، ولتُحدث الخوف والرعب في نفس الإنسان، فهو يُسمِّي القيامة هنا: **{الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}**, ويُسمِّيها في سورة عبس القادمة: **{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}** [عبس:33]،

ويُسمِّيها قبل ذلك: {**الحَاقَّةُ**}، حروف من حروف التفخيم, فيها المدُّ الكلمي المشدَّد: (الحَاقَّة, الطَّامَّة, الصَّاخَّة), كلٌّ له شدَّة وقعه على سمع الإنسان وقلبه.

فقوله هنا: {**الطَّامَّةُ**}، أي: الداهية العظمي, التي تطمُّ على سائر الطامات, أي: تعلوها وتغلبها, وهي الساعة أو القيامة أو النفخة الثانية في الصُّور, التي يخرج الناس بها من الأجداث كأنهم جراد منتشر, وهو اليوم الذي يُساقُ فيه الخلائق إلى محشرهم وحسابهم: {**أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**}[المطففين:4-6].

ما هي الطامَّة؟وما حقيقتها ؟

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى}

إنها يوم يُواجَه الإنسان بعمله، {**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**} [المجادلة:6]، يتذكَّر كلُّ واحد ما قام به من عمل، من خير أو شرٍّ، من طاعة أو معصية، من عدل أو ظلم.

وهو سيجد عمله أمامه، يشاهده في صحيفة أعماله، التي كتبها الكاتبون طول عمره، له أو عليه: {**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**} [الزخرف:80]، {**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**} [الانفطار:10-12].

سيُقال لكلِّ إنسان: {**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**} [الإسراء:14].

سيجد كلُّ امرئ عمله أمامه يشاهده بنفسه، يراه بعيني رأسه: {**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**} [الكهف:49]، {**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**} [الزلزلة:6-8]، {**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ**

تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَهَـا وَبَيْنَـهُ أَمَـدًا بَعِيـدًا وَيُحَـذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَـهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَـادِ} [آل عمران:30].

وكلُّ هذه الآيات تؤكِّد بقوَّة وجلاء: أنَّ الإنسان في الآخرة يرى عمله الذي عمله، وسعيه الذي سعاه، وقوله الذي قاله، يراه بنفسه، لا يرى جزاءه ولا ثوابه ولا عقابه فقط، فهذا تأويل للآيات لا يُقبل.

ونحن نشاهد الآن: أنَّ الإنسان يمكنه أن يُواجَه بقوله وعمله مُسجَّلاً، يراه بعينيه، ويسمع صوته بأذنيه، عن طريق عرض الأشرطة المُسجَّلة عليه، فلا يُستبعَد على الله جلَّ وعلا: أن يسجِّل على الإنسان أقواله وأعماله؛ ليراها ويشاهدها ويسمعها ويعاينها بنفسه، لتكون شاهداً له أو عليه. ويجب أن نأخذ آيات القرآن بظاهرها الناطق بمضمونها، ولا نؤوِّلها ونخرجها عن ظاهرها، اتِّباعا لفلسفات شاعت في زمن من الأزمان، كقولهم: إنَّ الأقوال والأعمال، إنما هي أعراض، والعَرَض لا يبقى زمانين. فهذه تحتاج إلى إثبات يقيني لها، وليس عندنا ذلك اليقين، فلهذا تبقى الأشياء على ما هي عليه .

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}

الجحيم: اسم من أسماء النار التي يُعذِّب الله بها مَن كفر به وعصى رسله، مثل: السعير ولظى وسَقَر، **{فَـإِذَا جَـاءَتِ الطَّامَّـةُ الْكُبْـرَى}**، بُرِّزت هذه الجحيم وأظهرت إظهاراً بيِّناً لا يخفى على أحد، لكلِّ مَن له عينان يرى بهما، لا يستطيع مكابر أن ينكرها.

وبروز الجحيم المُسَعَّرة الظاهرة لكلِّ مَن يبصر ويشاهد، مشهد ترتعد له القلوب، وترجف له الأبدان، وتذهل منه العقول، وهو مما يستعاذ بالله من شرِّه.

مصير أهل الجحيم ومأواهم، ومَن هم ؟

{فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}

هكذا ينقسم الناس في الآخرة قسمين، وَفقاً لعقائدهم وأعمالهم في الدنيا: قسم أهل الشقاء، وهم أهل النار والجحيم، وقسم أهل السعادة، وهم أهل الجنة والنعيم. وهكذا بدأ هنا بالأشقياء وانتهى بالسعداء، وفي أماكن كثيرة كان العكس حسب السياق.

وقد رأيناه في سورة النبأ بدأ بالطاغين: {**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا**} [النبأ:21–22]، وانتهى بالمتَّقين: {**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا**} [النبأ:31].

وفي سورة عبس يبدأ ويقول: {**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ**} [عبس:38–39]، ثم يقول: {**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**} [عبس:40–42].

وفي سورة الانفطار: {**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**} [الانفطار:13–14]. وهكذا تمضي سُور القرآن بين الوعد والوعيد، والتبشير والإنذار، والتخويف والترجية.

ومن المفسّرين مَن لا يعتبر قوله تعالى: {**فَأَمَّا مَنْ طَغَى**} إلخ، هو جواب لقوله: {**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**}، ولكنه يقول: إن الجواب محذوف، دلَّ عليه المذكور، والجواب الذي تستدعيه فخامة التنزيل، ويقتضيه مقام التهويل، أنَّ الجواب المحذوف، يكون من عظائم الشؤون، ما لم تُشاهده العيون[78].

وقوله تعالى: {**فَأَمَّا مَنْ طَغَى**}، أي: من عتا وتمرَّد على الطاعة، وتجاوز الحدَّ في العصيان والانحراف والفساد.

{وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}

78- تفسير أبو السعود (104/9).

أي: وجعل الدنيا عنده مُقدَّمة على الآخرة، فهو يفضِّلها ويُؤْثِرها لجهله وحماقته. وقد قال الصَّالحون: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزفاً يبقى، لآثر العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني، فكيف والدنيا أقلُّ وأهون من خزف، والآخرة أعظم وأغلى من ذهب؟!

قال بعض السلف: مَن اتَّخذ من طعام واحد ثلاثة أصناف فقد طغى[79]. أي: تجاوز الحدَّ في مطعمه.

ولكن الطغيان الذي جعله الله إحدى خصلتين توجبان صَلْيَ الجحيم، أكبر من هذا، ولا بدَّ لنا من وقفة هنا لنتبيَّن: بماذا ربط الله استحقاق الأوي في الجحيم، **{فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}**؟

لقد ربطه الله تعالى بأمرين اثنين حدَّدهما القرآن هنا، وهما: الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، قال تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}**، أي: هي داره التي يأوي إليها، ويستقرُّ فيها.

فهل هاتان الخصلتان كافيتان لتوصيل المرء إلى سواء الجحيم، التي يصلاها الأشقياء الذين استحقُّوا الخلود في هذا العذاب الذي ذكره القرآن في مثل قوله تعالى: **{إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ}** [الدخان:43-47].

نعم، إنهما أصلان كبيران من أصول الشرِّ والفساد: الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا. ولا بدَّ لنا من كلمة عن كلٍّ منهما، وموقف القرآن منهما.

ما الطغيان؟

79- انظر: تفسير القرطبي (207/19)، عن يحيى بن أبي كثير.

أما الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ، كما قال تعالى: {طَغَى الْمَاءُ} [الحاقة:11]، أي: علا وأغرق، فإنَّ القرآن يعتبره أساس كلِّ شرٍّ، وقد وصف الله به الأمم التي أهلكها، وصَبَّ عليها سَوْط العذاب، مثل: عاد وثمود وفرعون. فقال عزَّ وجلَّ: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}؟[الفجر:11-12]. وهو يشير إلى قضية جدُّ مهمَّة، وهي ارتباط الطغيان بالفساد. وهو ما نلحظه ونشاهده باستمرار.

وقد ذكرنا شيئاً من ذلك عند قوله تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، في هذه السورة، فيكفي أن يطغى فرعون ويتجاوز الحدَّ، ليُرسل الله له موسى، وقد قال تعالى في سورة النبأ: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا}.

وقد ذكر لنا القرآن اعتراف (أصحاب الجنة)، الذين ذكرهم القرآن في سورة (ن)، الذين حرموا المساكين من ثمار جنَّتهم، وأقسموا ليَصْرِمُنَّها مُصْبحين في الفجر، وألاَّ يُمكِّنوا أحداً من أهل الحاجة أن يأخذ حبَّة منها، فسلَّط الله عليها آفة سماويَّة من عنده، وهم نائمون، فأهلكها، وذكر الله عن هؤلاء أنهم قالوا: {يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ} [القلم:17].

وكثيراً ما يقرن القرآن الطغيان بالكفر، كما في قوله تعالى في الكفار: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [المائدة:64].

وقال تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} [الشمس:11]، أي: بسبب طغيانها.

وقال سبحانه: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الطور:32].

وفي سورة الذاريات: {أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات:53].

وفي سورة الأعراف: {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأعراف:186].

وفي سورة البقرة: {**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} [البقرة:15].

وفي القرآن: يتلازم ذكر (العَمَه) مع الطغيان، دلالة على أثر الطغيان في تضليل العقول.

إيثار الحياة الدنيا:

الأمر الثاني الذي استحقَّ به أهل الجحيم العذاب، هو إيثار الحياة الدنيا، فما معنى هذا؟ وما حقيقته؟

هناك حياتان للإنسان، أولاهما: الحياة الدنيا، والثانية: الحياة الآخرة، أو الباقية.

والحياة: ضد الموت، ومعناها العيش بكلِّ ما يعنيه العيش، وهي الحياة الدنيا، اشتُقَّت من الدُّنوّ، وله أكثر من معنى، كما يظهر في مقابله، فأحيانا يقال في المذكر: أدنى، بمعنى: أهون وأحقر، كما في قوله تعالى: {**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**} [البقرة:61]، فالحياة الدنيا هنا، أي: السفلى أو الهيِّنة والحقيرة، ويقابلها الحياة العليا.

وأحيانا يذكر أدنى بمعنى: أقل، ويقابله الأكثر، كما في قوله تعالى: {**وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**} [المجادلة:7]، ومن هنا قال القرآن: {**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى**} [النساء:77]، وقال: {**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**} [التوبة:38].

وأحيانا يذكر: أدنى بمعنى: أقرب، مثل: "أدناك أدناك"[80]، فالحياة الدنيا هي القريبة، والآخرة يعتبرونها بعيدة، وتُسمَّى الدنيا بـ(الحياة العاجلة)، كما قال تعالى: {**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**} [القيامة:20، 21].

80- رواه مسلم في البر والصلة (2548)، عن أبي هريرة. وأصل الحديث في الصحيحين.

والحياة الدنيا التي يحذر القرآن منها، ومن غرورها ومتاعها وفِتَنها، تتَّصف بكلِّ هذه الصفات التي ذكرناها، فهي الحياة الهيِّنة الحقيرة، والحياة القليلة الضئيلة، والحياة القريبة العاجلة.

والإسلام لا يرفض الحياة الدنيا بالكليَّة، فهي ضرورة للإنسان، ليقوم فيها بمعرفة الله وعبادته، وخلافته في أرضه، وعمارتها بما يحييها ويُجمِّلها، ويملأها بالحقِّ والعدل، وهي ضرورة أيضاً ليعبر منها للآخرة، ويغرس فيها الخير لنفسه، وللناس من حوله، ليُرضيَ ربَّه، وينفعَ الناس من حوله.

ولكن الإسلام لا يريد لهذه الحياة أن تصبح – بمتاعها ولذَّاتها وشهواتها وإمكاناتها – إلهاً معبودا للإنسان، يستحبُّه على الآخرة، ويُفضِّله على ما يطلبه منه الحقُّ، وما تبتغيه القيم، وما ينشده الناس، لهذا ذمَّ الله قوماً بأنهم: **{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}** [إبراهيم:3].

ويركز القرآن الكريم في سُوره وآياته المكيَّة والمدنيَّة على التَّحرُّر من حُبِّ الدنيا، والاستغراق فيها، وأن يكون حبُّ الله وحبُّ الآخرة أهم وأرجح ميزانا.

انظر إلى سحرة فرعون حين دخل قلوبهم الإيمان، كيف نظروا إلى قومه وملكه وجنده ودنياه، وقد هدَّدهم بما هدَّدهم، فقالوا: **{لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [طه:72، 73].

المهم أنَّ مما يريده الإسلام من المسلم: أن يُحرِّر إرادته، فلا يصبح ويمسي مُجرَّد مريدٍ للحياة الدنيا، بمعنى أن تكون إرادته خاضعةً لها، اتَّخذها ربًّا، فاتَّخذته لها عبداً، يقول تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**

فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء:18، 19]، ويقول تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}** [الشورى:20]، ويقول عزَّ وجلَّ: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [هود:15، 16].

ليس المهم – إذن – أن تملك الدنيا، ولكنَّ المهم جدًّا أن تريدها، يمكن أن تملك الدنيا في يدك، ولكن لا تجعلها في قلبك. المخوف على أهل الإيمان أن تكون الدنيا أكبر همِّهم، ومبلغَ علمهم، ومنتهى أملهم، وغايةَ سعيهم، فإذا لم تكن كذلك، لا يهمُّنا أن تكون لهم، وأن ينتفعوا بها، ويستمتعوا بثمراتها، ولا حرج عليهم في ذلك ما داموا يستعملونها بشروطها وآدابها، كما قال تعالى: **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}** [الأعراف:31، 32].

الممنوع هو (الإرادة) المتعلِّقة بالدنيا، التائقة لها، الحريصة عليها، المُؤْثِرة لها، لا تريد غيرها، كما في قوله تعالى: **{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** [النجم:29]، فهذا هو المذموم: الذي لا يريد إلا الحياة الدنيا. وقد جاء في الحديث: "اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا[81]".

وقد يُعبِّر القرآن عن ذلك بالإيثار، ومعناه: التقديم والتفضيل، كما قال تعالى: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [الأعلى:16، 17]. وهو الأمر الذي نفسِّره في سورتنا، ومعنى إيثار الدنيا: أنها إذا اجتمعت هي والآخرة، قدَّم الدنيا على الآخرة، كما رأينا بعض الناس يُضَحِّي بالإيمان بمحمَّد رسول الله، من أجل الحفاظ

81- رواه الترمذي في الدعوات (3502)، وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (10234) ، وحسنه الألباني في الكلم الطيب (226)، عن ابن عمر.

على مُلكه، كما في قصة هرقل ملك الروم[82]، وكما في كثير من رجال مكة وزعمائها، الذين آثروا أن يبقوا على زعامتهم، وما ورثوه عن آبائهم على الإيمان بالإسلام.

وقد يعبِّر القرآن عن ذلك باستحباب الدنيا على الآخرة، كما في قوله تعالى في شأن الذين كفروا وأصرُّوا على الكفر: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}** [النحل:107].

ويعبِّر عنه أيضا بالفرح بالدنيا، يعني: فرح الأَشَر والبَطَر، كفرح قارون بثروته، قال تعالى: **{وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}** [الرعد:26].

أكثر من ستين آية تحدَّثت عن الحياة الدنيا، ومتاعها وغرورها وزينتها، وتحذير الناس منها ومن ترفها وأعراضها، كما قال تعالى: **{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}** [الحديد:20]، وقال عزَّ وجلَّ: **{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}** [الكهف:45].

مصير الخائفين من عَظَمة الله الناهين نفوسهم عن الهوى:

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}

بيَّن الله تعالى في القسم الماضي: مصير أهل الجحيم ومأواهم، ومَن هم؟ وهنا يبيِّن عزَّ وجلَّ مصير مَن يعاديهم ويخاصمهم، وهم أهل الجنة، فمَن هم؟

وصفان استحقوا بهما دخول الجنة:

82- إشارة إلي حديث هرقل الطويل الذي رواه مسلم في الجهاد والسير (1773)، عن ابن عباس.

لقد عبَّر الله تعالى عنهم بوصفين أساسيين استحقُّوا بهما أن يأووا إلى الجنة، كما عبَّر عن أهل النار أيضا بوصفين استحقُّوا بهما أيضا أن يأووا إلى النار.

الوصف الأول: خوف مقام الرب:

أي: من حذر وخشي قيامه بين يدي سيِّده، وخالقه ومُربِّيه ومالك أمره **{رَبِّهِ}**، يوم الطَّامَّة الكبرى، يوم يتذكَّر الإنسان ما سعى، وخاف حكم الله فيه، يوم تنشر الدواوين، وتحكم الموازين.

يعني: خوفه في الدنيا من ربِّه، عندما يواقع الذنب، أو يقترب منه فيقلع، وكذلك عندما يراوده الشيطان على ترك الطاعة، فهو لا يرتكب محظوراً، ولا يترك مأموراً، كما قال تعالى: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}** [الرحمن:46].

وهذا الخوف من صفات المتَّقين، الذين يُحبُّهم الله تعالى، كما قال سبحانه: **{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ [المؤمنون:57]، ثم قال:{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}** [المؤمنون:60].

والوصف الثاني لمن يستحق الجنة: نهي النفس عن الهوى:

الهوى هنا يقابل الحقَّ، فهناك مَن يجعل نفسه مع الحقِّ ومتطلَّباته، من الالتزام والبذل والتضحية، وهناك مَن يجعل نفسه مع ما تهواه وتشتهيه وتميل إليه من متاع الحياة الدنيا وزخرفها، بحكم الجبلَّة البشريَّة، وهو ما ذكره الله تعالى في قوله: **{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ}** [الحديد:20]، وما ذكره في قوله: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [آل عمران:14].

قواطع الطريق إلى الله تعالى:

وما أكثر ما يُحذِّرنا القرآن من قواطع الطريق إلى الله تعالى، وأهمُّها وأقربها: اتِّباع هوى النفس الأمَّارة بالسوء، وهي التي قالت عنها امرأة العزيز: **{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}** [يوسف:53].

هذه الجبلَّة البشريَّة التي طوَّعت لابن آدم الأول أن يقتل أخاه فقتله، كما قال تعالى: **{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [المائدة:30].

وهي التي سوَّلت للسامريّ أن يتَّخذ العجْل، ويفتن به بني إسرائيل ليعبدوه، كما قال: **{وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}** [طه:96].

وهي التي سوَّلت لإخوة يوسف، وهم من سلالة الأنبياء أن يضعوا يوسف في الجُبِّ، ويكذبوا على أبيهم بأنه أكله الذئب، **{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}** [يوسف:18].

ولهذا حذَّر القرآن كثيراً من اتِّباع هوى الأنفس، كما قال الله تعالى لداود عليه السلام: **{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}** [ص:26]، وقال تعالى: **{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** [الكهف:28]، وقال: **{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}** [الجاثية:18، 19]، وقال عزَّ وجلَّ: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً}** [الجاثية:23]، وقال تعالى: **{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}** [الفرقان:43]، وقال عزَّ وجلَّ: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}** [محمد:16]، وقال سبحانه: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [القصص:50].

والنصوص القرآنية كثيرة توضِّح لنا الخطر الكبير في اتِّباع هوى الأنفس، إذا لم يلجمها لجام التَّقوى، وتقف متمرِّدة على همز الشيطان، واتِّباع خطواته: **{وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}** [البقرة:168].

بهذين الأمرين: خوف مقام الله ربِّ الناس، وزجْر النفس عن أهوائها وشهواتها، تكون الجنَّة هي مأواه ونُزُله، الذي يأوي إليه، ويأنس به، وينعم في ظلِّه.

قال الإمام الرازي في تفسيره الكبير: (ثم ذكر تعالى حال السعداء، فقال تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}**. واعلم أن هذين الوصفين مضادان للوصفين اللذين وصف الله أهل النار بهما، فقوله: **{وأمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ}**، ضدَّ قوله: **{فأمّا مَنْ طَغَى}** [النازعات: 17]، وقوله: **{وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}**، ضدَّ قوله: **{وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** [النازعات: 38].

واعلم أن الخوف من الله، لا بدَّ أن يكون مسبوقاً بالعلم بالله، على ما قال: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}** [فاطر: 28]، ولما كان الخوف من الله هو السبب المُعين لدفع الهوى، لا جرم، قدَّم العلَّة على المعلول، وكما دخل في ذينك الصفتين جميع القبائح، دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات)[83].

سؤال المشركين عن وقت يوم القيامة استهزاء واستبعادا

83- انظر: تفسير الرازي: (31/49- 50).

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}

أسلوب السؤال في القرآن :

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}

أسلوب سائد في القرآن الكريم، بهذه الصيغة **{يَسْأَلُونَكَ}**، دون أن يذكر مَن هم السائلون، فالمسئول هو الرسول الكريم المُنزَّل عليه القرآن، والسياق هو الذي يُحدِّد مَن هم، فأحيانا يكون السائلون هم المسلمين، كما في أسئلة سورة البقرة المعروفة: **{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}** [البقرة:215]، **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ... }**[البقرة:219] ،{ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ}** [البقرة:220]، **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى}** [البقرة:222].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} [الأنفال:1]، ونحو ذلك، فهذه أسئلة المسلمين لنبيّهم يسألون عن أحكام دينهم، وقد تأتي بصيغة الفتوى، كما في قوله: **{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}** [النساء:127]، **{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ}** [النساء:176].

سؤال المشركين عن موعد ظهور القيامة:

وأحياناً يكون السائلون هم المشركين، ومنها الأسئلة عن الساعة، كما جاء ذلك في عدد من سور القرآن المكيَّة، كما في هذه السورة، وسورة الأعراف: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}** [الأعراف:187]، والمَدَنيَّة، كما في سورة الأحزاب: **{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}** [الأحزاب:63].

وكأنـه يقـول هنـا: يسـألك المشـركون عمَّا سـألوك عنـه دائمـا، وهـو موعـد ظهـور القيامـة، ومـن أسـمائها: {**السَّـاعَةِ**}، أي: السـاعة العظمـى، والسـاعة الفاصـلة، التـي ينتظرهـا العـالمون، وقـد سـألها مشـركو مكـة اسـتهزاء، كمـا جـاء عـن ابـن عبـاس[84]. يسألك هؤلاء عن الساعة، أي: عن زمانها الذي تقوم فيه؛ لأن {**أَيَّـانَ**}، اسم زمان، فهم يقولون: متى إرساؤها؟ أي: إقامتها وتثبيتها. كما يقال: أرسى الجبل، أي: أقامه وثبَّته، يقولون: متى يقيمها الله تعالى ويُثبِّتها ويُكوِّنها؟

أو يكـون المعنـى: عـن زمـان منتهـى السـاعة ومسـتقرِّها, كمـا أن مرسـى السـفينة حيث تنتهي إليه, وتستقرُّ فيه.

والمشركون كانوا قد سمعوا عن الساعة والقيامة في القرآن الكريم وسمعوا: أنها الطامَّـة والصَّـاخَّة والحَاقَّـة والقَارعـة, فقالوا مسـتهزئين: {**أَيَّـانَ مُرْسَـاهَا**}؟ فيحتمـل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنه لا أصل لذلك، ويحتمل أنهم كانوا يسألون الرسـول عـن وقـت القيامـة اسـتعجالاً مـنهم, كقولـه تعـالى: {**يَسْـتَعْجِلُ بِهَـا الَّـذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا**} [الشورى:18].

{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}

إنكار وَرَدٌّ لسؤال المشركين عنها, أي: في أيِّ شيء أنت يا محمد؟ وهو معنى: {**فِيمَ**}. أن تذكر لهم وقتها, وتُعلِمهم به, حتى يسألونك عن بيانها! كقوله تعالى في مقام آخر: {**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا**} [الأعراف:187], أي: ما أنت من ذكراها لهم, وتبيين وقتها في شيء؛ لأن ذلك فرع علمك به, وأنى لك ذلك؟ وهو ممَّا استأثر الله تعالى بعلمه, وهو علاَّم الغيوب.

84- عزاه السيوطي في الدر المنثور (413/8)، لابن أبي حاتم، وابن مردويه، وضعف إسناده.

ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له, أي: فيمَ أنت من ذلك حتى يسألوك بيانه, ولستَ ممَّن يعلمه, والذكرى بمعنى الذكر.

{إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا}

أي: منتهى علمها عنده وحده, فلا يوجَد عند غيره إذْ لم يؤْتِه تعالى أحدًا من خلقه, وهو كقوله تعالى في الأعراف: **{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}** [الأعراف:178], وكقوله في آخر لقمان: **{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}** [لُقْمَانَ:34], وهي من مفاتيح الغيب الخمسة التي صَحَّ بها الحديث[85], ولهذا لما سأل جبريلُ الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الساعة قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[86].

{إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}

إنما يبعثك الله للإنذار والتخويف للجميع, وللتبشير أيضاً, كما قال تعالى: **{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}** [النساء:165], وإنما اكتفى بالإنذار هنا لاقتضاء المقام, كما قال تعالى: **{إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}** [هود:12], **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار}** [ص:65].

والمعنى هنا: أنَّ وظيفتك هو امتثال ما أُمِرتَ به, من بيان اقترابها, كما في قوله تعالى: **{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** [القمر:1], **{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}** [الأنبياء:1], **{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}** [النحل:77], وعليك تفصيل ما فيها من فنون الأهوال, كما تحيط به خُبْرا, لا تعيين وقتها الذي لم يُفوَّض إليك, فما لهم يسألونك عمَّا ليس من وظائفك بيانه؟!

85- رواه البخاري في الاستسقاء (1039)، عن ابن عمر.
86- متفق عليه: رواه البخاري (50)، ومسلم (9)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

إنك إنما بُعثتَ للإنذار بوجوب الساعة، واقترابها من الناس, وهذا المعنى لا يتوقَّف على علمك بوقت قيام الساعة, (بل لو أنصفنا لقلنا – ما قال الرازي – بأن الإنذار والتخويف إنما يتمَّان إذا لم يكن العلم بوقت قيام الساعة حاصلا)[87].

الحكمة من تخصيص الإنذار بمن يخشى ؟

ثم إنه صلى الله عليه وسلم منذر للجميع بحكم رسالته: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}** [الأحزاب:45], إلا أنه خصَّ الإنذار بمَن يخشى؛ لأنه هو الذي يتأثَّر بالإنذار وينتفع به, وإن كان منذرًا لكلِّ مكلَّف, وهو كقوله تعالى: **{إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ}** [يس:12], وكقوله تعالى: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}** [البقرة:2], مع قوله في آية أخرى: **{هُدًى لِلنَّاسِ}** [البقرة:185]؛ لأن المتَّقين هم الذين سيستنيرون بنوره, ويحسنون فَهمه واتِّباعه.

فهو تعالى يقول لرسوله: إنما بعثتُك لتنذر الناس وتُحذِّرهم من بأس الله وعذابه, فمَن خشي الله وخاف مقامه ووعيده, اتَّبعك فأفلح وأنجح, والخيبة والخسار على مَن كذَّبك وخالفك.

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}

أي: أنهم إذا قاموا من قبورهم إلى المَحشَر, ورأَوا الساعة التي كانوا يسألون عنها, حاضرة، يستقصرون مُدَّة الحياة الدنيا, حتى إنها كانت عندهم قدر عشية من يوم, أو ضحى من يوم. والمعنى: أن ما أنكروه سَيَرونه، حتى كأنهم أبداً فيه, وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً من نهار, ثم مضت.

87- انظر: تفسير الرازي (51/31).

والمراد: تقليل مدَّة الدنيا, فالعشيّة: ما بين الظهر إلى غروب الشمس. والضحى: ما بين طلوع الشمس إلى منتصف النهار. وفي آية في آخر سورة الأحقاف: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ}** [الأحقاف:35].

قال الفرَّاء: يقول القائل: وهل للعشية ضحى؟ وإنما الضحى لصدر النهار, ولكن أضيف الضحى إلى العشية – وهو اليوم الذي يكون فيه – على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها, وآتيك العشية أو غداتها[88]. فتكون العشية في معنى آخر النهار, والغداة في معنى أول النهار[89].

وقال الرازي: (إنَّ النَّحْويين قالوا: يكفي في حُسْن الإضافة أدنى سبَب. فالضحى المُتقدِّم على عشيّة، يصحُّ أن يقال: إنه ضحى تلك العشيَّة. وزمان المحنة قد يُعبَّر عنه بالعشيَّة، وزمان الراحة قد يُعبَّر عنه بالضحى، فالذين يحضرون في موقف القيامة، يُعبِّرون عن زمان محنتهم بالعشيَّة، وعن زمان راحتهم بضُحى تلك العشيَّة، فيقولون: كأنَّ عمرنا في الدنيا ما كان إلا هاتين الساعتين. والله سبحانه وتعالى أعلم)[90] اهـ.

* * *

88- انظر: معاني القرآن للفراء (234/3).
89- تفسير القرطبي (210/19).
90- تفسير الرازي (51/31).

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

{عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)}

عناية القرآن بالمستضعفين والفقراء

{عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) }

سبب النزول:

السورة مكيَّة بالإجماع. وقد ذكر غير واحد من مفسِّري السلف: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يخاطب بعض عظماء قريش – وقيل: إنهم أكثر من واحد – وقد طمع في إسلامه، ولعل بإسلامه يُسلم آخرون، فبينما هو يخاطبه، ويعرض عليه دعوته ويناجيه، إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممَّن أسلم قديما، وله حُظوة عند رسول الله، فجعل يسأل الرسول عن شيء، ويلحُّ عليه أن يجيبه، وودَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يكفَّ ساعته تلك، ليتمكَّن من مخاطبة ذلك الرجل المشرك، طمعا ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى ما أنزل في هذه السورة الكريمة، التي تعاتب رسوله الكريم بكلِّ صراحة، بادئة بقوله تعالى: **{عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى}.**

والعبوس: تقطيب الوجه واربداده عند كراهية أمر، والتَّولِّي: الإعراض.

والعابس والمتولِّي هنا هو الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ذكره الله تعالى بصيغة الغائب، ولم يذكره بصيغة المخاطب فيقول له: عبستَ وتولَّيتَ، رفقا به، وتعظيماً له، وحفاظاً عليه، وإن كان بعض المفسِّرين اعتبر ذلك مبالغة في العتب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض.

وقد رُوي عن سفيان الثوري أنه قال: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم، بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم قال: "مرحبا بمَن عاتبني فيه ربِّي". وبسط له رداءه[91].

وقال أنس بن مالك: رأيتُ ابن أم مكتوم يوم القادسية وعليه درع، ومعه راية سوداء، واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة مرتين[92].

91- انظر: تفسير القرطبي (213/19).

92- رواه أحمد (12343) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الصلاة (595)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (608).

سر العتاب الشديد على سيد الخلق :

لِمَ هذا العتاب الشديد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أجل هذا المسلم القديم الإسلام، الذي اعتمد النبي الكريم على قوَّة إسلامه، وقِدَم إيمانه، وطمع في إسلام الكبراء، أمثال: الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأخيه شيبة، وأمية بن خلف، وأمثالهم؟

كأنَّ ما فعله النبي الكريم يُوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، والكبراء على المستضعفين، وبهذا تنكسر قلوب هؤلاء في مقابلة أولئك المستكبرين، والله تعالى لا يحبُّ ذلك، وقد قال تعالى لرسوله: **{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** [الكهف:28].

إن كلَّ ما يُوهم ترجيح الدنيا على الدين مرفوض بالكلية في نظر القرآن.

لقد أراد الله تبارك وتعالى أن يقول قولاً فاصلاً في هذا الأمر، حتى لا يرتاب فيه مرتاب، ولا يُشكِّك فيه مُشكِّك، وهو أنَّ الإسلام لا يُعنى بهؤلاء الناس الذين يُسمُّونهم الكبار، والطبقات الراقية، والعليَّة في المجتمع، من أصحاب المال والجاه، والثراء والقوَّة والأتباع، وإنَّ خيرا منهم وأزكى عند الله تعالى، وعند الصالحين من عباده: أولئك المؤمنون الصالحون الأبرار، وإن كانوا من المستضعفين والفقراء، الذين لا يملكون مالاً ولا منزلةً ولا أتباعاً، إنما يعتزُّون بإيمانهم بالله، وصلتهم بالله، وخشيتهم لله، ورجائهم في الله، وتوكُّلهم على الله.

وكان هذا البيان القرآني القوي هو العُدَّة التي يُعتدُّ بها في هذه المعركة التي نصر الله فيها الرجل الأعمى – وهكذا سمَّاه القرآن ليظهر لنا ضعفه – على الأغنياء والكبراء، الذين قال منهم مَن قال: **{لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}**

[الزخرف:31]. فإن العظمة عندهم إنما تُقاس بما يملك الإنسان من الذهب والفضة والأموال.

{أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى}

لِمَ عبس محمد وتولَّى؟ بأيِّ سبب؟ إن ذلك كان بسبب أن جاءه الأعمى، وذِكْره بـ (الأعمى) ليس تحقيراً له؛ بل كأنه قيل: إنه بسبب عماه استحقَّ مزيداً من الرفق والرأفة، فكيف بك – يا محمد – أن تَخُصَّهُ بالغلظة؟

{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى}

أيُّ شيء يجعلك يا محمد دارياً بحاله، لعله قدم إليك ليتعلَّم منك، وينتفع بعلمك، ويَتَزكَّى ويتطهَّر من الجهل أو الإثم بما يُلقَّن منك، أو يَتَذكَّر ويَتَّعظ فتنفعه ذكراك، أي: موعظتك فيكون له نصيب في بعض الطاعات. وبالجملة، فلعل ذلك العلم الذي ينفعه منك يطهِّره عن بعض ما لا ينبغي، وهو الجهل والمعصية، أو يشغله ببعض ما ينبغي، وهو الطاعة والخير.

الاستغناء بالمال من أسباب الطغيان :

{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى }

أما مَن استغنى بالمال، ورأى نفسه مستغنياً عن الناس بما لديه من ثروة، وهذا من أسباب الطغيان، إذا رأى نفسه مستغنياً بما لديه عن غيره، كما قال الله تعالى: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}** [العلق:6، 7]. إذا رأى نفسه استغنى، لأدَّى به ذلك إلى الطغيان.

والمراد هنا: مَن استغنى بالمال والثراء، عن الإيمان وعمَّا عندك من العلم والمعرفة، التي ينطوي عليها القرآن.

{فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى}

تصدَّى : الأصل تتصدى ، وحذفت إحدى التائين تخفيفا . والمعنى : تتعرَّض له، وتقترب منه، وتهتمُّ به، وتميل إليه، وتُقبل عليه، وعلى إرشاده وإصلاحه. وفيه تنفير له عليه السلام من مصاحبة هؤلاء، لأن الإقبال على المُدبر عنك ليس من كريم الشيَم.

{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) }

أي : ليس عليك لوم في أن لا يتطهَّر بالإسلام من دنس الشرك .

{وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}

والموقف المقابل لهذا، معاكس ومغاير تماماً لما ينبغي أن يكون، ذلك أن مَن جاءك يسعى لطلب الخير، أي: جاء في همَّة وسرعة، وليس في ثِقل وبطء، وهو متَّصف بالخشية، وإذا ذُكرت الخشية فإنما يُراد بها خشية الله وحده، ولكن القرآن هنا لا يذكر المخشيَّ، وهو معروف، وهو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه نزَّل الفعل المتعدِّي منزلة الفعل اللازم، بمعنى أن الخشية أصبحت صفة ثابتة لازمة له معروفة به.

{مَنْ جَاءَكَ}، بهذه الصورة، وهذه السيرة، **{فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}**، أي: تتشاغل وتتغافل عنه، مهتمًّا بشأن الصناديد.

وفي تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعل في قوله: **{فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}**، وفي قوله قبل ذلك: **{فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى}**: تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيَّته صلى الله عليه وسلم، أي: مثلك – يا محمد – خصوصا لا ينبغي أن يتصدَّى للمستغنين، ويتلهَّى عن الفقير الطالب للخير. وبذلك يتعلَّم المسلم أنه لا يجوز أن يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدَّى – مُعرِضًا عنه – لغني قط.

القرآن عظة ينتفع بها من كانت عنده إرادة صادقة

{ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) }

{كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ}

كلا: ردع له عليه الصلاة والسلام عمَّا عُوتب لأجله، من التَّصدِّي لمَن استغنى، والإعراض عمَّن جاء يسعى وهو يخشى.

{إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ}، إشارة إلى آيات القرآن، التي نزلت في هذه السورة، وفي غيرها، فهي موعظة أيُّ موعظة، تذكِر مَن ينسى، وتنبِّه مَن يغفل، وتعلِّم مَن يجهل، يجب أن يُتَّعظ بها، ويُعمل بموجبها، والجملة تعليل للردع، ببيان عُلوِّ رتبة القرآن العظيم، الذي أعرض عنه، الذين تصدَّى لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وعُني بشأنهم.

{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ}

أي مَن كانت عنده مشيئة وإرادة في ذكر هذا القرآن، وقد قلنا: إنه مراد في قوله: **{إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ}**، وإنما أنَّث الضمير لتأنيث الخبر، فمَن شاء رعى القرآن، واتَّعظ به، ومَن رغب عنه، كما فعل المستغني، فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره، وفي سورة المدثر: **{كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ}** [المدثر:54، 55].

سر اتصال هذه الآية بما قبلها:

سأل الفخر الرازي هنا سؤالا عن كيفيَّة اتِّصال هذه الآية بما قبلها، وجعل جوابه من وجهين: (الأول: كأنه قيل: هذا التأديب الذي أوحيتُه إليك، وعرَّفتُه لك، في إجلال الفقراء، وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا، أُثبت في اللوح المحفوظ، الذي وكِّل بحفظه أكابر الملائكة.

الثاني: كأنه قيل: هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحدِّ العظيم، فأيُّ حاجة إلى أن يقبله هؤلاء الكفار، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه، فلا تلتفت إليهم، ولا تشغل قلبك بهم، وإيَّاك أن تُعرض عمَّن آمن به، تطيبياً لقلب أرباب الدنيا)[93] اهـ.

{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ}

هذا القرآن الكريم في صُحُف مُكرَّمة عند الله الكريم الذي أنزلها وكرَّمها، وهي مُكرَّمة كذلك لما فيها من العلم والهداية والحكمة، وهي مكرَّمة لأنَّ الله تعالى صانها وحفظها من كلِّ ما يدنِّسها أو يضيِّعها.

وهي **{مَرْفُوعَةٍ}**، بمعنى أنها رفيعة القدر عند الله تعالى. كما أنها مرفوعة ومحفوظة من الشُّبَه والتناقض، كما قال تعالى: **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}** [النساء:82]، وهي مع رفعتها **{مُطَهَّرَةٍ}**، أي: مَصُونة من كلِّ أذى، أو دنس، بحيث لا ينالها الكفار.

السَّفَرة الكرام البرَرة :

{بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ}

مَن هم هؤلاء السَّفَرة ؟ إنهم الملائكة الذين جعلهم الله سبحانه سفراء بينه وبين رسله، فهم بررة لم يتدنَّسوا بمعصية، وهم الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، واحدهم: (سافر)، كقولك كاتب وكَتبَة، والسفير: الرسول والمصلح بين القوم. ويُجمع على سفراء، مثل: فقيه وفقهاء.

وقال بعض المفسِّرين: (السَّفَرة): أصحاب النبي[94]. وقال الإمام ابن العربي: (لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله علية وسلم سفرة كراما بررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه

93- تفسير الرازي (55/31).

94- عزاه السيوطي في الدر المنثور (418/8)، لعبد بن حميد، وابن المنذر، عن وهب بن منبه.

الآيـة، ولا قـاربوا المـرادين بهـا. بـل هـي لفظـة مخصوصـة بالملائكـة عنـد الإطـلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم)[95].

واستدلّ لذلك بالحديث المروي في الصحيحين عن عائشة، وسيأتي ذكره قريبا[96].

{كِـرَامٍ بَـرَرَةٍ}، أي كرام علـى ربِّهم، كمـا أنهـم كـرام عـن المعاصـي والمُدنِّسـات، يرفعون أنفسهم عنها، ويُؤْثِرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم.

{بَـرَرَةٍ}، جمـع بـارٍّ، يقـال: بـرٌّ، وبـارٌّ إذا كـان أهـلاً للصـدق، ومنـه: بـرَّ فـلان فـي يمينـه. أي: صـدق. وفـلان يبرُّ خالقه وَيتَبرَّره. أي: يطيعـه، فمعنـى **{بَـرَرَةٍ}**: مطيعون لله تعالى، صادقون لله في أعمالهم.

وفي سورة الواقعة قال الله تعالى عن القرآن: **{إِنَّـهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّـهُ إِلَّا الْمُطَهَّـرُونَ}** [الواقعـة:77–79]. وهـؤلاء الملائكـة المطهَّـرون هنـا هـم الكـرام البررة في سورتنا.

قال ابن كثير في شرح **{كِرَامٍ بَرَرَةٍ}**: (أي خلْقهم كريم ،حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بـارَّة طـاهرة كاملـة. ومن هـا هنـا ينبغـي لحامل القرآن أن يكـون فـي أفعالـه وأقوالـه على السَّداد والرَّشاد)[97].

وذكر حديث الإمام أحمد، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الذي يقرأ القرآن وهو مـاهر بـه مـع السفرة، الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاقٌّ، لـه أجران"[98].

95- أحكام القرآن لابن العربي (363/4). دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.
96 - صـ .
97- تفسير ابن كثير (321/8).
98- رواه أحمد (24211)، والحديث متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4937)، ومسلم في صلاة المسافرين (798)، عن عائشة.

مبدأ خلق الإنسان ومراحل وجوده

{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) }

{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}

دعـاء علـى هـذا الإنسـان، جـنس الإنسـان، لا شـخص مُعـيَّن، كمـا قـال بعـض المفسِّرين، معتمداً على ما قيل من سبب النزول[99]، الذي لم يأتِ به دليل صحيح. وممَّا يـدلُّ علـى ذلـك، أنَّ الله تعـالى ذمَّ المشـركين لاسـتكبارهم بـأموالهم، وتـرفُّعهم علـى غيـرهم، فوجب أن يعمَّ الحكم بسبب عموم العلَّة.

كما أنه تعالى زيَّف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان في الابتداء والانتهاء، على ما قال: **{مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَـهُ فَـأَقْبَرَهُ}**، وعموم هذا الزَّجْر يقتضي عموم الحكم. وأيضاً فإن حمل اللفظ على هذا الوجه أكثر فائدة، واللفظ محتمل له، فوجب حمله عليه، كما قال الرازي[100]. والدعاء على الإنسان بالقتل من أشنع دعوات العرب؛ لأن القتل غاية شدائد الدنيا.

{مَا أَكْفَرَهُ}، يحتمل وجهين:

الوجـه الأول: إما أن تكون (ما) تعجُّبية، أي: ما أشدَّ كفره، وما أقبح كفره بالله خالقه ورازقه، وكفره بنعمه التي يسبغها عليه ظاهرة وباطنة، فهو سبحانه يعجب من إفراط الإنسان في كفران نِعَم الله، مع معرفته بكثرة إحسان الله إليه، كما قال تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}** [إبراهيم:34].

وقوله: **{مَا أَكْفَرَهُ}**، تنبيهٌ على أنواع القبائح والمنكرات التي يقترفها الإنسان الكفور.

والوجه الثاني: أن تكون (ما) استفهاميَّة، فكأنَّ الآية تقول: أيُّ شيء دعا الإنسان إلى الكفر بربِّه وبنعمته؟ فهو استفهام توبيخ.

99- تفسير القرطبي (217/19).
100- تفسير الرازي (57/31).

ولقد ذكر العلماء هنا: أن لكلِّ مخلوق مُحدَث ثلاث مراتب أو محطَّات في وجوده، ولكني أراها أربعة: الأولى والوسطى والآخرة والأخرى، وأنه تعالى ذكر هذه الأربعة للإنسان بلغة موجزة معجزة، في هذا الجزء (جزء عم)، الذي تميَّز بقصار الآيات، وقصار السور.

المحطة الأولى: خلقه من نطفة.

فالمرتبة أو المحطة الأولى تتمثَّل في قوله تعالى: **{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}**، وهو استفهام، وغرضه زيادة التقرير في التحقير، كما قال الرازي[101]، ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله: **{مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}**، ولا شك أنَّ النطفة – وهي ماء الرجل الذي يلقح بويضة المرأة – شيء حقير مَهين، في حجمه الذي لا يُرى إلا بالمجهر، وفي مظهره الخارج من مجرى البول، ولذا قال تعالى: **{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}** [المرسلات:20].

وليس الغرض من هذا تحقير الإنسان، فما بهذا جاء القرآن الذي كرَّم الإنسان غايةَ التكريم، ولكن الغرض منه أن يذكِّر الإنسان أن مَن كان أصله من مثل هذا الماء المهين، فإن التَّكبُّر والتَّجبُّر لا يكون لائقا به.

قال الحسن: كيف يتكبَّر من خرج من سبيل البول مرتين[102]. يعني: مرَّة حين كان نطفة، ومرَّة عند الولادة.

ما معنى التقدير هنا في قوله: {فَقَدَّرَهُ}؟

101- المصدر السابق نفسه.

102- رواه أحمد بن حنبل في الزهد والورع (1657).

بعضهم قال: قدَّره أطواراً: نطفة، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم عظاماً، ثم تُكسى العظام لحماً، إلى آخر ما هو معلوم من خلق الإنسان.

ومنهم مَن قال: قدَّره على الاستواء المطلوب، الذي يتمُّ به الخلق، كما قال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}** [الأعلى:2]، وقال تعالى على لسان الصاحب المؤمن: **{أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}** [الكهف:37].

كما يحتمل أن يكون التقدير هنا: قدَّر لكلِّ عضو، ولكلِّ مفصل، وكلِّ عصب، وكلِّ خلية، ما يستحقُّ من الإعداد والإمداد، بالكميَّة والكيفيَّة، بالقدر اللائق بمصلحته، وتمام خِلقته، كما قال تعالى: **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}** [الفرقان:2]. وقال عزَّ وجلَّ: **{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه:50].

المحطة الثانية: تيسير السبيل:

ثم ذكر ربُّنا جلَّ وعلا المحطة أو المرتبة الثانية، وهي الوسطى في وجود الإنسان، وهي المتمثِّلة في قوله تعالى: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَه}**، وهذه هي المرتبة الوسطى وهي المرتبة المهمَّة، التي يقرِّر الإنسان فيها مصير نفسه، بما يختاره من طريق، وما يهتدي إليه من منهج، وما يتَّخذه من دين، فما معنى تيسير السبيل هنا؟

قال بعضهم: المراد تسهيل خروجه من بطن أمه. قالوا: إنه كان رأس المولود في بطن أمه من فوق، ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب. فمَن الذي أعطاه ذلك الإلهام إلا الله؟ ومما يؤكِّد ذلك: أن خروجه حيًّا من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب. وهذا يمكن أن يكون جزءا من تيسير السبيل، ولكنه ليس كلَّ المطلوب ليمثل المرحلة الوسطى على أهميَّتها وقدرها.

ومن هنا نقل الرازي عن المفسِّر المعروف أبي مسلم الأصبهاني: إن (المراد من هذه الآية هو المراد من قوله تعالى: **{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** [البلد:10]. فهو يتناول التمييز

بين كلِّ خير وشرٍّ يتعلَّق بالدنيا، وبين كلِّ خير وشرٍّ يتعلَّق بالدين. أي: جعلناه مُتمكِّنًا من سلوك سبيل الخير والشرِّ. والتيسير يدخل فيه الإقدار، والتعريف، والعقل، وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب)[103] اهـ

وهذا معنى كبير مهمٌّ، وهو داخل في قوله تعالى: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}** [الإنسان:3]، وهو ما جاء عن عدد من مفسِّري السلف، مثل: مجاهد الذي قال: يسَّره لطريق الخير والشرِّ، أي بيَّن له ذلك، بدليل: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}**[104]. وقاله الحسن وعطاء، بل ابن عباس أيضا في رواية أبي صالح عنه[105].

المحطة الثالثة: الإماتة والإقبار:

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}

هذه هي المحطة الثالثة والأخيرة في الحياة الدنيا: أن كلَّ حيٍّ ينتهي إلى الموت: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}** [آل عمران:185].

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائع[106]

وبعد الحياة يكون الموت أو الإماتة، كما هو تعبير القرآن، فالإنسان يُمات في أجله المقدور، الذي لا يستأخر عنه ولا يستقدم، **{إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [نوح:4]، **{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}** [المنافقون:11].

ولكن من فضل الله على الإنسان: أنه كما قدَّر عليه أن يُميته وينهي أجله، قدَّر على أن يُقبر، أي: يجعل له قبرا يُدفن فيه، ومعنى **{فَأَقْبَرَهُ}**: أي يجعل له قبرا يُوارى فيه، إكراما له. ولم يجعله مما يُلقى على وجه الأرض، تأكله الطير والسباع والعوافي.

المحطة الرابعة: النشر بعد الموت:

103- تفسير الرازي (58/31).
104- رواه الطبري في تفسيره (537/23).
105- انظر: تفسير الزمخشري (703/4).
106 - من شعر لبيد بن أبي ربيعة.

{ثم إذا شاء أنشره}

هذه هي المحطة الرابعة, وهي المحطة النهائية، فليس الموت نهاية المطاف, بل بداية لمرحلة جديدة تأتي بعد ذلك, حين ينشر اللهُ الموتى, ويبعثهم للحشر والموقف والحساب والجزاء في يوم عظيم، **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [المطففين:6].

فهو يبقى في قبره إلى ما شاء الله في حياته البرزخيَّة، على ما ورد في أمر المقبورين, ثم ينفخ الملك الموكَّل بالصُّور النفخة الثانية, لينشر الله الموتى, ويحيي الجثث, ويخرج الناس من الأجداث إلى ربِّهم ينسلون.

هذا **{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا}** [المزمل:14], **{يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}** [المزمل:17], يوم **{كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** [المعارج:4], طالما سأل الرسل والأنبياء ربَّهم أن ينجِّيهم من هوْل هذا اليوم، كما قال إبراهيم خليل الله: **{وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [الشعراء: 87–89].

وفي سور جزء عم هذا، وصف هائل لهذا اليوم, الذي نسأل الله تعالى أن يجعلنا في هذا اليوم من الآمنين، الذين يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه, ويشملنا عزَّ وجل بمغفرته ورحمته, ويعفو عنا بفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه.

ترك الإنسان الكافر حق الله عليه :

{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}

(كلا): زجْر وردع للإنسان الكافر المتطاول المُدَّعي, فإن الكافر إذا أُخبر بالنشور, قال: **{وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}** [فصلت:50]. وربَّما يقول: قد قضيتُ ما أُمرتُ به. فردَّ سبحانه وتعالى: ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر، أنه قد أدَّى حقَّ الله عليه في نفسه وماله. فهو ردٌّ لما عسى أن يكون للكفار من اعتراضات في هذه

الأقوال المسرودة، ونفيٌ مؤكَّد لطاعة الإنسان لربِّه، وإثبات أنه ترك حقَّ الله تعالى, ولم يقضِ أمره.

نعم الله في ثمانية أنواع من النبات، ممَّا يحتاج إليه الناس وأنعامهم

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) }

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}

لما ذكر جلَّ ثناؤه ابتداء خلق الإنسان, ومراحل وجوده, إلى أن أنْشَره الله وبعثه, ذكر عزَّ وجلَّ ما يسَّر من رزقه, وما هيَّأ له في الأرض من أسباب, وأن عليه أن ينظر في هذا التدبير الإلهي, وما فيه من نِعَم كبيرة تغمر الإنسان أبدا بفضل الله تعالى وإحسانه. فلينظر كيف خلق الله طعامه؟ وهذا النظر المطلوب ليس مجرَّد رؤية البصر, بل هو نظر القلب بالفكر, أي التَّدبُّر كيف خلق الله طعامه, الذي هو قوام حياته, وكيف هيَّأ له أسباب المعاش, ليستعدَّ بها للمعاد؟

وهنا ينقلنا القرآن من النظر في خلق الإنسان وبدايته ووسطه وخاتمته, حتى انتهى بالبعث والنشور, إلى النظر فيما حول الإنسان, وإن لم يبتعد كثيراً عنه, ولكن ليكون أبداً بين آيات الله في الأنفس، وآياته في الآفاق.

{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا }.

بيَّن الله تعالى بصيغة الجمع **{أَنَّا}** يعدِّد ما قام به سبحانه وتعالى من إحداثات وإجراءات كونية, يرتِّب عليها رزق الإنسان, الذي ينبع أساساً من الأرض, وما ينبت فيها من زروع وثمار وخضروات وفواكه وحشائش.

قصَّ الله سبحانه علينا في كتابه ما فعله في أرضه؛ ليُتمَّ علينا النعمة بالنبات والحبِّ والزرع الذي نأكله ونشبع منه، ونتنعَّم به.

فأول ما يفعله ربُّنا: أنه يَصُبُّ الماء علينا صبًّا. والمراد بالماء هنا: ماء الغيث والأمطار, فهو الذي يُصَبُّ حين ينزل بقوَّة من فوق. وهذا لا يمنع من أن بعض الناس يُسقون بالأنهار, كما قال تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ}** [إبراهيم:32].

يقول الرازي: (انظر كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة, وكيف يبقى مُعلَّقا في جوِّ السماء مع غاية ثقله, وتأمَّل في أسبابه القريبة والبعيدة, حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته, وفي تدبير خلقة هذا العالم)[107].

{ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا}

المراد: شقُّ الأرض بالنبات، أي: أسكنَّا الماء فيها, فدخل في تخومها, وتخلَّل في أجزاء الحبِّ المودع فيها, فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض.

ثم ذكر عزَّ وجل ثمانية أنواع من النبات، مما يحتاج إليه الناس وأنعامهم:

الأول: الحَبُّ, قال تعالى: **{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا}**، مثل القمح والشعير والذرة والأرز والبقول، وغيره من كلِّ ما يُحصد ويُدَّخر. وإنما قدَّم ذلك, لأنه الأصل في الأغذية.

الثاني: **{وَعِنَبًا}**، وإنما ذكر العنب بعد الحَبِّ, لأنه غذاء من وجه، وفاكهة من وجه, وقد ذكره تعالى من فاكهة الجنَّة, كما قال تعالى في سورة النبأ, وقد مرَّ بنا: **{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}** [النبأ:31، 32].

الثالث: **{وَقَضْبًا}**، القَضب، وهو: القتِّ والعلف, قاله الحسن[108]. وسُمِّي بذلك لأنه يقضب, أي يقطع بعد ظهوره مرَّة بعد مرَّة, وأهل مكة يُسمُّون القتَّ: القضب.

107- تفسير الرازي (59/31).
108- رواه الطبري في تفسيره (116/24).

وقال ابن عباس: هو الرُّطَب؛ لأنه يُقضب من النخل, ولأنه ذكر العنب قبله[109]. وقد قوَّى ابن عباس رأيه هنا بذكره مع العنب في آية واحدة. وأزيد أيضا: بأنه ذُكر مع مجموعة المأكولات البشريَّة كلِّها من: الحبِّ والعنب والقضب والزيتون والنخل.

وقال بعضهم: القضب: اسم يقع على ما يُقضب من أغصان الشجرة, ليُتَّخذ منه سهام أو قسيٌّ[110]. ويعني جميع ما يُقضب, مثل: القتِّ والكرَّاث, وسائر البقول التي تُقطع, فينبت أصلها.

الرابع والخامس: {وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا}، وهما من أسماء النباتات التي هيَّأها الله لينتفع بها الناس. الزيتون: ممَّا يُؤْتدم به, وكذلك عصيره, ويستصبح به, ويُدَّهن به، فهو طعام ودواء ووقود, وقد مدحه الله تعالى في القرآن, قال تعالى: **{وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ}** [المؤمنون:20]، وأقسم به تعالى في كتابه مع التين فقال: **{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}** [التين:1].

{وَنَخْلًا}، وهو النخيل المبارك الذي يُنتفع بكلِّ شيء فيه، حتى بجريده وخوصه ولحائه وجذوعه ونواه, ويؤكل بلحاً وبُسراً ورُطباً وتمراً, ونيئاً ومطبوخاً, ويعتصر منه زيت وخلٌّ.

والسادس: ما عبَّر عنه بقوله: **{وَحَدَائِقَ غُلْبًا}**، أي: بساتين, واحدها: حديقة. قالوا: وكلُّ شيء أُحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة. وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة.

ومعني **{غُلْبًا}**: أنَّ شجرها عظام, يقال: شجرة غلباء. ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مصمت العنق, لا يلتفت إلا جميعا. ورجل أغلب بيِّن الغلب، إذا كان غليظ الرقبة. والأصل في الوصف بالغلب: الرقاب, فاستعير. وحديقة غلباء: ملتفة الشجر.

109- انظر: تفسير القرطبي (221/19).
110- المصدر السابق نفسه.

والمراد: أن هذه الحدائق التي تحيط بهذه الأرض المزروعة, ذات أشجار ملتفَّة, وفروع سامقة, وأوراق خضر, تعطي المنظر الجميل, والظلّ الظليل, والنعمة بما فيها من حبوب وزروع وأشجار، كما أنها تلطِّف الجوَّ, وتحمي البلاد من التلوُّث البيئي الذي يشكو منه العالم في عصرنا.

والنبات السابع: نجده في قوله: **{وَفَاكِهَةً}**، وهو كلُّ ما يُتفكَّه به من النباتات, مثل: الرمان والجُوافة والكُمِّثرى والتفاح والبرتقال والبِطيخ والشمَّام والفراولة والكَرَز والمشمش والخَوْخ والبُرقوق وغيرها، مما أخرجه الله من الأرض، وهو ألوان وأنواع.

والنبات الثامن والأخير: هو ما جاء في قوله تعالى: **{وَأَبًّا}**، وقد اختلفوا في تحديد معناه. والأولى: أنه – كما قال ابن عباس والحسن – كلُّ ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس. وما يأكله الآدميون هو الحصيدة[111].

وإنما سُمِّي أَبًّا؛ لأنه يُؤَبُّ, أي: يؤم وينتجع.

روي الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري بسنده، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب: **{عَبَسَ وَتَوَلَّى}**، فلما جاء على هذه الآية: **{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}**، قال: عرَفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إنَّ هذا لهو التكلُّف[112]. وذكره ابن كثير، وقال: (هذا إسناد صحيح. وقد رواه غير واحد عن أنس به. وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو – وكل مَن قرأ هذه الآية – يعلم أن

111- رواه الطبري في تفسيره (121/24)، وانظر: تفسير القرطبي (222/19).

112- رواه الطبري في تفسيره (120/24).

الأبَّ – من نبات الأرض؛ لقوله تعالى: **{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}**، وقوله تعالى: **{مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}**، أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة)[113] اهـ

{مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}

أي أن الله تعالى أخرج هذه النباتات الثمانية بأنواعها وأصنافها, وكليَّاتها وجزئياتها, ليجعلها متاعا ومنفعة لكم ولأنعامكم، وجميع الحيوانات التي تخدمكم وتنفعكم, وليس لله فيها أو منها شيء.

113- تفسير ابن كثير (325/8).

بيان أحوال المعاد وما فيه من أهوال

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)}

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}

بدأ القرآن الكريم يشرع في بيان أحوال المعاد وما فيه من أهوال, بعد أن ذكر مبدأ خلق الإنسان ومعاشه, والفاء في قوله: **{فإذا}**، للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها, من فنون النعم والنباتات التي وفَّرها الله سبحانه للناس وأنعامهم, ثم أخذ ينذر الناس بمجيء الصاخَّة, ليتزوَّدوا لها بالأعمال الصالحة، والإنفاق بما امتنَّ عليهم.

و**{الصَّاخَّةُ}**، من الأسماء القرآنيَّة التي سمَّى بها يوم القيامة, وقد جاء اسمها بهذه الألفاظ الضخمة القوية مثل الصاد والخاء, وبهذا الوزن القائم على المدِّ الكَلِمي المثقَّل, كما مرَّ في قوله تعالى: **{الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3)}** [الحاقة:الآيات 1–3] ومثل الطامَّة، وكما يأتي في سورة (القارعة), حتى إنَّ القرآن هنا غيَّر في صيغ الآيات وخواتيمها للتنبيه على التميز.

و**{الصَّاخَّةُ}**، هنا كالطامَّة الكبرى, التي حدَّثنا القرآن عنها في سورة (النازعات) السابقة، وهو ما يحدث يوم القيامة, حين ينقلب النظام الكوني, وتَتَبدَّل الأشياء غير

الأشياء, ويفاجأ الناس بما لم يكونوا يحتسبون, في الأرض والسماوات والنجوم والشمس والقمر, وكلِّ شيء ومن ذلك هذه {**الصَّاخَّةُ**}, وهي: الداهية التي يصيخ إليها الخلائق.

قالوا: هي الصيحة الهائلة التي تكون عنها القيامة, تصخُّ الأسماع, أي: تصمُّها فلا تسمع إلا ما يُدعى به الأحياء.

(قال الخليل: {**الصَّاخَّةُ**}، صيحة تصخُّ الآذان, أي تُصمُّها بشدَّة وقعتها.

وأصل الكلمة في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذة من صخَّه بالحجر إذا صكَّه ... ومن هذا الباب قول العرب: صخَّتهم الصَّاخَّة, وباتتهم البائتة، وهي الداهية.

وقال العلاَّمة ابن العربي: {**الصَّاخَّةُ**}، التي تُورث الصَّمَم, وإنها لمُسمعة, وهذا من بديع الفصاحة, حتى لقد قال بعض حديثي الأسنان, حديثي الأزمان:

أصمَّ بك الناعي   وإن كان أسمعا!

وقال آخر:

أصمَّني سرُّهم أيام فرقتهم   فهل سمعتم بسرٍّ يورث الصمما؟

لعمر الله إنَّ صيحة القيامة لمسمعة، تصمُّ عن الدنيا وتُسمِع أمور الآخرة)[114] اهـ.

يوم الأنانيَّة والفرديَّة المطلقة :

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}

114- ذكره القرطبي في تفسيره (224/19).

يوم القيامة يوم ليس كسائر الأيام في كلِّ شيء, في طوله, في زحامه, في عرقه, في أحواله, في انكشاف الناس فيه, في خوف الناس منه, في اشتغال كلِّ امرئ بأمر نفسه, إنه يوم الأنانيَّة، ويوم الفرديَّة المطلقة, كلُّ الروابط الفطريَّة والطبيعيَّة التي كانت تربط الناس بعضهم ببعض، من الأبوَّة والأمومة والبنوَّة والأخوَّة والزوجيَّة, فضلاً عن العمومة والخؤولة, لم يعُد لها تأثير في ذلك اليوم.

الأم التي كانت تُلقِي بنفسها إلى التَّهلكة من أجل ولدها, والأب الذي كان يفدي أولاده بنفسه وماله, والأخ الذي كان يخوض المعارك من أجل إخوته, والزوج الذي كان يُضحِّي بنفسه حمايةً لزوجته, والزوجة التي كانت تلاقي الأهوال لتحمي زوجها, كلُّ هؤلاء لم يعودوا في يوم القيامة يذكرون أحدا إلا أنفسهم, فاليوم رهيب, والموقف عصيب, والمصير مجهول، ولا يعرف أحد ماذا يكون في حسابه، أو ماذا تحمل موازينه؟ ولا يدري أهو ناجٍ أم هالك، أم بين بين؟

لا يستطيع أحد أن يتنازل لأحد – أيًّا كان هذا الأحد – عن حسنة من حسناته, فهو لا يدري: لعلَّ ميزانه قد يفتقر إلى هذه الحسنة, لا يمكنه في هذا اليوم أن يُؤثِر بهذه الحسنة ابناً أو بنتاً, أو أباً أو أماً, أو زوجة أو زوجاً, أو أخاً أو أختاً.

لماذا هذا البخل، وهذا الشحُّ؟ لماذا لا يجود الناس بعضهم على بعض؟

لقد وضح القرآن عن ذلك حين قال: **{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}**، يفرُّ منهم بعد أن كان يُقبل عليهم؛ لأنه مشغول عنهم بأمر نفسه, وقد علم من كتاب ربِّه وسنة نبيه أنهم مشغولون مثله, لا ينفعونه ولا يُغنون عنه شيئا, كما قال تعالى: **{يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا}** [الدخان:41], **{وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا}** [لقمان:34].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلا". لم يختنوا. قلتُ: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: "يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلي بعض"[115].

ورواه الترمذي في جامعه، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تُحشرون حُفاة عُراة غُرْلا". فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: "يا فلانة، **{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}** [عبس: 37]. وقال: حديث حسن صحيح[116].

وجوه السعداء المضيئة ووجوه الأشقياء المظلمة :

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}

بعدما حدَّثنا القرآن عن أحوال الناس بعد الصَّاخَّة, وفرار كلِّ امرئ بنفسه من أقرب الناس إليه, فهو لا يذكر إلا نفسه.

حدَّثنا: أن الوجوه في يوم القيامة نوعان, كما أن الناس نوعان: سعداء وأشقياء, فللسعداء وجوههم, وللأشقياء وجوههم, والمرء يُعرف من وجهه، فهو مرآته الناطقة.

وجوه السعداء في هذا اليوم مُسفرة, أي: مشرقة مضيئة متهلِّلة, من: أسفر الصبح، إذا أضاء, وفي القرآن: **{وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ}** [المدثر:34]، فهي منيرة بادٍ ضوؤها وسرورها. تجد هذا الإسفار والنور والإشراق على تلك الوجوه, وليس هذا فحسب, بل هي وجوه ضاحكة, أي مسرورة فَرِحة، كأنَّ الوجه كلَّه يضحك, والضحك

---

115 - متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (6527)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (2859).
116 - رواه الترمذي (3332)، والحاكم (251/2) كلاهما في التفسير، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

إنما يكون من الفرح والابتهاج, وهي كذلك مُسْتَبْشِرة, من سرور قلوبهم, قد ظهر البِشْر على وجوههم.

أي: تستشعر البشر في مستقبلها, لاتخافه، ولا تتهيَّب منه، فلا تحزن على ماضٍ, ولا تجزع من حاضر, ولا تخاف من مستقبل، **{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}** [يونس:62–64].

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ 40 تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}

الغبرة: الغبار والدخان والسواد.

ترهق هذه الوجوه التي تعلوها وتغشاها قترة أي: كسوف وسواد.

وفسَّر ابن عباس القترة بالذلة والشدَّة[117]. يريد أن العبرة ليست باللون فقط فبعض الناس قد يكون هو أسود اللون بحسب بيئته, ولكن المهم هو الكآبة والمذلَّة التي تحيط بالإنسان وتغشاه في هذا اليوم.

وقال زيد بن أسلم: القترة: ما ارتفعت إلى السماء. والغبرة: ما انحطت إلى الأرض, والغبار والقترة واحد[118].

{أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}

بيَّن الله بصريح العبارة مَن هم هؤلاء أصحاب هذه الوجوه المنكرة, فأوجزهم في الآية القصيرة, وهذه العبارة الموجزة، فوصفهم بهذين الوصفين الكبيرين: الكفر والفجور, والكفر أمر يتعلَّق بالقلوب والعقول والاعتقادات, والفجور يتعلَّق بالأبدان والأعمال, فإذا اجتمع

117- رواه الطبري في تفسيره (127/24).
118- المصدر السابق نفسه.

الكفر والفجور فى فرد أو جماعة كان من شرِّ الناس, كما قال تعالى في قوم نوح: **{ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا}** [نوح:27].

وفي الحديث وصف الرسول الكريم المنافق الخالص بأربع خصال منها: أنه "إذا خاصم فجر"[119]. أي غلا في الخصومة.

وقد يعبِّر القرآن عن الكفر بالفجور, كما قال في قوله تعالى: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}** [الانفطار:13-14].

* * *

119- متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغضب (2459)، ومسلم في الإيمان (58)، عن عبد الله بن عمرو.

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)}

مقاصد السورة:

السورة مكيَّة بالإجماع، وهي تتحدَّث عن القيامة ومقدِّماتها وتوابعها، ثم يُقسم الله فيها بالنجوم والليل والصبح وبعض ما خلق الله، على عظمة هذا القرآن، وقوَّة مَن جاء به إلى رسول الله ،وهو جبريل عليه السلام، وما له من مكانة وطاقة، وما يتَّصف به من قوَّة وأمانة، ويوكل في النهاية الأمر إلى الله ربِّ العالمين.

روى الإمام أحمد والترمذي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأي عين فليقرأ: **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}**، وَ **{وإِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ}**، و **{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}**". قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[120].

120- رواه أحمد (4806) وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي (3333)، والحاكم (515/2)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14) }

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}

الشمس هي هذا الكوكب العظيم، الذي ينسب الفلكيون ورجال العلم مجموعتنا الكبيرة إليه، فيُسمُّونها: المجموعة الشمسيّة، وهي المجموعة الفلكيّة والأرضيّة، التي ترتبط بهذه الشمس، وتتحرَّك وتسبح وتدور، بحسب حركتها وتوجُّهها. وهذه المجموعة منها: أرضنا التي نعيش عليها، والتي بُسطت لنا ومُدَّت وجعلت ذلولا. ومنها القمر، ومنها سائر الكواكب المعروفة، وهي: زُحل والمشتري والمريخ والشمس وعطارد وغيرها، مع القمر والأرض.

والشمس كغيرها سابحة في الكون، كما يقول القرآن الذي اختار لها لفظ السباحة، فقال: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}** [الأنبياء:33].

وردت الشمس في القرآن ثلاثا وثلاثين (33) مرَّة باسمها الصريح، وذكرت مرَّتين بوصفها: أنها سراج، أو سراج وهاج. وقد بيَّن الله في سورة نوح أنه جعل الشمس سراجا، حين قال نوح لقومه: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** [نوح:15، 16]، وقال تعالى في سورة النبأ

{وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} [النبأ:13]، وفي سورة الفرقان: **{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}** [الفرقان:61].

والسراج يحمل عنصرين: الضوء والحرارة، ولهذا خصَّ الله الشمس بأنها ذات الضوء الذي معه الحرارة، بخلاف القمر فليس فيه إلا النور، أما الشمس فهي جسم ملتهب شديد الحرارة.

وحرارة الشمس شيء هائل، حتى إن بعض العلماء الذين حاولوا التفسير العلمي للقرآن، اعتبرها (الجحيم) في قوله تعالى: **{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}** [التكاثر:6]، ولكن هذا التفسير خاطئ؛ لأن الفعل المضارع المؤكد بالنون يكون للمستقبل، فنحن سنرى الجحيم في الدار الآخرة، **{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا}** [مريم:71]. بيد أن المتَّفق عليه بين الجميع: هو القوة الشديدة الفظيعة التي أمدَّ الله بها الشمس.

لماذا الشمس؟

ويتحدَّث العالم الكوني الكبير الدكتور زغلول النجار عن طاقة الشمس في كتابه (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: السماء)، فيقول: (تطلق الشمس من الطاقة ما يقدَّر بنحو خمسمائة ألف مليون مليون مليون حصان في كلِّ ثانية, ويصل إلى الأرض منها واحد في الألف فقط تقريبًا, ويمثِّل ذلك مصدر كلٍّ من الحرارة والضوء وغيرهما، من مختلف صور الطاقة على الأرض – باستثناء الطاقة النوويَّة – وتعتمد كلُّ الأنشطة الطبيعيَّة على سطح الأرض على الطاقة الشمسيَّة, فقد أعطى الله تبارك وتعالى، للشجر الأخضر القدرة على اختزان جزء كبير من طاقة الشمس، على هيئة روابط كيميائية فيما تنتجه من سكريات ونشويات وزيوت وغيرها من المنتجات النباتيَّة, وذلك بتفاعل أشعة الشمس مع كلٍّ من العصارة الغذائية للنبات – المكونة من معادن الأرض والماء – وثاني أكسيد الكربون مُطلِقًا الأوكسجين؛ كما أعطى ربُّنا تبارك وتعالى كلاًّ من الإنسان والحيوان القدرة على الاستفادة بتلك

الطاقة الشمسية المخزونة في المنتجات النباتية في جميع أنشطتها الحيوية, وذلك بإحراقها في أثناء عملية التمثيل الغذائي، فتتحوَّل هذه المواد مرَّة أخرى إلى ماء وثاني أكسيد الكربون.

ثم من فضلات كلٍّ من النبات والحيوان والإنسان، تتكوَّن مصادر أخرى للطاقة مثل الخشب، والقش، ورَوْث الحيوان، وفضلات الإنسان التي تتكوَّن منها أغلب مصادر الطاقة الطبيعية، مثل الفحم النباتي, الفحم الحجري, النفط, الغاز الطبيعي, وغيرها)[121].

ولهذا أقسم الله سبحانه بالشمس وضحاها، وهو الغني عن القسم لعباده، لينبِّهنا على الأهمية القصوى للشمس، التي بدونها ما قامت الحياة على الأرض، ولا عاش إنسان ولا حيوان ولا نبات.

ثم تحدَّث الدكتور النجار عن الشمس ومجموعتها الشمسيَّة، والمسافات الشاسعة بين بعضها وبعض، فيقول: (تتراوح المسافة بين الشمس والكواكب السيَّارة المرتبطة بها، والدائرة في فلكها بين (58) مليون كيلومتر وأكثر من (6000) مليون كيلومتر.

وتختلف الظروف الطبيعية على الكواكب في مجموعتنا الشمسية تبعًا لقربها من الشمس أو بُعدها عنها, وتبعًا لحجم كلٍّ منها, وبالتالي حجم الغلاف الغازي المحيط بها.

والكواكب – في مجموعها – تدور حول الشمس في أفلاك شبه دائريَّة في الاتجاه نفسه, وهي في مساراتها تلك تختلف المسافة بين كلٍّ منها والشمس, كما تختلف سرعة جري الكوكب الواحد باختلاف بعده عن الشمس, فتصل سرعة الكوكب

121- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي للدكتور: زغلول النجار، السماء (1/445- 446)، ط. وزارة الأوقاف القطرية، سنة:1428هـ، 2007م.

أقصاها، وهو أقرب ما يكون من الشمس, وتقلُّ بالتدريج بابتعاده عنها، حتى تصل سرعته أدناها، وهو أبعد ما يكون عن الشمس.

وحركات الكواكب حول الشمس يحكمها توازن دقيق بين قوَّتين متضادتين، هما قوة جذب الشمس للكوكب, والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الكوكب حول الشمس, والتعادل الدقيق بين هاتين القوَّتين هو الذي حدَّد للكواكب أفلاكها الثابتة, وحدَّد جريها فيها، وحفظها من الانطلاق إلى فسحة الكون أو السقوط في سعير الشمس، وذلك كلُّه بتقدير من الخالق الحكيم الخبير سبحانه وتعالى.

والكواكب في الوقت نفسه تتجاذب فيما بينها تجاذبًا أقل من جذب الشمس لكلٍّ منها، مما يعين على احتفاظها بأبعادها الثابتة فيما بينها.

والنهار والليل يتعاقبان على كلِّ كوكب في مجموعتنا الشمسية, ويتمُّ ذلك في مدد متفاوتة تفاوتاً كبيرًا؛ لاعتماده على حجم وكتلة الكوكب وسرعة دورانه حول محوره، وكذلك تتفاوت سنة كلِّ كوكب بتفاوت بُعده عن الشمس, وبتفاوت سرعة جريه في مداره حولها، حتى يتمَّ دورة كاملة .

وبدوران الأرض حول محورها تتم الحركة الظاهرية لكلٍّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب التي تتراءى لنا عبر السماء،. وتتتابع الفصول على أرضنا بسبب ميل محور الأرض في دورانها حول الشمس)[122].

هذه الشمس المخلوقة المُسخَّرة العظيمة، لن تظلَّ كما هي أبد الدهر، بل لا بدَّ لها أن تدخل في النظام الكوني، الذي قدر الله أن يصيبه التَّفكُّك والانهيار، والتَّبدُّل والتَّغيير، وَفْق إرادة إلهيَّة، تحسب لكلِّ شيء حسابه، وتعدُّ له عدَّته.

122- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي، السماء (444/1).

أخبرنا الله في كتابه العزيز المحفوظ القرآن الكريم بهذا التغيير، حينما قال: **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}** [إبراهيم:48]. وفي هذا التبدُّل الكوني نزلت هذه السور الكريمة، من هذا الجزء الأخير من القرآن الكريم، سورة **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}**، و **{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}**، و **{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}**، ليُعلمنا ما لا بدَّ أن نتعلَّمه، وينبِّهنا إلى ما يجب أن لا نغفل عنه، من أحداث ضخام في هذا الكون ستتغير رأسا على عقب، يُحدِثها من خَلَقَه مَن عدم، ومَن رعاه بقدر، ومَن حفظه من الفناء الكلي أو الجزئي، إلى وقت معيَّن مقدَّر له في علمه وحكمته.

ستة أحداث كبرى تحدث قبل قيام القيامة:

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}

ذكرت السورة هنا اثني عشر شيئا من الأشياء المهمَّة والخطيرة تحدث بعضها قبل قيام الساعة، وبعضها بعد قيام الساعة. وأول ما يحدث من التغييرات في النظام الكوني: تكوير الشمس، الذي عبَّر الله عنه بهذا الأسلوب، فالأصل في شرط إذا أن يكون الفعل بعدها، مثل: **{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ}** [المنافقون:1]، و **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [النصر:1]، **{فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ}** [الأعراف:34] .. إلخ، ولكن في هذه السورة جاء الاسم بعد إذا.

1 – تكوير الشمس :

اختلف مفسِّرو السلف في معنى التكوير، ذكر ابن كثير: (قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}**، يعني: أظلمت. وقال العوفي عنه: ذهبت. وقال مجاهد: اضمحلَّت وذهبت. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: ذهب ضوؤها. وقال سعيد بن جبير: **{كُوِّرَتْ}**، غُوِّرت. وقال الربيع بن خُثَيم: **{كُوِّرَتْ}**،

يعني: رُمي بها. وقال أبو صالح: {كُوِّرَتْ}، أُلقيت. وعنه أيضا: نكِّست[123]. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض)[124].

وقال أبو السعود: ({إِذَا الشمس كُوِّرَتْ}، أي لُفَّتْ، من كَوَّرت العمامةَ إذا لففتها، على أَن المراد بذلكَ إما رفعُها وإزالتُها منْ مَقَرِّها، فإن الثوب إذا أُريدَ رفعه يلفُّ لفًّا ويُطوى، ونحوه قوله تعَالَى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} [الأنبياء:104]. وإما لفُّ ضوئها المنبسطِ في الآفاق، المُنتشر في الأقطارِ على أنه عبارة عن إزالتها والذهاب بها، بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم، أو أُلقيت عن فلكها كما وُصفت النجوم بالانكدار من: طعنه فكوَّره، إذا ألقاه على الأرض)[125].

والمهم من هذا كِّله: أن تكوير الشمس معناه: أن هذا النجم ذا الطاقة الهائلة، قد شاخ وهرم، وأصابه ما أصابه، كتلك المخلوقات التي تخضع طوعا وكرها، لما أراده خالقها، الذي إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون.

2 – تناثر النجوم ونساقطها:

{وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}، هذا الأمر الثاني من الأمور الاثني عشرة، ومن الستة التي تحدث قبل قيام القيامة، ومعنى **{انْكَدَرَتْ}**: أي: تناثرت وتساقطت، بعد أن كانت تُزيِّن السماء، ويهتدي الناس بها في ظلمات البرِّ والبحر، (كما قال تعالى: **{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}** [الانفطار:2]، والأصل في الانكدار الانصباب، قال الخليل: يقال انكدر عليهم القوم، إذا جاءوا أرسالا فانصبُّوا عليهم[126].

قال القرطبي: (ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها. وسُمِّيت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها.

123 - روى هذه الآثار الطبري في تفسيره (129/24- 131).
124- تفسير ابن كثير (328/8).
125- تفسير أبي السعود (114/9).
126- انظر: تفسير الرازي (63/31).

وعن ابن عباس أيضا: {انْكَدَرَتْ}، تغيَّرت[127] فلم يبقَ لها ضوء، لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارب)[128].

3 – تسيير الجبال :

{وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ}

هذا هو الأمر الثالث: تسيير الجبال، هذه الأجرام العظيمة على الأرض، فُلقت منها ونُسِفت، وسُيِّرت في الهواء، كما قال تعالى: **{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً}** [الكهف:47]، وقيل: تسييرها: تحويلها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبا مهيلا. أي: رملاً سائلاً، وتكون كالعهن، وتكون هباء منثوراً، وتكون سراباً، مثل السراب الذي ليس بشيء. وعادت الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمْتاً. وهو ما توضِّحه آيات القرآن في سور شتَّى.

4 – تعطيل النُّوق الحوامل:

{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}

هذا هو الأمر الرابع. والعشار: جمع عُشَراء، وهي الناقة التي عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضا. وهذه النُّوق من أعزِّ الأموال عند العرب، وخصوصا الحوامل، التي في بطونها أولادها، ومن عادة العرب الاهتمام بها، والاشتغال بأمرها، ولكن في هذا الزمان الذي كُوِّرت فيه الشمس، وانكدرت النجوم، وسُيِّرت الجبال، لم يعد أحد يُعنى بعشراء أو بإبل أو بقر أو غنم، والغرض: ذهاب الأموال، وبطلان الأملاك، واشتغال الناس بأنفسهم، لا بأنعامهم ولا إبلهم، كما قال تعالى: في يوم القيامة: **{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**

127- رواه الطبري في تفسيره (133/24).
128- تفسير القرطبي (228/19).

[الشعراء:88، 89]، وقال عزَّ وجلَّ: **{وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ}** [الأنعام:94].

جمع الوحوش من كل ناحية:

{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}

وهذا الخامس. الوحوش: جمع وحش، وهو كلُّ حيوان من دواب البرِّ لا يُستأنس، وهو أنواع وألوان بالمئات والألوف من الفصائل، التي تمتلئ بها البراري والوديان وأقطار الدنيا المختلفة.

ومعنى حشرها: أي جمعها من كلِّ ناحية لما دهم أوكارها من الزلزال والتخريب .

قال الإمام محمد عبده في تعيين المراد من جمعها: (إما جمعها لاستيلاء الرعب عليها، وخروجها من أجحارها وأوكارها، ونسيانها ما كانت تخافه فتفرَّ منه، فتُحشر هائمة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يخشى جميعها سطوة الإنسان.

وقيل: حشر الوحوش: موتها وهلاكها، يقال إذا أجحفت بالقحط والجدب وأضرت بالناس: حشرتهم السَّنَة، أي: أهلكتهم، وهلاكها من هول ذلك الحادث الأعظم ...

وقد قيل في حشر الوحوش: إنه جمعها يوم القيامة للحساب، وهو ضعيف بعيد؛ لأن الكلام الآن في حوادث التخريب قبل البعث بالفعل، وأول الكلام في البعث قوله تعالى: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ})**[129].

6-امتلاء البحار ناراً:

{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}

129- تفسير جزء عم للإمام محمد عبده صـ30، دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان.

الأمر السادس: تسجير البحار، من المعلوم أن حوالي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، بحار ومحيطات عظيمة، تزخر بالمياه، وبينها حواجز ذكرها القرآن، تحجز بين البحار المالحة، والأنهار العذبة، كما في قوله تعالى: {**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا**} [الفرقان:53].

كما رأينا بين النيل والبحر الأبيض المتوسط، وهناك حواجز بين البحار بعضها وبعض، بحيث لا يختلط ماؤها بماء تلك، ولا أسماك هذه وأحياؤها بأسماك تلك وأحيائها، كما شاهدنا ذلك في جنوب أفريقيا، بين المحيط الأطلسي، والمحيط الهندي، ووقفنا هناك بين المحيطين، ورأينا بأعيننا احتفاظ كلٍّ منهما بخصائصه وأحيائه وأسماكه وكثافته ولونه ... إلخ.

ولكن عندما يتغيَّر النظام الكوني الذي عرَفه الناس، وعرفه أباؤهم وأجدادهم طوال القرون، فتكوَّر الشمس، وتنكدر النجوم، وتُسيّر الجبال، وتُحشر الوحوش، نجد هذا التغيير يُحدِث أثره في البحار الكبرى في العالم، فسُجِّرت البحار، ومعنى التسجير، مأخوذ من قولهم: (سَجَرت التنُّور إذا أوقدته، والشيء إذا أوقدت فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذ لا يبقي في البحار شيء من المياه ألبتة.

ثم إن الجبال قد سيِّرت، على ما جاء في هذه السورة وفي غيرها، وحينئذ تصير البحار والأرض شيئا واحدا في غاية الحرارة والإحراق، ويحتمل – كما قال الإمام الرازي – أن تكون الأرض لما نشفت مياه البحار ربَت – أي: زادت وانتفخت – فارتفعت فاستوت برؤوس الجبال.

قال: ويحتمل أنَّ الجبال لما اندكَّت، وتفرقت أجزاؤها، وصارت كالتراب، وقع ذلك التراب في أسفل الجبال، فصار وجه الأرض مستويا مع البحار، ويصير الكل بحرا مسجورا)[130].

وقالوا: يجوز أن تكون **{سُجِّرَتْ}** بمعنى: فجِّرت، بمعنى: أن الله رفع الحواجز والبرازخ، التي كانت بين البحار بعضها وبعض، ففاض بعضها في بعض، وأصبح بحرا كبيرا واحدا.

هذه العلامات الست التي تقع قبل القيامة, وأما الست الباقية الأخرى, مما ذكرته السورة، تختصُّ بالوقوع في يوم القيامة.

أحداث ست تختصُّ بالوقوع في يوم القيامة

1-اقتران الأرواح بالأجسام وضمُّ كل شيء إلى نظيره :

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}

أول هذه الستّ التي تختصُّ بالوقوع في يوم القيامة: أن تُزوَّج النفوس, **وكيف تُزوَّج النفوس؟**

لمفسِّري السلف في ذلك أقول متعدِّدة. منهم: مَن فسَّر النفوس بالأرواح. ومعنى ذلك: أن تقترن بالأجسام. وقال بعضهم: (يُضَمُّ إلى كلِّ صنف مَن كان في طبقته من الرجال والنساء, فيُضمُّ المبرَّز في الطاعات إلى مثله، والمتوسط إلى مثله, وأهل المعصية إلى مثله. فالتزويج هنا: أن يقرن الشيء بمثله. والمعنى: أن يُضمَّ كلُّ واحد إلى طبقته في الخير والشرِّ)[131]. وهو ما عبَّر عنه بعضهم بقوله: يُجمع كلُّ شكل إلى نظيره. وعن مجاهد قال: الأمثال من الناس جُمع بينهم[132]. وقال الحسن: يصيرون فيها ثلاثة أزواج,

130- تفسير الرازي (65/31).
131- تفسير الرازي (65/31).
132- رواه الطبري في تفسيره (143/24).

كما قال الله: {**وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**} [الواقعة:7-11].

وقيل: يضمُّ كلُّ رجل إلى مَن كان يلزمه من ملك أو سلطان, كما قال تعالى: {**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ**} [الصافات:22]. وقيل: قُرن كلُّ امرئ بشيعته, اليهودي باليهودي, والنصراني بالنصراني, والمجوسي بالمجوسي. وقيل: قُرنت النفوس بأعمالها المناسبة لها.

قال الرازي بعد أن ذكر سبعة من هذه الأقاويل: (واعلم أنك إذا تأمَّلتَ في الأقوال التي ذكرناها, أمكنك أن تزيد عليها ما شئتَ)[133].

(وممَّا رواه ابن أبي حاتم من طرق عن النعمان بن بشير، أن عمر خطب الناس فقرأ: {**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**}، فقال: تَزوُّجها: أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم. وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنّة أو النّار. وفي رواية: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح, ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار, فذلك تزويج الأنفس. وفي رواية: هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة, والرجل يزوَّج نظيره من أهل النار)[134]. وكلُّها متقاربة, بعضهم من بعض.

2- سؤال مَن قتل المؤودة بأشنع وسيلة عن سبب قتلها؟

{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}

الموءودة: هي البنت الصغيرة التي كان أهل الجاهلية العربية يدفنونها حيَّة, يدسُّونها في التراب, كراهية للبنات.

133- تفسير الرازي (65/31).
134- ذكره ابن كثير في تفسيره (332/8).

كان العرب يتشاءمون من ولادة البنات ويكرهونها, حتى إنَّ أحدهم قيل له: إن امرأتك ولدت. قال: وما ولدت؟ قالوا: أنثى. قال: ما هي بنِعْم الولد؛ فنصرها بكاء, وبرُّها سرقة. أي: إذا أرادت أن تنصر أباها على خصومه، ليس معها سلاح إلا دموعها, وإذا أرادت أن تبرَّه تسرق من مال زوجها!

هذه فكرة كثير من عرب الجاهلية عن الابنة الأنثى, ولذا قال تعالى: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}** [النحل: 58، 59]. فجنت عليهم الجاهلية التي توارثوها, أن يجزوا هذه المولودة الصغيرة بالوأد. أي: القتل، عن طريق دفنها حيَّة, ثم يُغطَّى عليها بالتراب حتى تموت.

وحسب الإسلام فخرًا، أنه قضى على هذه الجريمة الكبيرة الجاهليَّة, فقد كانت هذه جريمة مضاعفة, تحمل عدَّة جرائم كبرى في جريمة واحدة.

ما فعلته الجاهلية المتوحِّشة في قتل الأطفال :

فإن القتل في حدِّ ذاته جريمة من أكبر الجرائم في نظر الإنسان في أيِّ بلد, وفي أيِّ قرن. ولكن من المعروف لدى الجميع: أن قتل الأطفال, يكون أكبر جُرماً, وأعظم إثما من قتل الكبار, وخصوصا كلَّما زاد صغرهم.

وكذلك حين يكون القتل من أجل أنه يزاحم الكبار في رزقهم, فيقتل ولده مخافة أن يطعم معه, مع أن الأب من شأنه أن يجوع ليشبع ولده، ويتعب ليرتاح ولده.

ثم إن المفروض أن يكون القاتل غريباً عن المقتول، أما هنا فالمصيبة أن القاتل هو الأب، وكيف يكون الوالد قاتلا لولده؟!

هذا ما فعلته الجاهلية المتوحِّشة، التي لا تخشى خالقًا، ولا ترحم مخلوقًا. ثم ليتها نفَّذت جريمة القتل بما يُقتل به الناس عادة، بالسيوف أو الرماح، أو الحراب أو

الضرب بالسهام، مما يعجِّل بقتل الإنسان وإزهاق رُوحه، ولكن هؤلاء اختاروا أسوأ وسيلة للقتل، وهي الوأد، والدسِّ في التراب، والبنت حيَّة، **{أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}** [النحل:59].

هذه الجريمة التي نصَّ عليها القرآن هنا؛ لتكون مأساة، وفضيحة للجاهلية، ولكلِّ الجاهليات، التي لا تبالي بسفك الدماء، وقتل البرآء، وخصوصاً من الأطفال، فكم قتلوا من نفس زكيَّة بغير نفس ولا فساد في الأرض، فجزاهم الله بما يستحقُّون.

روى عبد الرزاق عن عمر، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، إني وأدتُ بنات لي في الجاهلية. فقال: "أعتق عن كلِّ واحدة منهنَّ رقبة". قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل؟ قال: "فانحر عن كلِّ واحدة منهن بَدَنَة"[135].

القرآن الكريم ذكر هذه القضية من ضمن الأحداث الستة، التي تبرز يوم القيامة: أن يسأل اللهُ الموءودةَ المقتولة: **{بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}**؟! وليست البنت المسكينة هي المقصودة بالسؤال، فهي لا تُحسن الجواب، وربَّما لا تُحسن أن تفهم السؤال. فهي صغيرة السنِّ، قليلة الرشد. إنما السؤال موجَّه إلى مَن قتلها بغير حقٍّ، وقتلها بأشنع وسيلة؟

ومعنى هذا في يوم القيامة: أن الحساب والسؤال قد بدأ للناس عن أعمالهم، كما قال تعالى: **{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الحجر:92، 93].

135- رواه البزار (238)، والطبراني (337/18)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (11469) : رواه البزار والطبراني، ورجال البزار رجال الصحيح غير حسين بن مهدي الأيلي وهو ثقة، من طريق عبد الرزاق.

3- نشر صحف الأعمال :

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ}

هذا هو الأمر الثالث ممَّا يحدث في يوم القيامة. والمراد بالصحف: صحف الأعمال التي يدوَّن فيها ما عمله الإنسان, من كبير أو صغير, وقول وفعل ونيَّة جازمة, فهذه كلُّها يكتبها قلم التَّسجيل الإلهيّ على الإنسان, بواسطة الملائكة المُوكَّلين بالإنسان, كما قال تعالى: **{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}** [الزخرف:80], وقال تعالى: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** [الإنفطار:10-12], وقال عزَّ وجلَّ: **{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [ق:17، 18].

فهذه الصحف مفتوحة ما دام الإنسان حيًّا, يُكتَب فيها جميع أعماله من خير وشرٍّ, طاعة أو معصية، أو ما ليس بطاعة ولا معصية, فإذا مات الإنسان طُويت هذه الصحف, حتى يأتي يوم القيامة, فتُنشر مرَّة أخرى, وتُكشف, ليقرأها صاحبها بنفسه, كما قال تعالى: **{اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** [الإسراء:14].

قال قتادة: صحيفتك – يا ابن آدم – تُملي فيها, ثم تُطوى, ثم تنشر عليك يوم القيامة, فلينظر رجل: ماذا يملى في صحيفته[136]!

وقال الضحَّاك في معنى الآية: أُعطي كلُّ إنسان صحيفة بيمينه أو بشماله[137].

4-إزالة السماء :

{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ}

136- رواه الطبري في تفسيره (148/24).

137- تفسير ابن كثير (335/8).

هذا هو الأمر الرابع, ومعنى الكشط هنا: القطع والإزالة, قالوا: الكشط: قلعٌ عن شدَّة التزاق, فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الذبيحة, وكما يُكشف الغطاء عن الشيء المستور به, فتكشف السماء عما فوقها, وهو عرش الله والجنة.

وقيل: كُشطت, أي: طُويت, كما قال تعالى: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}** [الأنبياء:104].

5 – تسعير الجحيم :

{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ}

هذا هو الأمر الخامس, كما تذكر السورة ممَّا يقع يوم القيامة, وهو: تسعير الجحيم، بمعنى: إحمائها وإيقادها إيقاداً شديداً, وتهيئها لمَن أُعدَّت له. قال قتادة: إنما سعَّرها غضب الله تعالى, وخطايا بني آدم[138].

6 – تقريب الجنة :

{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ}

هذا هو الأمر السادس في الأمور التي تحدث في الآخرة, وهو الثاني عشر والأخير, في كلِّ ما ذكرته السورة, فيما يقع قبل القيامة وبعدها.

ومعنى أزلفت: أي أُدنيت وقُرِّبت للمتقين, كما سُعِّرت الجحيم للفجَّار.

والزلفى في كلام العرب: القُربى, قال تعالى: **{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}** [الشعراء:90، 91], وقال سبحانه: **{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}** [ق:31].

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ}

138- رواه الطبري في تفسيره (150/24).

بعد وقوع الأمور الاثنى عشر التي ذكرتها السورة, كشروط لـ{**إِذَا**}، من تكوير الشمس, وانكدار النجوم, وتسيير الجبال, وتعطيل العشار, وحشر الوحوش, وتسجير البحار, ممَّا يقع قبل القيامة. ثم تزويج النفوس, وسؤال الموؤدة, ونشر الصحف, وكشْط السماء, وتسعير الجحيم, وإزلاف الجنَّة, وهو ما يقع في القيامة. هنا يأتي الجواب على ذلك كلِّه، إذا حدث ذلك, {**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ**}. هذا هو الجواب, أي: إذا وقعت هذه الأمور, حينئذ تعلم كلُّ نفس ما عملت في الدنيا من خير أو شر.

كما قال تعالى: {**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا**} [آل عمران:30], وقال تعالى: {**يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**} [القيامة:13], وعن عمر: أنه لما نزلت: {**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**}، قال عمر, لما بلغ: {**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ**}: لهذا أجرى الحديث[139].

139- ذكره ابن كثير في تفسيره (335/8)، بإسناد ابن ابي حاتم.

القسم ببعض مخلوقات الله على عظمة هذا القرآن

{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) }

دلالة القسم المنفي في قوله تعالى : {فَلَا أُقْسِمُ}

{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}

بعض المفسِّرين قالوا هنا: لا في قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ}** زائدة, والمراد: أُقسم. وأحسب أن القول بزيادة حروف في القرآن غير مقبول, فكلُّ حرف فيه له وضعه، وله دلالته, وأعتقد أن (لا) النافية لها معناها, أي: لست في حاجة إلى القسم بهذه الأشياء؛ لأن هذه الأشياء بيّنة واضحة, وليست غامضة ولا خافية, مثل هذا في قوله تعالى: **{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ *}** [القيامة:1، 2], وقبله: **{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ}** [المعارج:40], ومثله قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}** [الواقعة:75، 76].

فهو هنا يؤكِّد أن القَسَم موجود وأنه قَسَم عظيم؛ لأن المعنى هنا يراد به: أنه لا يحتاج إلى قسم.

ومثل ذلك ما سيأتي في هذا الجزء من قوله في سورة الانشقاق: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}** [الانشقاق:16-18][140], وقوله في سورة البلد: **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** [البلد:1-2][141], فكلُّها تصبُّ في المجرى الكبير, وهو أن ما يقسم الله به من هذه الأشياء والمخلوقات, ليس سبحانه مفتقراً إلى الإقسام بها؛ لأن ما يقسم عليه في غاية الوضوح والتأكيد؛ لأن الأمر واضح ولا يحتاج إلى قسم.

القسم بالنجوم :

فبماذا يقسم الله تعالى هنا؟ إنه يقسم بالنجوم, التي تخنس وتختفي بالنهار, وتظهر وتتجلَّى بالليل, وهو مروي عن سيدنا علي رضي الله عنه[142].

وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم: الخُنَّس، أي: في حال طلوعها، ثم هي جوارٍ في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها: كُنَّس. من قول العرب: أوى الظبي إلى كِنَاسه: إذا تغيَّب فيه[143].

(والخنس: جمع خانس وخانسة, والخنوس: الانقباض والاستخفاء, يقولون: خنس من بين القوم وانخنس. وفي الحديث: "الشيطان يوسوس إلى العبد, فإذا ذكر الله خنس". أي انفضَّ. لذلك سُمِّي الشيطان: الخنَّاس.

{الْكُنَّسِ}: جمع كانس وكانسة, يقال: كُنَّس إذا دخل الكِناس, وهو مقر [بقر] الوحش[144], يقال: كنس الظباء في كُنُسها, وتكنست المرأة إذا دخلت هودجها تشبه بالظبي إذا دخل الكناس)[145].

---

140 - سيأتي صـ .
141 - سيأتي صـ .
142- رواه الطبري في تفسيره (152/24).
143- تفسير ابن كثير (337/8).
144- في الرازي مقر الوحش، وأثبتنا الصواب.

القسم بالليل والنهار :

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}

وبعد أن أقسم الله تعالى بالنجوم في خنوسها, وفي جريانها وكنوسها, أقسم بظاهرتين أخريين من ظواهر هذا الكون الذي نعيش فيه, ظاهرة الليل إذا أظلم, والصبح إذا أشرق, وقد عبَّر عنه بهذين التعبيرين الجميلين: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}**.

فما معنى عسْعَسة الليل؟

قيل: إنه العسعسة من المتضادَّات, فتُحمل على الإقبال, وعلى الإدبار, ولهذا قال بعضهم هنا: **{إِذَا عَسْعَسَ}**، أقبل وأظلم وانتشر ظلامه, وعكسه: **{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}**, أي أسفر واستنار وأشرق, وامتدَّ ضوءه وتكامل سفوره.

وقال آخرون: إنه يريد الإقسام بظهور النور بعد الظلام, والصباح بعد الدُّجى, فمراده بالليل إذا عسعس, أي: إذا أدبر وذهب, وبالصبح إذا تنفَّس, ليكمل مسيرة الضياء والإسفار, فهو كقوله تعالى: **{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ}** [المدثر:33، 34], مشيراً إلى تكامل طلوع الصبح, فلا يكون فيه تكرار.

والتعبير بتنفُّس الصبح، يوحي كأن الليل المظلم مكروب محزون ضاق به الصدر, حتى تنفَّس, فجاءته الحياة, ووجد الرُّوح والراحة, وأقبل بإقبالة الصبح عليه نسيمٌ ونشاطٌ.

145- تفسير الرازي (67/31).

وقال العلامة ابن كثير: (وعندي أن المراد بقوله: **{عَسْعَسَ}**، إذا أقبل. وإن كان يصحُّ استعماله في الإدبار أيضا، لكن الإقبال ها هنا أنسب؛ كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}** [الليل:1، 2]، وقال تعالى: **{وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [الضحى:1، 2]، وقال تعالى: **{فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا}** [الأنعام: 96]، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة: **{عَسْعَسَ}**، تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصحُّ أن يراد كلٌّ منهما، والله أعلم)[146] اهـ.

مكانة جبريل عليه السلام وأوصافه:

{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}

بعد أن فرغ من المقسم به, وهو بعض خلقه, وله أن يقسم بما شاء من خلقه لينوِّه به وينبِّه عليه، ذكر المُقسَم عليه وهو القرآن العظيم, ومَن نقله إلى الناس, وحمله إليهم, وبلَّغه إلى الرسول البشري محمد صلى الله عليه وسلم, ليحفظه فلا ينسى, ويبلِّغه إلى مَن حوله, ليحفظوه ويكتبوه, ويبلِّغوه ويعلِّموه؛ ولذا قال هنا: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}**.

{إِنَّهُ}، إشارة إلى القرآن, مع أنه لم يذكره, ولكنه غائب حاضر, هو في كلِّ قلب, وعلى كلِّ لسان.

والرسول الكريم هنا هو الرسول الملائكي, وهو ملك شريف, حسن الخَلْق, بهي المنظر, وهو جبريل عليه السلام, فهو الذي ينزل بالقرآن, كما قال الله تعالى: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}** [الشعراء:193–195].

146- تفسير ابن كثير (8/ 338).

{ذِي قُوَّةٍ}، وقد وصفه الله هنا بعدَّة صفات تميِّزه وتعرِّفه، **{ذِي قُوَّةٍ}** كما قال في سورة النجم: **{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}** [النجم: 4-6], أي شديد الخَلْق, شديد البطش وَالْفِعْلِ.

{عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}

لـه مكانـة عنـد الله ربِّ العـالمين, صـاحب العـرش, والعنديَّـة هنـا ليسـت عنديَّـة المكان, مثل قوله تعالى: **{وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ}** [الأنبياء:19], وليست عندية الجهة, بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم.

والمكين: هو ذو المكانة والمنزلة, والمراد هنا: المكانة والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى, كما قال ملك مصر ليوسف بعد أن ظهرت براءته, ونصعت صفحته: **{إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}** [يوسف: 54].

{مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}

أي: إنَّ جبريل له وجاهة, وهو مسموع القول, مُطاع الأمر في الملأ الأعلى, فهم جميعا يعرفون فضله, ويحفظون مقامه, وينزلون عند أمره, ومعنى **{ثَمَّ}** أي:هناك في السماوات التي تجتمع فيها الملائكة, يعنى هو من جماعة الملائكة, بل هو من سادتهم وأشرافهم وكبرائهم, معتنًى به, انتُخب لهذه الرسالة العظيمة, لينقل أعظم كتب الله, إلى أعظم رسل الله.

ثم قال تعالى: **{أَمِينٍ}**، صفة أخرى لجبريل عليه السلام, وصفه بالأمانة, وهي صفة عظيمة يحتاج إليها كلُّ رسول, ملكيًّا كان أو بشريًّا, وهي ضرورية لكي ينقل الرسالات من الله تعالى إلى عباده, ولهذا قال عن جبريل: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}**.

نفي تهمة الجنون عن النَّبيِّ عليه السلام :

{وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}

الخطاب للعرب عامَّة, وقريش خاصَّة, الذين بُعِث إليهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلم خاصَّة, وإلى الناس كافَّة, كما قال تعالى: **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}** [النجم:1–2], وإنما سمَّاه صاحبهم؛ لأنه كان منهم, ونشأ معهم, وعاش بينهم, وكان من أقرب الناس إليهم, فلا غرر أن يكون صاحبهم.

ولقد صاحبوه وعرَفوا أنه من أعقل الناس, وأزكاهم وأكثرهم اتّزانا, فكيف يصفونه بالمجنون؟ وهل يستطيع المجنون أن يأتي بكلام بليغ بيّنٍ مبين مثل القرآن؟ وهل يمكن أن يتَّصف بأخلاق عظيمة متوازنة كأخلاق محمد صلى الله عليه وسلم, ولهذا قال تعالى: **{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** [القلم:1–4], فالمجنون ذو شخصيَّة مضْطربة, يفعل الأمر وضدَّه, ويسوّي بين المختلفَيْن, ويفرّق بين المتساويَيْن, على خلاف شخصية صاحب الخلق العظيم, الذي يضع كلَّ شيء في موضعه, فلا يتكلَّم إلا بتفكير, ولا يعمل إلا بتدبير, ولا يتصرَّف إلا بحكمة, ولا ينطق إلا بالحقّ, ولا يحكم إلا بالعدل.

رؤية النبيّ جبريلَ في صورته الأصلية :

{وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ}

يشير القرآن هنا إلى أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم, قد رأى جبريل أمين الوحي عليه السلام, الذي كرَّمه الله ومدحه بهذه الآيات, في صورته الأصليَّة, وهيئته التي خلقه الله عليها, بالأفق المبين, أي بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه مطلع الشمس, فهو مبين, من جهته نرى الأشياء.

روى عبد الرزاق, والطبري في تفسيره، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: رأى جبريل له خمسمائة جناح، قد سدَّ الأفق147.

وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في سورة النجم في قوله تعالى: {**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**} [النجم:5–10]، كما هو مبيَّن في سورة النجم.

والظاهر– والله أعلم – أن هذه السورة، سور التكوير، نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يُذكر فيها إلا هذه الرؤية، وهي الأولى.

وأما الثانية، وهي المذكورة في قوله تعالى: {**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**} [النجم:13–18]، فتلك إنما ذُكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء.

لا يكتم النبي شيئا مما أوحي إليه :

{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}

الضمير هنا يعود إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم, الذي انتقل الحديث إليه, والغيب هنا هو: القرآن، وما فيه من الأنباء والقصص,وكل ما يجيء به عن ربه من أخبار يوم القيامة ، ودقائق الوجود التى تخفى على كثير .

والضنين بالضاد: (البخيل)، أي: ليس بخيلا بما أنزل الله. والباء في قوله : {**بِضَنِينٍ**}لتأكيد نفي ما بعدها عما قبلها .

147- رواه عبد الرزاق في تفسيره (399/3)، والطبري في تفسيره (166/24)، والأثر متفق عليه عن ابن مسعود بلفظ: " أنه رأى جبريل، له ستمائة جناح". رواه البخاري في بدء الخلق (3232)، ومسلم في الإيمان (174).

قال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضنَّ به على الناس، بل نشره ونقله وبذله لكلِّ مَن أراده. [148]

وقال الفرَّاء: يأتيه (أي محمد) غيب السماء, وهو شيء نفيس, فلا يبخل به عليكم[149].

وقال أبو علي الفارسي: المعنى: أنه يخبر بالغيب فيبيّنه ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ذلك, ويمتنع عن إعلانه, حتى يأخذ عليه حُلوانًا[150]!

وهناك قراءة أخرى: { **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ** }، أي: بمتَّهم, واختار بعض العلماء قراءة الظاء (**بِظَنِينٍ**)، واختار الطبري قراءة الضاد {**بِضَنِينٍ**}، قال ابن كثير: (وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح)[151].

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}

أي: وما هذا القرآن بقول شيطان مرجوم مطرود من رحمة الله، أي: لا يقدر على حمله, ولا يريده, ولا ينبغي له , كما قال تعالى: **{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}** [الشعراء:210-212].

148- عزاه السيوطي في الدر المنثور (435/8)، لعبد بن حميد.
149- معاني القرآن للفراء (242/3).
150- تفسير الرازي (70/31).
151- تفسير ابن كثير (339/8).

القرآن ذكر لجميع الناس يهتدي به من وجَّه مشيئته الحرَّة للاستقامة

{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)}

{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}

أين تذهب عقولكُم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه, وبيان كونه حقًّا من عند الله تعالى, كما قال الصِّدِّيق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة – قوم مسيلمة الكذاب بعد قتله – حين قَدِموا مُسلمين وأمرهم فتلوا عليه من قرآن مسيلمة, الذي هو في غاية الهذيان والركاكة, فقال لهم: ويحكم! أين يُذهب بعقولكم؟! والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلْ[152]. أي: من إله.

وقال قتادة: **{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}**؟ أي: عن كتاب الله وطاعته[153]. والمعنى: أي طريق تسلكون أبْيَن وأقْوم من هذه الطريق المستقيمة التي بيَّنت لكم. (وهذا استضلال لهم, يقال لتارك الجادَّة اعتسافًا: أين تذهب؟! مُثِّلت حالهم بحاله في تركهم الحقَّ, وعدولهم عنه إلى الباطل)[154].

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}

إن هذا القرآن ذكر لجميع الناس, ليس لقوم دون قوم, ولا لإقليم دون إقليم, ولا أهل لغة دون أهل لغة أخرى, ولا طبقة دون طبقة, بل هو ذكر للناس جميعا, يتذكَّرون به ويتَّعظون.

152- المصدر السابق (340/8).
153- رواه الطبري في تفسيره (171/24).
154- تفسير الرازي (71/31).

وهذه السورة من أوائل السور في القرآن المكي, وقد أكَّد القرآن عالميته, وعالمية رسوله, وعالمية الإسلام, كما قال في سورة القلم: **{وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}** [القلم: 52], وفي سورة ص: **{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}** [ص:87، 88], وفي سورة الأنعام: **{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}** [الأنعام: 104], وفي سورة الأنبياء قال تعالى يخاطب رسوله محمداً: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}** [الأنبياء:107], وفي سورة سبأ: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}** [سبأ: 28], وفي سورة الأعراف خاطب الله محمداً فقال: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** [الأعراف: 158].

وكلُّ هذه الآيات في القرآن المكّي, فإعلان العالميَّة أصيل وقديم في هذا الدين, لم يأتِ نتيجة التفوُّق المادي أو الانتصار على المشركين, بل جاء وتكرَّر وانتشر والمسلمون قليل مستضعفون في الأرض، يخافون أن يتخطَّفهم الناس فآواهم الله وأيَّدهم بنصره.

خصوص الإنذار للعرب لا ينافي عموم رسالته :

وقد زعم بعضهم أنه لم يَدْعُ إلى العالميَّة إلا بعد صلح الحديبيَّة, حين أرسل رسائله إلى كسرى وقيصر وإلى ملوك العالم القريبين يدعوهم إلى الإسلام, وأنه قبل ذلك كان مشغولاً بالعرب وحدهم, كما قال القرآن: **{لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}** [الشورى:7].

وهذا سوء فَهم لما قرَّره القرآن في هذا الأمر الكبير, فالرسول لا شكَّ رحمة الله للعالمين, ورسوله إلى الناس جميعاً, ولكنه مرسل لإنذار العرب في أمِّ القري ومن حولها بصفة خاصة, والخصوص هنا لا ينافي العموم؛ لأنه يجب أن يبدأ أول ما يبدأ بمَن حوله وأقرب الناس إليه, ثم يمضي في دعوته إلى النهاية, كما قال أيضا في هذا الوقت: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** [الشعراء:214], فهل ينذر عشيرته الأقربين من

بني هاشم, أو بني عبد مناف, أو قريش, ويُعرِض عن سائر العرب لم يفهم أحد ذلك من هذه الآية, ولا يمكن أن نفهم ذلك.

ولكن الذي جعله يؤخِّر الأكاسرة والقياصرة والملوك والأمراء إلى الدخول في الإسلام, وأن يُسلموا ليَسلموا, إلى ما بعد الحديبية: أنه لم يفرغ لدعوة هؤلاء قبل ذلك؛ لأنه في العهد المكي, كان محصوراً في قلب بلده, يُؤْذَى ويُضطهَد, ويُحْرم هو وأصحابه من كلِّ حقوق الآدميين, حتى اضْطر إلى الخروج من أحبِّ بلاد الله إلى الله, ومن أحبِّ بلاد الله إليه, إلى المدينة, ليقيم فيها للإسلام دارا جديدة, ودولة جديدة, فرمَوه عن قوس واحدة, واجتمعوا على حربه, وتجمَّعوا على إبادته في مدينته, ولكن الله نصره عليهم, وردَّ كيدهم, وأبطل مكرهم, حتى أُجبروا على أن يعقدوا معه هذا الصلح, فتنفَّس صلى الله عليه وسلم الصعداء, وارتفع الخناق عن عنقه, وشعر بأنه أمسى قادرا على أن يكتب لزعماء العالم بعالمية الرسالة.

فهكذا يجب أن نفهم ما قرَّره الله هنا في هذه السورة من قديم، من عالمية هذه الدعوة, بعالمية قرآنها, وعالمية رسولها, وعالمية مضمونها, وعالمية أمتها.

{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}

ومع أن هذه الدعوة العالمية تدعوهم وتنذرهم وتذكِّرهم, إلا أنَّ الذي يُهدى بنورها, ويتذكَّر بذكرها, ويسترشد بهديها، إنما هو مَن شاء من المدعوين جميعاً أن يستقيم, صاحب المشيئة الحرَّة, والإرادة المستقلَّة, التي لا يدخل عليها الناس فيعوقونها, أو يحرفونها, أو يخرجونها عن طبيعتها فتموت أو تضعف أو تذبل, ولا تقوم بدورها, بل تقوم بأدوار مضادَّة لدورها الأساسي, فتُفسد حين يجب الإصلاح, وتؤخِّر حين يجب التقديم.

فالمستفيد من المدعوين في العالم – وهم اليوم فوق السبعة بلايين – هو مَن شاء أن يستقيم, والاستقامة هنا تعبير عن الاهتداء إلى الإسلام, كما قال تعالى لرسوله: **{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [هود:112].

وقد وهب الخالق سبحانه كلَّ إنسان هذه المشيئة المستقلَّة, ليستخدمها في العمل لما يريده من خير أو شر، ومن حقٍ أو باطل, ومن رشد أو غيٍّ. ولا يمنعه مانع من نفسه أو غيره, من إنس أو جنٍّ: أن يهتدي ويستقيم، فالباب مفتوح, والطريق مسلوك, **{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}** [المدثر:37], فمَن شاء الاستقامة استقام, ومَن شاء الانحراف انحرف, هكذا أعطى الله سبحانه الإنسان هذا الإمكان, إن شاء اهتدى, وإن شاء ضلَّ, وإن شاء آمن, وإن شاء كفر, وإن شاء أحسن, وإن شاء أساء.

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}

ولكن مشيئة الإنسان ليست مفروضة على النظام الذي وضعه الله لهذا الكون بما فيه ومَن فيه, ولكنها جزء من مشيئة الله الذي نظَّم هذا العالم أفضل تنظيم, ورتَّبه أكمل ترتيب, فكلُّ شيء فيه في موضعه, وكلُّ مخلوق في مكانه, والله وحده هو الذي منح الإنسان– وهو أحد مخلوقاته المكرَّمة عنده – هذه المشيئة الحرَّة, فلا يظنُّ أحد أنه هو صانع نفسه, أو أنه إله صغير. بل هو مخلوق لم يكن شيئاً مذكوراً, ربُّه العظيم هو الذي أوجده من عدم, وأحياه من موات, وأعطاه العقل والمواهب والقدرة والإرادة, فنحن نشاء ونريد, وننفِّذ ما نشاء وما نريد, لأنَّ الله خالقنا جلَّ جلاله, هو الذي شاء لنا هذا، وامتنَّ علينا بهذا, لأنه ربُّنا وربُّ العالمين.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ(19)}

مقاصد السورة:

السورة مكيَّة بالإجماع، وهي نظيرة سورة التكوير، وجاءت على طريقتها، مبدوءة بكلمة **{إِذَا}** الشرطيَّة، وإن كانت أهدأ نَفَسًا، وأكثر رقَّة من الأولى. وكلٌّ من السورتين يذكّر بعلامات فارقة ومهمَّة قبل القيامة، ثم هنا نداء من الله تعالى للإنسان: ما الذي غرَّه بربِّه الكريم خالقه ومسوِّيه ومصوِّره، وصاحب الفضل عليه، والإحسان إليه.

ثم ندَّد بالمُكذِّبين بالآخرة، وما فيها من الجزاء والحساب، مع أن كلَّ شيء مسجَّل عليهم، ومدوَّن في صحفهم، التي كتبها الملائكة الذين يحفظونهم، ويكتبون ما يفعلون، ثم بيَّن – كما هو شأن كثير من سور هذا الجزء، كما مرَّ في (عم) و(النازعات) و(عبس) – انقسام الناس في يوم الدين، يوم الجزاء إلى سعداء وأشقياء، أو إلى أبرار وفجَّار، وعاقبة الأبرار:

النعيم، ونهاية الفجار: الجحيم، سيصلونها يوم الدين ، يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله.

روى الإمام النسائي بسنده، عن جابر قال: قام معاذ فصلَّى العشاء الآخرة، فطوَّل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أفتَّان أنت يا معاذ؟! أين كنتَ من: (سبح اسم ربك الأعلى)، (والضحى)، و(إذا السماء انفطرت)"[155].

وأصلُ الحديث مخرَّج في الصحيحين، ولكن ذكر (إذا السماء انفطرت)، في أفراد النسائي[156].

وتقدَّم من حديث عبد الله بن عمر، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَن سرَّه أن ينظر إلى القيامة رأي العين، فليقرأ (إذا الشمس كورت)، و(إذا السماء انفطرت)، و(إذا السماء انشقَّت)[157].

أشراط الساعة الهائلة

{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) }

تبدأ السورة بالحديث عن أشراط الساعة الهائلة، التي تقع قبل قيامها ، وهذه الأشراط أربعة: اثنتان منها تتعلَّق بعالم العُلويات، واثنتان تتعلَّق بعالم السفليات.

155- رواه النسائي في الافتتاح (997).
156- متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (6106)، ومسلم في الصلاة (465).
157- سبق تخريجه صـ.

1 – انفطار السماء :

{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}

أولها: قوله تعالى: {**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ**}: والفطر: الشقُّ، يقال: فطرتُه فانفطر، ومنه: فَطَرَ ناب البعير، إذا طلع. أي: انشقَّت، كما قال في سورة قادمة: {**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**} [الانشقاق:1]، وقوله تعالى:{**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ**} [الفرقان:25]، وقوله: {**فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**} [الرحمن:37]، وقوله سبحانه: {**وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا**} [النبأ:19]. وقوله: {**السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ**} [المزمّل:18]. قال الخليل: لم يأتِ هذا على الفعل، بل هو كقولهم: مرضع وحائض، ولو كان على الفعل، لقال: السماء منفطرة به!

2–تناثر الكواكب ونساقطها:

{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}

أي: تساقطت وتناثرت، يقال: نثرت الشيء أنثره نثرا، فانتثر، والمعنى ظاهر؛ لأن عند انتقاض تركيب السماء، لا بدَّ من انتثار الكواكب على الأرض.

3– تفجير البحار :

هذان هما الأمران العلويان، وأما الأمران السفليان، فهما في قوله تعالى:

{وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ}

ذكر العلماء في معنى تفجير البحار هنا: أنه ينفذ بعض البحار في البعض الآخر؛ لارتفاع الحاجز، الذي جعله الله برزخا بينهما، كما قال تعالى: {**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ**} [الرحمن:19، 20]، وحينئذ يصير الكلُّ بحرا واحدا، وإنما يرتفع ذلك الحاجز، لتزلزل الأرض وتصدُّعها، حتى إن الجبال ينسفها ربُّنا نسفا.

والمـراد: أن البحـار هنـا تتغيَّـر عـن صـورتها الأصـليَّة وصـفتها، وهـو كتغيُّـر الأرض والسماوات عن صفتهما، في قوله تعالى: **{يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْـرَ الْأَرْضِ وَالسَّـمَاوَاتُ}** [إبراهيم:48]. كما تتغيَّر الجبال، حتى تصبح هباء منثورا، أو كالعهن المنفوش.

4 – بعثرة القبور :

{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}

أي: قُلبت، وقُلب ترابها، وأُثيرت ونُثرت، كما يُبعثر الشيء المصفوف في صحن أو إناء، فيقع على الأرض ويتبعثر، وينتشر على الأرض غير مرتَّب، فهكذا يُفعل بالقبور التي يُدفن فيها الناس موتى، لينقلب أسفلها أعلاها، وباطنها ظاهرها، ويخرج ما فيها من الموتى أحياء، كما قال تعالى: **{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}** [الزلزلة:2]. أما ما يُذكر من إخراج الذهب والفضة وأفلاذ كبد الأرض، فهو مما لا يكون في القبور.

فائدة ترتيب أشراط الساعة الهائلة التي تقع قبل قيامها:

وقد ذكر الإمام الرازي فائدة هذا الترتيب، فقال: (واعلم أن المراد من هذه الآيات: بيان تخريب العالم، وفناء الدنيا، وانقطاع التكاليف. والسماء كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار، فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف، وذلك هو قوله: **{إذا السماء انفطرت}**، ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب، وذلك هو قوله: **{وإذا الكواكب انتثرت}**، ثم إنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب، يخرب كلَّ ما على وجه الأرض، وهو قوله: **{وإذا البِحَار فُجّرتْ}**، ثم إنه تعالى يخرِّب آخر الأمر الأرض التي هي البناء، وذلك هو قوله: **{وإذا القبُور بعثرتْ}**، فإنه إشارة إلى قلب الأرض ظهرًا لبطن، وبطنًا لظهر)[158].

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}

158- تفسير الرازي (72/31).

هذا هو جواب: {**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ**}، كما كان الجواب في سورة التكوير: {**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ**} [التكوير:14]، أي: إنه إذا انشقَّت السماء، وتساقطت النجوم، وانزاحت الحواجز بين البحار، فصارت بحراً واحداً، وأخرج ما في القبور من موتى أحياء إلى ربِّهم ينْسلون، هناك تعلم كلُّ نفس ما قدَّمت وما أخَّرت، ما عملت من حسن أو سيئ، من طاعة أو معصية، من خير أو شرٍّ، فلم يعد هناك أحد قادر على أن يخبِّئ شيئا، أو يدَّخره لغد، فما عاد بعد ذلك غد.

والمقصود من هذا: الزجْر عن معصية الله تعالى، والترغيب في الطاعة، أي: يعلم كلُّ واحد في هذا الحين ما قدَّم فلم يقصِّر فيه، وما قصَّر فأخَّر فيه.

أو ما قدَّمه من عمل أنجزه في حياته، وما أخَّره منه فيستمرُّ من بعده، كالصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح الذي يدعو له[159].

أو ما قدَّم من أعمال صالحة قضاها وأنجزها، وما أخَّر من أعمال ضيَّعها ولم يؤدِّها كما أمر الله، كترك الصلوات وتأخير الزكوات.

أو ما قدَّمه في أول عمره، وما أخَّره في أواخره.

أو ما قدَّمه في حياته ممَّا يستوعبه في عمره، وما يتأخَّر من بعده من أعمال آخرين، تُكتب عليه؛ لأنه كان سبباً فيها، كما قال تعالى: {**يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**} [القيامة:13].

159- إشارة إلى الحديث: " إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" رواه مسلم في الوصية (1631)، عن أبي هريرة.

مخاطبة الإنسان وتحذيره من مقابلة الكريم بالأفعال القبيحة

{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) }

{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}

خاطب الله جلَّ جلاله، في القرآن الإنسان المخلوق خطابا مباشرا له مرَّتين كلتاهما في هذا الجزء، مرَّة في هذه السورة، والأخرى في سورة الانشقاق حين قال: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** [الانشقاق:6]. وهنا خاطب الربُّ الأعلى، الأحد الصمد، الإنسان المخلوق: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ}**، إنه خطاب لجنس الإنسان، لا لشخص واحد، ولا لشعب واحد، ولا للون واحد، بل هو لهذا النوع كلِّه: أبيضه وأصفره وأسوده، رجاله ونسائه.

وإذا نادى الربُّ العظيم، فعلى الإنسان أن يستمع ويُلبِّي، ويعلم ماذا يريد الله منه، وما يجب أن يعلمه الإنسان، وما يجب أن يعرفه، وما يجب أن يفعله، وما يجب أن يتركه.

ينادي الله جلَّ ثناؤه الإنسان: **{مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}**، أي: ما خدعك عنه، وأبعدك عن طريقه أو اتِّباع مرضاته، مع ما أعطاك من العقل الذي به تفكِّر، والإرادة التي بها تُرجِّح، والقدرة التي بها تُنفِّذ، وما يسَّر لك من مُعينات كثيرة تُسدِّد خطاك، وتُرشد قواك، بعث لك خير نبيٍّ أُرسل، وهيَّأ إليك خير كتاب أُنزل، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، فما الذي يجعلك تطرح هذا كلَّه وراء ظهرك، وتمضي في طريق الشيطان الذي هو عدوُّك، وقد حذَّرك الله منه، وقال: **{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [فاطر:6]، فكيف تطيع وتُرضي الشيطان، وتعصى وتُغضب الرحمن؟!

لقد تحدَّث الكثير من المفسِّرين عن الأمور التي خُدع بها الإنسان، ويمكنه أن يجيب بها، فكان بعضها حقًّا، وبعضها لا شكَّ باطلا.

فمما قاله بعضهم: قوله: غرَّني كرمك. وقال بعضهم: غرَّه حُمقه وجهله. كما قال تعالى:**{إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}** [الأحزاب:72].

وقال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة فقال: ما غرَّك بربِّك الكريم؟ ماذا كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقول: غرَّني ستورك المرخاة. فنظمه محمد بن السماك، فقال:

يا كاتم الذنب أما تستحي　　　والله في الخلوة ثانيكا

غرَّك من ربِّك إمهاله　　　وستره طول مساويكا

وقال ذو النون المصري: كم من مغرور تحت الستر، وهو لا يشعر. وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري في هذا المعنى:

يا من غلا في الغيِّ والتِّيه　　　وغرَّه طول تَمَاديه

أملى لك الله فبارزته ولم تخف غبَّ معاصيه

وناس يقولون: ما غرَّك؟ أي ما خدعك وسوَّل لك حتى أضعتَ ما وجب عليك[160]؟

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، فيقول: يا بن آدم، ما غرَّك بي؟ يا بن آدم، ماذا عملتَ فيما علمتَ؟ يا بن آدم، ماذا أجبت المرسلين[161]؟

وزعم بعضهم: أنه إنما قال: **{بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}**، دون سائر أسمائه وصفاته الأخرى، كأنه لقَّنه الإجابة، أي: ليقول: غرَّني كرمك. قال ابن كثير: (وهذا الذي تخيَّله هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه **{الكريم}**؛ لينبِّه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء)[162] اهـ وهذا كلام مقبول موزون.

خلق الإنسان وتسويته وتعديله وتصويره:

{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}

أي الذي أوجدك وأنشأك بعد أن لم تكن شيئا ، وجعلك سويًّا معتدل القامة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. كما قال تعالى:**{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [التين:4]، **{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}** [التغابن:3].

وهنا جمع للإنسان بعد الخلق التَّسوية، فالعدل. والتَّسوية: هي جعل الأعضاء سليمة سويَّة معدَّة لمنافعها. وعدَلها: أي عدل أعضاءك بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت أو تتضارب، وصرفها عن خِلقةٍ غير مناسبة لها.

160- تفسير القرطبي (19/245- 246).

161- رواه النسائي في الكبري في المواعظ (11843)، والطبراني (9/182)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (18376) : رواه الطبراني في الكبير موقوفا، ورجال رجال الصحيح غير شريك بن عبد الله، وهو ثقة، وفيه ضعف.

162- تفسير ابن كثير (8/342).

ومن قرأ (**فَعَدَّلَكَ**)، فمعناها: صيَّرك معتدلاً متناسب الخلق، من غير تفاوت فيه، وبهذا ميَّز الله الإنسان عن البهائم.

{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}

أي: ركَّبك ربُّك وجمع أعضاءك بعضها إلى بعض وألَّف بينها في أيِّ صورة أرادها واختارها لك من الصور المختلفة العجيبة الحسنة، ومن أسمائه تعالى: (المُصوِّر).

معنى {مَا}في قوله : {مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}:

و **{مَا}**، قالوا: إنها مزيدة، وما معنى مزيدة؟ إن كان ذلك في الإعراب، فلا بأس بذلك، أما الزيادة بمعنى أنها لا فائدة لها، فهذا ما لا نوافق عليه في القرآن، فكلُّ حرف فيه يقال: إنه مزيد، له معنى، وله ثمرة من غير شكٍّ، وزيادتها تدلُّ على تفخيم ما اتَّصلت به، وتوكيد المعنى وتحقيقه .

وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها، لأنها بيان لـ(عدَّلك).

ويجوز أن تكون **{مَا}** شرطية، أي: إن شاء ركَّبك في غير صورة الإنسان، من صورة قرد أو حمار أو كلب أو خنزير، و **{مَا}**، بمعنى الشرط والجزاء، أي: ما شاء أن يركِّبك فيها ركَّبك.

التحذير من التكذيب بيوم الدين :

{كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}

{كَلَّا}: ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى، وجعْلَه ذريعةً إلى الكفر والمعاصي؛ مع كونه موجباً للشكر والطاعة.

وقوله: **{بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}**، أي: إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ومبارزته بالقبائح: تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب، فإنكار الآخرة وما فيها من

سؤال وحساب، وجنَّة ونار، هو أساس المشكلة كلِّها. و{**بَلْ**}، لنفي شيءٍ تقدَّم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلوماً، وإن لم يَجْرِ له ذكر في هذه السورة.

(قال القاضي[163]: معناه: أنكم لا تستقيمون على توجيه نِعَمي عليكم، وإرشادي لكم، بل تكذِّبون بيوم الدين.

قال القفال: {**كَلَّا**}، أي: ليس الأمر كما تقولون، من أنه لا بعث ولا نشور؛ لأن ذلك يوجب أن الله تعالى خلق الخلق عبثاً وسُدى، وحاشاه من ذلك، ثم كأنه قال: وإنكم لا تنتفعون بهذا البيان بل تكذبون)[164].

الملائكة الموكَّلون بالرقابة على الإنسان وكتابة أعماله:

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}

يؤكِّد الله تعالى هنا بحرف {**إِنَّ**}، بأن على الناس حافظين ورُقباء، من جنود الله: الملائكة الذين يُجنِّدهم فيما يشاء من الأعمال المختلفة، فمنهم مَن يُكلَّف بالنزول على الأنبياء، ومنهم المُوكَّل بالنفخ في الصور، ومنهم المُوكَّل بالموت، ومنهم المُوكَّل بالجنة، ومنهم الموكَّل بالنار، وغير ذلك من الأعمال، التي ذكرها القرآن في سور متعدِّدة، وآيات كثيرة.

ومنهم هؤلاء الموكَّلون بالرقابة على الإنسان وكتابة أعماله، من حسنات وسيِّئات، ومعاصي وطاعات، كما قال في سورة أخرى: {**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**} [الزخرف:80].

هل تكتب الحفظة ما يكون من الكفار من حسنات وسيئات ؟

163 - وهو: عبد الجبار بن أحمد أبو الحسن الهمذاني الاسداباذي المعتزلي.
164- تفسير الرازي (71/31).

ولهذا نرى أن الصحيح أن الجميع عليهم هؤلاء الرقباء، من مؤمنين وكافرين؛ لأن الجميع يُسجِّل الله عليهم كلَّ شيء، كما قال تعالى: **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [ق:18]. وإذا قيل: إنَّ الملَك يكتب الحسنات والسيِّئات، والكافر لا حسنة له، فلماذا يكتب؟ والجواب: أن من الكفار من له بعض الحسنات يُخفِّف الله بها عنه من العذاب، فلماذا تضيع عليه، ولا تُوضع في حسابه؟ والله تعالى أخبرنا أن كلَّ إنسان له كتاب: يأخذه المؤمن بيمينه، ويأخذه الكافر بشماله، ومن وراء ظهره، كما ذكر في سورة الحاقّة: **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ}** [الحاقة:25]، وفي سورة الكهف يقول الله تعالى: **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [الكهف:49].

أوصاف الرقباء الحَفَظة :

هؤلاء الحفظة الرقباء وصفهم الله بقوله: **{كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}**، أي: هم كرام على الله؛ لأنهم من ملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرون، كقوله عنهم: **{كِرَامٍ بَرَرَةٍ}** [عبس:16].

ومعنى قوله تعالى: **{يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}**، أنهم لا يخفى عليهم شيء من أعمالنا الظاهرة والخفيَّة، ممَّا يريد الله أن يكتب علينا، ولذلك يطَّلعون على ما ظهر منا، دون ما حدَّثنا به أنفسنا، أما النيَّة الجازمة التي يُثاب الإنسان بها على فعل الخير، ويُعاقب فيها على الشرِّ، فهي مما يُقدرهم على معرفته ليكتبوه.

وتوكيل الله تعالى ملائكته الكرام، لكتابة أعمال الإنسان، دليل أنه عند الله تعالى من جلائل الأمور، ولولا ذلك ما وكَّل هؤلاء الكتَّاب الكرام بضبطه وتدقيقه.

بيان ما أعدَّه سبحانه للأبرار وللفجَّار

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ(19)}

تقسيم الخلق إلى فريقين : أبرار كثير خيرهم، وفجار كثير شرهم :

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}

ختم الله السورة ببيان ما أعدَّه سبحانه للأبرار وللفجَّار، أو للمؤمنين والكفار، فأخبرنا بعبارتين موجزتين ما فصَّله في سُور أخرى، وخصوصا في هذا الجزء من سورة النبأ والنازعات وعبس، وما يأتي في السور الأخرى، وأعلمنا أن الأبرار في نعيم، هو نعيم الجنة، وأن الفجار في جحيم، وهو جحيم النار. والأبرار : جمع بَرّ، بوزن (رب)، وهو المطيع المتوسع في أعمال الخير ، والنعيم : الحال الحسنة . والفجار: جمع فاجر، وهو الذي يكذِّب بالتوحيد والبعث.والجحيم: النار المحرقة .واللام المتكررة مرتين في قوله : **{لَفِي }**هي المزحلقة للمبالغة في التوكيد والاستقبال.

وفي تنكير (النعيم)، و(الجحيم) ما لا يخفى من التفخيم والتهويل.

وهذا التقسيم للخلق كما في قوله تعالى: **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}** [الشورى:7]، وقوله تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ*فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ*وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}** [الروم:14–16].

ما هو حال أهل الجحيم فيها ؟

{يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ}

أجمل القرآن هنا بالنسبة لفريق أهل السعادة، وهم الأبرار، وأهل البرِّ والتقوى، بأنهم في النعيم، ولكنه فصَّل في شان أهل الشقاوة، فقال بعد ذكر أنهم في الجحيم: **{يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ}**، فهذا استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من تهويلها، كأنه قيل: ما حالهم فيها؟ فقيل: **{يَصْلَوْنَهَا}** ، أي: يدخلونها، ويقاسون حرَّها وعذابها، **{يَوْمَ الدِّينِ}**، أي يوم الجزاء الذي كانوا يكذِّبون به.

{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ}

ليسوا بغائبين عن هذه الجحيم طرفة عين، ولا يُخفَّف عنهم من عذابها، ولا يُجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يوماً واحداً.

تهويل شأن يوم الدين :

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}

يخاطب الله رسوله مُعظِّما شأن يوم القيامة، فقال: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}**؛ (وإنما خاطبه بذلك لأنه ما كان عالما بذلك قبل الوحي)[165].

ثم أكد هذا التعظيم بتكرار هذه الآية مع **{ثُمَّ}**، فقال: **{ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}**؟

ثم فسَّره تعالى بقوله: **{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}**، فهو اليوم الذي لا يقدر فيه أحد على نفع أحد، ولا تخليصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمَن يشاء ويرضى، وفي هذا جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لأقرب الناس إليه: "يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطَّلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا"[166].

165 - تفسير الرازي (80/31).

166- رواه مسلم في الإيمان (204)، عن أبي هريرة.

ولهذا قال سبحانه: **{وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}**، كقوله في سورة غافر: **{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [غافر:16]، وقوله في سورة الفرقان: **{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}** [الفرقان:26]، وقوله الذي نتلوه في الفاتحة: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [الفاتحة:4]. وهو لا شكَّ يملك الأمور كلَّها اليوم، كما كان يملك في الأزل، ولكن ربَّما نازعه مَن نازع بالباطل في الدنيا، ولكن غدًا لا ينازعه فيه أحد.

وهذا التعميم في هذه الآية خصَّصته آيات أخرى، مثل قوله تعالى: **{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** [البقرة:255]، وقوله سبحانه عن الملائكة: **{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}** [الأنبياء:28]، وقوله تعالى: **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}** [النجم:26].

قال الإمام الرازي: (إنَّ أهل الدنيا كانوا يتغلَّبون على الملك، ويعين بعضهم بعضاً في أمور، ويحمي بعضهم بعضاً، فإذا كان يوم القيامة، بطل ملك بنى الدنيا، وزالت رئاستهم، فلا يحمي أحدٌ أحدًا، ولا يُغْني أحدٌ عن أحدٍ، ولا يتغلَّب أحدٌ على ملك، ونظيره قوله تعالى: **{وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}**،وقوله: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [الفاتحة:4]، وهو وعيد عظيم من حيث إنه عرَّفهم أنه لا يغني عنهم إلا البرُّ والطاعة يومئذ، دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء.

قال الواحدي: والمعنى أنَّ الله تعالى لم يُملِّك في ذلك اليوم أحدًا شيئًا من الأمور، كما ملَّكهم في دار الدنيا)[167].

{فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجاثية:36-37].

167- تفسير الرازي (81/31).

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

**{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا
كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) إلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ
عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (6) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي
سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ
(10) الذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)
إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُو الجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (20)
يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ
(23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ
(25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ
تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ
الذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا
إلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32)
وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ
(34) عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)}**

مقاصد هذه السورة:

سورة المطففين سورة مكيَّة، وقال بعضهم: مدنيَّة، وذكروا فيها أحاديث لم يجمع العلماء على تصحيح سندها، والذي يظهر لي من موضوعها وأسلوبها: أنها مكية.

والذين قالوا: إنها مدنية، ذكروا أنها في أولها عُنيت بما يتعلَّق بالكيل والميزان والتطفيف فيهما، وهو من شأن السور المدنية.

ونحن نعلم أن القرآن الكريم كثيرًا ما يُودع في السور المكيَّة بعض القواعد التي تمهِّد لما يحتاج إليه المجتمع فيما بعد، فكما وضع أساس التعامل الطيّب في السوق، ووضع أساس الشورى في سياسة الناس، وأساس الدفاع عن النفس أمام البغي، كما في قوله تعالى في سورة الشورى المكية: **{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [الشورى:38–42].

ومن هنا ذكر القرآن الوعيد على التَّطفيف في الكيل والميزان، ليُمهِّد لإقامة سوق العدل والحرية والوفاء بالحقوق، وهو ما قرَّره القرآن في سوره المكيَّة المتعدَّدة، كما في قوله تعالى في سورة الأنعام المكيَّة، في الوصايا العشر: **{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}** [الأنعام:40]، وفي سورة الإسراء المكيَّة في وصايا الحكمة: **{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}** [الإسراء:35]، وفي سورة الرحمن المكية، قال تعالى: **{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** [الرحمن:7–9].

وأكَّد القرآن هذا بما ذكره في أكثر من سورة عن نبيِّ الله شعيب، الذي عُنى بالجانب الاقتصادي أكثر من غيره، وتحذيره قومه من بخس الناس أشياءهم، وتطفيف الكيل والميزان، كما في سورة هود، وسورة الشعراء وغيرهما، يقول تعالى في سورة هود: **{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي**

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [هود:84-86].

من مقاصد السورة:

ومن مقاصدها: المحافظة على أسواق المسلمين أن تفسدها تلاعبات أهل رأس المال والتجار وغيرهم، من الذين يريدون العبث والنقص في المكاييل والموازين. ومثلها كلُّ المقاييس العامة، فأنزل الله فيها هذه الآيات المنذرة بالويل والعذاب لهم، والمهدِّدة لهم بيوم عظيم، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، وبيان ما يجب أن يكون عليه الكيل والوزن في البيع والشراء.

كما بيَّنت الآيات مصير الفجار وحقيقتهم، وهم الذين يكذِّبون بيوم الدين، من كلِّ معتدٍ أثيم، إذا تُليت عليه آيات القرآن قال: أساطير الأوَّلين. وما ينتظر هؤلاء من جحيم يصلونها.

وفي مقابل هؤلاء الفجَّارِ الأبرارُ، فهؤلاء في عليين، وأولئك في سجين.

ثم بيَّن النعيم الذي يتمتَّع به الأبرار في جنَّات النعيم، وما هم فيه من رضا وسكينة، وعيش رغد، وشراب وقرَّة عين.

وفي النهاية بيَّنت السورة موقف المجرمين من المؤمنين، الذين كانوا يضحكون منهم، ويستهزئون بهم، وإذا مرُّوا بهم يتغامزون، وإذا رجعوا إلى منازلهم رجعوا يسخرون منهم، ويتفكَّهون بما فعلوه بهم، واليوم قد انقلبت الموازين، وتغيَّرت العناوين، ونُشرت الدواوين، **{فَالْيَوْمَ الذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ}**.

فقرات السورة:

انقسمت سورة المطففين إلى أربعة مقاطع، أربع فقرات: فقرة عن المطففين وعذابهم، والفقرة الثانية :عن الفجَّار وكتابهم، والثالثة: عن الأبرار وكتابهم، والرابعة: عن موقف الذين أجرموا من الذين آمنوا، حيث كانوا يضحكون من المؤمنين في الدنيا، فأصبح المؤمنون يضحكون عليهم في الآخرة.

تفسير السورة:

المطفِّفون وعذابهم

{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) إلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (6) }

بعد إنهاء سورة الانفطار بقوله تعالى بعد بيان مصير الأبرار من النعيم، والفجار من الجحيم: **{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** [الانفطار:19]، كان من المناسب أن تبدأ السورة التالية لها بهذا الإنذار للمُطفِّفين بالويل.

الويل: هو الهلاك والعذاب، تقول العرب لمَّن يفعل الشرَّ: ويل له، أو يُخاطَب فيُقال له: ويل لك. وما قيل من أنه وادٍ في جهنم، ليس من معنى الويل لغة، ولم يصحَّ به حديث[168].

والإنذار بالويل والعذاب للمطفِّفين يقتضي الزَّجْر والتَّخويف من رذيلة التطفيف، وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخُفية، وذلك لأن الكثير يظهر فيمتنع منه، وذلك القليل إن ظهر أيضا مُنع منه، فعلمنا أن التطفيف المذموم هنا، هو: البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخُفية والتمويه.

والأَوْلى أن نفسِّر التطفيف بما فسَّره الله تعالى به، فبعد أن هدَّد الله تعالى بالويل للمطففين، عرَّفهم للناس، فقال تعالى: **{الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}**، فالمراد بالذين إذا اكتالوا على الناس: الذين يشترون منهم، ويتناولون عنهم، أي: منهم، فهم لذلك يستوفون، يأخذون منهم ما يُحبُّون أن يأخذوا من الزيادة من الكَيْل والوزن، في حين أنهم إذا كالوا لهم، أو وزنوا

168- رواه أحمد (11712) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الزهد (2383) وقال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث ابن لهيعة. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (2136).

لهم، أي: في حالة البيع لهم، يُخْسرون، أي: ينقصون. والله تعالى يريد عكس ذلك، وقد جعل ذلك من الوصايا العشر التي وصَّى بها في سورة الأنعام، حين قال: **{وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا}** [الأنعام:152]، وقال سبحانه في وصايا الحكمة في سورة الإسراء: **{وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}** [الإسراء:35]، وقال تعالى: **{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ * إلا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ}** [الرحمن:7-9]. فربط هذا بالميزان الكونيّ الذي وضعه لتوازن هذا العالم واعتداله، فكلٌّ شيء فيه ميزان ومقدار.

وقد علَّمنا القرآن أهمية هذا الأمر، حين ذكر ما فعله من إرسال نبيَّه شعيباً إلى مدْيَن وأصحاب الأيْكة، الذين أمرهم بعد توحيد الله: أن يوفُّوا الكيْل والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءَهم، ولا يعثوا في الأرض مفسدين، ولكنهم خالفوا شعيبا، وأصرُّوا على حيفهم وبغيهم وتجاوزهم، حتى نزل بهم عذاب الله، فبُعدًا للقوم الظالمين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال يخاطب الأعاجم: إنكم معشر الأعاجم، وُلِّيتم أمرين بهما هلك مَن كان قبلكم: المكيال والميزان[169]. وخصَّ الأعاجم؛ لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعا، وكانا مفرَّقين في الحرمين، كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون.

وذلك أن أهل مكة كانوا تجَّارًا؛ لأنهم بوادٍ غير ذي زرع، فكان الوزن أعدل عليهم في تجارتهم، من الدراهم والدنانير والأواقي وغيرها، أما أهل المدينة فكانوا زُرَّاعا وأهل نخيل، وكان الكيل هو المستعمَل في تقدير مقادير الزروع والثمار والتمور وأمثالها في ذلك الوقت.

169- رواه البيهقي في البيوع (32/6).

وروى الإمام أحمد، أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، واستخلف على المدينة سِباع بن عُرفُطة، فقال أبو هريرة: فوجدناه في صلاة الصبح، فقرأ في الركعة الأولى: (كهيعص)، وقرأ في الركعة الثانية: (ويل للمطففين). قال أبو هريرة: فأقول في صلاتي، (أي يقول في نفسه): ويل لأبي فلان، كان له مكيالان، إذا اكتال – أي: اشترى – اكتال بالوافي، وإذا كال – أي: باع – كال بالناقص[170].

وفي الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله فقال: "يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتُليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ – وذكر من هذه الخمسة: – ولم ينقصوا الكيل والميزان، إلا أُخذوا بالسنين، وشدَّة المؤونة، وجَوْر السلطان عليهم"[171].

و(السنين): جمع سنة، ويراد بها القحط، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ أَخَذْنَا ال فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}** [الأعراف:130]، و"ونقص المؤونة": قيل: الموارد والثمرات، و"جَوْر السلطان عليهم": زيادة في النقمة والعقوبة عليهم.

نسيان الآخرة وأهوالها:

{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}

إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف؛ كأنه لا يخطر في بالهم، ولا يُخَمِّنون مُجَرَّد تخمين: أنهم مبعوثون من قبورهم يوماً، ومسؤولون عما يفعلون، أي: أما يخاف أولئك من البعث، والقيام بين يدي مَن يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، مَن خسر فيه أُدخل نارًا حامية.

170- رواه أحمد (8552) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
171- رواه ابن ماجه في الفتن (4019)، والحاكم في الفتن والملاحم (540/4)، وصحح على شرطهما، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (106).

المراد بالظن في قوله تعالى : **{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ}**

و(الظن) هنا، قال بعض المفسرين: إنه بمعنى اليقين، أي: ألا يوقن أولئك أنهم مبعوثون، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن.

وقال آخرون وأنا معهم: الظنُّ على حاله، بمعنى: الغالب على الفكر أو التَّردُّد، أي: إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنُّوه ظنًّا، حتى يتَدبَّروا لأنفسهم، ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط لهذا اليوم العظيم.

وكثيراً ما يستخدم القرآنُ الظنَّ في مثل هذه المواقف، باعتبار أنه كان كافٍ لأصحابه في هذا الموقف، كقوله تعالى في سورة البقرة: **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إليه رَاجِعُونَ}** [البقرة:46]، وقوله: **{قَالَ الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}** [البقرة:249].

تعظيم هول الموقف يوم الدين :

وفي هذا الإنكار والتعجيب، وكلمة الظنِّ، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته عزَّ وجلَّ بـ(ربِّ العالمين): بيان بليغ لهول الموقف، وعِظَم الذنب، وتفاقم الإثم في التَّطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحَيْف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التَّسوية والعدل في كلِّ أخذ وعطاء، وفي كلِّ قول وعمل.

روى مالك والشيخان وغيرهما، عن ابن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ}**، حتى يغيب أحدهم في رَشْحه إلى أنصاف أذنيه"[172]. وصحَّت أحاديث كثيرة عن شدَّة العرق ومقداره في هذا اليوم الطويل.

172- متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4938)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (2862)، كما رواه أحمد (4613).

هذا، وهناك مطفِّفون من أهل الإيمان؛ لأنهم كانوا في مكة، أو في المدينة، كما جاءت بعض الروايات من الأوس والخزرج، فهم مسلمون، وأصابهم ما أصابهم من أجل القليل الذي يأخذونه بطريق التَّطفيف والبخس في المكيال والميزان، فما بالكم بالذين ينتهبون الأموال انتهاباً بلا كيل ولا وزن، ولا بيع ولا شراء، وإنما يظلمون الناس ويبغون في الأرض.

وقد روَوا أن أعرابيًّا قال لعبد الملك بن مروان: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين[173]! أراد بذلك أنَّ المطفِّفين قد توجَّه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعتَ به، فما ظنُّك بنفسك، وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟!

* * *

173- انظر: الكشاف للزمخشري (720/4).

كتاب الفجَّار في سجين

{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) }

{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ}

هذه الفقرة الثانية من الفقرات الأربع الأساسيّة التي تتضمَّنها هذه السورة، فبعد أن ذكر الله ذنب التّطفيف وعِظَمه، وأنزل فيه من الوعيد ما أنزل، أتبعه بلواحقه وأحكامه، بداية بحرف **{كَلَّا}**، وهي للردع والزجر، والتنبيه على أن الأمر ليس ما هم عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب، فليرتدعوا وليتنبَّهوا.

وكتاب الفجار هو الكتاب الجامع الذي هو ديوان الشرِّ، تُدوَّن فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين، منقول من وصف، كخاتم، وأصله (فِعيل) من السَّجْن، وهو الحبس والتضييق؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم.

والمعنى: أن المكتوب في صحف الفجار، الذين من جملتهم المطفِّفون، أي: ما يُكتب من أعمالهم، أو كتابة أعمالهم، لفي ذلك الكتاب المدوَّن فيه قبائح أعمال المذكورين. أي: إنَّ مأواهم ومصيرهم لفي سجِّين، كما يقال: فِسِّيق، وشِريب، وخِمِّير، وسِكِّير، ونحو ذلك، أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم، وعذاب أليم.

وقوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ}**، تهويل لأمره، أي: هو بحيث لا يبلغه دراية أحد. والدليل على أن سِجِّينا ليس مما كانت العرب تعرفه، قوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ**

مَا سِجِّينٌ}، أي: ليس ذلك مما كنتَ تعلمه أنت ولا قومك. وما ذكر ذلك إلا تعظيماً لشأن سجِّين، كما في قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}** [الانفطار:17-18].

قال الفخر الرازي: (إذا عرفتَ هذا، فنقول: قد ذكرنا أن الله تعالى أجرى أمورًا مع عباده على ما تعارفوه من التعامل فيما بينهم وبين عظمائهم. فالجنة موصوفة بالعلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقرَّبين، والسجِّين موصوف بالتَّسفُّل والظُلمة والضيق وحضور الشياطين الملعونين، ولا شكَّ أن العلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المُقرَّبين، كلُّ ذلك من صفات الكمال والعزَّة. وأضدادها من صفات النقص والذلَّة، فلما أريد وصف الكفرة وكتابهم بالذلَّة والحقارة، قيل: إنه في موضع التَّسفُّل والظلمة والضيق وحضور الشياطين، ولما وصف كتاب الأبرار بالعزَّة قيل: إنه **{لَفِي عِلِّيِّينَ}**، و **{يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُون}**)[174].

وقال ابن كثير: (ولما كان مصير الفجَّار إلى جهنم، وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: **{ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ}** [التِّين:5، 6]، وقال ها هنا: **{كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَما أَدْراكَ مَا سِجِّينٌ}**، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال تعالى: **{وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً}** [الفرقان:13]) [175].

المراد بالكتاب المرقوم هنا:

{كِتَابٌ مَرْقُومٌ}

أي: مسطور بيِّن الكتابة، أو مُعْلِم؛ يعلم مَن يراه أنه لا خير فيه، وقيل: هو اسم المكان، والتقدير: ما كتابُ السِجِّين؟ أو محلُّ كتابٍ مرقومٍ.

174- تفسير الفخر الرازي، (92/31).
175- تفسير ابن كثير (349/8).

وقال ابن كثير: (كتاب مرقوم ليس تفسيرًا لقوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ}**، وإنما هو تفسير لما كُتب لهم من المصير إلى سِجِّين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يُزاد فيه أحد، ولا ينقص منه أحد)[176]. قالوا: والتقدير هنا: هو كتاب مرقوم.

ما المراد بقوله: يومئذ:

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}

قال ابن عطية: (إشارة إلى ما يتضمَّنه المعنى في قوله تعالى: **{كِتَابٌ مَرْقُومٌ}**، وذلك أنه يتضمَّن أن يُرفع ليوم عرض وجزاء، وبهذا يتمُّ الوعيد، ويتَّجه معناه)[177].

وبعضهم أعاد **{يَوْمَئِذٍ}**، إلى قوله تعالى: **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}**، في الفقرة السابقة، وهو محتمل، وإن كانت الفقرة الأولى قد خُتمت بهذه الآية. والأول أولى.

مَن هم المكذِّبون الذين توعَّدهم الله بالويل؟

{الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}

إنهم الذين يجْحدون البعث، ولا يؤمنون بالآخرة، ويكذِّبون بيوم الدين، يوم الحساب، الذي حدَّثنا الله عنه في السورة السابقة بهذا الاسم، (يَوم الدين)، وجاء في لك قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** [الانفطار:17-19].

وصف المكذبين بثلاث صفات:

{وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}

وصف القرآن المكذِّبين بثلاث صفات أساسية:

176- المصدر السابق، نفسه.

177- تفسير ابن عطية (451/5).

أولها: صفة الاعتداء:

المعتدي: هو مَن تجاوز عن المنهج الحقِّ، وتعدَّى حدود النظر والاعتبار، وألقى عقله، وغلا في الجمود والتقليد، حتى استقصر قدرة الله وعلمه تعالى، على إعادة الخلق بعد موتهم، بعد ما شاهد البدء، وقد قال تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** [الروم:27].

وثانيها: صفة الإثم:

الأثيم، مبالغة في آثم، وهو مرتكب الآثام والشرور والمعاصي. أي: منهمك في الشهوات، بحيث شغلته عما وراءها، مما يقتضيه العقل السليم، من اللذات التامَّة الباقية، وحملته على إنكارها.

وثالثها: صفة الإعراض عن القرآن:

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}فلا يستمع إلى القرآن، ولا يُصغي إلى قوله، وآياته البيّنات، وما يُقيمه من حُجَج ظاهرة، وبيِّنات ساطعة على ما يدعو إليه، وإنما يقول من فرط جهله، وإعراضه الذي لا يحيد عنه، إذا تليت عليه آيات الله الناطقة بذلك: أساطير الأولين. أي: هي حكايات الأوَّلين، وما فيها من خيالات وأباطيل، أُخذت منهم بعُجرها وبُجرها، ليتلوها علينا بكرة وأصيلاً. فهذا شأنهم؛ إذا سمع أحدهم كلام الله تعالى مع الرسول، يُكذِّب به، ويظنُّ به ظنَّ السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل. كما قال تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** [النحل:24]، **{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [الفرقان:5].

معاصيهم علت على قلوبهم:

{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}

{كَلَّا}، هنا: زجْر وردٌّ لقوله: **{أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}**، وردع للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه.

وقوله: **{بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**، بيانٌ لما أدَّى بهم إلى التَّفوُّهِ بتلكَ العظيمة، أي: ليسَ في آياتنا ما يصحُّ أن يقالَ في شأنها مثلُ هذه المقولات الباطلة، بل إن ما اكتسبوه من الكفر والطغيان والغُلُو، قد ران على قلوبهم، أي: غطَّى عليها وغلب، حتى صارت كالصدأ في المرآة، فهم مع ذلك لا يبصرون رُشدًا، ولا يخلص إلى قلوبهم خير، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحقّ. يقال: رانَتِ الخمرُ على عقلِ شاربِها، وران الغَشْيُ على عقل المريض.

فالقرآن ليس أساطير الأولين، وإنما هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله، وإنما حجب قلوبَهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّيْن، الذي لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا التي ارتكبوها.

والرَّين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقرَّبين، كلٌّ على حسب منزلته.

وقد ذكر ابن كثير هنا ما رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه، بإسنادهم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إنَّ العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صُقِل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله: **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**[178]. وقال الترمذي: حسن صحيح. ولفظ النسائي: "إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة، نكت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر

178 - رواه أحمد (7952) وقال مخرجوه: إسناده قوي، والترمذي التفسير (3334) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه الزهد (4244)، والطبري في التفسير (267/1)، الحاكم في التفسير (517/2)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وتاب صُقِل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله تعالى: **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**[179].

الكفار محجوبون عن رحمة الله ورؤيته:

{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}

{كَلَّا}، هنا ردع وزجْر عن الكسب الذي يرين على القلوب ويغطِّيها، وتقرير أن هؤلاء الكَفَرة الفَجَرة يوم القيامة في أسوأ حال، فهم محجوبون عن رحمة ربهِم وكرامته، وعن رؤيته سبحانه كما يراه المؤمنون وحدهم، وليس الأمر كما كان يحسبه هؤلاء الكفار في الدنيا، كما حكى عنهم القرآن: **{وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}** [فصلت:50].

احتجَّ الإمام مالك بهذه الآية على اختصاص المؤمنين برؤية الله تعالى في الآخرة، من جهة دليل الخطاب، وإلا فلو حَجَبَ الرؤية عن الكلِّ، لما أغنى هذا التَّخصيص. وقال الإمام الشافعي: فلما حجب قوماً بالسخط، دلَّ أن قوما يرونه بالرضى[180].

قال ابن كثير: (وهذا الذي قاله الشافعي رحمه الله في غاية الحُسن. وهو استدلال بمفهوم الآية، كما دلَّ عليه منطوق قوله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة:22، 23]، وكما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربَّهم في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عَرَصَات القيامة، وفي روضات الجنَّات الناضرة)[181].

صَلْي الجحيم بعد الحرمان من ربِّهم:

{ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ}

179- رواه النسائي في الكبري في عمل اليوم والليلة (10179).
180- تفسير الرازي (31/89- 90).
181- تفسير ابن كثير: (8/351).

أضف إلى هذا الحرمان من رؤية ربِّهم: أنهم من أهل النيران، يدخلون النار المحرقة ويقذفون فيها ليكابدوا الأهوال ، فهم في هذا العذاب، بعد عذاب الحرمان من التنعُّم برؤية الله جلَّ وعَلا.

{ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}

وفي النهاية يُقال لهم – وهم في الجحيم – على معنى التوبيخ والتقريع لهم والتصغير والتحقير: هذا الذي كنتم به تكذِّبون، إشارة إلى التعذيب وصَلْي الجحيم والحجاب عن الله تعالى؛ وهو ما يلقَونه في النار. فذوقوا عذابه، جزاء تكذيبكم الذي تنكرون صحّته في الدنيا، وتجحدون صدق حصوله.

* * *

كتاب الأبرار في عليين

{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)}

طريقة القرآن في ذكر الوعد مع الوعيد

هذه هي الفقرة الثالثة من فقرات السورة الأربع، التي تتحدَّث عن مصير الأبرار، بعد أن تحدَّثت عن مصير الفجَّار، الذي عرَّفنا الله تعالى أنهم في سجين، والآن يبيِّن الله مَن يقابل هؤلاء، كما هي طريقة القرآن في ذكر الوعد مع الوعيد، والتبشير مع الإنذار، والترغيب مع الترهيب.

والقرآن يجعل أحيانا الأبرار في مقابلة الفجَّار، كما في قوله تعالى: **{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}** [ص:28]، كما جعل التقوى في مقابلة الفجور، في قوله تعالى: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** [الشمس:7–8].

يقول جلَّ جلاله هنا: **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}**.

المراد بعليين:

يحدِّثنا القرآن هنا عن كتاب الأبرار إنه في عليين، وليس ككتاب الفجَّار في سِجِّين، وعلِّيُّون جمع عِلِّيٍّ، على وزن فعِّيل، وهو مشتق من العلو، الذي يعني الرفعة والسمو، ولذا قال مَن قال من السلف: إنه عند سدرة المنتهى. وقال مَن قال: إنه في

السماء الرابعة، أو السماء السابعة، أو في الجنة. وذهب بعض العلماء إلى أنه في السماء الدنيا. والمعنى: أنَّ كتابهم الذي فيه أعمالهم هنالك، تهمُّماً بها، وترفيعًا لها. وأعمال الفجَّار في سِجِّين في أسفل سافلين.

وقال آخرون: هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، قد عظَّمها الله، وأعلى شأنها. وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة.

قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير: (وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الأخير؛ لأن الله تعالى قال لرسوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ}**، تنبيهاً له على أنه معلوم له، وأنه سيعرفه، ثم قال: **{كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُون}**، فبيَّن أن كتابهم في هذا الكتاب المرقوم، الذي يشهده المُقرَّبون من الملائكة، فكأنَّه تعالى كما وكَّلهم باللوح المحفوظ، فكذلك يُوكِّلهم بحفظ كتب الأبرار في جملة ذلك الكتاب، الذي هو أمُّ الكتاب، على وجه الإعظام له.

ولا يمتنع أنَّ الحفظة إذا صعدت بكتب الأبرار، فإنهم يسلِّمونها إلى هؤلاء المقرَّبين، فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم، أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب، الذي وكِّلوا بحفظه، ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار. فلذلك يُحاسبون حساباً يسيرًا؛ لأن هؤلاء المقرَّبين يشهدون لهم بما حفظوه من أعمالهم، وإذا كان هذا الكتاب في السماء، صحَّ قول مَن تأوَّل ذلك على أنه في السماء العالية، فتتقارب الأقوال في ذلك، وإذا كان الذي ذكرناه أولى.

واعلم أن المعتمد في تفسير هذه الآية ما بيَّنا: أنَّ العلوَّ والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجَّار في أسفل السافلين، وفي أضيق المواضع،

إذلال الفجَّار وتحقير شأنهم، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين، وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنهم)[182].

وقال ابن كثير: (والظاهر أنَّ عليين مأخوذ من العلو، وكلَّما عَلا الشيء وارتفع عَظُم واتَّسع؛ ولهذا قال مُعظِّما أمره ومُفخِّما شأنه: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ}**، ثم قال مُؤكِّدا لما كتب لهم: **{كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}**، وهم الملائكة. وذلك لفضله ومقامه عندهم، وفضله يدلُّ على فضل مَن منَّ الله عليهم به)[183].

نعيم الأبرار في الجنة:

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}

لا زال القرآن يؤكِّد ما للأبرار عند الله من منزلة وكرامة، ولهذا يقول الصالحون: **{رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}** [آل عمران:193].

فماذا يقول القرآن؟ يقول: إنهم لفي نعيم، وهو ما ذكره في سورة الانفطار من قبل، فهو يكرِّره ويؤكِّده هنا، فهم يتنعَّمون فيما منَّ الله عليهم من فضله في جنَّته.

إلى من ينظر الأبرار؟

{عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ}

الأرائك : جمع أريكة، وهي الأَسِرَّة في الحِجال، جمع حَجَلة، وهي بيت مربَّع من القماش الفاخر ، يرخى على السرير للزينة والستر .

وهم فوق هذه الأرائك على سُرُرهم يُمتِّعون أنظارهم إلى كلِّ ما حولهم من ألوان البهجة والسرور والتَّرف والنعيم، وما أعدَّ الله لهم من الكرامات، يختصُّون بها دون غيرهم من أهل النار، الذين يُعذَّبون فيها. ويمكن أن يُفتح لهم ما يرون به ما يعانيه

182- تفسير الفخر الرازي (97/31).
183 - تفسير ابن كثير (352/8).

أهل النار، فيحمدون الله على ما آتاهم. كما أن {**يَنْظُرُونَ**}، هنا من حقِّها أن تتَّجه إلى الله تبارك وتعالى، فإذا كان الفجَّار الكافرون، الذين رفضوا رسالة الله وتعاليمه، قد حُجِبوا عن رؤيته عقاباً لهم، كما قال سبحانه: {**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**} فإنَّ من حقِّ معارضيهم من الأبرار أن ينظروا إلى ربِّهم، فأولئك محجوبون، وهؤلاء منعَّمون.

نعيم الأبرار يُعرف في وجوههم:

{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}

الخطاب لكلِّ مَن يتأتَّى خطابه من المؤمنين، وفي مُقدِّمتهم الرسول الكريم، أي: تعرف القوم من وجوههم، كالكتاب يُقرأ من عنوانه، وعنوان هؤلاء الأبرار في وجوههم، تعرف فيها بهجة التنعُّم ونضارته ونوره وحُسنه. يقال: نضر النبات، إذا أزهر ونوَّر.

ماذا يسقى الأبرار؟

{يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ}

يُسقى هؤلاء في الجنَّة من رحيق مختوم. والرحيق – كما قال المفسِّرون – هو الخمر الصافية، أو أقصى الخمر وأجودها، أو هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغشِّ النَّيِّرة.

المهم أنهم يسقون من هذا الشراب الصافي، الذي لا غِشَّ فيه، ثم يمتاز ميزة أخرى: أنه مختوم، والمراد : مغلقة أو آنية بغطاء كما هو شأن الشيء النفيس ، وأنَّ ختامه مسْك، والمعنى: أنهم إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس، انختم ذلك بخاتم المسك، فختامه آخر طعمه؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر في آخرها،

فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. والمسك : نوع من الطيب مشهور ، وكل ما في الجنة لا يدرك أهل الدنيا حقيقته.

التنافس هنا مطلوب:

{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}

أي:لأجل التنعم بالرحيق المذكور، فليرغب الراغبون في المبادرة إلى طاعة الله تعالى، وليتفاخر المتفاخرون، وليتباه المتباهون، وليتكاثر المتكاثرون، وليعمل العاملون، لإعلاء كلمته، كما قال تعالى: **{لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}** [الصافات:61]، أي: وليتسابق المتسابقون في الخيرات، كما قال تعالى: **{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}** [البقرة:148، والمائدة:48].

(وأصل التنافس: التغالب في الشيء النفيس. وأصله من النفس لعزَّتها. قال الواحدي: نفست الشيء، وأنفسه نفاسة، والتنافس: تفاعل منه، كأنَّ كلَّ واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به. وقال البغوي: وأصله من الشيء النفيس، الذي تحرص عليه أنفس الناس، ويريده كلُّ أحد لنفسه، وينفس به على غيره. أي: يضنُّ به)[184].

{وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ}

صفة أخرى لـ "رحيق"، فختامه مسك، ومزاجه من تسنيم. أي: ما يُمزَج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم، وهو أشرف شراب في الجنة يأتي من مكان مرتفع.

و" تسنيم " اسمٌ علَمٌ لعين في الجنة ، وهو مصدر بمنى اسم المفعول للمبالغة ، فعله : سُنِّم، أي : عُلِّيَ وعُظِّم.

ما تفسير التسنيم ؟

184- تفسير أبي السعود (128/9).

{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}

{عَيْنًا}، منصوبة على الاختصاص،أي : نبعاً جارياً **{يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}**، لم يقُل منها؛ لأن المعنى لأنهم يرتوون بها،أي تكون الباء بمعنى : مِنْ لابتداء الغاية المكانية ، أو ضُمِّن" يشرب " معنى : يلتذّ.

جاء عن ابن عباس قوله: هذا ممّا قال الله تعالى: **{فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}** [السجدة:17].

ومن الأحاديث القدسية الصحيحة: "قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين في الجنَّة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرءوا إن شئتم: **{فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}** [السجدة:17]"[185].

* * *

185- متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (3244)، ومسلم في الجنة (2824)، عن أبي هريرة.

أحوال الناس ومصايرهم في الآخرة

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)}

الفقرة الرابعة: ختام السورة:

هذه هي الفقرة الرابعة والأخيرة، وبها خُتمت سورة المطففين.

الفقرة الأولى كانت حديثا عن المطففين، وما يجب أن يلقَوه من ربِّهم، والثانية كانت عن الفجَّار وكتابهم ومصيرهم، والثالثة كانت عن الأبرار وكتابهم ومصيرهم.

وهذه الفقرة تتحدَّث عن أحوال الناس ومصايرهم في الآخرة، وكيف تتقلَّب الأمور على الناس، وتتغيَّر أحوالهم رأسا على عقب، فنجد الفَرِحين في الدنيا أهل أحزان في الآخرة، والمحزونين في الدنيا، أهل فرح وبهجة في الآخرة، يسفل الأعلون في الدنيا، ويعلو الذين كانوا في الأسفل؛ لأنَّ الناس في الآخرة لا يقاسون بما كان يقيس به الناسُ بعضهم بعضاً في الدنيا، لا بالمال ولا بالجاه، ولا بالأولاد ولا بالأصحاب، ولا بالقوَّة ولا بالعدد والعدَّة. بل بالإيمان الصادق، والعلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الخير، والجهاد في سبيل الله، والتضحية من أجل الحقِّ والخير، وإرضاء الله تبارك وتعالى.

ولذلك نجد من كانوا يضحكون عليهم في الدنيا، ويستهزئون بهم، ويستصغرون أمرهم، هم الذين يضحكون على الآخرين، الذين أصابهم منهم ما أصابوا. وهذا ما تبيِّنه هذه الفقرة النهائية من سورة المطففين.

المجتمع المكي بين مجرمين ومؤمنين:

يقول تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ**}.

وصف الله هؤلاء الناس بالذين أجرموا، فهم فئة من المجرمين، مرتكبي الجرائم، جرائم الانتقاص من الناس، والاستهزاء بهم، وتحقير شأنهم، وهذا هو الإجرام الحقّ، ولذا قال تعالى: {**إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**} [السجدة:22].

كان المجتمع المكِّي في ذلك الوقت يضمُّ طائفتين متميّزتين، لكلٍّ منها أصولها وسماتها، صفة الفئة الأولى التي تتمحور حولها كلُّ أقوالها وأعمالها هي الإجرام، وهي تشمل أغلبية الذين يعيشون في مكة وما حولها. وصفة الفئة الأخرى التي تتمحور حولها كلَّ أقوالها وأعمالها هي الإيمان. فهناك {**الَّذِينَ أَجْرَمُوا**}، وهناك {**الَّذِينَ آمَنُوا**}.

موقف الذين أجرموا من الذين آمنوا:

ماذا يفعل الذين أجرموا بالذين آمنوا؟ يقرِّر القرآن بوضوح وجلاء أن المجرمين – وهم الكفَّار المشركون – وخصوصاً الكبراء الصناديد من قريش، مثل: الوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي مُعَيْط، والعاص بن وائل، والأسود بن يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمثالهم. كانوا يقومون بأربعة أمور، كلُّها استخفاف بالمؤمنين، وتحقير لهم، واستكبار عليهم.

1. الضحك من المؤمنين:

أول هذه المواقف: {**كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**}. والضحك من خصائص الإنسان، ولكن ينبغي أن يجعله الإنسان فيما يُضحِك حقًّا، من النوادر والغرائب، فإن الضحك من غير سبب من قلَّة الأدب. ولكن هؤلاء يضحكون من قوم خالطت

قلوبهم بشاشة الإيمان، فغيَّرتهم من وثنيَّة إلى توحيد، ومن جاهليَّة إلى إسلام، ومن عصبيَّة بغيضة إلى أخوَّة حميدة، ومن إطلاق للشهوات بلا حاجز، إلى التزام بتقوى الله تعالى، وحبِّ الخير للناس.

2. التغامز عليهم:

والأمر الثاني لهؤلاء المجرمين: { **وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ** } **أي:** إذا مرَّ بهم المؤمنون يتغامزون عليهم، يشير بعضهم إلى بعض، أن انظروا إلى هؤلاء الذين فارقوا قومهم، وخرجوا من طوْع جماعتهم، وسفَّهوا آباءهم وأجدادهم، حتى هؤلاء الفقراء الضعفاء منهم، يضلِّلون الأكابر منا، وهم لا في العير ولا في النفير، ولا لهم شاة ولا بعير، ولا يكاد المرء يحسُّ بأنهم موجودون!

يغمز هؤلاء المجرمون بعضهم لبعض، ساخرين من أمثال: عمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وصهيب، وبلال، وأمثالهم من المستضعفين، من الذين آمنوا، ممن ليس لهم ثروة ولا ظهر ولا قبيلة تحميهم وتردُّ عنهم ما يؤذيهم.

والتغامز: تفاعل من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب. ويكون الغمز أيضا بمعنى: العيب. يقال: غمزه إذا عابه. فهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء، يُتعبون أنفسهم، ويحرمونها لذَّاتها، ويخاطرون بأنفسهم، في طلب ثواب لا يتيقَّنونه.

3. التفكُّه بالحديث عنهم في بيوتهم:

والأمر الثالث الذي وُصف به الذين أجرموا مع المؤمنين: {**وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ** } إذا انصرفوا إلى أهلهم وبيوتهم، وإلى أصحابهم وذويهم، انصرفوا فكِهين، أي: متفكِّهين بذكر المؤمنين وأحوالهم، يسخرون منهم، ويستهزؤن بهم، وهم الأحقُّ بالسخرية والاستهزاء. سواء قرأنا الآية {**فَكِهِينَ**} بغير الألف، كما

هي قراءة حفص وغيره. أو قرأناها بالألف، كما في قراءات أخرى **(فَاكِهِينَ)**[186]. وقد قيل: الفَكِه: هو الأشِر والبطر. والفاكه: المترف الناعم. وكلاهما مذموم. فهم يعيشون على ذمِّ المؤمنين، في مجتمعهم أو داخل أسرهم.

4. رميهم بالضلال:

الأمر الرابع من أوصاف هؤلاء المجرمين: أنهم قوَّالون بالباطل، شاهدون بالزور، فيصفون هؤلاء المؤمنين، الذين شرح الله صدورهم للاهتداء بهدى الله، والإيمان به، يقولون إذا ابصروهم عياناً : **{إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ}**، ضلُّوا الطريق إلى الحقِّ، ومشَوا وراء الباطل، حين اتَّبعوا محمدا وصدَّقوه!

وإنك لتعجب أن يرمي الضَّالُّ الغارق في الضلال إلى أذنيه، الذي طبع الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، أن يصف المهتدين الهداة، الذين استنارت بصائرهم وقلوبهم، وعرَفوا الإيمان الحقَّ، وصدَّقوه وآزروه، بأنهم ضالون، فمَن المهتدون إذن؟! إنهم يعيشون في متاهات وضلالات وظلمات: **{كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}** [النور:40].

لم يبعث الله المؤمنين حافظين على المؤمنين:

يقولون عن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه وبالدار الآخرة، هذا الكلام المردود، **{وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ}**، أي: وما هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين، ما يصدر منهم من أقوالهم وأعمالهم، ولا كُلِّفوا بأمرهم، فلم اشتغلوا بهم، وجعلوهم نصب أعينهم؟ يعني أنهم ما أُرسلوا من جهة الله تعالى، مُوكَّلين بهؤلاء المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم، ويهتمُّون بأعمالهم، ويشهدون برُشدهم وضلالهم، وهذا تَهَكُّم بهم، وإشعارٌ بأن ما أجترأوا عليه من القول من وظائف مَن أرسل من جهته سبحانه، وقد قال تعالى: **{قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ**

186- الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (388/6).

عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}** [المؤمنون:108–111].

انقلاب الحال في الآخرة:

{فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}

وفي الآخرة تنقلب الدائرة، وتتغيَّر الأمور أساسا على عقب، في هذه الدار تعتدل الأشياء، ويستقيم المعوج، ويأخذ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، **{لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}** [غافر:17]، هنالك يصبح المؤمنون هم السادة المُتحكِّمين، فالشأن شأنهم، والأمر أمرهم، واليوم يومهم، **{فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ}**، وهو ضحك في موضعه، وضحك من حقِّهم، يضحكون على الكفَّار المجرمين، حتى يرَوْنهم أذلاَّء مغلولين في السلاسل يسحبون إلى جهنم، قد غشيَهم الهوان والصَّغار، بعد العزَّة والكِبْر، ورهقهم ألوان العذاب بعد التنعُّم والترفُّه، أصبح الضاحكون على الناس في الدنيا مضحوكا عليهم.

كان الكفَّار يضحكون على فقراء المؤمنين وضعفائهم بسبب ما هم فيه من الضرر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على أكابر المشركين المجرمين، بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء، ولأنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم قد باعوا باقيا بفانٍ، ويرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد، ودخلوا الجنة، فعاشوا ينظرون كيف يُعذَّب أعداؤهم في النار، وكيف يصطرخون فيها، ويدعون بالويل والثبور، ويلعن بعضهم بعضا.

الأبرار على أرائكهم ينظرون إلى كل ألوان النعيم:

{عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ}

المؤمنون في روضات الجنَّات على سُررهم، وعلى أرائكهم كالملوك ينظرون إلى كلِّ ما في الجنَّة من ألوان التنعُّم والرفاهية والنعيم، وينظرون بتدبُّر وشماتة إلى ما يلقى أعداؤهم من الأشقياء المجرمين من عذاب أليم، وأعظم ما ينظرون إليه، هو الله ربُّ العالمين.

كما دلَّت هذه السورة أن الكفَّار الفجَّار المجرمين عند ربِّهم يومئذ لمحجوبون، وإن المؤمنين وحدهم هم المتنعِّمون برؤيته تعالى ورضوانه، وهو من أجلِّ مفردات النعيم، إنهم إذن ليسوا بضالِّين، كما زعم الأفاكُّون، بل هم من أولياء الله المقرَّبين، ينظرون إلى ربِّهم في دار كرامته، كما قال تعالى: **{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}** [يونس:26]، فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

الجزاء من جنس العمل:

{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}التثويب: المجازاة . يقال: ثوَّبه – بتشديد الواو – وأثابه ، أي : جازاه . واشتهر في المجازاة بالخير ، ويكون استعماله في مجازاة الكفارعلى سبيل التَّهكُّم كما في **{فبشِّرهم بعذابٍ أليم}**[آل عمران : 66]. والجملة الاستفهامية مسبوقة بقول مقدَّر وقع حالاً من ضمير **{ يَنْظُرُونَ}**والأصل : يجلسون على الأرائك في حال قوله تعالى لزيادة سرورهم : **{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}** أي: هل جُوزي أعداؤكم على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقُّص؟ يعني: قد جُوزوا بما يستحقُّون أوفر الجزاء، والجزاء من جنس العمل. صدق وعدك ، فلك الحمد والشكر الجزيل .

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)}

مقاصد السورة:

السورة مكيَّة باتفاق، وقد اشتملت السورة على ما تشتمل عليه السُّور المكيَّة من الأصول العقدية والأخلاقية ومنها:

التنبيه على أشراط الساعة، وما يجري في الكون قبلها، وحلول يوم البعث والحساب، واختلاف أحوال الناس في ذلك بين أهل الجنة ونعيمها، وأهل النار وشقائها، كما تضمَّنت القسم بالليل وما وسق، وما عُطف عليها بتغيير الأحوال.

والتنبيه على الكفَّار بضرورة الإيمان والإذعان إلى القرآن، والامتناع عن تكذيبه، فإنَّ المكذِّبين تنزل عليهم عقوبة الله ومقته، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون.

تفسير السورة:

أشراط الساعة، وما يجري في الكون قبلها

{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) }

{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}

بدأت السورة، بنحو ما بدأت به سورة التَّكوير، وسورة الانفطار، بمقدِّمة الجملة الشرطيَّة، المبدوءة بـ{**إِذَا**}، وهي ظرف لما يُستقبل من الزمان، ولكن الجملة الشرطيَّة وما عطف عليها خُتمت بالجملة الجوابية الواضحة في التكوير:{**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ**} [التكوير:14]، وفي الانفطار: {**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**} [الانفطار:5]، بخلاف الجملة هنا.

انشقاق السماء واستجابتها لأمر الله:

ومعنى {**انْشَقَّتْ**}، أي انصدعت وتفطَّرت، فانشقاق السماء هو تفطُّرها لهول يوم القيامة، كما قال تعالى: {**وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ**} [الحاقة:16]، قالوا: هي تنفطر بالغمام، كما قال تعالى: {**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ**} [الفرقان:25]، فحين يريد الله لهذا العالم الذي نعيشه أن ينخرب، وتتفكَّك أجزاؤه، ويختلّ نظامه، وينهدَّ بنيانه، فلا بدَّ أن يكون ذلك بحادثة من الحوادث الكبيرة، تحدث في سير العالم، كأن يمرَّ نجم في مسيرته بالقرب من نجم آخر، فيتجاذبا فيتصادما، فيضطرب النظام الشمسيُّ كلُّه، ويقع من ذلك غمام وأيُّ غمام! يظهر في مواضع متفرقة من الجوِّ والفضاء الواسع، ويكون

هذا إيذانا من الله تعالى بانحلال نظام الكون على النحو الذي يريده، وتتكوَّر الشمس، وتنفطر السماء، وتنكدر النجوم، وتتغيَّر الأمور.

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}

أي: استمعت لربِّها، وأطاعت أمره فيما أمرها به أمراً كونياً، من الانشقاق.

{وَحُقَّتْ}، أي وحُقَّ لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانع ولا يُطالب، بل قد ظهر على كلِّ شيء، وذلَّ له كلُّ شيء، فأذنت: معناها استمعت واستجابت، كما في الحديث الصحيح: "ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به"[187]. ومنه قول قَعْنَب:

صُمٌّ إذَا سمعوا خيرًا ذُكِرتُ به   وإن ذُكِرت بشَرٍّ عندهم أَذِنوا

وهنا يكون المعنى: **{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا}**، أي: استمعت وانقادت وأذعنت لتأثير قدرته تعالى، حين تعلَّقت إرادته بانشقاقها، انقياد المأمور المطواع، إذا ورد عليه أمر الآمر المُطاع، والتعرُّض لعنوان الربوبية (ربِّها)، مع الإضافة إليها، للإشعار بعلِّية الحكم.

وهذه الجملة ونظيرتها الآتية، بمنزلة قوله تعالى في ذكر بدء الخليقة، حين قال للأرض والسماء: **{ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}** [فصلت:11].

وقيل: **{وَحُقَّتْ}**، أي: وجُعلت حقيقة بالاستماع والانقياد، من قولهم: هو محقوق بكذا، وحقيق به. والمعنى: انقادت لربِّها وهي حقيقة بذلك. عن ابن عباس وابن جُبير: وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.

187- متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (5024)، ومسلم في صلاة المسافرين (792)، عن أبي هريرة.

قال ابن عطية: (ويحتمل أن يريد: وحُقَّ لها أن تنشقَّ لشدَّة الهول وخوف الله تعالى)[188].

بسط الأرض وإخراج ما في بطنها من الأموات وتفرُّغها مما كانت تخفيه:

{وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ}

أي: بُسطت، وقلَّ ثخنها، ووُسِّعت،بعد دكها وإزالة جبالها وآكامها من مقارِّها، وتسويتها بحيث صارت **{قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا}** [طه: 106، 107]، أو زيدت سَعة وبسطةً. من مَدَّه بمعنى: أمدَّه، أي زاده.

وفي الحديث الذي رواه الحاكم بسند جيد، عن جابر مرفوعا: "تُمدُّ الأرض يوم القيامة مدَّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه"[189] الأديم: الجلد.

قال الإمام الرازي: (واعلم أنه لا بدَّ من الزيادة في وجه الأرض، سواء كان ذلك بتمديدها أو بإمدادها؛ لأنَّ خلق الأولين والآخرين لما كانوا واقفين يوم القيامة على ظهرها، فلا بدَّ من الزيادة في طولها وعرضها)[190].

{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ}

أي: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلَّت منهم، أي لم تمسك منهم بشيء.

وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلَّت ممَّا استُحفظت؛ لأن الله تعالى استودعها عباده أحياءً وأمواتاً، واستحفظها بلاده مزارعَ وأقواتاً، وهو كقول الله تعالى: **{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}** [الزلزلة:2]، وقوله: **{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}** [الانفطار:4]، وقوله سبحانه: **{إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}** [العاديات:9]، وكقوله تعالى: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}** [المرسلات:25، 26].

188- تفسير ابن عطية (456/5).
189- رواه الحاكم في الأهوال (570/4)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
190- تفسير الرازي (97/31).

فمعنى **{وَتَخَلَّتْ}**، أي: وخلتْ غاية الخلوِّ، حتى لم يبقَ في باطنها شيء، كأنها تكلَّفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرَّم الكريم، وترحَّم الرحيم. إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة، وتكلَّفا فوق ما في طبعهما.

قال الرازي رحمه الله تعالى: (واعلم أن التحقيق أن الله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء من بطن الأرض إلى ظهرها، لكنَّ الأرض وصفت بذلك على سبيل التوسُّع)[191].

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}

كرَّرها تأكيدا لمعناها في الإلقاء والتَّخلِّي، وهي حقيقة بذلك.

وزعم الرازي: أن الآية الأولى: **{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}**، في السماء، وهذه الآية في الأرض، وإذا اختلف وجه الكلام لم يكن تكرارا[192].

أين جواب {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} وما عطف عليها؟

الجواب معلوم، عُرف من السور السابقة في التكوير والانفطار وغيرها، والتقدير: علمت نفس ما أحضرت، وعلمت ما قدَّمت وأخَّرت، وانكشفت لها ما في يوم القيامة من أهوال، وما يجري فيه من وقوف وانتظار، وحساب وسؤال، حيث تُنشر الدواوين، وتُحكم الموازين، ويُسأل الناس عمَّا كانوا يعملون، ويُجْزون بما قدَّموا، ويعفو الله عمَّن يشاء، ويُشفِّع من أنبيائه وملائكته والمؤمنين فيمن يشاء من عباده من غير المشركين، وينتهي الجميع إلى جنَة أو نار. وقال في الكشَّاف: (حذف جواب إذا ليذهب المقدّر كل مذهب)[193].

191- المصدر السابق، نفسه.
192 - المصدر السابق، نفسه.
193- الكشاف للزمخشري (725/4).

الإنسان جاهد في عمله إلى لقاء ربه وحال السعداء والأشقياء

{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) }

النداء الثاني للإنسان في هذا الجزء من القرآن

{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}

هذا هو النداء الثاني للإنسان بوصفه إنسانا في القرآن العزيز، كان النداء الأول في سورة الانفطار: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}** [الانفطار:6، 7]. وهذا هو النداء الثاني للإنسان بهذه الصيغة، أي: للجنس. أما النداء للإنسان جميعاً، فيأتي في قوله تعالى: **{يا أيها الناس}**. وقد ورد في القرآن، وهو نداء إلى بني الإنسان عامَّة، بحيث يشمل المؤمنين وغير المؤمنين، ولهذا جاء في القرآن المكِّي والمدني، فالمراد جنس الناس، كما يقال: (يا أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل). فكذا هنا، فكأنه خطاب خُصَّ به كلُّ واحد من الناس، وهو أبلغ من العموم؛ لأنه قائم مقام التخصيص على مخاطبة كلِّ واحد منهم على التَّعيين، بخلاف اللفظ العام، فإنه لا يكون كذلك.

ما معنى الكدح ؟

و(الكدح): جهد النفس في العمل والكدِّ، بحيث يؤثِّر فيها، من قولهم: كدح جلدَه: إذا خدشه.

والمعنى: يا أيُّها الإنسان الذي من شأنه كثرة الغفلة عن نهايته، من أيِّ بلد كنتَ، وبأيِّ لسان تكلمتَ، تنبَّه إلى أنك لست بخالد فيما أنت فيه ، بل أنت مسرع إلى الموت ، فكل خطوة تخطوها في عمرك هي خطوة إلى نهاية أجلك ، ثم تلاقي بعد ذلك جزاء عملك.

كلام الرازي في معنى قوله تعالى: {إِلَى رَبِّكَ}

قال الإمام الرازي: (أما قوله: **{إِلَى رَبِّكَ}**، ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: إنك كادح إلى لقاء ربِّك وهو الموت، أي: هذا الكدح يستمرُّ ويبقى إلى هذا الزمان. وأقول في هذا التفسير نكتة لطيفة: وذلك لأنها تقتضي أن الإنسان لا ينفكُّ في هذه الحياة الدنيوية من أولها إلى آخرها عن الكدح والمشقَّة والتعب، ولما كانت كلمة **{إِلَى}** لانتهاء الغاية، فهي تدلُّ على وجوب انتهاء الكدح والمشقَّة بانتهاء هذه الحياة، وأن يكون الحاصل بعد هذه الدنيا محض السعادة والرحمة، وذلك معقول، فإن نسبة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الدنيا إلى رحم الأم. فكما صحَّ أن يُقال: يا أيها الجنين، إنك كادح إلى أن تنفصل من الرحم. فكان ما بعد الانفصال عن الرحم بالنسبة إلى ما قبله خالصاً عن الكدح والظلمة، فنرجو من فضل الله أن يكون الحال فيما بعد الموت كذلك.

وثانيهما: قال القفَّال: التقدير: إنك كادح في دنياك كدحاً تصير به إلى ربِّك. فبهذا التأويل حَسُن استعمال حرف **{إِلَى}** ها هنا.

وثالثها: يحتمل أن يكون دخول **{إِلَى}** على معنى أن الكدح هو السعي، فكأنه قال: ساعٍ بعملك إلى ربِّك)[194].

ما هوالضمير في قوله: {فَمُلَاقِيهِ}؟

194- تفسير الرازي : (105/31).

والضمير في {فَمُلَاقِيهِ}، يحتمل لقاء العمل ذاته، فكلُّ إنسان سيلقى عمله، ويرى عمله خيراً كان أم شرًّا، طاعةً أو معصيةً، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:30]، ويقول تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:7، 8]. ويقول: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف:49].

قال ابن كثير: (ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسي، بسنده عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال جبريل: يا محمد، عِش ما شئتَ فإنك ميت، وأحبب ما شئتَ فإنك مفارقه، واعمل ما شئتَ فإنك ملاقيه"[195].

ويحتمل الضمير: أن يعود إلى قوله: {رَبِّك}، أي: اعمل أيها الإنسان واكدح إلى ربِّك، فإنك ستلقى ربَّك لا محالة، فيجازيك على عملك، ويكافئك على سعيك، فإن الله تعالى لا يضيع أجر مَن أحسن عملا. وعلى هذا فكلا القولين متلازم.

قال العوفي، عن ابن عباس في تفسير الآية؛ يقول: تعمل عملاً تلقى الله به، خيرًا كان أو شرًّا[196]. وقال قتادة في تفسيرها: إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمَن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوَّة إلا بالله[197]!)[198].

أخذ كتاب الأعمال :

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا}.

195- رواه أبو داود الطيالسي (1862)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (4355).
196- رواه الطبري في تفسيره (235/24).
197- المصدر السابق، نفسه.
198- تفسير ابن كثير (356/8).

كلٌّ إنسان له كتاب، كما قال تعالى: **{وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** [الإسراء:13، 14]

والناس في يوم القيامة صنفان: سعداء وأشقياء، فالسعداء هم أهل الجنة.

دلائل سعادة أهل الجنة:

وأول بوادر سعادته: **{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}**فهو يُؤْتى كتاب أعماله بيده اليمنى.وفي ذكرها بشارة وسرور وتكريم. وقدعُبِّر فيه بالماضي عما سيكون للدلالة على تحققه، كأنه وقع فيما مضى.

وثاني بشائره: **{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا }**أي: يُحاسَب حساباً هيناً خفيفاً سهلاً عليه، بلا تعسير ولا تضييق، فيُعرض عليه ما قدَّم وأهمل من العمل بحيث لا يُحقِّق عليه جميع دقائق أعماله، فإن مَن حُوسب كذلك يهلك لا محالة.

روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن نُوقش الحساب عُذِّب". قالت: فقلتُ: أليس قال الله: **{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}**؟ قال: "ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، مَن نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب"[199].

وروى أحمد بسنده، عن عائشة قالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته: "اللهمّ حاسبني حساباً يسيراً". فلما انصرف قلتُ: يا رسول الله، ما

199- رواه أحمد (24200). والحديث متفق عليه: رواه البخاري في العلم (103)، ومسلم في الجنة وصفة (2876).

الحساب اليسير؟ قال: "أن يُنظر في كتابه فيُتجاوز له عنه، إنه من نُوقش الحساب – يا عائشة – يومئذ هلك"[200].

كلام الرازي في معنى {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا }:

قال الإمام الرازي معقِّبا على الحساب اليسير: (و"سوف" من الله واجب، وهو كقول القائل: اتَّبعني فسوف تجد خيرًا. فإنه لا يريد به الشكَّ، وإنما يريد ترقيق الكلام. والحساب اليسير: هو أن تُعرض عليه أعماله، ويعرف أن الطاعة منها هذه، والمعصية هذه، ثم يثاب على الطاعة، ويُتجاوز عن المعصية، فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنه لا شدَّة على صاحبه ولا مناقشة، ولا يُقال له : لمَ فعلتَ هذا. ولا يُطالَب بالعذر فيه، ولا بالحُجَّة عليه. فإنه متى طُولب بذلك لم يجد عُذرًا ولا حُجَّة فيفتضح، ثم إنه عند هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله مسرورًا، فائزًا بالثواب، آمنًا من العذاب)[201].

وثالث بشائره: **{وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا}**، أي: يعود ويرجع إلى أهله وأسرته في الجنة، أو أهله من إخوانه المؤمنين، فرِحاً مغتبطاً مستبشراً ممَّا أعطاه الله من فضله. فالمرء حريص على أن يسرَّ أهله بنجاحه وفوزه، وأن يرى فرحهم بذلك، فهذا مما يسرُّه ويشرح صدره، بل يحب أن يعرف الناس بذلك.

وفي سورة الحاقة: **{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}** [الحاقة:19–22].

حال أهل الشقاوة :

200- رواه أحمد (24215) وقال مخرجوه: حديث صحيح دون قوله: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في صلاته: "اللهم حاسبني حسابا يسيرا" فهذه الزيادة تفرد بها محمد بن اسحاق وقد قال الذهبي في "الميزان": وما تفرد به فيه نكارة. وصححه ابن كثير في التفسير (357/8) على شرط مسلم.
201- تفسير الرازي (98/31).

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}

بعد أن ذكر أهل السعادة، ثنَّى بأهل الشقاوة، فالأوَّلون أعطوا كتابهم بأيمانهم، وحُوسبوا حساباً يسيراً، وهؤلاء الأشقياء على عكسهم، أُعطوا كتابهم بشمائلهم من وراء ظهورهم كارهين لكتابهم مدبرين عنه .

وقد بيَّنت آيات أخرى أنهم أعطوه بشمائلهم، كما في سورة الحاقّة: **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}** [الحاقة:25–29]، فكلُّ واحد من هؤلاء الأشقياء يُؤتى كتابه بشماله، من وراء ظهره، فاكتفى هنا بإبداء صورته من وراء الظهر، وفي سورة الحاقة أظهر أخذه بالشمال، وكلاهما واقع، وهو يُشعر بكراهته لتناوله لأنه حجة عليه.

{فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا}

إنه يتمنَّى الثبور، وهو الهلاك، والفناء النهائي ، بل يدعو به ويناديه ويطلب حصوله، يقول: يا ثبوراه، يا هلاكاه. يقال: فإنه أوانُك، وأنَّى له ذلك.

دلائل شقاء أهل النار:

أول مصائبه: أن يأخذ كتابه من وراء ظهره، وثاني مصائبه: أن يدعو على نفسه بالثبور والهلاك، وثالث بلاويه: أن يَصْلى ويدخل النار المستعرة: **{وَيَصْلَى سَعِيرًا}**. والسعير: اسم من أسماء النار، وقُرئ: **(وَيُصَلَّى)**– بضمِّ الياء وفتح الصاد واللام المُشدَّدة – أي : يُدَخَّل، كقوله تعالى: **{وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ}** [الواقعة:94]، وقرئ: **(ويُصْلَى)**، كما في قوله تعالى **{وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ}** [النساء:115].

سرور الكفار في الدنيا :

{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}

أي: كان في الدنيا بين عشيرته وأهله وأقاربه مسروراً مُترفاً، بَطِراً مستبْشراً، كدَيْدن الفجَّار، الذين لا يُهمُّهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يُفكِّرون في العواقب، ولم يكن حزيناً متفكِّراً في حالِهِ ومآلِه، كسُنَّة الصلحاء المتَّقين.

والإسلام لا يذمُّ السرور ولا الفرح في الدنيا، ولكنه يذمُّ فرح البطر والغرور، كما قال قوم قارون له: **{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}** [القصص:76]. ومَدَح الفرح بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: **{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}** [يونس:58]، وقال: **{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ}** [الروم:4، 5].

قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنَّة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: **{إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}** [الطور:26–27]. قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا، والضحك فيها والتَّفكُّه، فقال: **{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً}**.

كلام الرازي على قوله تعالى: {إِنَّه كَانَ فِي أَهْلِه مَسْرُورًا}:

قال الرازي : (ذكر القفَّال فيه وجهين: أحدهما: أنه كان في أهله مسرورًا أي: منعَّمًا مستريحًا من التعب، بأداء العبادات، واحتمال مشقَّة الفرائض، من الصلاة والصوم والجهاد، مُقدِمًا على المعاصي، آمناً من الحساب والثواب والعقاب، لا يخاف الله ولا يرجوه، فأبدله الله بذلك السرور الفاني غمًّا باقيًا لا ينقطع، وكان المؤمن الذي أوتي كتابه بيمينه متَّقيًا من المعاصي، غير آمن من العذاب، ولم يكن في دنياه مسرورًا في أهله، فجعله الله في الآخرة مسرورًا، فأبدله الله تعالى بالغمِّ الفاني سرورًا دائمًا لا ينفد.

الثاني: أن قوله: {**إِنَّه كَانَ فِي أَهْلِه مَسْرُورًا**}، كقوله: {**وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ**} [المطففين:31]، أي: متنعِّمين في الدنيا، معجبين بما هو عليه من الكفر، فكذلك ههنا يحتمل أن يكون المعنى: أنه كان في أهله مسرورًا بما هم عليه من الكفر بالله، والتكذيب بالبعث، يضحك ممَّن آمن به وصدَّق بالحساب. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال : "الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر"[202])[203].

سبب سرور الكافر في الدنيا :

{إِنَّه ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ}

يُعلِّل الله تعالى سروره في الدنيا: إنه ظنَّ أن لن يرجع بعد الموت، تكذيباً بالمعاد، كما قال تعالى: {**أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**} [ق:3]، {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ**} [سبأ:7، 8]، ظنَّ أن لن يرجع حيًّا مبعوثا فيُحاسب، ثم يُثاب أو يُعاقب. كان فَرِحًا في دنياه لا يفكِّر في العواقب، ولا يخاف ممَّا أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير، الحزن الطويل. قال لبيد بن ربيعة:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رمادا بعد ما هو ساطع

وقال ابن عباس: ما كنتُ أدري: ما يحور؟ حتى سمعتُ أعرابية تدعو بنيَّة لها: حوري، أي ارجعي إليَّ[204]. فالحور في كلام العرب: الرجوع. ومنه قوله عليه السلام: "اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور"[205]. يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

تهديد ووعيد بالعقاب على أعمال الكافرين :

202- رواه مسلم في الزهد (2956)، عن أبي هريرة.
203- تفسير الرازي (100/31).
204- انظر: تفسير القرطبي (273/19).
205- رواه مسلم في الحج (1343)، وأحمد (20781)، عن عبد الله بن سرجس.

{بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}

{بَلَى}: حرف يفيد إبطال المظنون قبله ، وإثبات نقيضه ، أي: ليس الأمر كما تظنُّ، بل يحور إلينا، ويرجع، معلوماً لنا ومكشوفاً. يعني: بل سيعيده الله تعالى كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرِّها، فإنه كان به بصيراً، أي: عليما بالإنسان وأعماله وأحواله كلها ، لا يخفى منه عليه خافية.

القسم بالشفق والليل وما وسق، وما عُطف عليها بتغيير الأحوال

{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19) }

ما معنى الشفق المقسم به ؟

{فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ }

الشفق الذي جاء في القسم القرآني: هو الحُمرة التي يشاهدها الناس في الأُفق بعد غروب الشمس، وفي أول الليل، إلى قريب من العتمة، ولا يدري الإنسان ما سيكون وراءه.

وفي حديث عبد الله بن عمرو، الذي رواه عنه مسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وقت المغرب ما لم يغِب الشفق"[206].

وقال الخليل: الشفق: الحُمرة، من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. إذا ذهب. قيل: غاب الشفق. ولذا قيل: أصل الكلمة من رِقَّة الشيء؛ يُقال: شيء شفق أي لا تماسك له لرقَّته. وأشفق عليه. أي رقَّ قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رقَّة القلب.

القسم بالليل في القرآن الكريم:

{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}

والقَسَم التالي في هذا السياق بالليل وكل شيء شمله ظلامه ، وقد أقسم القرآن بالليل في أكثر من سورة في هذا الجزء من سورة التكوير قال: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}**

206- رواه مسلم في المساجد (612)، عن عبد الله بن عمرو.

[التكوير:17]، وفي سورة الشمس: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}** [الشمس:4]، وفي سورة الليل: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** [الليل:1]، وفي سورة الضحى: **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [الضحى:1، 2].

معنى {وَمَا وَسَقَ}:

وهنا قال تعالى: **{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}**، أي: جمع وضمَّ ولفَّ. **{وَمَا}**اسم بمعنى الذي ، أي : كل الذي جمعه الليل وستره في ظلامه .

قال ابن جرير: (أقسم الله تعالى بالنهار مُدبراً، وبالليل مُقبلاً)[207]. قالوا: ومن فضل الله تعالى أن جعل لنا الليل لباساً بظُلمته وستره للناس، كما قال تعالى: **{وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ}** أي: في الليل، **{وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}**، أي: بالنهار، **{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [القصص:73]، فالليل يجمع ويضمُّ ما كان منتشرا بالنهار في تصرُّفه.

القسم بالقمر عند اجتماعه وتمام نوره:

{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}

قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى[208]. ومنهم مَن قال: إذا امتلأ. وقيل: إذا استدار. ومعنى كلامهم: أنه إذا تكامل نوره وأبدر ،وذلك في الليالي البيض التي تبتدئ من ليلة 13 من كل شهر قمري ، جعله مقابلاً لليل وما وسق.

القراءات الواردة في قوله تعالى : {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}

{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}

207- تفسير الطبري (244/24).

208- رواه الطبري في التفسير (249/24).

قراءة الجمهور، الخطاب في الآية للجماعة، **(لَتَرْكَبُنَّ)** ، وبعض القراءات خطاب للفرد، أي: للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وبعضهم قال: خطاب للإنسان[209].

ومعنى: **{طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** :أي: حالاً بعد حال، أيًّا كان المُخاطب.

فهو إما خطاب للجماعة، يقول لهم: **{لَتَرْكَبُنَّ}**، أي: لَتُلاقُنَّ حالاً بعد حال، كلُّ واحدة فيها مطابقة لأختها في الشدَّة والفظاعة. سواء كان ذلك في أحوال الدنيا من الإيذاء والهجرة، والإخراج من الديار، أم في أمور الآخرة من الموت وما بعده، من القيامة والنشور والسؤال والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

أو **(لَتَرْكَبَنَّ)**، يا محمد حالاً بعد حال، من الإيذاء في مكة، إلى الهجرة، إلى المدينة، إلى الجهاد في سبيل الله، وفيه ما فيه من انتصار أو انكسار، حتى تكون العاقبة لك، ويُتمُّ الله نوره عليك.

وإما **(لَتَرْكَبُنَّ)** أيها الإنسان وتلاقي الأحوال المتدرِّجة من العاقبة والبلاء، ومن الضعف والقوَّة، ومن الخوف والأمن، ومن النصر والهزيمة.

وقيل: الطبق جمع (طبقة)، وهي: المرتبة. وهو الأوفق لركوب الشيء عن اعتلاء. والمعنى هنا: لتركبنَّ أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدَّة، بعضها أرفع من بعض. وهي الموت، وما بعده من مواطن القيامة ودواهيها.

وروى ابن جرير بسنده، عن مجاهد، عن ابن عباس كان يقول: **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}**، قال: يعني: نبيَّكم صلى الله عليه وسلم، يقول: حالاً بعد حال[210]. وهذا لفظه. ورُوي عن ابن عباس وعدد من تلاميذه ومُفَسِّري السلف نحو ذلك.

209- الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (391/6).

210- رواه الطبري في التفسير (251/24).

قال: ويحتمل أن يكون المراد: **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}**، حالاً بعد حال. قال: هذا – يعني المراد بهذا – نبيُّكم صلَّى الله عليه وسلم، على أن (هذا) و(نبيُّكم) يكون مبتدأ وخبراً، والله أعلم.

ولعل هذا يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة، كما روى أبو داود الطيالسي، وغُنْدَر: بسندهما إلى ابن عباس: **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}**، قال محمد صلى الله عليه وسلم[211]. ويؤيِّد هذا المعنى قراءة عمر وابن مسعود وابن عباس، وعامة أهل مكة والكوفة، **(لَتَرْكَبَنَّ)** بفتح التاء والباء.

وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى الشعبي قال: **{لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}**: لتركبنَّ يا محمد، سماء بعد سماء. وهكذا رُوي عن ابن مسعود ومسروق وأبي العالية: **{طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}**، سماء بعد سماء[212]. يعنون ليلة الإسراء. ومعنى هذا: أن الآية تبشِّر بحادث الإسراء المعروف قبل وقوعه.

وجاء أيضا عن ابن عباس في تفسير الآية: منزلاً على منزل، وأمراً بعد أمر، وحالا بعد حال[213].

كلام الإمام الرازي في تفسير هذه الآية{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}:

قال الإمام الرازي: (**{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}** فيه مسائل:

المسألة الأولى: قُرِىء: **(لَتَرْكَبَنَّ)** على خطاب الإنسان في **{يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ}**، **{لَتَرْكَبُنَّ}** بالضم على خطاب الجنس؛ لأنَّ النداء في قوله: **{يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ**

211- رواه أبو بكر الشافعي في الغلانيات (239)، من طريق أبو داود الطيالسي، والطبري في التفسير (251/24)، من طريق غندر.

212 - روى هذه الآثار الطبري في التفسير (253/24- 254).

213- تفسير ابن كثير (359/8، 360) بتصرف.

كَـادِحٌ} [الانشقاق:6] للجنس، و**(لَتَـرْكَبِنَّ)** بكسر الباء، على خطاب النفس، و**(لَيَـرْكَبَنَّ)** بالياء على المغايبة، أي ليركبنَّ الإنسان.

المسـألة الثانيـة: الطبق: ما طابق غيره، يقال: ما هذا يطبق كذا، أي لا يُطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطبق، وطباق الثرى: ما يطابق منه، قيل: للحال المطابقة لغيرها: طبق، ومنه قوله تعالى: **{طَبَقًا عَن طَبَقٍ}**، أي حالاً بعد حال، كلٌّ واحدة مطابقة لأختها في الشدَّة والهول.

ويجوز أن يكون جمع (طبقة): وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات، والمعنى: لتركبُنَّ أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدَّة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من أهوال القيامة.

ولنذكر الآن وجوه المفسِّرين، فنقول: أما القراءة بضمِّ الباء، وهو خطاب الجمع، فتحتمل وجوهاً:

أحدها: أن يكون المعنى: لتركبُنَّ أيها الناس أموراً وأحوالاً، أمراً بعد أمر، وحالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، إلى أن يستقرَّ الأمر على ما يُقضَى به على الإنسان أو له، من جنَّة أو نار، فحينئذ يحصل الدوام والخلود، إما في دار الثواب، أو في دار العقاب، ويدخل في هذه الجملة أحوال الإنسان من حين يكون نطفة، إلى أن يصير شخصاً، ثم يموت، فيكون في البرزخ، ثم يُحشر، ثم يُنقل إما إلى جنة وإما إلى نار.

وثانيها: أن معنى الآية: أن الناس يلقون يوم القيامة أحوالاً وشدائد، حالاً بعد حال، وشدَّةً بعد شدَّة، كأنهم لما أنكروا البعث أقسم الله: أنَّ البعث كائن، وأنَّ الناس يلقون فيها الشدائد والأهوال، إلى أن يفرغ من حسابهم، فيصير كلُّ أحد إلى ما أعدَّ له من جنَّة أو نار، وهو نحو قوله: **{قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ}** [التغابن: 7] وقوله: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}** [القلم: 42] وقوله: **{يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}** [المزمل:17].

وثالثها: أن يكون المعنى: أن الناس تنتقل أحوالهم يوم القيامة عما كانوا عليه في الدنيا، فمن وضيع في الدنيا، يصير رفيعاً في الآخرة، ومن رفيع يتَّضع، ومن متنعِّم يشقى، ومن شقيٍّ يتنعَّم، وهو كقوله: **{خافضة رافعة}** [الواقعة:3]. وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية؛ لأنه تعالى لما ذكر حال مَن يُؤْتى كتابه وراء ظهره، أنه كان في أهله مسرورا، وكان يظنُّ أن لن يحور، أخبر الله أنه يحور، ثم أقسم على الناس أنهم يركبون في الآخرة طبقا عن طبق، أي حالا بعد حالهم في الدنيا.

ورابعها: أن يكون المعنى لتركبنَّ سُنَّة الأولين ممَّن كان قبلكم في التكذيب بالنبوَّة والقيامة.

القراءة بفتح الباء في (لتركبَن):

وأما القراءة بفتح الباء ففيها قولان:

القول الأول: قول مَن قال: إنه خطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا التقدير ذكروا وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بالظفر والغلبة على المشركين المكذِّبين بالبعث، كأنه يقول: أقسم يا محمد لتركبَنَّ حالا بعد حال، حتى يختم لك بجميل العاقبة، فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم. وفي هذا الوجه احتمال آخر يقرب ممَّا ذكرنا، وهو أن يكون المعنى: أنه يركب حال ظفر وغلبة بعد حال خوف وشدَّة.

واحتمال ثالث: وهو يكون المعنى: أنَّ الله تعالى يُبدله بالمشركين أنصاراً من المسلمين، ويكون مجاز ذلك من قولهم طبقات الناس. وقد يصلح هذا التأويل على قراءة مَن قرأ بضم الباء، كأنه خطاب للمسلمين بتعريف تنقُّل الأحوال بهم وتصييرهم إلى الظفر بعدوِّهم، بعد الشدَّة التي يلقونها منهم، كما قال: **{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186].

وثانيهما: أن يكون ذلك بشارة لمحمد صلى الله عليه وسلم بصعوده إلى السماء لمشاهدة مَلكوتها، وإجلال الملائكة إيَّاه فيها، والمعنى: لتركبَنَّ يا محمد السماوات طبقاً عن طبق، وقد قال تعالى: **{سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** [الملك:3]، وقد فعل الله ذلك ليلة الإسراء، وهذا الوجه مرويٌّ عن ابن عباس وابن مسعود.

وثالثها: لتركبنَّ يا محمد، درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى.

القول الثاني في هذه القراءة: أنَّ هذه الآية في السماء وتغيُّرها من حال إلى حال، والمعنى لتركبنَّ السماءَ يوم القيامة حالةٌ بعد حالة، وذلك لأنها أولا تنشق كما قال: **{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}** [الانشقاق:1]، ثم تنفطر كما قال: **{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}** [الانفطار:1]، ثم تصير: **{وَرْدَةً كَالدِّهَانِ}** [الرحمن:37]، وتارة: **{كَالْمُهْلِ}** [المعارج:8]. على ما ذكر الله تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن، فكأنه تعالى لما ذكر في أول السورة أنها تنشق، أقسم في آخر السورة أنها تنتقل من أحوال إلى أحوال، وهذا الوجه مرويٌّ عن ابن مسعود)[214].

كلام الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}:

وقال الإمام القرطبي في "تفسيره": (**{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}**: قرأ أبو عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومسروق، وأبو وائل، ومجاهد، والنَّخَعي، والشعبي، وابن كثير، وحمزة، والكسائي: **(لَتَرْكَبَنَّ)** بفتح الباء، خطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم، أي: لتركبَنَّ يا محمد، حالاً بعد حال. قاله ابن عباس. وعن الشَّعبي: لتركبَنَّ يا محمد، سماءً بعد سماء، ودرجةً بعد درجة، ورُتبةً بعد رُتبة، في القربة من الله تعالى.

214- تفسير الرازي (31/102- 103).

وعن ابن مسعود: لتركبنَّ السماءُ حالاً بعد حال. يعني: حالاتها التي وصفها الله تعالى بها؛ من الانشقاق والطيِّ، وكونها مرة **{كَالْمُهْلِ}**، ومرة **{كَالدِّهَانِ}**.

وعن إبراهيم، عن عبد الله: **{طَبَقًا عَن طَبَقٍ}** قال: السماء تقلَّبُ حالاً بعد حال. قال: تكون: **{وَرْدَةً كَالدِّهَانِ}**، وتكون: **{كَالْمُهْلِ}**.

وقيل: أي: لتركبَنَّ أيها الإنسان حالاً بعد حال، من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيًّا وميّتا، وغنيًّا وفقيراً. فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}**. وهو اسمٌ للجنس، ومعناه الناس.

وقرأ الباقون **{لَتَرْكَبُنَّ}** بضم الباء، خطابا للناس، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قال: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم، لما ذكر قبل هذه الآية، فمَن أوتي كتابه بيمينه، ومَن أوتي كتابه بشماله. أي: لتركبنَّ حالا بعد حال من شدائد القيامة، أو لتركبن سُنَّة مَن كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الأنبياء).

قال القرطبي: (وكلُّه مراد، وقد جاءت بذلك أحاديث)[215].

قال صلَّى الله عليه وسلم: "لتركبُنَّ سَنَن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه". قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟"[216].

وأما أقوال المفسِّرين، فقد ذكرها القرطبي وهي تدلُّ على التَّغيُّر من حالة إلى حالة: من صِغَر إلى كِبَر، ومن رضاعة إلى شيخوخة، ومن استقامة إلى اعوجاج، ومن سنة إلى بدعة، ومن رخاء بعد شدَّة، وشدَّة بعد رخاء، ومن ضَعَةٍ في الدنيا إلى رفعة في الآخرة، والعكس، ومن الشدائد والأحوال من الموت وما بعده من أمور الآخرة .. إلخ.

(فقال عكرمة: حالاً بعد حال، فطيماً بعد رضيع، وشيخاً بعد شاب، قال الشاعر:

215- تفسير القرطبي (278/19).
216- متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3456)، ومسلم في العلم (2669)، عن أبي سعيد الخدري.

كذلك المرء إن يُنسأ له أجل يركب على طبق من بعده طبق

وعن مكحول: كلُّ عشرين عاماً تُحدِثون أمراً لم تكونوا عليه.

وقال الحسن: أمراً بعد أمر، رخاءً بعد شدَّة، وشدَّة بعد رخاء، وغنًى بعد فقر، وفقرا بعد غنى، وصحَّة بعد سَقَم، وسقما بعد صحَّة.

[وقال] سعيد بن جبير: منزلة بعد منزلة، قوم كانوا في الدنيا متَّضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتَّضعوا في الآخرة.

وقيل: منزلة عن منزلة، وطبقاً عن طبق، وذلك، أن مَن كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومَن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأن كلَّ شي يَجرٌّ إلى شكله.

وعن ابن زيد: ولتصيرنَّ من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة.

وقال ابن عباس: الشدائد والأهوال: الموت، ثم البعث، ثم العرض.

والعرب تقول لمَن وقع في أمر شديد: وقع في بنات طبق، وإحدى بنات طبق. ومنه قيل للداهية الشديدة: أم طبق، وإحدى بنات طبق. وأصلها من الحيَّات، إذ يُقال للحيَّة: (أم طبق) لتحوِّيها.

والطبق في اللغة: الحال كما وصفنا، قال الأقرع بن حابس التميمي:

إني امرؤ قد حلبتُ الدهر أشطره وساقني طبق منه إلى طبق

وهذا أدلُّ دليل على حدوث العالم، وإثبات الصانع)[217].

وقوله تعالى: {عَن طَبَقٍ}، أي: بعد طبق كقول الشاعر:

217- تفسير القرطبي (279/19- 280).

ما زلتُ أقطع منهلًا عن منهلٍ حتَّى أنختُ بباب عبد الواحد

ووجه هذا: أن الإنسان إذا صار من شيء إلى شيء آخر، فقد صار إلى الثاني بعد الأول، فصلحت (بعد) و(عن) معاقبة، وأيضا فلفظة (عن) تفيد البُعد والمجاوزة، فكانت مشابهة للفظة (بعد).

تهديد للكافرين وبشارة للمؤمنين

{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)}

استفهام إنكار أو تعجب لعدم الإيمان مع كثرة براهينه :

{فما لهم لا يؤمنون}

أي: أيُّ شيء يمنعهم من الإيمان، بعدما وضحت لهم الآيات، وقامت الدلالات؟ وهذا استفهام إنكار، وقيل: تعجيب. أي: اعجبوا منهم في ترك الإيمان، مع وجود هذه الآيات.

كلام الإمام الرازي عن معنى قوله تعالى : {فما لهم لا يؤمنون}:

قال الإمام الرازي: (الأقرب أنَّ المراد: فما لهم لا يؤمنون بصحَّة البعث والقيامة؛ لأنه تعالى حكى عن الكافر: **{إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}** [الانشقاق: 14]. ثم أفتى سبحانه بأنه يحور، فلما قال بعد ذلك: **{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}**، دلَّ على أن المراد: فما لهم لا يؤمنون بالبعث والقيامة.

ثم اعلم أن قوله: **{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}**، استفهام بمعنى الإنكار، وهذا إنما يحسُن عند ظهور الحُجَّة، وزوال الشبهات، الأمر هاهنا كذلك، وذلك لأنه سبحانه أقسم بتغييرات واقعة في الأفلاك والعناصر، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها، وهو ضوء النهار، ولما بعدها، وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: **{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}**، فإنه يدلُّ على حدوث ظلمة بعد نور، وعلى تغيُّر أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم، وكذا قوله: **{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}**، فإنه يدلُّ على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصاً.

إنه تعالى أقسم بهذه الأحوال المتغيِّرة على تغيُّر أحوال الخلق، وهذا يدلُّ قطعاً على صحَّة القول بالبعث، لأن القادر على تغيير الأجرام العلويَّة والسفليَّة، من حال إلى حال، وصفة إلى صفة، بحسب المصالح، لا بدَّ وأن يكون في نفسه قادراً على جميع الممكنات، عالماً بجميع المعلومات. ومَن كان كذلك، كان لا محالة قادرا على البعث والقيامة، فلما كان ما قبل هذه الآية كالدلالة العقلية القاطعة على صحَّة البعث والقيامة لا جرم قال على سبيل الاستبعاد: **{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}**)[218] اهـ.

الإيمان مقدور لكلِّ إنسان:

وهذه الآية وأمثالها دليل على أنَّ الإيمان مقدور لكلِّ إنسان، وأن الله تعالى مكَّن الإنسان بحكم فطرته وإنسانيَّته من الإيمان بربِّه، ومن هنا أنكر عليه ابتعاده عن الإيمان، ونفوره منه، مع ما قرَّبه الله إليه من الدلائل والموجبات، قال تعالى: **{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}** [الحديد:8].

التعجب من عدم خضوعهم للقرآن وإيمانهم به لإعجازه :

{وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ}

قال تعالى: **{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}** [الحشر:21]، فكيف يُقرأ على هؤلاء المشركين القرآن ثم لا يلينون له ولا يخضعون بأن يؤمنوا به لإعجازه وما فيه من الحق والبيان والأخبار والعلوم . كما هو شأن العقلاء الذين يدعوهم سماع القرآن إلى الإيمان والخشوع لله، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}** [السجدة:15].

وبعد قراءة: **{لَا يَسْجُدُونَ}** يسجد السامع والقارئ المتطهران .

أسباب تكذيب الكافرين :

218- تفسير الرازي (103/31).

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ}

أي:الذين جحدوا النبوة والتوحيد يُكذِّبون بالقرآن الناطق بما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها، مع تحقُّق موجبات تصديقه. والمعنى: أنَّ الدلائل الموجبة للإيمان، وإن كانت جليَّة ظاهرة، لكن الكفار يُكذِّبون بها، إما لتقليد الأسلاف، وإما للحسد، وإما للخوف من أنهم لو أظهروا الإيمان لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها. وهذه كلُّها لا تنفعهم، ولا تغني عنهم شيئاً، فعملهم إنما هو تكذيبٌ محض، لا يسنده عقل ولا فطرة.

الله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب:

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}

أصل الكلمة من الوعاء، فيقال: أوعيتُ الشيء، أي: جعلته في وعاء، كما قال: **{وَجَمَعَ فَأَوْعَى}** [المعارج:18]، والمعنى : والله أعلم وأكثر إحاطة منهم بما يحفظون ويضمرون في صدورهم من الشِّرك والتكذيب والحسد والبغي والبغضاء والعناد للحق، فهو مجازيهم عليه في الدنيا والآخرة. أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء، ويدَّخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.

{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}

وإذا كان ربك – أيها النبي – يعلم ما يخفون من الكيد لك وللإسلام، فأخبرهم مُحذِّراً لهم ، باستحقاق هذا العذاب الموجع على تكذيبهم وكفرهم. والتبشير هنا من باب السخرية والتهكم بهم، فإنما هو إنذار.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}

المراد بالاستثناء في الآية:

فيه قولان قال: صاحب (الكشاف): (الاستثناء منقطع[219]، وقال: الأكثرون: معناه إلا من تاب منهم، فإنهم وإن كانوا في الحال كفاراً، إلا أنهم متى تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر، وهو الثواب العظيم)[220]. وهو أجر غير ممنون.

معنى: {غَيْرُ مَمْنُونٍ}:

ذلك الأجر والمكافأة والثواب يصل إليهم بلا مَنٍّ ولا أذًى، من غير انقطاع، ومن غير تنغيص، ومن غير نقصان.

ونرى الأوْلى أن يحمل اللفظ على الكلِّ؛ لأنَّ من شرط الثواب حصول الكلِّ، فكأنه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشوائب، دائم لا انقطاع فيه، ولا نقص، ولا بخس، وهذا نهاية الوعد، فصار ذلك ترغيبا في العبادات، كما أن الذي تقدَّم هو زجر عن المعاصي والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله ربِّ العالمين[221].

---

219 - الكشاف (728/4).
220- تفسير الرازي (105/31).
221- تفسير الرازي (105/31).

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)}

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) }

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}

بدأت هذه السورة بهذه الأقسام الأربعة, من الله تبارك وتعالى: بالسماء ذات البروج, واليوم الموعود, وشاهد ومشهود.

أول ما أقسم الله به هنا هو السماء, التي تعلونا وتُظلُّنا كما يُظلُّ السقفُ ما تحته, كما قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}** [الأنبياء:32], و(الـ) حرف التعريف في السماء, هو للجنس أو للعهد, وتشمل كلَّ السماوات السبع, كما يُسمّيها القرآن.

و**{الْبُرُوجِ}**، قد اختلف في تعيينها المفسّرون, فقال ابن عباس كما في محرَّر ابن عطية، **{الْبُرُوجِ}**: النجوم؛ لأنها تتبرَّج بنورها، والتبرُّج: التظاهر والتبدِّي[222] اهـ. وجاءت عن ابن عباس وعن غيره أقوال أخرى.

والبروج في كلام العرب: هي القصور والحصون, كما قال تعالى: **{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}** [النساء:87].

والذي يظهر لي هنا أنها: النجوم؛ فإنها أعظم ما في السماء، وأظهر دلائلها. كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ}** [الملك:5], وقال: **{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}** [الحجر:16–18].

قال العلاَّمة ابن كثير: (يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زيَّنها به من الكواكب الثواقب، لمَن تأمَّلها، وكرَّر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هنا هي: الكواكب)[223] اهـ.

وهذا كما قال تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}** [الفرقان:61], والسراج هنا يعني به الشمس، كما قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا**

222- تفسير ابن عطية (460/5).
223- تفسير ابن كثير (528/4).

سِرَاجًا وَهَّاجًا} [النبأ:13], وقال نوح لقومه: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** [نوح:15، 16].

فالسماء إذن تحوي النجوم والشمس والقمر, كما قال تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** [النحل:12].

وما جاء عن بعض مفسِّري السلف: أنها منازل الشمس والقمر, لا يمثِّل الحقيقة كلَّها، فالشمس والقمر بالنسبة لنجوم السماء شيءٌ قليل ضئيل جدًّا, وقد قال تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}** [الواقعة:75، 76].

وما ذُكر أنها البروج الاثنا عشر المعروفة عند الفلكيّين ومَن سار على دربهم, فأظنُّ أنه يبعد أن يُخاطَب به الإنسان العادي, فأولى ما يُفسَّر به البروج هو: النجوم؛ لأنها أبنيةٌ رفيعة هائلة ضخمة عظيمة, كما دلَّت على ذلك آيات القرآن, فيصحُّ إطلاق البروج عليها, تشبيهاً لها بما يُبنَى من القصور العالية, والحصون المنيعة في الأرض.

{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}

أقسم الله بالسماء, وهي مكان عظيم, ثم أقسم باليوم الموعود, وهو زمان عظيم, بل هو أعظم أيام الزمان. وهو القسم الثاني في السورة.

والمراد: الموعود به, والذي وعد به وبضرورة إتيانه هو الله تبارك وتعالى: وهو يوم القيامة, من غير خلاف بين أهل التأويل فيه.

قال ابن عباس: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه[224]. **{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [المطففين:4،

224 - انظر: تفسير القرطبي (283/19).

5], {**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**} [هود:103], {**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**} [الانفطار:13–19].

هذا هو اليوم الآخر, الذي أخَّره الله ليبعثهم فيه ويحشرهم ويحاسب فيه العباد, ويجزيهم على أعمالهم, إن خيرا فخير, وإن شرًّا فشر, {**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**} [الزلزلة:7–8].

فهذا من الغيب الذي وعد الله به, ولن يخلف الله وعده, وما وعد به سيتحقَّق لا محالة ولا ريب، {**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**} [النحل:111].

{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}

نكَّرهما للإبهام في الوصف, أي وشاهد ومشهود لا يُكْتَنَه وصفهما, أو للمبالغة في الكثرة. وهذان هما القسمان, الثالث والرابع في السورة. وقد أقسم الله أولاً بالسماء وهي من عالم الشهادة, وباليوم الموعود, يوم القيامة, وهو من عالم الغيب, ثم أقسم بالشاهد والمشهود, وهما يشملان كلَّ شيء بعد ذلك, لأنه كلُّ ما في الوجود إما شاهد, وإما مشهود, والشاهد إما يشهد بالحسّ، وإما يشهد بالعقل, أو يشهد باللسان, أو يشهد بالدلالة. وكلُّها شهادات معتبرة.

والمشهود: ما يُشهد بإحدى الحواس, بالبصر أو بالسمع أو بالذوق أو باللمس. وقد يشهد بالعقل, كما يشهد بأن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، وكما يشهد العقل على أن القرآن الكريم يحتوي على آيات باهرات, يعجز البشر بأن يأتوا بمثلها، ويشهد العقل على أن محمدا صلى الله عليه

وسلم، قد ظهرت على يديه آيات حسيَّة وعقليَّة كثيرة متواترة ومتوافرة, تؤكِّد أنه رسول الله حقًّا.

وما رُوي عن السلف في هذا من تحديد يوم مُعيَّن, كيوم الجمعة أو يوم التروية أو يوم عرفة أو يوم النَّحر, من أنه شاهدٌ أو مشهودٌ, فهو من باب التمثيل وليس حقيقة التفسير. وهذا التمثيل يدخل فيه كثيرون وكثيرات من الأشياء والمعاني والأشخاص, وبعض الألفاظ القرآنية تدلُّ عليه.

وما أجمل ما قاله الإمام القرطبي هنا: (قلتُ: وعلى هذا اختلفت أقوال العلماء في الشاهد، فقيل: الله تعالى، عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير. بيانه: **{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}** [النساء:79]، **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}** [الأنعام:19].

وقيل: محمد صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس أيضاً والحسين بن علي، وقرأ ابن عباس: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}** [النساء:41]، وقرأ الحسين: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}** [الأحزاب:45]. قلتُ:[القرطبي] وأقرأ أنا: **{وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [البقرة:143].

وقيل: الأنبياء يشهدون على أممهم؛ لقوله تعالى: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ}** [النساء:41]. وقيل: آدم. وقيل: عيسى ابن مريم؛ لقوله: **{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ}** [المائدة:117]، والمشهود: أمته.

وعن ابن عباس أيضاً ومحمد بن كعب: الشاهد الإنسان، دليله: **{كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** [الإسراء:14].

وقال مقاتل: أعضاؤه، بيانه: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور:24].

وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم. بيانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة:143].

وقيل: الشاهد: الحَفَظَة، والمشهود: بنو آدم. وقيل: الليالي والأيام. وقد بيَّناه.

قلتُ: [القرطبي] وقد يشهد المال على صاحبه، والأرض بما عُمِل عليها، ففي صحيح مسلم[225]، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذا المال خَضِر حلو، ونعم صاحب المسلم هو، لمَن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل – أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – وإنه مَن يأخذه بغير حقِّه كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة"[226].

وفي الترمذي، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} [الزلزلة:4] قال: "أتدرون ما أخبارها؟". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإن أخبارها: أن تشهد على كلِّ عبد أو أَمَة بما عَمِل على ظهرها، تقول عَمِل يوم كذا: كذا وكذا. قال: فهذه أخبارها". قال: حديث حسن غريب صحيح[227].

وقيل: الشاهد الخلق، شهدوا لله عزَّ وجلَّ بالوحدانية، والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى.

225 - كذا ذكره الإمام القرطبي، والحديث متفق عليه.
226- متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (2842)، ومسلم في الزكاة (1052).
227- رواه الترمذي في صفة القيامة (2429)، وأحمد (8867) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف.

وقيل: المشهود يوم الجمعة، كما روى أبو الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة ...". وذكر الحديث، خرجه ابن ماجه وغيره[228].

قلتُ: [القرطبي] فعلى هذا يوم عرفة مشهود؛ لأن الملائكة تشهده، وتنزل فيه بالرحمة. وكذا يوم النحر إن شاء الله.

وقال أبو بكر العطَّار: الشاهد الحجر الأسود، يشهد لمَن لمسه بصدق وإخلاص ويقين، والمشهود الحاج.

وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهود محمد صلى الله عليه وسلم. بيانه: **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ}** إلى قوله تعالى: **{وأنا معكم من الشاهدين}** [آل عمران:81])[229].

{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}

{قُتِلَ}، معناه: فعل الله بهم ذلك لأنهم أهل له. فهو على جهة الدعاء بحسب البشر، لا أن الله يدعو على أحد.

وقيل عن ابن عباس، معناه: لُعِن. وهذا تفسير بالمعنى, قال ابن عباس: كلُّ شيء في القرآن **{قُتِلَ}** فهو لُعن[230].

وهذه الجملة هي (جواب القسم في قول الفرَّاء, واللام فيه مضمرة كقوله: **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}** [الشمس:1], ثم قال: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** [الشمس:9], أي: لقد أفلح) كما في تفسير القرطبي[231]. والتقدير: لقد قُتل.

228- رواه ابن ماجه في الجنائز (1637)، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (2582).
229- تفسير القرطبي (19/285- 286).
230 - رواه الطبري في التفسير (11/415).
231- تفسير القرطبي (19/286).

وقيل: هو محذوف لعلم السامع به. وأيًّا ما كان فالجملة خبريَّة، والأظهر أنها دعائيَّة, دالَّة على الجواب, كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء إنهم – أي كفَّار مكة – مقتولون أو ملعونون, كما لُعِن أصحاب الأخدود.

كما أن السورة نزلت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذيَّة الكَفَرة، وتذكيرهم بما جرى على مَن تقدَّمهم، من التعذيب على الإيمان, وصبرهم على ذلك, حتى يأنسوا بهم، ويصبروا على ما كانوا يلقَون من قومهم, ويعلموا أنَّ هؤلاء عند الله بمنزلة أولئك المُعَذَّبين.

والأخدود, من الخد, وهو الشقُّ في الأرض. وهؤلاء الكفرة الملعونون شقُّوا في الأرض شقوقاً, وخدُّوا فيها أخدوداً أو أخاديد, وملأوها بالنيران المستعرة, وألقَوا فيها كلَّ مؤمن مُصرٍّ على عقيدته, لا يتراجع عنها, ولا يساوم على شيء منها. ولذا فسَّر الأخدود بقوله: **{النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ}**

ما الأخدود؟ هو النار ذات الوقود, وهو ليس شيئاً إلا هذه النار المتأجِّجة المستعرة, فهي بدل اشتمال من الأخدود.

وقوله: **{ذَاتِ الْوَقُودِ}**: وصف بغاية العِظَم, وارتفاع اللهب, وكثرة ما يوجبه من الحطب وأبدان الناس.

{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ}

أي لعنة الله ونقمته عليهم. أو:هؤلاء الكفار الجبابرة المتسلِّطون على المؤمنين, وهم الذين خدُّوا هذه الأخاديد, على هذه النار, أي عندها وبالقرب منها قعود, **{إِذْ}** ظرف **{قُتِلَ}**، أي: لُعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها, في مكان مُشرف عليها, من حافات الأخاديد.

{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}

الشهود هنا: إما من الشهادة بمعنى أنَّ بعضهم يشهدُ لبعض عند الحاكم الجبَّار، الذي سلَّطهم على إيذاء المؤمنين: أنَّ أحداً لم يُقصِّر فيما أُمر أو كُلِّف به.

أو أنهم يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة, **{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [النور:24].

وإما من الشهود بمعنى الحضور, وتكون **{عَلَى}** هنا بمعنى **(مع)**. والمعنى: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب، حضور لا يرقُّ لهم قلب, ولا تدمع لهم عين, لقسوة قلوبهم كأنها الحجارة أو أشدّ قسوة, فقد كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين, فمن أبى ألقَوه في النار, وفي ذلك وصفهم بالقسوة، ثم بالجد في ذلك.

وهذا الذي يستدعيه النظم الكريم، تنطق به الروايات المشهورة, التي وردت بها الآثار.

المراد بهؤلاء الجبابرة الملعونين:

اختلف المفسِّرون من قديم في المراد بهؤلاء الجبابرة الملعونين, إذ القرآن الكريم لم يحدِّد إلا وصفهم الإجمالي, ولم يعلمنا مَن هم؟ على طريقة القرآن في ربط العقل المسلم بالموضوع والمعنى, دون اهتمام بتحديد الزمان والمكان والأشخاص والأسماء، فنُعنى بأخذ العبرة من القصة ولا نتشاغل بالأشياء الأخرى, التي ربما كان كثرة الاهتمام بها مُلهياً عن الالتفات إلى جوهرها.

ولهذا قال مَن قال: إنَّهم أناسٌ بالشام. وقال آخرون: بل هم بنجران, أو باليمن. وقال غيرهم: بل هم بفارس. وقال قوم: هم من النصارى كانوا بالقسطنطينيَّة زمان قسطنطين. وكلُّ هذا ممكن, تحتمله الآيات.

روى مسلم في صحيحه، عن صهيب رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كَبِر قال للملك: إني قد كَبِرتُ فابعث إليَّ غلاما أُعلِّمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلِّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحر فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيتَ أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابَّة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا فقال: اللهمَّ إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابَّة، حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب، فأخبره فقال له الراهب: أي بُني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتلى، فإن ابْتليتَ فلا تدلَّ علي.

وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عَمِي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنتَ بالله دعوتُ الله فشفاك؟ فآمن بالله فشفاه الله.

فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَن ردَّ عليك بصرك؟ قال ربي. قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربِّي وربُّك الله.

فأخذه فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الغلام، فجيءَ بالغلام فقال له الملك: أي بني! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل .. وتفعل؟! قال: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء

بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوُضع المنشار في مفرق رأسه، فشقَّه حتى وقع شِقَّاه.

ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فوُضع المنشار في مفرق رأسه، فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا .. وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ. فرجف بهم الجبل، فسقطوا.

وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور، فتوسَّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ. فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنك لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خُذ سهما من كِنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قُل: باسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلك قتلتَني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كِنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله ربِّ الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا بربِّ الغلام! آمنا بربِّ الغلام! آمنا بربِّ الغلام!

فأتي الملك فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ، تحذر؟ قد والله، نزل بك حذرك، قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود في أفواه السِّكَك، فخُدَّت، وأضرم النيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها – أو قيل له: اقتحم – ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحقِّ"[232].

قال القرطبي: (قال علماؤنا: أعلمَ الله عزَّ وجلَّ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية، ما كان يلقاه من وَحَّد قبلهم من الشَّدائد، يُؤْنسهم بذلك. وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصَّة الغلام، ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقَّات التي كانوا عليها، ليتأسَّوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتَصلُّبه في الحقِّ وتمسُّكه به، وبذله نفسه في حقِّ إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين، مع صغر سنِّه وعظم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسُّك بالحقِّ حتى نُشر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم.

قال ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا، حسب ما تقدَّم بيانه في سورة (النحل) [233].

قال القرطبي: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمَن قوِيت نفسه، وصلُب دينه أولى، قال الله تعالى مُخبراً عن لقمان: **{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}** [لقمان: 17]. وروى أبو سعيد الخدري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر". خرَّجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب[234].

232- رواه مسلم في الزهد والرقائق (3005)، عن صهيب الرومي.
233- أحكام القرآن لابن العربي (374/4).
234- رواه الترمذي في الفتن (2174)، وصححه الألباني في الصحيحة (491).

وروى ابن سنجر (محمد بن سنجر)، عن أميمة مولاة النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت: كنتُ أوضِّئ النبي صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجل، فقال: أوصني. فقال: "لا تشرك بالله شيئا، وإن قطعتَ أو حرقتَ بالنار ..." الحديث[235].

قال علماؤنا: ولقد امتُحن كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شي من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخُبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك، وقد مضى في (النحل): أن هذا إجماع ممَّن قوي في ذلك، فتأمَّله هناك)[236].

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

وما عاب هؤلاء الجبابرة الملعونون على هؤلاء المؤمنين الصابرين الممتحنين, الذين حرَّقوهم بالنار, ولا كان لهم ذنب إلا إيمانهم وتصديقهم الراسخ بالله (العزيز) أي: الغالب المنيع الذي يَقهر ولا يُقهر، ويَهزم ولا يُهزم, ولا يضامُّ مَن لاذ بجنابه, ولجأ إلى رحابه.

{الحميد}، أي: المحمود في كلِّ حال, في جميع أقواله وأفعاله, وشرعه وقدرته, وخلقه وأمره, وإن كان قد قَدَّرَ على عباده هؤلاء, هذا الذي وقع بهم بأيدي الكافرين به, فهو العزيز الحميد, وإن خَفِي سبب ذلك على كثير من الناس.

الحكمة من الجمع بين اسمي { الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}:

والقرآن دائما في الأوصاف يجمع بين الأسماء المتقابلة, التي تجمع الجمال إلى الجلال, والحمد إلى الملك, ولله كلُّ الكمال والإجلال والإكرام. ولهذا جمع هنا بين

235- انظر: أسد الغابة (24/7).
236- تفسير القرطبي، (22/193-191).

العزيز والحميد, كما جمع في آيات أخرى بين العزيز والغفور, وجمع بين العزيز والغفَّار, وجمع بين العزيز والحكيم, وبين العزيز والحليم, وبين العزيز والوهَّاب، إلى غير ذلك من الآيات القرآنيَّة، التي نرى فيها صفات الإلهيَّة الواضحة لكلِّ ذي لبٍّ.

{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، ومن أوصاف عزَّته وقوَّته وغلبته: أنه يملك هذا الكون الكبير بكلِّ مَن فيه, وكلِّ ما فيه, فهو الذي له ملك السماوات والأرض يحكم فيهما بما يشاء, ويُعطي مَن يشاء, ويمنع مَن يشاء، ويعزُّ مَن يشاء، ويذلُّ مَن يشاء، بيده الخير، إنه على كلِّ شيء قدير.

لا يملك أحد من الإنس والجنِّ, أو غيرهما ذرَّة واحدة في السماء ولا في الأرض وما بينهما, لا اليوم, ولا الأمس, ولا غد, **{إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}** [مريم:93-95].

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} أي: لا يغيب عنه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية، كما قال تعالى: **{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}** [إبراهيم:38].

عاقبة الكافرين المصرِّين على جرائمهم وعاقبة المؤمنين

{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) }

النساء شقائق الرجال :

{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}

فتنوا المؤمنين والمؤمنات، أي: لم يكتفوا بفتنة الرجال، فجمعوا معهم النساء، ممَّا يدلُّ على أن النساء شقائق الرجال، كما قال تعالى: **{بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}** [آل عمران:195]، أي: الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، وقال تعالى: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}** [التوبة:71]، فلا غرو أن تقع الفتنة والتعذيب للجنسين معًا.

معنى {فَتَنُوا}:

ومعنى **{فَتَنُوا}**، أي: حرَّقوهم بالنار. والعرب تقول: فتن فلان الدرهم الفضي، أو الدينار الذهبي. إذا أدخله النار، لينظر جودته، وليعلم أهو فضة أو ذهب حقيقي أم مغشوش.

كرم الله وجوده في دعوة الكافرين إلى التوبة :

{ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}، أي: من قبيح صُنْعهم، وعن كفرهم وفتنتهم، فإن ما ذكر من الفتنة في الدين، لا يتصوَّر من غير الكافر قطعاً، وهم لم يكتفوا بالكفر بالله تعالى وتكذيب رسوله، بل أضافوا إليه تعذيب مَن آمن به، وتحريقهم. فهم الذين كفروا وظلموا وصدُّوا عن سبيل الله.

قال ابن كثير: (لم يقلعوا عمَّا فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ... قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!)[237].

للمجرمين المستكبرين : عذابان جزاء كفرهم وظلمهم

{فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}، هؤلاء المستكبرون في الأرض، الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وحرقوهم بالنار، لن يهربوا من عذاب الله وانتقامه، بل إذا كان لبعض الكفَّار عذاب واحد، فهم لهم عذابان، كما ذكرت الآية: عذاب جهنم، الذي يصلاه الكافرون عامَّة، جزاء كفرهم، وهذا في الآخرة. ولهم فيها عذاب زائد على عذاب كفرهم، بما أحرقوا المؤمنين.

والقرآن يُقرِّر أنَّ الله يزيد الكافرين عذاباً بمقدار ما ظلموا وأفسدوا، كما قال تعالى: **{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}** [النحل:88].

وقيل: العذابان كلاهما في الآخرة، فالأول: عذاب جهنم، الذي يُعذَّب به كلُّ الكفَّار العاديين. والثاني: عذاب الحريق، وهو اسم من أسماء النار، وكأنهم يُعذَّبون في جهنم بالزمهرير، ثم يُعذَّبون بعذاب الحريق، فالأول: عذاب ببردها، والثاني: عذاب بحرِّها. نعوذ بالله منها كلِّها.

237- تفسير ابن كثير (271/8).

سُنَّة القرآن الكريم بذكر الوعد مع الوعيد

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}

بعد أن بيَّن القرآن عاقبة الكافرين به، والمكذِّبين لرسله، المُضطَّهدين لعباده المؤمنين، الذين يفتنونهم عن دينهم بالتحريق في الأخاديد، ثنَّى بذكر أضدادهم من أهل الإيمان والعمل الصالح، كما هي سُنَّة القرآن الكريم، يذكر الوعد مع الوعيد، والترغيب مع الترهيب، والتبشير مع الإنذار، ليحذِّر مَن يحذر الآخرة، ويرجو من يرجو رحمة ربِّه.

فهؤلاء {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**}، أي: صدَّقوا وأيقنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، {**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**} ، وهو تعبير قرآنيٌّ يشمل كلَّ ما يصلُح به الفرد، ويصلُح به المجتمع، ما يصلح به ماديًّا، وما يصلح به معنويًّا، ومَن عمل الصالحات: أن يعمل لدنياه ولا يتكاسل عنها، ومنها: أن يعمل لعبادة ربِّه، ويفعل الخير، ويدعو إليه، فإن عجز فليجعله في نيته، "وإنما لكلِّ امرئ ما نوى"[238].

هؤلاء لهم { **لَهُمْ جَنَّاتٌ**}، أي: بساتين، تجري من تحتها الأنهار، التي وصفها القرآن، من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغيَّر طعمه، ومن خمر لذَّة للشاربين، ومن عسل مصفًّى.

{**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**}، وأي فوز أكبر من هذا الفوز؟ فهو فوز عظيم لا فوز يشبهه، وقد قال تعالى: {**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**} [آل عمران:185].

وكلمة {**ذَلِكَ**}، إشارة إلى ما أُعدَّ لهم في هذه الجنَّات، ممَّا تشتهيه الأنفس، وتَلَذُّ الأعين، ممَّا لا عين رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، {**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ**

238- متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (1)، ومسلم في الإمارة (1907)، عن عمر بن الخطاب.

مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة:17]، {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:72].

شدَّةِ بطشِه تعالى بالظَّلَمة الطغاة والكفرة العُتاة

{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) }

{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ }

البطش هو: الأخذ بعنف، وإذا وُصف بالشدَّة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه تعالى، بالجبابرة والطغاة والظالمين، وأخذه إيَّاهم بالعذاب والانتقام، كقوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}** [هود:102]، وقوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** [الفجر:6–14].

والجملة استئناف، خُوطب بها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، إيذاناً بأنَّ لكفَّار قومه نصيبًا موفورًا من بطش الله وانتقامه، إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم وفتنتهم للمؤمنين، كما ينبِّئ عنه التعرُّض لعنوان الربوبيَّة، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام {**بَطْشَ رَبِّكَ**}.

{إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ}

أجل هو سبحانه المُبدئ المُعيد، يُبدئ الخلق بالإنشاء، ويعيده بعد الإماتة بالبعث والإحياء، وذُكر عن ابن عباس: أنه عامٌّ في جميع الأشياء، فهي عبارة عن أنه يفعل كلَّ شيء، أي: يبتدئ كلَّ ما يبدأ، ويعيد كلَّ ما يُعاد، وهذان قسمان مستوفيان جميع الأشياء.

واختار الطبري: أنه يبدئ في العذاب، ويعيده على الكفار[239]. والأول أوْلى. قال تعالى: {**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**} [الروم:27].

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}

ومن صفات الكمال الواجبة لله تعالى, واللائقة بذاته الكريمة، وبها تكتمل الذات الإلهيَّة التي تجمع بين الجلال والجمال, والملك والحمد: أنه تعالى – كما أنه ذو البطش الشديد, والمُبدئ والمعيد – هو الغفور الودود.

{**الْغَفُورُ**}: لمن تاب وآمن – من الغفْر، وهو السَّتْر– الذي يستر ذنوب عباده المؤمنين, لا يفضحهم بها.

239- تفسير الطبري (283/24).

{الْـوَدُودُ}: المُحـبُّ لأوليائـه, وهـو يتَـودَّد إلـيهم بنِعَمـه وفضـله وعفـوه ومغفرتـه ورحمته. قال ابن عباس: كما يودُّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبَّة[240]. كما قال تعالى: **{يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}** [المائدة:54].

{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}

وصف الله تعالى نفسه بأنه صاحب العرش العالي على جميع الخلائق، وهو العظيم في ذاته وصفاته, وهو واجب الوجود, تامُّ العلم والقدرة, كاملُ الإرادة والحكمة. هذا إذا كان **{الْمَجِيدُ}** بالرفع.

أما إذا كان بالخفض **(الْمَجِيدِ)**, أي صاحب العرش العظيم, كما جرت عادة الناس في وصف الملوك بما لهم من عروش كبيرة, كما قال الهدهد في وصف ملكة سبأ: **{إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}** [النمل:23]، وقال تعالى : **{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ}** [المؤمنون:86], فهناك قراءتان: بالرفع على أنه وصف الربِّ تعالى، وبالجرِّ على أنه وصف العرش[241]، وكلاهما معنى صحيح.

ومن العلماء من قال: (معنى **{ذُو الْعَرْشِ}**: أي ذو المُلك والسلطان, كما يقال: فلان على سرير ملكه, وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثُلَّ عرشه, أي ذهب سلطانه)[242].

240- انظر: تفسير القرطبي (296/19).
241- الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (393/6).
242- تفسير القرطبي، (297/19).

والذي أرجِّحه: أن نمضي على ظاهر ما جاء في القرآن, الذي امتدح الله سبحانه بأنه ربُّ العرش العظيم، وربُّ العرش الكريم، قال: {**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**} [الحاقة:17].

{فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}

أيْ: مهما أراد فعله, لا مُعقِّب لحكمه, ولا يُسأل عمَّا يفعل, بحيث لا يتخلَّف مراد من أفعاله تعالى وأفعال غيره، وذلك لعظمته وقهره, وحكمته وعدله. كما رُوي عن أبي بكر الصِّدِّيق أنه قيل له، وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعَّال لما أُريد[243].

وإنما قال (فعَّال) بصيغة المبالغة؛ لأنَّ ما يريد ويفعل في غاية الكثرة.

243- رواه ابن أبي شيبة (35581).

تسليته عليه الصلاة والسلام بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)}

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُود}

استئنافٌ مُقرِّرٌ لشدَّةِ بطشِه تعالى بالظَّلَمة الطغاة، والكَفَرة العُتاة، المفسدين العُصاة، وكونُه تعالى فعَّالاً لما يريد: مُتضمِّن لتسليته عليه الصلاة والسلام، بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود.

دلالة كلمة: {**الْجُنُودِ**}:

وجاء الخطاب بهذه الصيغة الاستفهاميَّة, للتَّشويق والإثارة, وهو قد أتاه حديث هؤلاء، الذين سمَّاهم الله {**الْجُنُودِ**}، إشارة إلى الصفة العسكرية التي تلبَّسوا بها،

واشتهروا عند العالم بأنهم أهل الحرب والقتل, والقوَّة والعنف, كما قال تعالى في سورة (ص) مؤكِّدا هذه الصورة: **{جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ}** [ص:11].

وهذا يُخوِّف ويُحذِّر من الصفة العسكريَّة، إذا انفردت بالقوَّة والسلاح وحدها, دون وازع من إيمان أو خلق. وكم عانت بلادنا وغيرها من الانقلابات العسكرية, التي تجعل الجنود العسكريين وحدهم هم قادة الأمة وحاكموها. والواجب أن يكونوا حماتها فقط.

مَن هم هؤلاء الجنود؟

{فِرْعَوْنَ وَثَمُود}اقتصر القرآن على ذكر هذين النموذجين الطاغيين، من نماذج الجنود أو العسكر أصحاب القوة الغاشمة، **{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}** [الفجر:11-12].

والمراد بحديث الجنود: ما صدر عنهم – فرعون وثمود– من التَّمادي في الكفر والضلال, وما حلَّ بهم من العذاب والنَّكال. والمعنى: قدْ أتاكَ حديثهم، وعرفتَ ما فعلُوا، وما فُعِلَ بهمْ، حين كذَّبوا رسله، وخالفوا أمره، فَذَكِّر قومكَ بشؤونِ الله تعالى، وأنذرْهُم أنْ يصيبَهُم مثل ما أصاب أمثالهم. وما هي من الظالمين ببعيد.

وإنما اكتفى بذكر فرعون وثمود, لأن ثمود في بلاد العرب, وقَّصتهم كانت عندهم مشهورة, وإن كانوا من العرب المتقدِّمين, من العرب البائدة، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم, وكان من المتأخِّرين في الهلاك, فدلَّ بهما على أمثالهما في الهلاك والدمار. والله أعلم.

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ}

بل : حرف إضراب, والجملة للإضراب عن مماثلة كفَّار قريش وأمثالهم، الذين كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم, لأولئك الكفار الجبابرة المعتدين، وبيان

لكونهم أشد منهم في الكفر والطغيان, كأنه قيل: ليسوا مثلهم في ذلك، بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب, واستيجاب العقاب, فإنهم مستقرُّون في تكذيب شديد للقرآن الكريم, وليست جنايتهم مُجرَّد عدم التَّذكُّر والاتِّعاظ بما سمعوا من حديثهم، بل هو مع ذلك في تكذيب شديد للقرآن, الناطق بذلك.

وقد تحدَّث الإمام الرازي عن هذه الآية فكان مما قاله فيها: (والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفَّار في جميع الأزمنة مستمرَّة على هذا النهج، وهذا هو المراد من قوله: {**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ**}. ولما طيَّب قلب الرسول عليه السلام بحكاية أحوال الأوَّلين في هذا الباب، سلاَّه بعد ذلك من وجه آخر، وهو قوله: {**وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ**})[244].

{وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}

أي: والله تعالى قادر عليهم, قاهر قوَّتهم, محيطٌ بهم من كلِّ جهة، ثم لا يفوتونه ولا يعجزونه, فلن ينجوَا من بأس الله، الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين، كما قال تعالى للمشركين: {**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**} [العنكبوت:22].

القرآن المجيد:

{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ}

إضراب آخر, فيه ردٌّ لكفرهم, وإبطال لكذبهم, وتحقيق للحقّ, أي: ليس الأمر كما قالوا, بل هو كتاب شريف، عالي المنزلة, رفيع الدرجة, بين الكتب الإلهيَّة في النَّظم والمعنى والموضوع والأسلوب, أعجزَ البشرَ أن يأتوا بسورةٍ من مثله، وهذا هو معنى وصفه بالمجيد.

244- تفسير الرازي (31/115- 116).

القرآن محفوظ مصون:

{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}

أي: هو في الملأ الأعلى محفوظ مصُون من الزيادة والنقص, والتغيير والتبديل, فلما حكم فيه بسعادة أقوام, وشقاوة أقوام, وبتأذِّي قوم من قوم, أو جماعة من جماعة, امتنع تغيُّره وتبدُّله, فوجب الرضا به, ولا شكَّ أن هذا من أعظم موجبات التَّسلية.

وقوله تعالى هنا: **{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}**، يشبه ما قاله في آية أخرى: **{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}** [الواقعة:77–78]، قال الرازي: (فيحتمل أن يكون الكتاب المكنون, واللوح المحفوظ شيئاً واحدًا.

ثم كونه محفوظاً, يحتمل أن يكون المراد كونه محفوظاً، عن أن يمسَّه إلا المُطهَّرون, كما قال تعالى عن الكتاب المكنون: **{لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}** [الواقعة:79]، ويحتمل أن يكون المراد: ألا يجري عليه تغيير ولا تبديل)[245].

قال ابن عطيَّة في مُحرَّره الوجيز: (قرأ جمهور القرَّاء: **{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}** بالخفض, صفة للَّوح المشهور بهذه الصفة, وقرأ نافع وحده – بخلاف عنه – وابن محيصن الأعرج: بالرفع, صفة للقرآن[246]. على نحو قوله تعالى: **{وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [الحجر:9], أي هو محفوظ في القلوب لا يدركه الخطأ والتبديل)[247].

والحمد لله ربِّ العالمين.

245- المصدر السابق (116/31).

246- الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (396/6).

247- تفسير ابن عطية (463/5).

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)}

فضل السورة:

السورة مكيَّة، وقد روى عبد الله بن الإمام أحمد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن محمد، قال عبد الله: وسمعتُه أنا منه، بسنده إلى عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني، عن أبيه، أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مُشرّق ثقيف وهو قائم على قوس – أو عصًا – حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعتُه يقول: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}** حتى ختمها، قال: فوعيتُها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتُها في الإسلام. قال: فدعتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتُها عليهم، فقال مَن معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنَّا نعلم ما يقول حقًّا لاتَّبعناه[248].

248- رواه أحمد (18958) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف.

وروى النسائي بسنده، عن جابر قال: صلَّى معاذ المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أفتَّانٌ أنت يا معاذ؟! ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحو ذلك؟!"[249].

مقاصد السورة:

تتضمَّن السورة الإقسام من الله تعالى بهذا الطارق، والنجم الثاقب، على أن كلَّ نفس من أنفس البشر عليها من الله حافظ ورقيب يحرسها، ويكتب أعمالها.

وأن على الإنسان أن ينظر في بداية خلقه، وأنه خلق من منيِّ الرجل، وهو نُطفة لا شأن لها، ومن ماء المرأة، فهو من كليهما خُلق.

وأن الله قادر على إعادته، كما خلقه من هذه المادة المهينة، بتأكيد البعث.

وأنه سيُعاد يوم الحساب، **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}**، وتتكشف الستور، فما له من قوَّة تحميه، أو أحد ينصرُه.

ثم يحلف اللهُ بالسماء التي تتراجع بالأمطار، وبالأرض التي تتصدَّع بالنبات، على عظمة القرآن وصوابه.

ثم يبشِّر الرسول الكريم والمسلمين بالنصر المبين، وأن الكافرين يمكرون ويكيدون المكايد، والله لهم بالمرصاد، وسيُفشِل خططهم، ويُحبط مكرهم.

القسم بالطارق على أن كلَّ نفس عليها من الله حافظ يحرسها ويكتب أعمالها

249- رواه النسائي في الكبري في التفسير (11600). وأصلُ الحديث مخرَّج في الصحيحين سبق تخريجه صـ .

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) }

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ }

بدأ القسَم بالسماء، كما في السورة السابقة، ولكنه هنا أضاف إليها الطارق، بهذا الوصْف.

{وَالطَّارِقِ}، اسم فاعل من طرَق يطرُق، فهو طارق، إذا جاء ليلاً، وأصل الطَّرْق: الدَّقُّ، ومنه سُمِّيتْ (المِطرقة)، وإنما سُمِّي قاصد الليل طارقًا؛ لاحتياجه إلى طرْق الباب، ثم اتَّسَع معناه لكلِّ ما ظهر في الليل كائناً ما كان. والمراد هنا: النجم البادي ليلاً. إما على أنه اسم جنس، أو نجم معهود.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ}

فخَّمه حين أقسم به، ثم نوَّه بشأنه، ونبَّه على رِفعة قدره، بحيث لا ينالها إدراك الخلق، فلا بدَّ أن تُتلقَّى مِن الخلاَّق العليم. والمعنَى: وأيّ شيءٍ أعلمك عن حقيقة الطارق؟!

{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}

خبرٌ لمبتدأ محذوف، أيْ: هو النَّجمُ الثاقب، أيْ: المُضيء أو النافذ، كأنَّ الليل جِلْد أسود، وهو يثقُب هذا الجِلد ويخرقه، فهو يثقُب الظلامَ والأفلاك بضوئه وينفُذ فيها.

والمراد به: إمّا الجنس، فإن لكلِّ نجم ضوءًا ثاقبًا لا محالة، وهو الأولى، وقيل: نجم معيَّن مثل: زُحل، أو الثريا، أو غير ذلك. وقيل: المراد الشهاب واحد الشُّهُب، التي ذكر القرآنُ أنّها تُرجَم بها الشياطينُ، قال تعالى: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ}** [الملك:5]. وقال تعالى: **{إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}** [الصافات:10].

وقوله عزَّ وجلَّ: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ}**، تفْخيم لشأن هذا المُقسَم به، وقال سفيان بن عُيَيْنة: كل ما في القرآن **{وَمَا أَدْرَاكَ}**، فقد أُخْبر الرسول به – يقصد: قد أخبر الله تعالى نبيّه بشأنه وحاله – وكلُّ شيء قال فيه: **{وَمَا يُدْرِيكَ}**، لم يُخْبر به[250].

قال الرازي: (اعلمْ أنه تعالى أكثر في كتابه ذكْرَ السماء والشمس والقمر؛ لأن أحوالَها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة. وأمَا **{الطَّارِقُ}**: فهو كلُّ ما أتاك ليلاً، سواء كان كوكباً أو غيره، فلا يكون الطارق نهاراً، والدليل عليه قول المسلمين في دعائهم: نعوذ بالله من طوارق الليل.

ورُوي أنه عليه السلام، نهى عن أن يأتيَ الرجلُ أهلَه طروقا"،[251] والعرب تستخدم الطروق في صفة الخيَال؛ لأن تلك الحالة إنما تحصل في الأكثر في الليل، ثم إنه تعالى لمّا قال: **{وَالطَّارِقِ}**، كان هذا مما لا يستغني سامعُه عن معرفة المراد منه، فقال: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ}** ... ثم قال: **{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}**، أي هو طارق عظيم الشأن، رفيع القدر، وهو النجم الذي يُهْتدَى به في ظلمات البر والبحر، ويُوقَف به على أوقات الأمطار)[252].

جواب القسم :

{إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}

هذا هو جواب القسم، **{إِنْ}** نافية، و**{لَمَّا}** بمعنى (إلَّا)، والمعنى: لا يوجد نفس بشريَّة إلا وعليها من الله حافظ، وعلى الجميع حفظة يحرسونهم، ويحفظون على كلِّ نفس عملها ورزقها وأجلها وكل ما يتعلَّق بها، وما تكسب من خير أو شرٍّ، فعليها **{حَافِظٌ}**، أي: حارس ورقيب وراصد لِما تقوله وما تفعله، كما في قوله تعالى: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** [الانفطار:10–12]. وقال عزَّ وجلَّ: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ**

250- علقه البخاري بصيغة الجزم في باب فضل ليلة القدر (45/3)، ووصله ابن حجر في التغليق (3/204-205).

251- متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (5243)، ومسلم في الإمارة (715)، عن جابر بن عبد الله.

252- تفسير الرازي (117/31).

فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً [الأنعام:61]. وقال تعالى: {**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**} [الرعد:11]. {**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**} [ق:13].

والمُراد أن كلّ نفس عليها رقيب وحافظ، يحفظها من الآفات حتى يسلمها إلى المقادير.

(وقيل: الحافظ على الإنسان: عقله، يُرشِده إلى مصالحه، ويكفُّه عن مضارِّه.

قلت (القرطبي): العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو اللهُ جلّ وعزّ، قال الله: {**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**} [يوسف:64]، وقال تعالى: {**قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**} [الأنبياء:42])[253].

وقال الرازي في بيان ما يحفظه هذا الحافظ أو هؤلاء الحفظة: (ففيه وجوه، أحدها: أن هؤلاء الحفظة يكتبون عليه أعماله، دقيقَها وجليلَها، حتى تخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً.

وثانيها: {**إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**}، يحفظ عمَلها ورزقَها وأجلَها، فإذا استوفى الإنسان أجله ورزقه قبضه إلى ربِّه، وحاصله يرجع إلى وعيد الكفار وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله: {**فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**} [مريم:84]، ثم ينصرفون عن قريب إلى الآخرة فيجازون بما يستحقُّونه.

وثالثها: {**إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**}، يحفظها من المعاطِب والمهالِك، فلا يصيبها إلا ما قدَّر الله عليها.

253- تفسير القرطبي (4/20).

ورابعها: قال الفراء: {**إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**}، يحفظها حتى يُسْلِمَها إلى المقابر)[254].

النظر في بداية خلق الإنسان وقدرة الله على بعثه

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) }

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) }

قال الإمام الرازي: (واعلم أنه تعالى لمَّا أقسم على أنَّ لكلِّ نفس حافظًا يراقبها، ويعُدُّ عليها أعمالها، فحينئذ يحقُّ لكلِّ أحد أن يجتهد ويسْعى في تحصيل أهمِّ المُهمَّات، وقد تطابقت الشرائع والعقول على أنَّ أهم المهمات معرفة المبْدأ ومعرفة المَعاد، واتَّفقوا

254- تفسير الرازي (119/31).

على أن معرفة المبدأ مقدَّمة على معرفة المعاد، فلهذا السبب بدأ الله تعالى بعد ذلك بما يدلُّ على المبدأ، فقال: **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}**[255].

أي :إذا تبيَّن للإنسان أنه لا يوجد نفسٌ إلا عليها رقيبٌ وحافظٌ من الملائكة وجنود الله **{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}** [المدثر:31]. فعلى الإنسان أن ينظر ويتفكَّر بعقله في خلقه وتكوينه العجيب، الذي جمع بين حُسن الصورة والتقويم، وقوَّة الفكرة، والاستعداد للتعلُّم والتعليم، والتأهُّل للدار الآخرة، يتفكَّر: ماذا كان أمره، وإلامَ صار؟ وممَّ خلقه الله من الأساس؟ كما قال تعالى حين لخَّص مراحل الإنسان كلِّها في سطر أو سطرين من القرآن: **{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}** [عبس:18-23].

الإنسان خُلق من منيّ الرجل وماء المرأة:

{خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ}

الدّفْق: صبُّ الماء. يقال: دفقتُ الماء. أيْ: صببْتُه، وهو مدفوق، أي: مصبوب، وإنما قال: **{دَافِقٍ}**؛ لأن معناه: (ذو اندفاق)، كما يقال: (دارع)، و(فارس)، و(نابل)، أي: ذو درع، وفرس، ونَبْل، كما أنهم يسمون المفعول باسم الفاعل، كقولهم: (سرٌّ كاتم)، (وهمٌّ ناصب)، (ليلٌ نائم)، وكقوله تعالى: **{فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}** [الحاقة:21]. أي: مرضيَّة.

والجواب عن هذا السؤال أو الاستفهام: أنه - كما يعلم الجميع - خُلِق من ماءٍ دافق.

لمْ يُخلق من ذهَبٍ، أو من جوْهر من الجواهر النفيسة، بل خُلق من الماء المَهين - كما سمّاه الله في سورة الإنسان في قوله سبحانه : **{ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ }** - وهو ما نسمّيه الآن (الحيوان المنوي)، الذي تخرج الدَفْقة أو الدفَقات منه، من

255- تفسير الرازي (119/31).

صُلب الرجل، فيها الملايين، وعشرات الملايين، وربما مئات الملايين، كلٌّ واحدٍ منها صالحٌ لأن يكون نواةً – أو نصف نواة – لإنسان كامل.

{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}

هذا الماء الدافق يخرج من الجنسين كليهما: الرجل والمرأة، فمنهما يكون خلق الإنسان، يجتمع الماء من صلب الرجل، وهو عظام ظهره الفقّارية، ويجتمع كذلك من ترائب المرأة – جمع تريبة – وهي عظام صدرها العلوية، وكان هذا أمراً مجهولاً للبشر كافَّة، لا يعلمه أحدٌ منهم، فهو من الحقائق العلميَّة التي لم تكشف عنها العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة، وورودها في القرآن بهذا الوضوح، وبهذا التأكيد في سياق الاستشهاد على صحَّة البعث والرجوع إلى الله ربِّ العالمين، دليل على أن هذا القرآن لا يعبِّر عن علم محمد بحدود البيئة العربية القاصرة، إنما يعبِّر عن علم الله بالكون الذي خلقه، وخلق كلَّ ما فيه: **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير}** [الملك:14].

الله قادر على إعادة الإنسان كما خلقه من هذه المادة المهينة:

{**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**}

بعد بيان هذه الحقائق العلمية الهائلة، يؤكد القرآن أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ بيِّن القدرة على رجع الإنسان وإعادته بعد موته، كما بدأه أول مرَّة، كما قال تعالى: {**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**} [الروم:27].

والضمير في قوله: {**إِنَّهُ**}، هو لله تبارك وتعالى، وإن لم يسبق له ذكر مباشر في الكلام، ولكنه حاضر دائماً، وكأنه قال: {**خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**}، وهو الخالق، والضمير في قوله: {**عَلَى رَجْعِهِ**}، يرجع إلى الإنسان، المذكور من قبل.

دلالة تولُّد الإنسان عن النطفة على وجود الله:

قال الإمام الرازي في تفسيره: (قد بيَّنا في مواضع من هذا الكتاب أن دلالة تولُّد الإنسان عن النطفة على وجود الصانع المختار من أظهر الدلائل، لوجوه:

أحدها: أن التركيبات العجيبة في بدن الإنسان أكثر، فيكون تولُّده عن المادة البسيطة أدلُّ على القادر المختار.

وثانيها: أن اطِّلاع الإنسان على أحوال نفسه أكثر من اطِّلاعه على أحوال غيره، فلا جرم كانت هذه الدلالة أتمُّ.

وثالثها: أنَّ مشاهدة الإنسان لهذه الأحوال في أولاده وأولاد سائر الحيوانات دائمة، فكان الاستدلال به على الصانع المختار أقوى.

ورابعها: وهو أن الاستدلال بهذا الباب، كما أنه يدلُّ قطعاً على وجود الصانع المختار الحكيم، فكذلك يدلُّ قطعاً على صحَّة البعث والحشر والنشر، وذلك لأن حدوث الإنسان، إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرِّقة في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرِّقة، حتى خلق منها إنسانا سويًّا،

وجب أن يُقال: إنه بعد موته وتفرُّق أجزائه لا بدَّ وأن يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء وجعلها خلقا سويًّا، كما كان أولا)[256].

{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}

وهو يوم القيامة، الذي يُكشف فيه كلُّ شيء، ويصبح المكنون منشوراً، ويظهر السرُّ علانية، وتُخبَر سرائر الناس، وما أسرُّوه في نيَّاتهم، فإذا كلُّه يبدو ويتَّضح، فيُعرف ويفتضح ما أكنَّته الضمائر، وما خبَّأته القلوب، من العقائد والنيَّات والخواطر والعزمات، وما خفي من الأعمال والأهوال، ويميز بين ما طاب منها وما خبث، يقول تعالى: **{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** [مريم:38].

وقد ثبتَ في الصحيحين، عن ابن عمر: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:" يرفع لكلِّ غادر – أي يوم القيامة – لواءٌ عند استه، يُقال: هذه غدرة فلان ابن فلان"[257].

(قال أبو مسلم: بلوت يقع على إظهار الشيء، ويقع على امتحانه كقوله: **{وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}** [محمد:31]، وقوله: **{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}** [البقرة:155]، ثم قال المفسِّرون: السرائر التي تكون بين الله وبين العبد، تُختبَر يوم القيامة حتى يظهر خبرها من سرِّها، ومؤدِّيها من مُضيِّعها، وهذا معنى قول ابن عمر رضي الله عنهما: يبدي اللهُ يوم القيامة كلَّ سرٍّ منها، فيكون زَينًا في الوجوه، وشَينًا في الوجوه. يعني مَن أدَّاها كان وجهه مُشرقا، ومن ضيَّعها كان وجهه أغْبر)[258].

{فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ}

فما للإنسان في هذا اليوم **{مِنْ قُوَّةٍ}**، في نفسه أو قومه تحميه ويمتنع بها، **{وَلَا نَاصِرٍ}**، ولا أحد من الخارج كالحليف، يستنصره ويتعزَّز بسنده، فكلُّ واحد في هذا اليوم لا

256- تفسير الرازي (120/31- 121).
257- متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (6177)، ومسلم في الجهاد والسير (1735).
258- تفسير الرازي (122/31).

يفكِّر إلا في أمر نفسه، لا في أمر أحد غيره، ولو كان أقرب الناس إليه، **{وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}** [لقمان:33].

القسم بالسماء ذات الرجع وبالأرض ذات الصدع على عظمة القرآن وصوابه

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)}

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}

أعاد الله هنا القسم بالسماء التي أقسم بها في أول السورة، ولكنه يُقسم بها هنا على أمر جديد، كما وصفها هنا بوصف عجيب، يذكره القرآن لأول مرَّة في قوله: **{ذَاتِ الرَّجْعِ}**.

قال الإمام القرطبي: (أي ذات المطر. ترجع كلَّ سنة بمطر بعد مطر. كذا قاله عامَّة المفسِّرين. وقال أهل اللغة: الرجع: المطر، وأنشدوا للمتنخل يصف سيفا شبّهه بالماء:

أبيض كالرجع رسوب إذا		ما ثاخ في محتفل يختلي

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء، تطلُّع من ناحية وتغيب في أخرى)[259].

قال الرازي في تفسيره: (اعلم أنه سبحانه وتعالى لما فرغ من دليل التوحيد، والمعاد أقسم قسماً آخر. أمّا قوله: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}**، فنقول: قال الزجّاج: الرجع: المطر؛ لأنه يجيء ويتكرَّر.

واعلم أنَّ كلام الزجَّاج وسائر أئمة اللغة صريح في أن الرجع ليس اسماً موضوعا للمطر، بل سُمِّي رجعاً على سبيل المجاز، ولحُسْن هذا المجاز وجوهٌ: أحدها: قال القفَّال: كأنه من ترجيع الصوت، وهو إعادته ووصل الحروف به. فكذا المطر، لكونه عائداً مرَّة بعد أخرى سُمِّي رجعاً.

وثانيها: أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض – وأقول: وهذا ليس مجرَّد زعم، بل هو الحقيقة الثابتة الآن بكل الدلائل – .

وثالثها: أنهم أرادوا التفاؤل فسمَّوه رجعاً ليرجِع.

ورابعها: أن المطر يرجع في كلِّ عام)[260].

وقال الإمام القرطبي: (**{وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}**، قسَم آخر، أي تتصدَّع عن النبات والشجر والثمار والأنهار، نظيره: **{ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا}** [عبس:26]. والصّدْع: بمعنى الشق، لأنه يصدع الأرض، فتتصدَّع به. وكأنه قال: والأرض ذات النبات، لأن النبات صادع للأرض.

259- تفسير القرطبي (10/20).
260- تفسير الرازي (122/31).

وقال قتادة: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة. وقيل: ذات الحرث؛ لأنه يصدعها. وقيل: ذات الأموات؛ لانصداعها عنهم للنشور)[261].

ويمكن أن يُراد هذا كلُّه بـ**{ذَاتِ الصَّدْعِ}**، ويمكن أن يُزاد عليه بما يقبله اللفظ.

يقول العلاَّمة الدكتور زغلول النجار في (موسوعة الإعجاز العلمي) في كتابه (خلق الإنسان في القرآن): (ثم تتبع الآيات بقَسَمين آخرين من الله تعالى، وهو الغنِيَّ عن القسَم لعباده، يقول فيها: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ* والأرض ذات الصدع}**، ورجْع السماء هو قدرتها على إرْجاع النافع المفيد من مختلف صور المادة والطاقة التي ترتفع إليها من الأرض إلى ذلك الكوكب المبارك مرة أخرى، وذلك من مثل: صدى الصوت، المطر، الرجع الحراري بعد غروب الشمس، عودة الغبار المرتفع بواسطة الرياح من الأرض إليها، وانعكاس موجات البثِّ الإذاعي والتلفازي على سطح النطاق المتأيّن من الغلاف الغازي للأرض، ورجوعه مرة أخرى إلى أماكن توجيهه، ولولا ذلك ما تمكَّن الإنسان من أيّ بثٍّ إذاعيّ أو تلفازيّ أو اتِّصال لا سلكي، وغير ذلك من صور الرجع الداخلي.. وقدرة سماء الأرض أيضاً على إرجاع الضار المهلك من صور المادة والطاقة التي تهبط من السماء في اتجاه الأرض إلى فسحة السماء مرة أخرى، وذلك من مثل: الزائد من حرارة الشمس الذي ترده السحب، والأشعة فوق البنفسجية وتردّها طبقة الأوزون، والأشعّة الكونيّة ويردّها كل من النِّطاق المتأيّن وأحزمة الأشعّة الموجودة فيه، وغيرها.

وتُحصي العلومُ المكتسبة اليوم أكثرَ من عشْر صور لرجْع السماء بشكليه الداخليّ العائد إلى الأرض، والخارجيّ المندفع بعيداً عنها جمعتها هذه السورة الكريمة في كلمة واحدة هي (الرَّجْعُ)، وقد يرى القادمون من بعدنا في هذه اللفظة (الرَّجْع) ما لا نراه نحن الآن.

261- تفسير القرطبي (11/20).

والقسم بـ: **{والأرض ذات الصدع}**: يشمل انصداع التربة عن النبات، وعن أجساد الأموات يوم البعث، كما يشمل شبكة الصدوع التي تحيط بالأرض إحاطةً كاملةً، والتي يشبِّهها العلماء باللحام على كرة التنس، ممتدة لعشرات الآلاف من الكيلومترات في مختلف الاتِّجاهات، وبأعماق تتراوح بين 60كم – 65كم في صخور قيعان جميع محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحورها، وبين 100كم – 150كم في صخور اليابسة؛ لتشكِّل صمَّام أمن للأرض، تنطلق منه الطاقة الزائدة عن حاجتها، والناتجة من تحلل العناصر المشعة الموجودة في داخل الأرض.

ولولا تلك الشبكة الهائلة من الصدوع المتصلة ببعضها البعض وكأنها صدع واحد لانفجرت الأرض على هيئة قنبلة ذريَّة كبيرة منذ اللحظة الأولى لتيبس قشرتها؛ ومن هنا كانت أهمية ذلك الصدع لاستقامة وجود الأرض وجعلها صالحة للعمران بالحياة، ولذلك جاء هذا القسم الإلهي المغلظ به – والله تعالى غني عن القسم لعباده – جاء تنبيها لنا إلى أهمية الأمر المقسم عليه، ألَا وهو صدع الأرض) [262]

{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}

أقسم الله تعالى بالسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، على هذا الأمر: **{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}**، أي: القرآن الذي مثلته هذه السورة، وهذه الآيات منها، ولم يتقدَّم له ذكر في الآي التي معنا، يفصل بين الحقِّ والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الرشد والغيِّ.

وقد جاء الحديث الذي رواه الترمذي من طريق الحارث الأعور، عن عليٍّ رضي الله عنه في وصف القرآن: "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل ..." الحديث[263].

262- موسوعة الإعجاز العلمي د. زغلول النجار (خلق الإنسان في القرآن) (264/4، 266).

263- رواه الترمذي في فضائل القرآن (2906) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

ولهذا سُمِّي القرآن: الفُرقان، قال تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان:1].

وقال بعضهم: (القول الفصْل): ما تقدَّم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: **{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}**، ورجّحه القرطبي[264].

{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}

الهزل: ضِدُ الجِدِّ، والمعنى: أن القرآن ليس بالباطل ولا اللعب. وقد هزَل يهزِل، كما قال الكميت:

أُرانا على حُبِّ الحياة وطولها　　　تجدُّ بنا في كلِّ يوم ونهزل

قال العلامة زغلول نحار : (ويأتي جواب القسم بقول ربنا تبارك وتعالى: **{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}** أي: أنّ القرآن الكريم المشتمل على هذه السورة المباركة، وعلى ما جاء فيها من أمور الغيب، وحقائق الكون، هو (قول فصل) يفصل بين الحق والباطل، بل هو الفصل ذاته، الذي ليس فيه شائبة من شوائب الهزل؛ لأنه قاطعٌ في فصله، حازمٌ في حُكمه، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحْيِهِ – اللغة العربية – وحفظه حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهّد بهذا الحفظ الإلهيّ إلى ما شاء الله، في حين ضاعت كل أصول صور الوحي السابقة ضياعاً تامّاً، وتعرَّض ما بقي منها من ذكريات إلى قدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الربّانِيّ، وجعلها عاجزة كل العجز عن هداية أتباعها الذين تسبَّبوا في أغلب الحروب والمآسي والكوارث والانهيارات الإنسانية

264- في التفسير (11/20).

التي عانت منها البشرية كلها ولا تزال، باسم أديانهم، والدين منهم بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب)[265].

تسلية الرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسكين قلبه:

{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}

إنَّ أعداء الله من المشركين الكافرين بالله ورسالاته، يمكرون بالإسلام ورسوله والمؤمنين من حوله مكراً، ويحتالون لإيذائهم في أنفسهم وأموالهم وكلِّ ما يستطيعون من قوَّة، والله تعالى غير غافل عنهم، ولا ساكت عليهم، بل يجازي مكرهم بمكر، وكيدهم بكيد، وإن كان مكر الله أكبر من مكرهم، وأسرع من مكرهم: **{قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}** [يونس:21]، وقال تعالى: **{سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}** [الأعراف:182].

{فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}

(أي لا تشتغل بالانتقام منهم، ولا تدعُ عليهم بالهلاك، أو لا تستعجل به. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. فإن الإخبار بتولِّيه تعالى لكيدِهم بالذات، بما يوجب إمهالهم، وترك التَّصدِّي لمكايدتِهم قطعا)[266].

{أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}، أجِّل أمرهم قليلاً، ولا تعجل عليهم، وترقَّب ما وعدك الله من نصر، وما أوعدهم من هلاك، وثق أنَّ الله ناصرك، ومظهر دينك على الدين كلِّه، ولو كره المشركون، وترى ماذا أحلَّ الله بهم من العذاب والنَّكال والعقوبة والهلاك، كما قال تعالى: **{نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}** [لقمان:24].

265- موسوعة الإعجاز العلمي د. زغلول النجار (خلق الإنسان في القرآن) (266/4).
266- تفسير أبي السعود (142/9).

وما ينزل بالكافرين هنا ليس على مجرَّد كفرهم، فهذا حسابه عند ربِّهم في الآخرة، ولكن ما ينزل بهم إنما هو لظلمهم وبغيهم على المؤمنين، فهم ليسوا مجرَّد **{الذين كفروا}**، بل **{الذين كفروا وظلموا}**. فهو كفر عُدواني يحمل الشرَّ والأذى للناس في طبيعته؛ لذا قال تعالى: **{وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [البقرة:254].

وفي ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسكين لقلبه، وملئه بالاطمئنان والسكون إلى أن العزَّ له، والنصرَ قريبٌ منه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)}

السورة مكيَّة، وقد ثبت في الحديث الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها وبسورة الغاشية في الجمعة والعيد[267].

وهي تتضمَّن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتَّسبيح باسم ربِّه الأعلى، ووصْفِه بما يستحقُّه من الصفات العُلى، والأسماء الحسنى، ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه سيقرئه هذا القرآن فلا ينساه، إلا ما شاء الله أن ينسيه، وأنه يعلم الجهر وما يخفى، وييسِّره لليسرى.

كما أمره بالتذكير الذي هو دأبه ورسالته دائما، وإن كان تذكُّر القوم بعيداً، ولكن من يخشى الله سيستفيد وسينتفع، **{سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}**.

ثم يبيِّن القرآن أن الفلاح والفوز في الآخرة إنما هو لمَن تزكَّى، تزكَّى إيمانيًّا وأخلاقيًّا، وزكاة نفسه هذه إنما تكون بذكر الله والصلاة.

267- رواه مسلم في الجمعة (878)، عن النعمان بن بشير.

وأخيرا يعلن القرآن هذه الحقيقة: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**، وهذا هو ما يشغل عموم الناس: أن يُقدِّموا أمور الحياة الدنيا ومطالبها، مع أنهم إذا قارنوها بالآخرة، كانت الآخرة خير وأبقى.

والحقيقة الأخيرة أن ما قرَّره محمد في دينه ليس جديدا، وإنما هو أمر قرَّرته الأديان السماوية السابقة، وقرَّره الأنبياء الكبار في صحفهم وكتبهم، كما في صحف إبراهيم وموسى.

إن هذه الرسالة تصدِّق الرسالات السابقة؛ فهي تتضمَّن تسبيح الربِّ الأعلى وتنزيهه، والإشارة إلى وحدانيَّته، وتأييد نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم، وتثبيته وإقرائه القرآن، وأن الله سبحانه آتاه شريعة سمْحة مُيسَّرة، وكتابا يذكِّر الناس، فلا يُعرض عنه إلا أتباع الدنيا المتكالبون عليها، وأن رسالة محمد هي اتباع للرسالات الأولى.

حقائق كونيَّة أربعة تدلُّ على وجود الله تعالى

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) }

كمال الربوبية كما يصورها القرآن :

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، المنزَّل عليه القرآن، ولكلِّ مَن يتأتَّى خطابه معه، وهو أمر من الله تعالى بتسبيح اسمه عزَّ وجلَّ. والتسبيح إحدى المعبِّرات الأربعة عن كمال الألوهية، كما يصورها القرآن العظيم، وهي: التَّسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير. وهي التي يعبر عنها بالكلمات الطيِّبة، أو الباقيات الصالحات، التي تتمثَّل فيما جاءت به الأحاديث الصحاح: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"[268].

ف(سبحان الله): تنزيه له تعالى شأنه عمَّا لا يليق بجلاله وكماله.

و(الحمد لله): وصف له بالحمد الذي بدأ به كتابه وافتتح به سورة (الحمد).

و(لا إله إلا الله): إعلان لحقيقة التوحيد الذي يُبطل كلَّ ما سوى الله مما يُعبد ويُقدَّس، فلا إله غيره، ولا معبود سواه.

و(الله أكبر): إعلان عن عظمته وعلوِّه على كلِّ ما سواه، وكلِّ ما سواه إنما هو مخلوق له، يجري بقضائه وقدره.

عناية القرآن بالتسبيح :

اهتم القرآن بالتسبيح؛ لأنه تنزيهٌ لله عن كلِّ النقائص والمحذورات التي ألحقها به المشركون الذين ينكرون النبوَّة والرسالة، والمُحرِّفون الذين ثبتت عندهم الرسالة، ثم شوَّهوها وحرَّفوا كلمها عن مواضعها، فنسبوا إلى الله الأبناء والأولاد، ونسبوا إلى الله التشبُّه بالخلق،

268- رواه البخاري في التهجد (1154)، عن عبادة بن الصامت.

ونسبوا إليه كثيراً من النقائص، ولكن القرآن أثبت لـه التَّسبيح على ألسنة الملائكة الذين قالوا: **{سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}** [البقرة:32]، **{فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ}** [فصلت:38].

وعلى لسان الرسل والأنبياء: **{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** [الأنبياء:78].

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} [المائدة:116].

{وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف:143].

وعلى لسان المؤمنين جميعاً، كما قال تعالى عنهم: **{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [آل عمران:191].

وعلى لسان الله تبارك وتعالى: **{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ*وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين}** [الصافات:180-182].

صيغ التسبيح في القرآن :

جاء القرآن بالتَّسبيح في كلِّ صيغه، وبدأ به سورة الإسراء، فجاء به في صيغة المصدر، كما في سورة الإسراء: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}** [الإسراء:1].

وجاء بالتَّسبيح في صيغة الفعل الماضي: **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [الحديد:57]، **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [الحشر:1]، وكذلك في مفتتح سورة الصف.

وجاء في صيغة الفعل المضارع، كما في بدء سورة الجمعة: **{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [الجمعة:1]. وكذلك بدء سورة التغابن: **{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [التغابن:1].

وقد جاء القرآن في بدء هذه السورة بفعل الأمر: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**، ليبيِّن لنا القرآن أن الله تعالى يُسبَّح بكلِّ صيغة، في الماضي والحاضر والمستقبل، وبالأمر والمصدر، حتى إننا نبدأ صلاتنا بالتسبيح: "سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك"[269].

كما قال تعالى في سورة الواقعة: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** [الواقعة:74].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}**. قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجعلوها في ركوعكم". فلمَّا نزلت: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**. قال:"اجعلوها في سجودكم"[270].

وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**، قال:"سبحان ربي الأعلى"[271].

وقال القرطبي: (يُستحبُّ للقارئ إذا قرأ: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**، أن يقول عقبه: "سبحان ربي الأعلى". قاله النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين[272].

269- رواه مسلم في الصلاة (399)

270 - رواه أحمد (17414) وقال: إسناده محتمل للتحسين، وأبو داوود في الصلاة (869)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (887)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (152).

271- رواه أحمد (2066) وقال مخرجوه: صحيح موقوفاً، وابو داود في الصلاة (883)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (826)، والحاكم في الطهارة (363/1)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

272- تفسير القرطبي (12/20).

ومعنى: {**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**}، أي: عظِّمه، ونزِّهه عما لا يليق به، نزِّه اسم ربك عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة، وعن إطلاقه على غيره بوجْه يُشعر بتشاركهما فيه، وعن ذكره، لا على وجه الإعظام والإجلال، نزِّهه عن النقائص والغِيَر، وعن كلِّ ما يقوله المشركون والمحرِّفون، ونزِّه اسمه تعالى أن يُسمَّى به صنم أو وثن، أو نزِّه اسم ربك عن أن تذكُّره إلا وأنت خاشع.

هل الاسم هو المسمَّى ؟

هذا إذا أخذنا بظاهر اللفظ، وهناك مَن يقول: إنما المرادُ بالاسم هو المُسمَّى، والمراد: عظِّم ونزِّه ربك الأعلى. وذكر الاسم قُصد به تعظيم المسمَّى، كما قال لبيد:

إلى الحَول ثم اسم السلام عليكما ومَن يبك حَولا كاملا فقد اعتذر

وروى نافع، عن ابن عمر: لا تقُل: علا اسم الله؛ فإن اسم الله هو الأعلى[273].

ومن هنا صحَّت الأحاديث المرفوعة والموقوفة أنهم كانوا يقولون: سبحان ربي الأعلى.

وهذا كلُّه يدلُّ على أن الاسم هو المُسمَّى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى.

و{**الْأَعْلَى**} في الآية: صفة للربِّ عزَّ وجلَّ، وهو الأجلى والأظهر، وبعضهم قال: صفة للاسم، والدليل على الأول قوله تعالى في سورة الرحمن: {**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**} [الرحمن:78]. لم يقل: (ذو الجلال والإكرام)، فيكون وصفا للاسم، بل قال: {**ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**}، ليكون وصفا للربِّ، بخلاف قوله تعالى: {**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**} [الرحمن:27]، فكان الوصف للوجه، والوجه هو الذات.

خلقٌ تُكمله التَّسوية، وتقديرٌ تُكمله الهداية:

{**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**}

273- انظر: تفسير القرطبي (14/20).

الله تعالى هو الخالق لكلِّ شيء، وقد أشار إلى ذلك منذ أول آيات أُنزلت من القرآن: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}** [العلق:1، 2].

وهنا تشير الآيتان اللتان معنا إلى خلق تُكمله التَّسوية، وتقدير تُكمله الهداية، فهي حقائق كونية أربعة تدلُّ على وجود الله تعالى، وعلى تأثيره وتدبيره لهذا الكون الفسيح، الذي خلق كلَّ شيء فيه فسوَّاه، والذي قدَّر كلَّ شيء فهداه.

لهذا وجدنا القرآن يشير إلى التَّسوية بعد الخلق، كما في خلق آدم أبي البشر، فقد خلقه من طين، ثم سوَّاه لينفخ فيه من رُوحه، ويُسجِد له ملائكته، كما قال تعالى: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}** [الحجر:29].

وعُني القرآن بذكر التَّسوية في مخلوقات الله الكثيرة، ومنها الإنسان: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}** [الانفطار:6-8]، وعرض ذلك في سورة السجدة، حين حدَّثنا عن خلق الإنسان: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}** [السجدة:7-9].

كما حدَّثنا القرآن عن الهداية العامة التي جعلها الله مُكمِّلة للتقدير الإلهي، الذي قال الله فيه: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** [القمر:49]، **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}** [الفرقان:2].

فهذا التقدير الإلهي العجيب الشامل يُتمُّه ويُكمِّله هداية الله العامة الشاملة أيضا، وهو ما عبَّر عنه قول الله تعالى: **{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه:50].

الدلائل الكونية الأربعة:

وقد تحدَّثنا في كتابنا (وجود الله) عن هذه الدلائل الأربعة، التي أشار الله إليها في كتابه المعجِز، وفصَّل في آثارها، لتدلَّ على وجود الله تعالى، الذي أحسن كلَّ شيء خلقه، وأتقن

كلَّ شيء صنعه، ولا يوجد مخلوق كبر أو صغر إلا ولله فيه آية دالَّة على أنه الخالق المصور.

دلالة الخلق على الرب الأعلى:

المراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث، أي إبراز الشيء من العدم إلى الوجود. وذلك مثل: خلق الحياة في الكائنات الحيَّة على ظهر الأرض التي بثَّ فيها من كلِّ دابة، وأنبت فيها من كلِّ زوج بهيج.

ومثل خلق الإنسان العاقل، الذي لم يكن شيئا مذكورا ثم كان. وهو ما نبَّه عليه القرآن في أول سورة أنزلت على رسول الله: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}** [العلق:1، 2].

ومثل خلق السماوات والأرض، وهو أكبر من خلق الناس، وقد دلَّنا علم الفلك على عِظَم الأجرام العلويَّة، وسَعَة المسافات بينها، حتى إنها لتقاس بملايين السنين الضوئية.

تُرى، مَنْ خالق الحياة على هذه الأرض؟ ومَنْ خالق هذا الإنسان العاقل المُفكِّر؟ ومَنْ خالق هذا الكون كلِّه بأرضه وسمائه؟ هل وُجدت الحياة ووُجد الإنسان، ووُجدت المخلوقات العلويَّة والسفليَّة وحدها بلا واجد؟ أو لا بدَّ لها من خالق أوجدها؟ ومَن هو؟

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرَّة على كوكب الأرض؟

إن ظهور الحياة – المادة الصمَّاء – وضع الماديين أمام مشكلة لم يجدوا لها حلاًّ ولا تفسيرا إلا على نحو ما قال الشاعر:

وبات يقدح طول الليل فكرته		وفسر الماء بعد الجهد بالماء

من ذلك ما قاله بعضهم: إن الحياة انتقلت إلى الأرض من العالم العلوي عن طريق نيزك من النيازك الهائمة في الفضاء. ولكن السؤال يبقى: ومن خلق الحياة هناك في عالم الأفلاك، أو في أيِّ كوكب من الكواكب؟

وقال بعضهم: إنَّ المادة فيها طبيعة الحياة، بعد تركيب وتناسق خاص. ولكن السؤال يبقى أيضا: ومَن ركَّبها ونسَّقها وهي مادة عمياء صمَّاء؟

ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين: فإما أنها خاصَّة من خواصِّ المادة ملازمة لها، فلا حاجة بها إلى خالق مريد. وإما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد.

فإذا كان العالم كلُّه مادة ولا شيء غير المادة، لزم من ذلك أن المادة أزلية أبدية، لا أول لها ولا آخر، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها، وجملة خصائصها، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت، بدون تفرقة بين المادة في هذا الكون من الفضاء، والمادة في غير هذا المكان.

ولا معنى إذن لظهور الحياة في كوكب الأرض دون كوكب، وفي زمان دون زمان، ولا معنى لأن تظلَّ خصائص الحياة بلا عمل ملايين الملايين من السنين، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين، ثم تظهر بعد ذلك في زمان يحسب تاريخه بالآلاف، ولا يُقاس إلى الأزل الذي لا يدخل الحساب.

فلماذا تأجَّلت خصائص الحياة كلَّ هذا الزمن، الذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان؟ ولماذا جاءت هذه الحياة مصادفة، بكلِّ ما يلزم لها من تدبير، وليس للمادة الصماء تدبير؟

على العقل أن يبدي أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض، على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد. ولا نعرف أسباباً لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير.

والفرض اليسير هو الفرض الآخر، وهو أنَّ الحياة ظهرت من صنع خالق مريد.

إن هذا الفرض اليسير هو الذي يحلُّ لغز ظهور الحياة من المادة الصمَّاء، أو بعبارة أخرى: خروج الحيّ من الميت، ويحلُّ لغز الوجود كلّه، حين يستجيب المرء إلى صوت البداهة والعقل، ويردُّ الخلق والأمر كلَّه لله: {**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**}؟[الأنعام:95]، {**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**} [يس:36].

هذا الدليل يُسمَّى دليل **(الخلق)**، أو دليل **(الإبداع)**، أو دليل **(الاختراع)**.

وقد يوجد في صورة أخرى فيُسمَّى دليل **(الحركة)**، سواء أكانت الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، أم الانتقال من حال إلى حال، أو الحركة بمعنى الانتقال من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الوجود.

وفحوى هذا الدليل: أنَّ كلَّ متحرِّك لا بدَّ له من محرِّك، وأنَّ هذا المُحرِّك لا بدَّ أن يستمدَّ الحركة من غيره. وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرِّك أزلي قائم بذاته، غير محتاج إلى غيره، وإلا لزم الدَّور أو التسلسل إلى ما لا نهاية، وكلاهما باطل، وذلك المحرِّك هو الله.

وقد عرضه المتكلِّمون في صورة ثالثة، وسمَّوه دليل **(الحدوث)**.

قالوا: العالم متغيِّر، وكلُّ متغيِّر حادث، وكلُّ حادث لا بد له من مُحْدِث. ولا بد أن يقف العقل عند مُحدِث غير حادث، وإلا للزم الدَّوْر والتسلسل المحالان. وذلك المُحدث هو الله. والعلم الحديث يقرُّ بحدوث العالم، ويُرجع حدوثه إلى ملايين يقدِّرها من السنين.

وعرضه الفلاسفة الإسلاميون – كالفارابي وابن سينا – في أسلوب آخر وسمَّوه دليل **(الإمكان)**.

وفحوى هذا الدليل: أن الموجودات – حسب القسمة العقلية – إما أن تكون واجبة الوجود جميعاً – وواجب الوجود هو الذي لا يُتصوَّر العقلُ عدمَه، لاستلزام المحال – وإما أن تكون ممكنة الوجود، على معنى أنها يمكن أن توجد وألا توجد، فليس هناك علَّة لذاتها تقتضي وجودها أو عدمه، وإما أن يكون بعضها واجباً وبعضها ممكناً.

ومحال أن تكون كلُّها واجبة الوجود؛ لأنها بين متحرِّكة تحتاج إلى مُحرِّك، وبين مُركَّبة تحتاج إلى علَّة لتركيبها، ولا بدَّ أن تسبقها أجزاؤها.

ومحال أن تكون كلُّها ممكنة الوجود؛ لأنَّ الممكن يحتاج إلى علَّة تخرجه من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الفعل.

بقي الفرض الثالث: وهو أن يكون بعضها ممكن الوجود وهو هذا العالم، وبعضها واجب الوجود وهو الله، وهو السبب الأول لوجود هذا العالم. ومن المحال أن يكون مسبوقا، لأن الذي يسبقه يكون أولى بالوجوب.

دلالة التَّسوية على الرب الأعلى:

وإذا كان الخلق يدلُّ على الله، فالتَّسوية أدلُّ عليه، والتَّسوية أخصُّ من الخلق، إذ من الممكن أن يخلق الشيء غير مُسوًّى.

فمعنى تسوية الشيء إحسان خلقه، وإكمال صنعته، بحيث يكون مُهيَّئاً لأداء وظيفته، وبلوغ كماله المُقدَّر لنوعه، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه، وجعله مستويا معتدلا، متناسب الأجزاء، بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخلُّ بالمقصود منها.

والقرآن يعبِّر عن هذه التسوية بعبارات مختلفة الألفاظ، متقاربة الدلالة على المقصود، مثل **(الإحسان)** ، في قوله تعالى: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** [السجدة:7]، و**(الإتقان)** ، في قوله: **{صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}** [النمل:88]، و**(إعطاء كلِّ شيء خلقه)**، في قوله

تعالى على لسان موسى: {**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**} [طه:50]، ومعنى إعطائه خلقه: إعطاؤه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خُلق له.

كما عبَّر عن التسوية بـ (**نفي التفاوت في خلق الله**) ، في قوله تعالى: {**مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ**} [الملك:3].

وهذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلِّها على وجه العموم، وفي الكائنات الحيَّة على وجه الخصوص، وفي الإنسان على وجهٍ أخص.

أ. **فالأرض** – مثلا – قد سوَّاها صانعها، بحيث تصلح مهادا ومُستقرًّا لنوع الإنسان، فلهذا مدَّها وبسطها، وجعلها ذلولاً، وألقى فيها رواسي كالأوتاد لها حتى لا تميد، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، فلو كانت قشرة الأرض كلُّها صخرية، أو كلُّها يابسة، أو كلُّها محيطات، ما صلحت للإنبات ولا إخراج الثمرات، ولو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتصَّ ثاني أكسيد الكربون والأكسجين، ولما أمكن وجود حياة للنبات.

ب. وكلُّ ما على الأرض من **كائنات حيَّة**، قد سُوِّيت خلقته، وأُحكمت صنعته، بحيث يؤدِّي وظيفته في يسر وسهولة. **فالجمل** – مثلا – قد أُعطي الصورة الخلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خُلق برقبة طويلة، تُعلي رأسه، وتنأى بعينيه عن غبار الرمال، كما مُنح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأُعطي سناماً يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوماً في الصحاري القاحلة، ولم تنتهِ رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال

والحمير، بل انتهت بخفٍّ يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها، ولهذا سمَّوه (سفينة الصحراء). وهكذا نجد أثر التسوية في كلِّ الأحياء.

فكلُّ حيٍّ أُعطي الوسائل التي يحصل بها على غذائه الملائم، وأُعطي من الأجهزة ما يهضم به هذا الطعام. **فالحيوانات المفترسة** أُعطيت من الأنياب والمخالب مما تتمكَّن به من الافتراس، كما كُوِّن جهازها الهضمي بحيث يهضم اللحم النيِّئ، **والأنعام** التي تأكل العشب أُعطيت كرشا كبيرا يعدُّ بمثابة مخزن لما تلتهمه بسرعة، إلى أن تجترَّه وتعيد مضغه مرَّة أخرى، **والطيور** أعطيت مناقير تساعدها على التقاط غذائها، واتَّخذ المنقار صورة من الطول أو القصر أو الاستدارة أو غيرها، مما يناسب نوع الغذاء الذي يلائمه.

كما زوِّدت الكائنات الحيَّة جميعها بأسلحة مناسبة لتدافع بها عن نفسها في صراع البقاء بينها وبين غيرها، فالناب سلاح، والمخلب سلاح، والقرن سلاح، والسمُّ سلاح، والمنقار المُدبَّب سلاح، والزعانف الحادة سلاح، وسرعة العَدْو سلاح، والقدرة على الطيران سلاح، والقدرة على الاختفاء سلاح. ولولا هذه الأسلحة التي زُوِّدت بها تلك الأحياء، لأفنى قويُّها ضعيفها، وأباد كبيرها صغيرها.

ج. **تسوية الإنسان**، وحين نَدَع الطبيعة ونَدَع الحيوانات وما سوِّيت له، ونرتقي إلى الإنسان، نجد مظاهر التَّسوية وأماراتها أوضح وأعظم، فقد خُلق الإنسان في أحسن تقويم.

إن الإنسان قد خُلق لمهمَّة جليلة، وهي السيادة في الأرض والخلافة فيها، ولهذا أُعطي من الخصائص والمميِّزات، والأجهزة الماديَّة والرُّوحيَّة، ما يُعينه على أداء وظيفته، ويُيَسِّر له سبيل مُهمَّته.

ولو نظرنا إلى التكوين البدني للإنسان لرأينا العجب العجاب من عظمة التَّسوية، ودقَّة التَّصميم، وتناسق الأجهزة المختلفة التي لا يعدُّ شيئا بجانبها تصميم أي جهاز يخترعه إنسان منا، فتدهش له العقول، وتنطلق بمدحه الألسنة والأقلام.

الجهاز العضلي، والجهاز العظمي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، والجهاز التناسلي، والجهاز اللمفاوي، والجهاز العصبي، والجهاز البولي، وأجهزة الذوق والسمع والبصر، كلٌّ منها آية من الآيات، تسجد لها العقول، وتخشع لها القلوب.

تقول مجلة العلوم الإنجليزية: (إنَّ يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة، وإنه من الصعب جدًّا، بل من المستحيل أن تبتكر آلة تضارع اليد البشريَّة من حيث البساطة والقدرة وسرعة التَّكيُّف، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تُصحِّح وضعه تلقائيًّا، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع إصبعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة، إلى السكين، إلى آلة الكتابة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كلَّ ما يريده الإنسان، واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة، وتسع عشرة مجموعة من العضلات، لكلِّ منها).

(وإن جزءاً من أذن الإنسان – الأذن الوسطى– هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقَّدة، متدرِّجة بنظام بالغ، في الحجم والشكل، ويمكن القول بأن هذه الحُنيات تشبه آلة موسيقيَّة، ويبدو أنها معدَّة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما، كلَّ وقع صوت أو ضجَّة من قصف الرعد إلى حفيف الشجر، فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كلِّ أداة موسيقيَّة في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة).

(ومركز حاسَّة الإبصار في العين، التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن والأهداب الذي يقيها ليلا ونهارا، والذي

تعتبر حركته اللا إرادية، الذي يمنع عنها الأتربة والذرَّات والأجسام الغريبة، كما يكسر من حدَّة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين، أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع فهو أقوى مطهِّر)[274].

دليل التقدير على الرب الأعلى:

التقدير: هو خلق كلِّ شيء بقدر وميزان وترتيب وحساب، بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه، فلا يعطِّل وظيفتها، أو يعوق سيرها لما خُلقت له، وبحيث يتمُّ بين المخلوقات كلِّها توازن شامل، ينتظم به سير الوجود كلِّه.

فإذا كانت التَّسوية إعطاء كلِّ شيء من الخلق والتَّصوير ما يُؤدِّي به وظيفته على الوجه اللائق به، فإنَّ التقدير أن يكون بالقدر الذي ينفعه في نفسه ولا يضرُّ غيره، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتمُّ إذا ما وضع في مكانه الملائم وزمانه المناسب، وبالكمِّ الذي يصلح ولا يفسد، وعلى الكيفيَّة التي يتحقَّق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه.

وهذا التقدير ظاهرة عامَّة في كلِّ شيء كما نبَّه القرآن على هذه الحقيقة إذ قال: **{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}** [الرعد:8]، **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}** [الفرقان:2]، **{قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}** [الطلاق:3]، **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** [القمر:49]، **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}** [الحجر:21].

الماء مثلاً، سوَّاه الله بمعنى أنه أحسن خلقه، وهيَّأه لأداء وظيفته من السقي والري والتطهير والتنظيف، ونحو ذلك. ولكن الماء الذي خلقه الله وأسكنه في الأرض خلقه بقدر، وأنزله بقدر، بحيث لا يقلُّ عن حاجة الخلق، فيكون الجدب والقحط، ولا يزيد عنها فيكون

274- في ظلال القرآن (6/3848- 3849).

الغرق والضرر، ولا تطغى المحيطات على اليابسة، ولا المالح على العذب، وإلى هذا يشير القرآن: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ}** [المؤمنون:18].

الشمس، أحسن الله خلقها لتؤدِّي وظيفتها في إمداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية، ولكنه خلقها بحيث تجري إلى غايتها في مدار محدود، لا تصطدم بكوكب آخر، ولا تقترب من الأرض قرباً يحرق أحياءها، ولا تبعد عنها بعدا يحرمها الحرارة اللازمة للحياة فيها، وإلى هذا يشير القرآن: **{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}** [يس:38-40].

وكلُّ إنسان في أيِّ عصر يستطيع بتأمُّله وإدراكه الفطري أن يشهد - على قدر حاله - أنَّ كلَّ شيء في الكون قد خُلق بحساب ومقدار، وجاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله، فأماط اللثام عن الحكمة البالغة، والأسرار العجيبة الكامنة وراء ما بين المخلوقات من مقادير وحدود، وضوابط وموازنات.

إن في الفضاء الفسيح الذي لا نعرف له حدودا، ملايين الملايين من النجوم السابحة أجواز السماء ، وبعض هذي أكبر من الشمس بآلاف المرَّات وملايينها، **كالشِّعرى** الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرَّة، ونورها ضعف الشمس خمسين مرَّة، و**سهيل** أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرَّة، وهكذا.

ويقول الفلكيُّون: (إنَّ من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدَّة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المُجرَّدة، وما لا يُرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحسَّ به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلُّها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب

في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد بسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيدا جدًّا إن لم يكن مستحيلا).

ومع هذا التباعد بين كلِّ نجم وآخر، فقد وُضع كلُّ نجم في مكانه، بحيث يتَّسق في آثاره وتأثيراته مع سائر النجوم والكواكب، وتؤدِّي جميعها مهمَّتها المنُوطة بها في بناء الكون وسير حركته.

ولنأخذ **الشمس والقمر والأرض وما بينها من عَلاقات** مثلاً لهذا التقدير المحكم الدقيق، الذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض واستمرارها إلى اليوم.

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم، التي تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة، وإن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعَّتها ودرجة بُعدها عنا، كلُّ ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا الذي هو الأرض.

يقول العلاَّمة (أ. كريسي موريسون): تدور الكرة الأرضية حول محورها مرَّة في كلِّ (24) ساعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة، ولمَ لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول ممَّا هو الآن عشر مرات، ففي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كلِّ نهار وفي الليل قد يتجمَّد كلُّ نبت في الأرض.

إنَّ الشمس التي هي مصدر كلِّ حياة تبلغ درجة حرارة سطحها (1200) درجة فهرنهايت، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حدٍّ يكفي أن تمدَّنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافي، لا بأكثر منه، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب.

وكان تغيُّرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها.

ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة، فإن كلَّ نبت يموت، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجميداً.

والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل (18) ثمانية عشر ميلاً في الثانية، ولو أن معدل دورانها كان مثلا (6) ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية، فإن بعدنا عن الشمس، أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا.

والنجوم – كما نعلم – تختلف في الحجم، وأحدها يبلغ من الضخامة حدًّا لو كان هو شمسنا لكان محور الكرة الأرضية داخلا في سطحه لمسافة ملايين الأميال.

والنجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها، وكثير من أشعتها يُميت كلَّ نوع معروف من أنواع الحياة، وتتراوح كثافة هذا الإشعاع وحجمه، بين ما هو أقل من إشعاع شمسنا، وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرَّة، ولو أن شمسنا أُعطيت نصف إشعاعها الحالي فقط لكنا تجمَّدنا، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحنا رمادا من زمن بعيد.

ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة.

ويبعد القمر مسافة (240) ألف ميل، ويذكِّر المد الذي يحدث مرَّتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر، والمدُّ الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدَّة بوصات بسبب جاذبية القمر، ويبدو لنا كل شيء منتظما لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة، التي ترفع مساحة المحيط كلَّها عدَّة أقدام، وتحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية.

والمريخ له قمر، قمر صغير لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال، ولو كان قمرنا يبعد عنا (50) ألف ميل مثلا، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعدها عنا فعلاً، فإن المدَّ كان يبلغ من القوَّة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تُغمر مرَّتين في اليوم

بماء متدفِّق، يزيح بقوَّته الجبال نفسها، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة، وكانت الكرة الأرضية تتحطَّم من هذا الاضطراب، وكان المدُّ الذي في الهواء يُحدث أعاصير كلَّ يوم[275].

ترى من الذي وضع كلَّ هذه المخلوقات في مواضعها الصحيحة، قدَّر أحجامها وأشكالها وأبعادها ونسبَها وعَلاقتها هذا التقدير المحكم العجيب؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفي الصدور؟ كلا.

أما نحن فجوابنا: أنه (الله) الذي: **{خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}** [الفرقان:2]، **{فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}** [الأنعام:96].

دلالة الهداية على الرب الأعلى:

خَلْقُ الأشياء المبثوثة في هذا الكون دليل على الله، وإحسان خلقها وتسويتها لتؤدِّي ما خُلقت له دليل آخر على الله، وخلق هذه الأشياء المُسوَّاة بمقدار وترتيب يحقِّق التوازن والتناسق بينها وبين غيرها دليل ثالث على الله.

وبقي هنا دليل رابع هو دليل (الهداية)، فكما أن كلَّ شيء في الكون قد خلق على الصورة التي تناسب وظيفته، وتعينه على أدائها، فهو أيضاً قد هُدِي إلى ما خُلق لأجله، وأُلهِم غاية وجوده، ويُسِّر له الطريق ليدرك غاية الكمال الذي يناسبه. وهذه هي الهداية، إنها شيء فوق الخلق والتَّسوية والتقدير، إنها **الإلهام أو التعليم**. سمِّه ما شئت. إنها الهداية التي يتمُّ بها التقدير، ويكمل الخلق والتدبير.

هذه الهداية عامة مبثوثة في كلِّ شيء في الكون، حي أو جامد، صامت أو ناطق، عاقل أو غير عاقل، فليست هي هداية خاصَّة بالمكلَّفين أو العقلاء، كما قد يُظنُّ لأول وهلة، وليست مقصورة على الكائنات المتحرِّكة بالإرادة، كالناس والدوابِّ والطيور والحشرات، وهذا ما

275- العلم يدعو إلى الإيمان صـ55-58، ترجمة محمود صالح الفلكي، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة 1978م.

ذكره القرآن على لسان موسى حين سأله فرعون: **{فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى}** [طه:49]. وقد كان يدعي هو أنه الربُّ الأعلى فقال موسى: **{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه:50]. فما من شيء في الوجود إلا أُعطي هداه، كما أُعطي خلقه.

أ. **ومن مظاهر هذه الهداية:** أن كلَّ حيوان أُعطي من الحواسّ والأجهزة الخاصة ما يعينه على معيشته، وأداء وظيفته المنوطة به، فتجد طائرا كالصقر كأنما أعطي بصرا تلسكوبيًّا، يستطيع أن يشاهد به – وهو مُحلِّق في الجو – صيده الصغير على الأرض. ولا بدَّ أن للحشرات الدقيقة عيوناً ميكروسكوبية، لا ندري مبلغها من الإحكام. وتجد حاسة العودة إلى الوطن ضعيفة في الإنسان؛ لأنه يكمِّل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة ونحوها، أما في الطائر كالحمام الزاجل فإنه يقطع آلاف الأميال عائداً إلى وطنه بلا (بوصلة) ولا خارطة ولا دليل، فإذا التبس عليه الطريق حيناً، حوَّم برهة ثم يقصد قُدمًا إلى موطنه دون أن يضلَّ.

والنحلة تهتدي إلى خليَّتها، مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كلَّ دليل يُرى.

والطيور تهاجر من قُطر إلى قُطر، بل من قارة إلى قارة، ثم تعود إلى مَقرِّها الأول دون أن تُخطِئ.

ومن أعجب ما عُرف في هجرات الحيوان وهدايتها: **هجرة ثعابين الماء**، التي تهاجر – حين يكتمل نموُّها – من مختلف البرك والأنهار، وقد تقطع آلاف الأميال في المحيط، لتقصد كلَّها إلى الأعماق السحيقة جنوبي (برمودا)، وهناك تبيض وتموت، أما صغارها – تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أيَّ شيء سوى أنها في مياه قفرة – فإنها تعود أدراجها وتجد

طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثمَّ إلى كلِّ نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظلُّ كلُّ جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار، لقد قاومت التيارات القوية، وثبتت للأمداد والعواصف، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كلِّ شاطئ، ماضية في طريق ليس لها به أدنى علم من قبل، حتى تصل إلى مياهها الخاصَّة بها، ولم يحدث مرَّة أن صيدَ ثعبان أفريقي في مياه آسيوية، أو أوربي في مياه أمريكية أو العكس.

إن المجال ذو سَعَة، للحديث عن **الهداية في عالم الحشرات والطير والدواب**، حتى إن المرء ليقف متحيِّرا عن أيِّ شيء منها يتحدَّث؟ وما الذي يخصُّه منها بالحديث دون غيرها؟

هل نتحدَّث هنا عن الهداية في **مملكة النحل**، وكيف تُصمِّم وتهندس، وتبني وتُنسِّق، وكيف تُوزِّع العمل، وتتعاون على الإنتاج والحراسة، مما يعلمه الدارسون، وما أفاض فيه الكاتبون؟ وحسبنا إشارة القرآن إلى هذه الهداية: {**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**} [النحل:68، 69].

أم نتحدَّث عن **الهداية عند النمل** (تلك الحشرة الاجتماعية) التي يُضرَب المثل بتعاونها وتضامنها، والتي يبدو أنها تُطبِّق المبدأ القائل: (أعظم خير لأكبر عدد). إنها تدَّخر رزقها في الصيف، وتحفظه في مخازن التموين في مستعمراتها، حتى تنتفع به في أيام الشتاء، حيث يتعذَّر عليها الكسب والسعي والخروج من البيت، وإذا كان فيما خزَّنته ما ينبت، عمدت إليه ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإذا كان ينبت مع فلقه باثنتين، فلقته بأربع، فإذا أصابه بلل وخافت

عليه العفن والفساد، انتظرت به يوما ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها. فمَن علَّمها هذا، وهداها إليه؟

ومن عجيب أمرها: أنها تدرك بالشمِّ من البُعد ما يدرك غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله، وإن كان أكبر من وزنها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جُحرها، وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً، حتى يتعاونوا على حَمْله ونقله، وليس للنمل ملك ولا رئيس كما للنحل، إلا أن لها رائداً لا يكذبها، يطلب الرزق في مظانِّه، فإذا وقف عليه أخبر جماعته، فخرجوا مجتمعين متعاونين كما ذكرنا، وكلُّ نملة تجتهد في صالح جماعتها، غير مختلسة لنفسها من الحبِّ شيئا.

أم نتحدَّث عن **الهداية عند طير الحمام**، الذي نرى الذكر والأنثى فيه يقتسمان أمر الفراخ بالعدل، فتقع معظم الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، ومعظم جلب القوت والرزق (إطعام الفراخ في فمها) على الذكر، وإنهما ليتعاونان في إطعام فراخهما، ويتدرَّجان به من حَبٍّ ليِّن رخْو مخلوط بلعابهما إلى ما هو أشد منه وأقوى، حتى إذا علما أنه قد أطاق الالتقاط بنفسه، منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط ويعتاد، فإذا أدركا أن حوصلته قد اتَّسعت وقويَت، وأنَّ قوَّته قد تمَّت، وأنهما إن فطماه فطماً تامًّا قوي على الاستقلال بأمره، تركاه يسعى ويكدُّ في طلب رزقه وكفاية نفسه بنفسه، وإذا سألهما الرزق – كما كان من قبل – منعاه وضرباه، ونُزعت تلك الرحمة العجيبة من قلبيهما، وبدءا يعملان من جديد لإنجاب آخر.

أم نتحدَّث عن **الهداية عند سائر الحيوانات**، وقد قال ابن القيم: (وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر، حدِّث عنه ولا حرج).

وفيها يقول: (من هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياما تهرب به من الذرِّ والنمل، لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذرَّ والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه، وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتدَّ؟

ومَن علَّم الأسد إذا مشى وخاف أن يُقتفى أثره ويُطلب عفَّى على أثر مشيته بذنبه؟

ومَن علم الثعلب إذا اشتدَّ به الجوع أن يستلقي على ظهره، ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ، فيظن الطير أنه ميتة فيقع عليه، فيثب على مَن انقضى عمره منها؟

ومَن علَّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ منه، ويضعه على جرحه كالمرهم؟

ومَن علَّم الأنثى من الفيل إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه، لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشقَّ، فتأتي ماء وسطا وتضعه فيها، يكون كالفراش الليِّن والوطاء الناعم؟

ومَن علَّم العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ، ويُحرِّكونه بأفعالهم، ويحدِّثون له قوَّة وهمية وحركة حتى يطير معهم؟

ومَن علَّم الحمامة إذا باضت أن تأخذ هي والأب في بناء العشِّ، وأن يُقيما له حروفا تشبه الحائط، ثم يسخِّناه ويُحْدثا فيه طبيعة أخرى، ثم يقلبان البيض في الأيام حتى يفرخ؟

ومَن علَّم المرسلة منها – الحمام الزاجل – إذا سافرت ليلاً أن تستدلَّ ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهابّ الريح ومطلع الشمس ومغربها، فتستدلَّ بذلك وبغيره إذا ضلَّت، وإذا عرفت الطريق مرَّت كالريح؟

ومَن علَّم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المُحكمة، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلَّق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلَّت إليها فاصطادتها؟

ومَن علَّم الظبي ألا يدخل كُناسه إلا مستدبراً، ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه؟

ومَن علَّم السنَّور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليه بالعودة، ثم يشير إليها بالرجوع، وإنما يريد أن يدهشها، فتنزلق فتسقط؟

ومَن علَّم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي، حيث يرتفع عن مجرى السيل، ليسلم من مدقِّ الحفر، ومجرى الماء، ويعمِّقه، ثم يتَّخذ في زواياه أبوابا عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزا رقيقا، فإذا أحسَّ بالشرِّ فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضلَّ عنه؟).

قال العلاَّمة ابن القيم بعد أن أطال في هداية الحيوان: (وهذا باب واسع جدًّا، ويكفي فيه قوله سبحانه: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}** [الأنعام:38])[276].

ويكفينا هنا أن نسأل الماديين: كيف أُتيح للذرَّات التي تتكوَّن منها النحلة أو النملة أو الحمامة أو غيرها أن تهتدي إلى تلك العمليات المُعقَّدة دون خالق يرشدها؟!

276- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر صـ73-77.

غير أن الذي ينبغي ذكره هنا: هو بعض ما أمدَّنا به العلم الحديث من معرفة اتَّسع بها مدلول الهداية لأكثر مما التُفِت إليه وعنى به علماؤنا المتقدِّمون من هداية الحيوانات إلى مصالحها ومعايشها، وما به بقاؤها وتكاثرها، وبهذه السَّعة في معنى الهداية. اسْتبنَّا في ضوء العلم سرَّ التعميم المطلق في قوله تعالى: {**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**} [طه:50].

ب.ولن نتحدَّث هنا عن **عجائب الهداية في عالم النبات**، وكيف يمتصُّ كلُّ نوع منه ما يناسبه من عناصر الأرض بنسب محدودة ومقادير معلومة، رغم اتحاد التربة، واختلاط العناصر فيها، فإذا هذا ملح، وهذا حلو، وهذا حامض، وهذا مُزٌّ، وهذا مُرٌّ، وهذا بين بين، ترى الشجرتين أو الشجرات متجاورة بل متلاصقة، والتراب واحد، والماء واحد، ولكن شجرة منها لا تخطئ يوماً فتأخذ ما ليس من مُخصَّصاتها أو فوق ما ينبغي لها، أو دون ما ينبغي. وهي الحقيقة التي سجَّلها القرآن المُعجز فقال: {**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**} [الرعد:4].

{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}

(المرعى): النبات والكلأ الأخضر، قال الشاعر:

وقد ينبتُ المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا[277]

والغثاء: ما قذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش. وهو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء.

والمعنى: أي الذي أنبت من جميع صنوف النبات والزرع ما ترعاه الدواب غضًّا طريًّا، فجعله بعد ذلك {**غُثَاءً أَحْوَى**}.

277 - من شعر: زفر بن الحارث.

وقال قتادة: (الغثاء): الشيء اليابس. ويقال للحشيش إذا تحطم ويبس: غثاء وهشيم. و(الأحوى): الأسود، أي أن النبات يضرب إلى الحوَّة من شدَّة الخضرة كالأسود، والحُوَّة: سُمرة الشفة. يقال: رجل أحوى، وامرأة حوَّاء، وقد حويت.

و{**أَحْوَى**}: صفة لـ{**غُثَاءً**}، والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته، وقال أبو عبيدة: فجعله أسود من احتراقه وقدمه، والرطب إذا يبس اسودَّ.

وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبس اسودَّ من احتراقه، فصار غثاء تذهب به الرياح والسيول. وهو مثل ضربه الله تعالى للكفَّار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها[278].

بيان الهداية الخاصة لرسوله صلى الله عليه وسلم

{ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) }

{ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى }

الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم من ربِّه، أي: سَنُقْرِئُكَ القرآن يا محمد، فتحفظه وتعلمه ولا تنساه، كما قال تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}** [النمل:6].

وهذا إخبار من الله ووعد منه لرسوله بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها. وهو بيان من الله لهدايته الخاصَّة برسوله، بعد الهداية العامَّة لجميع مخلوقاته، وهي هداية لتلقِّي الوحي، وحفظ القرآن، الذي هو هدى للعالمين، وتوفيقه لهداية الناس أجمعين.

278- تفسير القرطبي (18/20).

وسين التنفيس: إما للتأكيد، أو أنَّ المراد إقراء ما أوحى الله إليه حينئذ، وما سيوحي إليه بعد ذلك، فهو وعدٌ كريمٌ باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء، أي: سنقرئك ما يوحى إليك الآن، وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام، فلا تنسى من قوَّة الحفظ والإتقان، مع أنك أميٌّ لا تدري ما القراءة وما الكتابة؛ ليكون ذلك آية أخرى لك، مع ما في تضاعيف ما تقرأه من الآيات، من حيث الإعجاز، ومن حيث الإخبار بالمغيبات.

{إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}

استثناء مفرَّغ من أعم المفاعيل أي: لا تنسى ممَّا نقرئكه شيئاً، إلا ما شاء الله أن تنساه أبداً، وذكر اسم الله هنا لتربية المهابة في النفس، وللإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهيَّة، المستتبعة لسائر الصفات.

وبعضهم قال: المراد: النسيان في الجملة على القلَّة والندرة، كما روي أنه صلى الله عليه وسلم أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب بعض الصحابة أنها نُسخت، فسأله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "نسيتها"[279]. فهذا من النسيان الطبيعي الذي يعرض لكلِّ إنسان، ثم يذكر ويعود إلى الأصل.

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}

تعليل لما قيل، أي: يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور، التي من جملتها ما أوحي إليك، تنسى ما شاء إنساءه، ويبقى محفوظاً ما شاء إبقاءه، لما نِيطَ بكلٍّ منهما من مصالح دينكم وحياتكم، فهو يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه ويُخبِّئونه من أقوالهم ومن أفعالهم، ومن نيَّاتهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، كما قال سيدنا إبراهيم: **{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}** [إبراهيم:38].

الشريعة الحافلة باليسر من كلِّ جوانبها:

279- رواه أحمد (15365) وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في السنن الكبري في المناقب (8183)، عن عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي.

{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}

ولما كان في الوعد بالإقراء وعدم الإنساء: وعد ضمني بتشريع الأحكام، التي قد يكون فيها ما يصعب على المخاطبين احتماله، أردف ذلك بما يفيد أن الله لا يشرع لهم في هذا الكتاب، وفي هذا الدين إلا ما فيه يُسر لهم، بل ما فيه اليسرى.

لذا قال لرسوله **{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}**، ونُيسّرك ونسهِّلك للشريعة الحافلة باليسر من كلِّ جوانبها، فهو عليه السلام ممكَّن كلَّ التمكين من اليُسرى، كما قال تعالى: **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** [البقرة:185]، وقال: **{يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}** [النساء:28]، **{مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [المائدة:6]، وقال عليه الصلاة والسلام: "فإنما بُعثتم مُيسِّرين ولم تُبعثوا مُعسِّرين"[280].

أي: نوفِّقك توفيقا مستمرًّا للطريقة اليسرى، في كلِّ باب من أبواب الدين، علما وتعليما، اهتداء وهداية، لتتدرَّج فيه إلى طريق تلقِّي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة، والنواميس الإلهية، مما يتعلَّق بتكميل نفسه عليه السلام، وتكميل غيره.

280- متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (220)، عن أبي هريرة.

الأمر بالاستمراربالتذكير وإن كان تذكُّر القوم بعيداً

{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) }

{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}

أُمر عليه الصلاة والسلام: أن يستمرَّ في تذكيره للناس حتى لا ينسوا ولا يغفلوا عما هو مطلوب منهم، وهو مأمور دائما بالتذكير: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}** [الغاشية:21، 22]، **{فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}** [ق:45].

ذكِّر الناس حسبما يسَّرناك له ممَّا يُوحى إليك، واهْدهم إلى ما في تضاعيفه من الأوامر والنواهي والهداية، واجتهد أن يكون تذكيرك لقلوب تنفعها الذكرى، وتستجيب للقول الحسن، وتأنس للوعظ والإرشاد. وطالما كان الرسول الكريم يُذكِّرهم، ويستفرغ فيه غاية المجهود، ويتجاوز في الجهد كلَّ حدٍّ معهود، حرصاً على إيمانهم، وما كان يزيد ذلك بعضهم إلا كفراً وعناداً، فأُمر عليه الصلاة والسلام أن يخصَّ التذكير بمواد النفع، في الجملة بأن يكون من يذكره – كُلاًّ أو بعضاً – ممَّن يُرجى منه التَّذكُّر، ولا يُتعب نفسه في تذكير مَن لا يورثه التذكير إلا عتوًّا ونفوراً، ممَّن طبع الله على قلوبهم، وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة، كما قال تعالى: **{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** [النجم:29].

وقال بعضهم: إنما قوله تعالى: **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}**: اعتراض بين الكلامين، على جهة التوبيخ لقريش. أي: إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا كما يقول الشاعر:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا   ولكن لا حياة لمَن تنادي[281]

المنتفعون بالتذكير والمتجنبون له :

{سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}

---

281 - من شعر كثير عزة.

إنَّ تذكيرك لن يضيع سُدًى، لا بدَّ أن يكون في الناس مَن يستجيبون للدعوة، ويتذكَّرون للتذكير، ممَّن لهم قلوب تخشى الله، ولهم آذان تُحسن السماع للحقِّ، ولهم عقول تهتدي لما يهدي، فالمراد هنا بـ**{مَنْ يَخْشَى}**: مَن ثبتت خشية الله في قلبه، فأمسى من شأنه أن يخشاه، ويعلم أنه ملاقيه، أو مَن يخشى الله تعالى في الجملة، فيزداد ذلك بالتذكير، فيتفكَّر في أمر ما يذكَّر به، فيقف على حقيقته، فيؤمن به.

{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى}

ويتجنَّب التذكرة الإنسان الأشقى، الذي أصبح الشقاء عنواناً له، مُسجَّلا عليه، بل ليس مجرَّد الشقاء – وهو ما هو – بل الأشقويَّة، فهو أشقى الناس، والعياذ بالله.

والشقاء ضدُّ السعادة، **{فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}** [هود:105], فإذا كان السعيد مَن فاز بالجنة، فإن الشقي مَن كان جزاؤه النار، فهذا الأشقى ينأى بنفسه أن يتعرَّض للهدى ودين الحقِّ، وأن يكشف عن نفسه أسباب الغواية، وأن يسعى إلى الحقِّ، ولهذا وصفه عزَّ وجلَّ بقوله:

{الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى}

هذا الأشقى لا بدَّ أن تصل به أشقويَّته وطريقته المنكوبة والمنكودة إلى النار الكبرى، إنها نار عظيمة أعدَّها الله للكافرين المعاندين من عباده الشريرين، بعدما أقام عليهم الحجَّة، وأبلغهم الرسالة، وأزال عنهم كلَّ ما يعتذرون به، ووضَّح لهم كلَّ السبل، وأجاب عن كلِّ التساؤلات، فما لانت لهم شكيمة، ولا سكنت لهم نفس، ولا استقام لهم منطق: **{لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}** [الأعراف:179].

وإنما كانت هذه النار كبرى؛ لأن نار الدنيا، وإن حميت واستعرت، وكبرت واستمرَّت، إنما هي جزء من سبعين جزءا من نار الآخرة، كما أخبرنا الرسول الكريم[282].

{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}

أي لا يموت فيها الأشقى حتى يستريح بموته من عذاب هذه النار، ولا يحيا حياة تنفعه، ويحسُّ فيها بمعنى الحياة، و**{ثُمَّ}** للتراخي في مراتب الشدَّة، لأن التردُّد بين الحياة والموت هو من أفظع ما يلاقيه أهل النار، والعياذ بالله.

282- إشارة إلى الحديث المتفق عليه: "ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»، قيل يا رسول الله إن كانت لكافية قال: «فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها"، رواه البخاري في بدء الخلق (3265)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (2843)، عن أبي هريرة.

الطريق إلى الفلاح وتنكُّب الناس له بسبب إيثارهم لذات الدنيا العاجلة

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)}

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}

تأكَّد فلاح مَن تزكَّى، والفلاح: أن يظفر بما يُحبَّ، وينجو ممَّا يكره، وغاية هذا ما قاله القرآن: **{فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}** [آل عمران:185]. وهنا يؤكِّد القرآن بالحرف **{قَدْ}** أفلح مَن تزكَّى، فلاحه في الدنيا، وفلاحه في الآخرة.

وفلاحه في الدنيا: أن يرزقه الله السكينة في نفسه، والطمأنينة في قلبه، كما قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}** [الفتح:4]، **{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** [الرعد:28]، وأن يؤمن بأن الله معه، وأنه يؤيِّده، ويحفظه ويرزقه من حيث لا يحتسب، ففلاح المتزكِّي يبدأ من الدنيا.

والتزكِّي: أن يقوم المؤمن بتزكية نفسه حتى يتحقَّق لها الفلاح، ولا يتركها فيدسِّيها، ويجلب لها الخيبة، كما قال تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}** [الشمس:9، 10].

والتزكية تتضمَّن معنيين أصليين، أحدهما: التَّطهُّر. والثاني: النماء. فهو يُطهِّر نفسه من معتقدات الشرك، ومن رذائل النفاق، ومن أدران آفات القلوب، من الكِبْر والعُجْب والحسد والحقد والرياء وغيرها من المعاصي الباطنة، ومن كلِّ ما يُدَنِّس النفس من المعاصي وآثارها، وبعد هذا التَّطهير، يُنمِّي نفسه بعمل الصالحات، ومنها عبادة الله وحده، وفعل الخيرات، والدعوة إلى الله، والتواصي بالحقِّ، وهذه التزكية النفسية الأخلاقية، تسوق المؤمن إلى ذكر الله عزَّ وجلَّ، ودعائه والصلاة له، وبهذا تتمُّ التزكية، إذ لا تزكية لمَن يجحد بالله وآياته وحسابه

وجزائه، ولذا قال تعالى هنا: **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}**، وفي القرآن آيات كثيرة تدعو إلى ذكر اسم الله تعالى كما قال: **{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [الإنسان:25]. وأهم ما ينتهي إليه المؤمن بالذكر هو الصلاة، قرَّة عين المؤمن.

{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}

{بَلْ}: حرف إضراب عن مقدَّر هنا ينساق إليه الكلام، كأنه قيل إثر بيان ما يؤدِّي إلى الفلاح: لن تفعلوا ذلك، بل تفضِّلون لذَّات الدنيا العاجلة الفانية، فتسعَون لتحصيلها والاستزادة منها.

والإسلام لا يُحرِّم على المسلم الاستمتاع بطيِّبات الدنيا، بل يعتبرها نعمة من الله على المؤمن، ويحارب مَن حرَّم طيِّباتها على عامَّة الناس، قال تعالى: **{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}** [الأعراف:32].

إنما يمنع الإسلام – إذا كانت الدنيا والآخرة أمام الإنسان – أن يؤْثر الأولى على الآخرة، كما قال هنا: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}**، وكما في سورة النازعات: **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات:37]، وقال تعالى في سورة النجم: **{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** [النجم:29]. فهذا معنى إيثار الحياة الدنيا، أي: لم يُرِد إلا إياها، وليس للآخرة مكان يُذكَر بجوارها.

الموازنة بين الدنيا والآخرة :

{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}

ومَن وازن بين الدارين، تبيَّن له بكلِّ وضوح: أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا من غير شكٍّ، لأسباب كثيرة:

أولها: أن الدنيا فانية، والآخرة هي الباقية.

ثانيها: أن متاع الدنيا قليل، بل الدنيا كلُّها بكلِّ متاعها متاع قليل.

ثالثها: أن متاع الدنيا مع قلَّته متاع غرور، وليس متاعا حقيقيًّا.

رابعها: أن الآخرة خير من الدنيا كلِّها؛ لأن فيها الجنة، ورضوان من الله أكبر.

عن أبي مسعود: أنه قرأ هذه الآية: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** فقال: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حضرت، وعُجِّلت لنا طيِّباتها، وطعامها وشرابها، ولذَّتها وبهجتها، والآخرة غُيِّبت عنا، فأخذنا العاجل وتركنا الآجل.

وروى ثابت، عن أنس قال: كنا مع أبي موسى في مسير، والناس يتكلَّمون ويذكرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس، إن هؤلاء يكاد أحدهم يفري الأديم بلسانه فريا، فتعال فلنذكر ربَّنا ساعة. ثم قال: يا أنس، ما ثبر الناس؟ ما بَطَّأ بهم؟ قلتُ: الدنيا والشيطان والشهوات. قال: لا، ولكن عُجِّلت الدنيا، وغُيِّبت الآخرة، أما والله، لو عاينوها ما عدلوا ولا مَيَّلوا[283].

283- تفسير القرطبي (22، 235). والأثر رواه البيهقي في شعب الإيمان (10185).

{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}

{إِنَّ هَذَا}: إشارة إلى ما في هذه السورة من حقائق وأخبار وتوجيهات، وخصوصا بعد قوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}** وما بعده، لثابت فيما جاء به رسل الله السابقون، فهو قول مصدَّق، ومتَّفق عليه، ليس أمرا ناشزا أو منفردا بما جاء به لا يشركه غيره، بل هو في كتب الأولين المعروفين، وخصوصا الرسولين العظيمين من أولي العزم من الرسل، الذين قال الله لرسوله فيهم: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}** [الأحقاف:35]، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، الذين قال الله فيهم: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}** [الأحزاب:7].

فاختار من الرسل الأربعة أقربهم إلى العرب، وهما إبراهيم وموسى، فإبراهيم لأنه أبو إسماعيل، وإسماعيل أبو العرب المستعربة، الذين منهم محمد صلى الله عليه وسلم وقبيلته وقومه، وموسى ذو الصحف أو الكتاب الذي أنزله الله نورا وهدى للناس.

وروى الإمام أحمد في مسنده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم، كان يحبُّ هذه السورة: (سبِّح اسم ربك الأعلى)[284].

وروى الإمام مسلم في صحيحه، أنه عليه الصلاة والسلام، كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ(سبح اسم ربك الأعلى)، و(هل أتاك حديث الغاشية)، وربَّما اجتمعا في يوم واحد فيقرأهما[285].

وروى الترمذي، عن النعمان بن بشير، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقرأ في العيدين، ويوم الجمعة (سبح اسم ربك الأعلى)، و(هل أتاك حديث الغاشية)[286].

284- رواه أحمد (742) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف.
285- سبق تخريجه صـ.

وذلك لأن هاتين السورتين فيهما من الدلائل على عظمة الله تعالى، وإبداع تكوينه، وعلى صدق نبيِّه، وعلى دلائل حمده وتمجيده، وضرورة لقائه في الآخرة، ما تحتاج النفس الإنسانية إليه، لتمتلئ جوانحها بحبِه تعالى والاطمئنان إليه، والاستراحة إليه، فلا غرو أن كان عليه الصلاة والسلام يُكثر من القراءة بهما في المناسبات الطيِّبة كالجمعة والعيدين.

286- رواه الترمذي في الصلاة (533) وقال: حسن صحيح.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)}

وهي مكيَّة في قول الجميع.

تتعلَّق بالحديث عن الآخرة، واختلاف الناس فيها بين أشقياء وسعداء، تتفطر القلوب لما يعانيه أهل الشقاء، وتنشرح الصدور وتفرح القلوب لما ينعم به أهل السعادة.

وينبغي للعقلاء من الخلق، أن يستعينوا على الوصول إلى الحقِّ بالنظر فيما حولهم وما يحيط بهم، **{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}**، فكلُّ إنسان يجد من روائع الكون من فوقه، ومن تحته، ما يمهِّد لعقله أن يفكِّر، ولإرادته أن تحقِّق، ولجسده أن ينفِّذ.

المهم أن يتذكَّر ولا ينسى، وأن يذكِّر غيره، حتى لا تأكله الغفلة واللهو عن المصير المحتوم، **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}**.

وانتهت السورة بقوله: **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}**، الإياب والرجوع إلى الله وحده، وليس إلى أحد غيره، والحساب بعد ذلك عنده، وإنه لسريع الحساب،

ودقيق الحساب، لا يخدعه أحد، ولا يحابي أحداً لقوَّته أو لبطشه، بل كلُّهم عبيد عنده، **{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [غافر:16].

الآخرة واختلاف الناس فيها بين أشقياء وسعداء

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ

وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)}

ألوان الاستفهام في القرآن :

مَن تأمَّل في هذا القرآن، وجده رائعاً في كلِّ ما يأتي به من معانٍ، ومن بيان، فله أساليبه التي ينفرد بها، ولم تُعرف عن أحد قبله، ومنها هذه الألوان من الاستفهام التي نجدها في القرآن، ولا نجدها في غيره، مثل هذا الاستفهام: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}** [النازعات:15، 16]، ومثل هذا الحديث الذي بدأ به هذه السورة: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}**، وفي سورة أخرى: **{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}** [الإنسان:1].

بعض المفسِّرين قالوا: هل: بمعنى قد. وليس ذلك بسديد، بل هو استفهام أُريد به التعجُّب ممَّا في خبره، والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث المهمة، التي حقُّها أن يتناقلها الرواة، ويتنافس في تلقِّيها الدعاة، من كلِّ حاضر وبادٍ.

و **{الْغَاشِيَةِ}**: الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها، وتكتنفهم بأهوالها، وهي القيامة. من قوله تعالى: **{يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ}** [العنكبوت:55].

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ 2}

جملة مستأنفة، وقعت جوابًا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقي، كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام ما أتاني حديث الغاشية، فما هو؟ فقيل: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}**، يوم إذا غشيت الغاشية، خاسئة ذليلة خاضعة، تشع ولا ينفع عملها.

{عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ 3}

أي: إنها تمارس أعمالاً شاقَّة مجْهدة، عملت عملاً كثيراً، تنصب فيها وتتعب في أدائها، ومع هذا صليت ناراً حامية يوم القيامة، بجرِّ السلاسل والأغلال، والخوض في النار خوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلال النار ووهادها. فأيُّ عمل أشد وأصعب على النفس من مثل هذا العمل.

{تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً 4}

هذه الوجوه الذليلة، تدخل ناراً متناهية في الحرارة، هي بالنسبة لنار الدنيا أشد وأقسى منها، بسبعين مرَّة!

{تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ 5}

هذه الوجوه – والمقصود أصحابها – تُسقى وتشرب وتَتَجرَّع من عين آنية، أي: متناهية في درجات الحرارة، كما في قوله تعالى: **{يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ}** [الرحمن:44].

{لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}

أي: من شرِّ الطعام وأبشعه وأخبثه، لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

يقول أبو السعود رحمه الله، حول هاتين الآيتين، وخصوصا الآية الأخيرة: (أي: ليس من شأنه الإسمان والإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا. وإنما هو شيء يضْطَّرون إلى أكله، من غير أن يكون له دفع لضرورتهم، لكن لا على أن لهم استعداداً للشبع والسمن، إلا أنه لا يفيدُهم شيئًا منهما، بل على أنه لا استعداد من جهتهم، ولا إفادة من جهة طعامِهم.

وتحقيقُ ذلك: أنَّ جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه

النشأة، من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة؛ لبدل ما يتحلَّل من البدن،

مشوّقة له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذُّ بهما عند الأكل والشرب، ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة، ويستفيد منهما قوَّة وسمنًا عند انهضامِهما. بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم، إلى إدخال شيء كثيف يملؤها، ويخرج ما فيها من اللهب، وأما أن يكونَ لهم شوق إلى مطعوم ما، أو التذاذ به عند الأكل، واستغناء به عن الغير، أو استفادة قوة، فهيهات!

وكذا عطشُهم عبارةٌ عن اضطرارهم عند أكل الضريعِ والتهابه في بطونهم، إلى شيء مائع بارد يطفئه، من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه، أو استفادة قوَّة به في الجملة، وهو المعنيُّ بما رُوي أنه تعالى يسلِّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلِّط عليهم العطش، فيضطرُّهم إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم، ويقطِّع أمعاءهم)[287].

حال السعداء :

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً}

كما ذكر حال الأشقياء، ثنَّى بذكر حال السعداء، وإنّما قدَّم حال أهل النار؛ لأنه أدخل في تهويل الغاشية، وتفخيم حديثها، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكيَّ حسنا وبهجة. وإنما لم يعطف عليها؛ إيذانا بكمال تباين مضمونيهما.

287- تفسير أبي السعود (9/149-148).

و {نَاعِمَةٌ}، أي: ذات بهجة وحُسن، متنعمة بالخير والسعادة ،كقوله تعالى: **{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}** [المطففين:24].

{لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ}

أي: راضية متقبلة باطمئنان وسعادة لسعيها وعملها الذي عملته في الدنيا، حيث شاهدت ثمرته، وأدركت حقيقته.

{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}

هذا التنعُّم والرضا في جنَّة أعدَّها الله للمؤمنين من عباده، عالية مرتفعة المحل، عالية المقدار، هي رفيعة من حيث المسافة والمكان، ومن حيث الدرجة والمكانة.

{لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً}

لا تسمع أنت، أو لا تسمع الوجوه الناعمة في الجنة كلمة لاغية، أي: ذات لغو، مما يُتحدَّث في الباطل، أو الأذى للخلق، أو نفساً لاغية، أو جماعة لاغية؛ لأن الجنَّة لا يُؤذَى أحد فيها بشيء، يُبصَر أو يُسمَع أو يُحسُّ، وقد قال تعالى: **{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}** [الواقعة:25-26]، **{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا}** [مريم:62]، **{لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ}** [الطور:23].

{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ}

في الجنة عين تجري مياهها سارحة،لا ينقطع جريها أبداً، تسرُّ بمنظرها النفوس.

و"عين" نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة، فإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. وفي سورة الإنسان: **{يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}** [الإنسان:5].

{فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}

{سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ}، السُّرر: جمع أَسِرَّة، واحدها: سرير. وفي الجنة سُرر مرفوعة السمك أو المقدار. أي: عالية كثيرة الفراش، مرتفعة السمك، عليها الحور العين، فإذا أراد وليُّ اللهِ أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له.

{وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ}

الأكواب: جمع كوب، وهو إناء لا عروة له . ومعنى **{مَوْضُوعَةٌ}**، أي: بين أيديهم، قريبة منهم ، مُعدَّة لشربهم.

{وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ}

النمارق: جمع نُمرُقة، وهي: الوسادة. مصفوفة: أي: منظَّمة بعضها إلى بعض، فوق السُّرر والطنافس ، تُريح الناظر.

{وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}

الزرابي: جمع زِرْبيَّة. وهي: البسط الفاخرة. **{مَبْثُوثَةٌ}**: أي: مبسوطة منتشرة، معدَّة ممهَّدة في أنحاء القصور ،وهي التي تحدَّث عنها الشاعر، فقال:

بُسُط أجاد الرسمَ صانعُها   وزَهَا عليه النقشُ والشكلُ

فيكاد يُقطَف من أزهارها   ويكاد يسقط فوقها النحلُ

توبيخ الكفار على غفلتهم عن النظر في آيات الله

{أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}

بعد أن ذكر الله تعالى حال أهل الدارين في الآخرة: أهل النار وما هم فيه من شقاء ونصب، وأهل الجنة وما هم فيه من سعادة ونعيم، أراد سبحانه أن يخاطب أهل الدنيا الغافلين عن الآخرة وأخبارها وحقائقها، وطلب إليهم بصيغة الاستفهام المشوّقة، أن ينظروا إلى آيات الله المحيطة بهم، من حولهم، من فوقهم، ومن بين أيديهم، ومن خلفهم، ليتنبَّهوا ويَعُوا لمصيرهم الكبير، فقال سبحانه: **{أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}**. و" الإبل " : اسم جمع لا مفرد له من لفظه ، وإنما يقال في مفرده : جمل أو ناقة . أي : هل عميت بصائرهم حين ينكرون البعث ويستبعدونه على قدرة الله أفلا ينظرون نظر تأمّل واعتبار إلى الإبل وهي أقرب شيء إليهم ن كيف خلقت خلقا بديعا دالاًّ على دقة صنع خالقها وحُسْن تدبيره .

وهنا يعلِّمنا القرآن في مجال الدعوة والتعليم: أن نبدأ للإنسان بما هو أقرب إليه، وما يجب أن يتعلَّم منه، ولذا كان أقرب شيء إلى العرب (الإبل)، التي يراها في الصباح وفي المساء، في السفر وفي الإقامة، يشرب من لبنها، وينتفع بوبرها، ويأكل من لحمها إذا نَحَرَها، وتحمل أثقاله إلى بلد بعيدة، ويحجُّ عليها ويعتمر، إلى آخر ما يعرفه الناس من فوائدها.

من هنا بدأ بها، وهي من أعظم ما ينفع الناس، لا تغيب عن أيّ متأمِّل. وقد

سخَّر الله سبحانه هذا الحيوان الكبير للإنسان، يُسيِّره ويسخِّره للمشاوير الطويلة،

ويحمل الأحمال الثقيلة، وقد يسيّره الصبي الصغير، ولا يستعصي عليه،وفي خلق

الإبل كلُّ ما يساعد الإنسان على ذلك، كما قال تعالى: **{وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}** [النحل:7].

وقد هيَّأ الله تعالى جسمها الكبير لهذه الانتقالات، ذات المسافات البعيدة، والأثقال الشديدة، ابتداء من الأخفاف في الأرجل، القادرة على المشي في الرمال، والأعناق الطويلة، والسنام الذي تخزِّن الدهن والطعام، وغير ذلك مما لاحظه كثير من المفسِّرين القدماء، وزاد عليه كثير من علماء الحيوان الفضلاء.

قال الماوردي: (الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات؛ لأن ضروبه أربعة: حلوبة , وركوبة , وأكولة , وحمولة، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع, فكانت النعمة بها أعمُّ, وظهور القدرة فيها أتمُّ)[288].

وانظر ما قاله العلاَّمة المفسر أبو السعود: (**{أفلا ينظرونَ إلى الإبلِ}**، التي هي نُصب أعينهم، يستعملونها كلَّ حين، إلى أنها كيف خُلقت خلقًا بديعًا، معدولاً به عن سُنن خلقة سائر أنواع الحيوانات، في عِظَم جثَّتها، وشدَّة قوَّتها، وعجيب هيأتها اللائقة، بتأتِّي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقَّة، كالنَّوء بالأوقار الثقيلة، وجرِّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش، حتى أن أظماءها لتبلغ العشرَ فصاعدًا، واكتفائها باليسير، ورعيها لكلِّ ما يتيسَّر من شوك

288- النكت والعيون للماوردي (262/6).

وشجرٍ وغير ذلك، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض، حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء، ويقتادها بقطارها كلُّ صغير وكبير)[289].

وقد كتب الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي، أستاذ علم البيولوجيا، وعميد كلية العلوم ،وعضو المجمع اللغوي في فوائد الجِمال أو الإبل، كتابة قيّمة، يجب أن يُنتفع بها؛ لأنها كتابة مبنيَّة على ما وصل إليه العلم في عصرنا[290].

{وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ}

بعد أن ينظر الإنسان نظرة العاقل المفكِّر إلى إبله من حوله، بأنواعها وأسنانها ووظائفها، يجب أن يعلو بنظره إلى هذا السقف العظيم المرفوع من حوله، كما قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}** [الأنبياء:32]، **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}** [ق:6]، **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}** [لقمان:10].

وهذه السماء التي نراها فوقنا هي جزء من سبع سموات خلقها الله طباقا، كما قال نوح لقومه من قديم: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** [نوح:15–16]، **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ}** [الملك:5].

ويستطيع علم الفلك الحديث بما انتهى إليه من بحوث ودراسات، أن يمدَّنا بأفكار ومعلومات موثَّقة، عن الكون من فوقنا، وأضحى الكثير منه مبسوطاً ومشروحاً، لدى

289- تفسير أبي السعود (150/9- 151).
290- انظر كتابه: الإبل عز لأهلها: إعجاز فريد في الخلق، وأمان من المجاعة والفقر. ط. كنوز العلم، القاهرة.

الكثير من جماهير الناس، الذين يشاهدون السماء في كلِّ لحظة بالليل والنهار، كيف رُفعت رفعا سحيق المدى، بلا عِماد ولا إمساك، بحيث لا يناله الفَهم والإدراك.

{وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}

كما يجب أن ينظر الجميع إلى الجبال، التي خلقها الله لتكون أوتاداً للأرض، تربطها وتمنعها أن تميد وتضطرب، وقد نُصبت نصباً رصيناً، فهي راسخة راسية، لا تميل ولا تميد، كما قال تعالى: **{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}** [النحل:15]، **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}** [النمل:88].

{وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}

والعنصر الرابع الذي يجب النظر إليه نظر التدبُّر والاعتبار، إلى كيفية خلق الله له هو: الأرض التي يضرب الناس فيها، ويتقلَّبون عليها، التي ينزلون في أقطارها، وينتفعون بمياهها وأشجارها، كيف سطَحَها الله، وبسطَها بسطا، بتوطئة وتمهيد، وتسوية وتوطيد، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق، كما قال تعالى: **{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}** [ق:7، 8]، وقد قال نوح لقومه من قديم: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}** [نوح:19، 20].

الأمر بالتذكير والموعظة ، والناس مطالبون بالإيمان باختيارهم

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)}

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}

الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم، المُنزَّل عليه القرآن، إذا كان القوم من حوله قد أهملوا النظر في عجائب المخلوقات من حولهم، ومن فوقهم، من إبل وسماء وجبال وأرض، فلا يهمُّك إعراضهم وإنكارهم، والتفت إلى التذكير والموعظة، والإيقاظ والتوعية، **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}**، إنما أنت واعظ وداعية، فذكِّر – يا محمد – الناس بما أُرسلتَ به إليهم، فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

إذا كان القوم ينسون ربَّهم، وينسون آخرتهم، وينسون أنفسهم، فلا تكن مثلهم، وتولَّ التذكير لمَن ينسى، فما أنت في حقيقة الأمر إلا مُذكِّر، وكلُّ الرسل مثلك كانوا مذكِّرين، كما قال في سورة الأعلى: **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}** [الأعلى:9، 10].

{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}

تقرير له، وتحقيق لمعنى الإنذار، أي: لستَ بمتسلِّط عليهم، تجبرهم على ما تريد، لقوله تعالى: **{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}** [ق:45].

{إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}

أي إلا مَن تولَّى عن العمل بأركانه، وكفر بالحقِّ بجنانه ولسانه، وهذا كقوله تعالى: **{فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}** [القيامة:31، 32]، فالاستثناء يتَّصل من قوله تعالى: **{فَذَكِّرْ}**، أي: فذكِّر وعِظ وادعُ الجميع، إلا مَن انقطع طمعك في إيمانه، وتولَّى وأعرض عنك وكفر بدعوتك التي تدعوه إليها، فاستحقَّ بذلك

العذاب الأكبر، جزاء كفرانه وتَمَرُّده على الله وعلى رسله، وإنما كان عذاب الله وعذاب الآخرة هو الأكبر، لأنهم عُذِّبوا في الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل وغير ذلك، وكلُّه بالنسبة لعذاب الآخرة ونار جهنَّم شيء قليل.

وإذا كان التَّسلُّط هو التَّسلُّط على القلوب وما فيها، فلا يملك أحدٌ حقَّ التسلط على قلب أحد، بل كلُّ واحد أحقُّ بقلبه، وأما التسلُّط بالجهاد، فهو تسلُّط الناس بعضهم على بعض، كما قال تعالى: **{وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ}** [محمد:4].

الرجوع إلى الله وحده، وليس إلى أحد غيره، والحساب بعد ذلك عنده:

{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ}

هو رجوعهم بعد الموت أحياء، أي: مرجعهم ومنقلبهم إلى الله سبحانه، لا لأحد غيره، وقد أنكروا البعث والحساب، وردَّ عليهم القرآن في سور شتَّى، كما قال تعالى: **{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم}** [يس:78–79].

وقال الشاعر:

وكلُّ ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب[291]

وهم يؤوبون إلى الله، لا يؤوبون إلى أحد غيره، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ}** [الأنعام:94].

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}

291 - من شعر عبيد بن الأبرص.

ثم نحن وحدنا الذين نحاسبهم على أعمالهم، ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، **{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الحجر:92-93]، **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة:7-8].

روى الإمام أحمد، أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا كلُّكم يدخل الجنة، إلا مَن شرد على الله شراد البعير على أهله"[292]. فالإنسان قد يشرد على الله، ولكن الله تعالى لا يجبره على شيء، ولا يكرهه على الإيمان. والله أعلم.

والجملة مبدوءة بـ**{ثُمَّ}**، للدلالة على التراخي في الرتبة لا في الزمان؛ لأن إيَابهم إليه تعالى، وحسابَهم عليه تعالى أمران مستمرَّان. ولكن **{ثُمَّ}** مفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدَّة، المُنبِئة عن غاية السخط، الموجب لشديد العقاب. والجملة اسمية مؤكَّدة بـ**{إنَّ}**، وبتقديم الخبر، وكلُّها مؤكِّدات لخبر الله تعالى، وتقوية لما توعَّد به مخالفيه جلَّ شأنه.

292- رواه أحمد (22226) وقال مخرجوه: إسناده حسن.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)}

السورة مكيَّة، وفيها أقسم الله بالفجر، وما ذكر بعده من الليالي العشر والشفع والوتر، والليل إذا يسر، ثم ذكر الحضارات المادية الهائلة، القديمة، التي صنعها الإنسان، ووضع فيها بصمته وآثاره في الأرض التي يعيش فيها، ثم غربت شمس هذه الحضارات، وغاب أهلها، ونزل عليهم بأس الله الذي دكَّها دكًّا، ودمَّر مآثرها، وقطع دابر القوم الذين ظلموا، فلم تُغْنِ عنهم المادة، ولا المال ولا القوَّة ولا الحضارة المادية شيئا، غفلوا عن ربِّهم، وكذَّبوا رسلهم، فأملى لهم الله ثم أخذهم، **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}**.

ثم بيَّن القرآن طبيعة الإنسان، حينما يوسِّع الله عليه بالمال والولد، وحين يضيِّق عليه، وطبيعة المجتمع الجاهلي، الذي تضيع فيه الطبقات الضعيفة، من اليتامى والمساكين، وتشحُّ الأنفس في تلك المجتمعات التي لا يتحاضُّ الناس فيها على

فريضــة اجتماعيــة مهمَّــة، وهــي طعــام المســكين. ويــدخل فــي ذلــك: كــلٌ مــا يلزمــه لمعيشته.

ثم بيَّنت السورة ما ينتظر هذا المجتمع الجاهلي القاسي العتيد من عذاب الله في الآخرة، وما ينذرهم به ربّهم في الحياة الدنيا، **{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}**.

وهنا ينـادي الله النفس المطمئنـة، ليبشّرها بآخرة طيّبـة راضـية، **{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}**.

خمسة أمور عظيمة أقسم الله بها

{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}

{وَالْفَجْرِ}، هكذا بدأ الله هذه السورة بواو القسم، والقسم بالفجر. والفجر هو باكورة اليوم. وهذا أول قسم في القرآن بجزء من أجزاء الوقت، وقد بدأه بالفجر. والظاهر أنه يريد الوقت، ولم يكن يريد الصلاة؛ لأن الصلوات لم تُشرع إلا في السنة العاشرة من البعثة، ونحن لم نصل بعد إلى هذا الوقت.

وقد أقسم الله في هذه السور المبكِّرة من القرآن بالفجر وغيره من أجزاء الوقت، كما قال تعالى في سورة المدثر: **{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ}** [المدثر:33، 34]. وكما قال في سورة التكوير: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** [الآية:17، 18]، وأقسم بقوله: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}** [الليل:1، 2]، وأقسم أيضا بالضحى والليل إذا سجى، **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [الضحى:1، 2]، وأقسم بالعصر **{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}** [العصر:1، 2].

والفجر هو أول أوقات اليوم، حين ينشق الضوء، ويبدأ الناس صلتهم بالحياة، وأولها الصلاة، وفيها الإمساك عن الطعام لمَن أراد الصيام، وهو شبيه بما أقسم به في آيات أخرى: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** [التكوير:17، 18].

{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}

كما أقسم الله أيضا بـ(ليال عشر)، هكذا نكرها وهو تنكير للتفخيم، فهي من الأوقات المحبوبة عند الله، وهي ليالي عشر ذي الحجة، التي صحَّت الأحاديث النبويَّة في فضلها، وفي العمل الصالح فيها، ولا سيما إذا اتَّصلت بالحجِّ وأعماله، حينئذ تزداد مكانةً وجمالاً.

{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}

الشفع هو: الزوج. والوتر: الفرد. ولذا فُسِّرت الكلمات تفسيراً واسعاً. قال بعضهم: الشفع: الخلق، والوتر: الله. وفي الحديث: "إن الله وتر يحبُّ الوتر"[293].

وقال أبو بكر الوراق: أوصاف المخلوقين المتضادة هي الشفع: العزُّ والذلُّ، والغنى والفقر، والقدرة والعجز، والقوَّة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعمى، والسمع والصمم، والكلام والخرس. والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عزٌّ بلا ذلٍّ، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وغنى بلا فقر، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عمى، وكلام بلا خرس، وسمع بلا صمم، وما وراءها[294].

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}

أول ما أقسم به هو الفجر، وهنا أقسم بالليل إذا يسر، أي: يسري ظلامه في الكون، وهذا قَسَم خامس، بعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم. ومعنى (يسر) أي يسري فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم.

ومعنى **{يَسْرِ}**، أي: يسير في الليل. ومنه: الإسراء. وأكثر المفسِّرين على أن معنى (يسري): سار فذهب. وبعضهم قال: جاء وأقبل. والحقيقة: أن الليل يسري ويمضي دائما، فيجيء ويقبل، ثم يسير ويذهب. سنَّة الله في خلقه.

والياء في الفعل المضارع العادي ثابتة دائما، ولكنها في فعل **{يَسْرِ}** محذوفة عند الجمهور في الوقف وفي الوصل. وبعض القراء: أثبتوها في الوصل وحذفوها في الوقف[295].

---

293 - رواه أبو داود في الصلاة (1416)، والترمذي (454) وقال: حسن، كلاهما في الصلاة، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (1225) وقال مخرجوه: إسناده قوي، عن على بن أبي طالب.

294- انظر: تفسير القرطبي (41/20).

295- النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري (111/2). ط. المطبعة التجارية الكبرى، تحقيق: علي محمد الضباع.

ومعنى {**يَسْرِ**}، أي: يمضي في طريقه كما تمضي كلُّ الليالي والأيام، كقوله في مواضع أخرى: {**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ**} [المدثر:33]، {**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ**} [التكوير:17]. والتقييد بالسريان لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة.

{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}

قال أبو السعود: (فيه تحقيق وتقرير لفخامة شأن الأمور المُقْسَم بها، وكونها أمورا جليلة حقيقة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول، وتنبيه على أن الأقسام بها أمر معتدٌّ به، خليق بأن يؤكَّد به الأخبار، على طريقة قوله تعالى: {**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**} [الواقعة:76]، وذلك إشارة إما إلى الأمور المُقسَم بها، والتذكير بتأويل ما ذكر كما مرَّ تحقيقه، أو إلى الإقسام بها، وأيًّا ما كان فما فيه من معنى البُعد في ذلك، للإيذان بعلوِّ رتبة المُشار إليه، وبُعد منزلته في الشرف والفضل، أي: هل فيما ذُكر من الأشياء قسم، أيْ: مُقسَم به {**لِذِي حِجْرٍ**}، صاحب عقل، يراه حقيقًا بأن يُقسَم به إجلالاً وتعظيمًا.

والمرادُ: تحقيقُ أن الكلَّ كذلك، وإنما أُوثرت هذه الطريقة هضمًا للخلق، وإيذانًا بظهور الأمر، أو هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسام لذي حجر، مقبول عنده يعتدُّ به، ويفعل مثله، ويؤكد به المُقسم عليه؟

والحِجْر العقل؛ لأنه يحجُر صاحبَهُ، أي: يمنعُهُ من التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمِّي عقلاً ونهية، لأنه يعقل وينهى، وحصاةً أيضًا من الإحصاء وهو الضبط.

قال الفرَّاء : يقال : إنه لذو حِجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، والمُقسَم عليه محذوف، وهو: ليعذَّبن. كما ينبىءُ عنه قولُه تعالَى: {**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**})[296].

296- تفسير أبي السعود (9/153- 154).

قال القرطبي: ({**لِذِي حِجْرٍ**} أي: لذي لبٍّ وعقل. قال الشاعر:

وكيف يرجَّى أن تتوب وإنما   يرجَّى من الفتيان من كان ذا حِجر

وأصل الحِجْر: المنع. يقال لمَن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حِجر؛ ومنه سُمِّي الحَجَر، لامتناعه بصلابته: ومنه حَجَر الحاكم على فلان، أي منعه وضبطه عن التصرُّف؛ ولذلك سُمِّيت الحُجرة حُجرة، لامتناع ما فيها بها)[297].

297- تفسير القرطبي (43/20).

هلاك الحضارات المادية الهائلة

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14) }

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أساسا، المنزَّل عليه القرآن، ولكلِّ مَن يتأتَّى خطابه معه ومَن بعده، فالقرآن خطاب الله تعالى، لكلِّ مَن يفهمه من الناس كافَّة، وهو يشير إلى عدد من الحضارات الهائلة القديمة، التي كان لها ملكها ومجدها، وآثارها الطبيعية والصناعية، ولكنها عُنيت بالجانب المادي في الحضارة، ونسيت الجانب المعنوي والرُّوحي فيها، فغرقت في متاع الحياة الدنيا، ونسيت ربَّها ورسله، وكذَّبتهم، وجرت وراء مُتعها وترفها، فكانت عاقبتهم أن أخذهم الله، وأفناهم، وسلَّط عليهم ما هو أقوى منهم ودمَّرهم، وكانوا هم الظالمين.

حضارة عاد قوم نبي الله هود عليه السلام:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}

ألم ينتهِ علمك إلى ما صنعه ربُّك بهذه الحضارات العاتية المستكبرة في الأرض، كما فعل بعاد؟ وعاد وثمود من قبائل العرب العاربة أو البائدة، التي يعرف العرب أخبارها بالتوارث، ويتناقلونها بينهم، ويحكونها بعضهم لبعض، يزيدون فيها غرائب وعجائب وحكايات، على عادات الناس العوام في البلاد المختلفة.

ولكن القرآن جاءهم بالحقِّ الذي لا ريب فيه، والمُنزَّه عن الأكاذيب والغلوَّات والخيالات، كما قال القرآن في بعض السور: **{وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}** [هود:120].

وهو يقصُّ علينا نبأ عاد وما وصلوا إليه، **{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}** [الشعراء:128–134].

وأحيانا يحدِّثنا عن بعض نقمه عليهم: **{وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}** [الذاريات:41، 42]، **{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** [الحاقة:6، 7].

يقصُّ القرآن هذا على النبي صلَّى الله عليه وسلم، وعلى قومه، ليسمعوا ويعوا وينتبهوا إلى ما عند الله من قوَّة، ومن جنود، لا يعلمهم إلا هو، ومن قوانين كونية، يستطيع أن يسخِّرها إذا أراد لمَن يشاء من عباده، **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** [العنكبوت:53].

{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}

هذا الجيل الذي عرَفه العرب من قديم، وعرَفوا أنهم أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم وعصيانهم لله ورسله، هم عاد الأولى، المعروفة بالكبرياء في الأرض، والعدوان على الخلق، وهم الذين أُطلق عليهم (إرم)، وفيها يقول القرآن هنا: **{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}**، والعماد هنا: عماد الخيام، التي كانوا ينصبونها، وكانوا يتفنَّنون فيها، وفيما تحتويه. حتى إن القرآن الكريم تحدَّث عن الحور العين في إحدى الجنان، فقال: **{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}** [الرحمن:72].

أو ذات العماد الرفيعة، والقوَّة المنيعة، والمباني الشاهقة، ونحوها، وعبَّر بالعماد عن العلو والشرف والقوَّة، وكانت منازلهم بالرمال والأحقاف إلى حضرموت. وقد بلغت عاد مبلغاً من الشرف والقوَّة، لم يصل إليه جماعة في عهدها، ولذلك قال:

{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}

وفـي هـذا دلالـة علـى الانفراد مـن دون الأمـم الأخـرى بخصـائص وممتلكـات لا يوجـد لهـا نظـائر فـي الـبلاد الأخـرى، والانفـراد بهـذه الخصـائص، هـو مـدار القـوَّة والتفاخر عند الأمم.

وإذا قال القرآن كلمة عن حضارة عاد العربية، مثل هذه الكلمة: **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}**، فهي شهادة لا تعادلها شهادة، ولا تدانيها شهادة، في مثل هذا الجانب المادي، والمشهود من الحضارة.

حضارة ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام:

{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}

ومـن الحضـارات العربيـة البائـدة لخلوِّهـا مـن العنصـر الـذي يبقـى الحضـارات: العنصـر الروحـي والإيمـاني والأخلاقـي، الـذي بعـث الله بـه رسـله، وأنـزل بـه كتبـه، وحاسب عليه خلقه: حضارة ثمود، قوم صالح نبي الله، جاءوا بعد عاد قوم هود نبي الله. وقد بلغوا من القوَّة والمَنَعَة، أن قطعوا الصخر بالوادي أو الأودية، واتَّخذوا من الجبال بيوتاً فارهين، وزعم بعضهم: أنهم اتَّخذوا وادياً لمنافعهم يخزنون فيه الماء الفائض عن حاجاتهم، لينتفعوا به عند انقطاع الماء، أو قلَّته. ولا يفعل ذلك إلا الأمم الكبيرة والواعية.

فرعون ملك مصر صاحب الملك الشامخ القوي :

{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}

وأضـاف القـرآن إلـى الحضـارات العربيـة التـي عرفوهـا، حضـارات قريبـة مجـاورة لهـم، سـرت مسـراهم فـي البغـي علـى الخلـق، والاسـتكبار عـن الحـق، واتخـاذ القـوة للتطاول على عباد الله، لذا ذكره الله مع هؤلاء الطغاة، فقال: **{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}**،

فقد علم العرب وسائر الأمم عن ملك مصر الذي لقبوه (فرعون) الذي بلغ من القوة ما بلغ، وقال للناس: {**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**} [النازعات:24]، وقال: {**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**} [القصص:38]. وكان ملكه شامخاً قوياً، كأنما وتد بأوتاد عتيدة في الأرض.

ويمكن أن تعتبر الأهرام التي أصبحت تيجاناً معبِّرة عن أصالة الحضارة الفرعونيَّة، وقوتها ورسوخها في الأرض.

الطغيان والفساد من أعظم أسباب النقمة الربانية :

{**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**}

{**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ**}، وصف الله أصحاب هذه الحضارات الفاسدة والبائدة بوصفين أساسيين، جلبا عليهم نقمة الله سبحانه وعذابه، وهما: الطغيان في البلاد، والإكثار فيها من الفساد. وهما صفتان متلازمتان تؤثِّر كلتاهما في الأخرى.

الطغيان: هو تجاوز الإنسان حدَّه في الأرض، والخروج عن منزلة العبوديَّة لله تعالى، إلى مقام الربوبيّة ادّعاء وزوراً. ولهذا قال الله تعالى لموسى: {**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**} [طه:24]، وقال تعالى: {**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**} [العلق:6]، وقال تعالى: {**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى**} [النازعات:37-39]، فهذا هو الوصف الأول لهذه الحضارات المغشوشة.

والوصف الثاني: إكثار الفساد. ومَن قرأ تاريخ حضارات العالم، التي هَوَت وخربت من داخلها أولاً، عرف أن كثرة الفساد في حياة الناس، كانت لازماً من لوازمها، فإذا نزل الطغيان في البلاد، انتشر فيها داء الفساد، واستمرَّ هذا الداء

وتَوَغَّل حتى يُنهك الأمة، ويعجزها أن تعمل شيئاً حقيقيًّا للإصلاح، فيذهب الله بها، ويجيء بآخرين خير منها.

{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}

يقال: صبَّ عليهم، أي: أفرغ عليهم وألقى. يقال: صبَّ على فلان خلعة، أي: ألقاها عليه. وسوط عذاب، أي: نصيب عذاب. ويقال: شدَّته; لأنَّ السوط كان عندهم نهاية ما يُعذَّب به. وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم. من قولهم: ساطه يسوطه سوطا، إذا خلطه.

كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إنَّ عند الله أسواطاً كثيرةً، فأخذهم بسوط منها. وقال قتادة: كلُّ شيء عذَّب الله تعالى به، فهو سوْط عذاب[298].

{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}

المرصد والمرصاد: الطريق. وقيل: المرصاد الذي يترقَّب فيه الرصد. مفعال من رصده، كالميقات من وقته، وهذا مثل لإرصاده تعالى بالعصاة والطغاة، وأنهم لا يفوتونه. فهنا يرصد عمل كلَّ إنسان حتى يجازيه بعمله، قالوا: أي: على طريق العباد لا يفوته أحد.

وتسمية عذابهم سوطاً، للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة لما أُعِدَّ لهم في الآخرة، بمنزلة السوط عند السيف. والتعبير من إنزاله بالصبِّ، **{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ}**، للإيذان بكثرته وتتابعه واستمراره، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع، أو جار مجراه في السيلان، كالسيل والحبوب، وإفراغه بشدَّة وكثرة واستمرار.

298- انظر: تفسير القرطبي (50/20).

وهذه الجملة تعليل لما قبلها، وإيذان بأن كفار قومه عليه السلام، سيصيبهم ما أصاب المذكورين من العذاب. كما ينبِّئ عنه التعرُّض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام.

طبيعة الإنسان حينما يُوسِّع الله عليه بالمال والولد وحين يضيِّق عليه

{ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) }

{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ 15 وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)}

هذا الذي قصصناه عليك شأن ربِّك الراصد لكلِّ شيء، المراقب لكلِّ أمر، وسيُتلى عليك الآن شأن الإنسان عقب ما تلوته عليك من شأن ربِّك.

إن الابتلاء والاختبار الذي سلكه الله تعالى مع الإنسان، ليظهر أثر الابتلاء فيما يبديه الإنسان من شكر وكفر، وطاعة وتمرُّد، فيبيِّن ربُّنا سبحانه موقف الإنسان في حالته من النعماء والبأساء.

فلذلك يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله عليه في الرزق، ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك إكرام من الله له، وليس كذلك، كما يدلُّ التاريخ، وتدلُّ وقائع الحياة في الناس، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: {**أَيَحْسَبُونَ**

أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:55، 56].

وكذلك في الجانب الآخر، إذا ابتلاه وامتحنه، وضيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك إهانة من الله له، فيشغله الحزن عن فضيلة الصبر ، كما ينسى من أكرمه الله بالمال والجاه، ومكَّنه من التنّعم بما أكرمه به عن شكر المنعم .

قال الله تعالى: **{كَلَّا}**، أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال مَن يُحبُّ ومَن لا يُحبُّ، ويُضيِّق على مَن يُحبُّ ومَن لا يُحبُّ، وإنما الأمر في ذلك على طاعة الله في كلٍّ من الحالين، إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك، وإن كان فقيرا بأن يصبر.

{كَلَّا}، حرف زجر وردع، ليس الأمر كما يظنُّ. فليس الغِنى فضيلة، وليس الفقر مهانة، وإنما الفقر والغنى ابتلاء وامتحان بتقدير الله وقضائه.

طبيعة المجتمع الجاهلي:

{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}

إخبار عما كان يصنعه مجتمع الجاهليَّة المتجبِّر المتمرِّد، من إهانة اليتيم وإضاعته وإهدار حقِّه الشخصي والمالي، فأحياناً يدُعُّونه ويقسون عليه، كما في سورة (الماعون): **{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}** [الآية:2]، وأحياناً يقهرونه ويذلُّونه، كما في سورة الضحى: **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** [الآية:9]، وأحيانا يأكلون ماله بالباطل، ولذا قال: **{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}** [الأنعام:152]. وهذا كلُّه في القرآن المكِّي، أما القرآن المدني، فقد فصَّل في حقوق اليتامى وصيانة أموالهم، وشدَّد في تحريمها عليهم، وقال: **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا**

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء:10]. وكلُّ ذلك يدخل في قول الله سبحانه لهم: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}**.

{وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}

ومن سمات المجتمع الجاهلي وقسوته وجبروته: أن كلاًّ منهم مشغول بنفسه فقط، بأملاكه الخاصَّة، بأمواله وثروته، بأطماعه وشهواته، ما حلَّ منها وما حرُم، فلا يحث بعضهم بعضاً على أداء الواجب المفروض عليهم جميعاً في إطعام المسكين، وأداء كلِّ ما تتطلَّبه ضروراته وحاجاته، فلا يجوز أن يطعمه ويسقيه ويتركه عُرياناً، أو يَدَعَه في العراء بلا منزل، كلا. فإطعام المسكين كناية عن كفالة حقوقه الماديَّة كلِّها.

الحض على إطعام المسكين فريضة إسلامية :

والحقُّ أن هذه فريضة إسلامية انفرد القرآن بتقريرها، كما دلَّت على ذلك آيات شتَّى في كتاب الله. منها هذه الآية في هذه السورة، ومنها قوله تعالى في سورة الحاقَّة، حين حدَّثنا الله تعالى عن أصحاب الشمال، الذين يُؤتون كتابهم بشمائلهم، ويأخذ هذا كتابه بشماله، ويقول: **{مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}** [الحاقة:28، 29]، ويقول الله تعالى: **{خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}** [الحاقة:30–32]. ثم يبيِّن جرائمه الكبرى الذي استحقَّ عليها هذا العقاب، وهذا العذاب، فيقول: **{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** [الحاقة:33–34].

كلُّ هذا يُبيِّن ويؤكِّد لنا ما قرَّره القرآن في أكثر من آية، وكلُّها في القرآن المكِّي: أن الحضَّ والتَّحريض على طعام المسكين والفقير وكلِّ محتاج من ذكر وأنثى، من يتيم أو أرملة، أو ضائع أو ابن سبيل: فريضة إسلامية لا شكَّ فيها. وإن تجاهلها

الكثير من المسلمين، ولم يعنَ الفقهاء كثيرا بتفصيلها، والتنبيه عليها، وأمر الناس بإقامتها.

وجوب عمل الجمعيات الخيرية :

ولقد نبَّه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره المعروف لـ(جزء عم) على هذه الفريضة الاجتماعية، واتَّخذ منها دليلاً على وجوب عمل الجمعيات الخيرية، التي تجمع المال من القادرين لإغاثة الفقراء والعاجزين عجزا كليًّا أو جزئيًّا من المسلمين، يقول الشيخ في تفسير سورة الماعون: (و{**يَدُعُّ الْيَتِيمَ**} [الماعون:2]: أي: يدفعه ويزجره زجراً عنيفاً إذا جاء يطلب منه حاجة، احتقاراً له، وتكبُّرًا عليه، لفقده النصير وخُلوِّ ظهره من المجير.

واليتيم مظهر الضعف ومُمثِّل الحاجة، فالمستهين به مستهين بكلِّ ضعيف محتقر لكلِّ محتاج، فالمعنى: أن المُكذِّب بالدين هو الذي يغمط حقَّ غيره تعزُّزا بقوَّته، فكلُّ ظالم منتهك لحرمات الحقوق، مُكذِّب بالدين، متى كان ذلك ديدنا. وسواء كان ظلمه لقليل من الناس أو كثير.

والحضُّ على طعام المسكين: الحثُّ عليه ودعوةُ الناس إليه، والذي لا يحضُّ على إطعام المساكين، لا يطعمهم في العادة، فقوله: {**وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**}، كناية عن الذي لا يجود بشيء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت، الذي لا يستطيع له كسبا.

وليس المسكين هو الذي يطلب منك أن تعطيَه، وهو قادر على قوت يومه، بل هذا هو الملحف، الذي يجوز الإعراض عنه، وتأديبه بمنعه ما يطلب، وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين، ولم تجد ما تعطيه فعليك أن تطلب من الناس أن يُعطوه.

وفيه حثٌّ للمصدِّقين بالدين على إغاثة الفقراء، ولو بجمع المال من غيرهم، وهي طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت في الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله في سورة الفجر: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** [الفجر:17، 18]، ونعمت الطريقة هي لإعانة الفقراء، وسدِّ شيء من حاجات المساكين، فالمُكذِّب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كِبْرا وعتوًّا، والذي يبخل بماله على الفقراء، ويبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة ممَّن تحقَّق عجزهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة، ويقوم لهم بالكفاف من العيش، وسواء كان المحتقر للحقوق، البخيل بالمال والسعي، مُصلِّيا أم غير مُصلٍّ، فصلاته لا تنفعه، ولا تخرجه من صفِّ المكذِّبين بالدين، لأن المصدِّق بشيء لا تطاوعه نفسه بالخروج عن حدِّ ما صدَّق به، فلو صدَّق بالدين لعرف أن صلاته إنما هي عنوان الخشوع للقاهر، الذي لا يجوز لأحد أن يشاركه في عظمته، الذي خلق الخلق، وحدَّد حدود الحقّ، وفرض على الأقوياء الرحمة والعدل في الضعفاء، فمَن لم تذكِّره صلاته بهذا الذي فُرض عليه، فهو كاذب في قوله، مُراءٍ في ظاهر عمله)[299].

المجتمعات الجاهلية فقدت الأحاسيس الإنسانية:

{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}

يستمرُّ القرآن في بيان حقيقة المجتمعات الجاهلية، التي فقدت الأحاسيس الإنسانية، التي يتميَّز بها أولئك الذين يشعرون بآلام الفقراء وجوع بطونهم، وخلوِّ معداتهم، وارتعاد فرائصهم في البرد؛ لأنهم لا يجدون لباسا يكسوهم، فيقول لهم القرآن معدِّدا رذائلهم الأخلاقية والاجتماعية: **{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا}**.

299- تفسير جزء عم للإمام محمد عبده صـ166، 167..

التراث: الميراث الذي كانوا ياخذونه من حقِ النساء والأطفال ، من اليتامى وغيرهم من أصحاب المال، الذي أُمروا أن يحفظوه فأضاعوه، ولا يفرقون بين ما جمع من حلال أو حرام ، مما يتعلق بحق الغير .

وأصل التراث : الوراث، من ورثت، فأبدلوا الواو تاء، والعرب تجعل الواو تاء لتخفيف النطق، كما قالوا في: تُجَاهِ وتُخَمَة وتُكَأَة وتُؤَدَة، ونحو ذلك.

{لَمًّا}، أي: شديداً. وقيل: **{لَمًّا}**، أي: جمعاً. وأصل اللمِّ في كلام العرب: الجمع . يقال: لممتُ الشيء ألمُّه لمًّا: إذا جمعته، ومنه يقال: لمَّ الله شعثه، أي: جمع ما تفرَّق من أموره. قال النابغة:

ولستَ بمُستَبق أخا لا تَلمُّه   على شَعَث أيُّ الرجال المُهذَّب؟

ومن ذلك: أن يأكل نصيبه ونصيب غيره. قال ابن زيد: هو أنه إذا أكل ماله ألَمَّ بمال غيره فأكله، ولا يفكِّر: أكل من خبيث أو طيب. قال: وكان أهل الشرك لا يورِّثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم، وتراثهم مع تراثهم.

قال القرطبي: (يجوز أن يُذمَّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً، جامعاً بين المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الورَّاث البطَّالون.

{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} أي كثيراً، حلاله وحرامه. والجمّ: الكثير. يقال: جَمَّ الشَّيْءَ يَجُمُّ جُمُومًا. وقال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جمّاً   وأيُّ عبد لك لا ألمَّا)[300]

300- تفسير القرطبي (20/53- 54).

مصير المجتمع الجاهلي القاسي في الآخرة

{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) }

{كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}

كلا: للردع، أي: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. فهو ردٌّ لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فإن مَن فعل ذلك ندم يوم تدكُّ الأرض، ولا ينفعه الندم. والدكُّ: الكسر والدقُّ. أي زلزلت الأرض، وحرِّكت تحريكا بعد تحريك.

وقال الزجَّاج: أي زُلزلت فدَكَّ بعضها بعضا[301].

{دَكًّا دَكًّا}، (أي: مرَّة بعد مرَّة، زُلزلت فكسر بعضها بعضاً، فتكسَّر كلُّ شي على ظهرها. وقيل: دُكَّت جبالها وأنشازها حتى استوت. وقيل: دُكَّت أي استوت في الانفراش، فذهب دُورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها. ومنه سُمِّي (الدكان)، لاستوائه في الانفراش.

والدك: حطُّ المرتفع من الأرض بالبسط، وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس: تمدُّ الأرض مدَّ الأديم)[302].

{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}

301- معاني القرآن وإعرابه للزجاج (323/5).

302- تفسير القرطبي (54/20).

{وَجَاءَ رَبُّكَ}، جاء سبحانه مجيئاً يليق بجلاله، لا نعرف كيف يجيء، ولا نشبِّهه بغيره، ولا نجعل له كُفئاً، كما قال تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى:11]، **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** [الإخلاص:1-4]. هذا ما يقوله السلف، ومن اتَّبع منهجهم، ولا نخوض في شيء بعد ذلك، وهذا هو الأولى.

وأما الخلف فيؤولون ويفسِّرون، كلٌّ بما يبين له، فمنهم مَن قال: **{وَجَاءَ رَبُّكَ}**، أي: أمره وقضاؤه. وقيل: جاءهم الربُّ بالآيات العظيمة، وهو كقوله تعالى: **{إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ}** [البقرة:210]، أي بظُلَل. (وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئاً له، تفخيما لشأن تلك الآيات.

ومنه قوله تعالى في الحديث: "يا ابن آدم، مرضتُ فلم تعدني، واسْتسقيتُك فلم تسقني، واستطعمتُك فلم تُطعمني"[303].

وقيل: **{وَجَاءَ رَبُّكَ}**: أي زالت الشُّبَه ذلك اليوم، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشبه والشكُّ عند مجيء الشيء الذي كان يشكُّ فيه.

وقال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستولت، والله جلَّ ثناؤه لا يُوصف بالتحوُّل من مكان إلى مكان، وأنَّى له التحوُّل والانتقال؟ ولا مكان له ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأن في جريان الوقت على الشيء فوت الأوقات، ومن فاته شي فهو عاجز). ذكر ذلك القرطبي في تفسيره[304].

{وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}المراد به: جنس الملك، فيشمل جميع الملائكة **{صَفًّا صَفًّا}**أي : مُصْطفّين استعداداً لتلقِّي أوامر الملك القهَّار.

303- رواه مسلم في البر والصلة (2569)، عن أبي رافع.
304- تفسير القرطبي (55/20).

بروز جهنّم وتذكُّر الإنسان قبيح أعماله :

{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى}

إنه يوم عظيم، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، يوم يجيء الربُّ جلَّ جلاله، المجيء الذي تحدَّثنا عنه، وتجيء الملائكة – جنود الرحمن – صفوفاً صفوفاً، متلاصقين منتظمين مستجيبين، ويُجاء يومئذ بجهنم – دار العذاب المعدَّة للكافرين من قبل – فلم تنتظر حتى يصلوا هم إليها، بل حُرِّكت إليهم، وسبقت إليهم، وجيء بها نحوهم على ضخامتها وهوْلها. وحين يرى الناس هذه الحقيقة الكبيرة: مجيء جهنم، وما أدراك ما جهنم؟ **{يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ}**، أي إنسان يرى هذا المشهد لا بدَّ أن يسقط ويتوب ويندم، وتتجمَّع له آلاف الذكريات، تلتفُّ عليه، وتطوِّق عنقه، **{وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى}**، ومن أين يكون له التذكر، أو تنفعه العظة والعبرة؟!

روى الإمام أحمد بسنده، عن محمد بن أبي عميرة – وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم – قال: لو أنَّ عبداً خرَّ على وجهه من يوم وُلد، إلى أن يموت هرما في طاعة الله، لحقره ذلك اليوم، ولودَّ أنه رُدَّ إلى الدنيا، كيما يزداد من الأجر والثواب[305].

{يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}

يقول الإنسان في هذا اليوم متندِّماً ومتحسِّرًا: يا ليتني قدَّمت من الأعمال النافعة والطاعات الواجبة والمستحبة لحياتي الخالدة هذه، فهي الحياة التي لا يستحقُّ غيرها أن يُسمَّى حياة، كما قال تعالى: **{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** [العنكبوت:64].

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}

305- رواه أحمد (17650) وقال مخرجوه: إسناده صحيح.

في يوم القيامة؛ لا يُعذِّب كعذاب الله أحد، ولا يُوثِق كوثاق الله أحد.

والوثاق يطلق على الرباط الذي يوثق به كما في قوله تعالى : **{فشدوا الوثاق }** [محمد: 28] ، ويطلق على الإيثاق بمعنى الربْط كما هنا ، فالمراد : لا يربط أحد مثل ربط الله في القوة والإحكام مبالغةً في الإهانة والتحقير لهؤلاء الطغاة .

فما أعدَّه من العذاب لمَن كفر به، وكذَّب رسله، وتمرَّد عليه وعصاه، وآذى خلقه، ليس عند أحد من خلقه مثله، أو ما يقاربه،ولا تتصور العقول شدته، وأنَّى لهم ذلك. وكذلك الأدوات المساعدة على التعذيب من القيود والأغلال والوثاقات لا يوجد عند أحد مثلها ولا ما يدانيها.

وهذا مبنيٌّ على قراءتنا المعروفة بكسر الذال والثاء في الفعلين: (يعذِّب) و(يوثِق)، وهناك قراءة بالفتح فيهما: **(لَا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)**[306]، والضمير هنا يعود للإنسان الكافر بالله ورسله، أي: لا يُعذَّب أحد مثل العذاب الذي يحيق بهذا الإنسان الكافر البائس، ولا يُوثَق أحد مثل وثاقه، جرَّاء عمله وتمرُّده في الحياة الدنيا.

مناداة النفس المطمئنة وبشارتها عند الاحتضار ويوم القيامة

{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}

بهذه الآيات الكريمات ختم الله هذه السورة، ختاماً يردُّ النفس إلى حقيقتها، ويعيدها إلى ذاتها وإلى دارها.

306- المبسوط في القراءات العشر أبو بكر النيسابوري صـ 471، قرأ بفتح الذال والثاء، الكسائي ويعقوب. وبكسر الذال والثاء. وإثبات الياءات وفتحها الباقون.

إنها النفس المطمئنة، ومتى وصلت إلى هذه الدرجة العالية، التي يسعى إليها المؤمنون والرسل الكرام، كما قال الخليل إبراهيم: {**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**} [البقرة:260]، ووصف المؤمنين الذاكرين الله: {**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} [الرعد:28].

ما وصلت النفس إلى هذه المرتبة، إلا بعد أن تحرَّرت من النفس الأمَّارة بالسوء، كما قالت امرأة العزيز: {**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**} [يوسف:53].

وبعد أن وصلت إلى النفس اللوَّامة، التي نوَّه الله بشأنها في سورة القيامة: {**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**} [القيامة:1–2]، وهي النفس التي تُكثر اللوم والعقاب والحساب لصاحبها على ترك الواجبات، وفعل المحظورات، بل ربَّما على ترك المستحبَّات وفعل المكروهات.

ثم ارتقت هذه النفس إلى أن انتهت إلى النفس المطمئنَّة، وإنما اطمأنَّت بالإيمان وبذكر الله تعالى، فوهب لها الطمأنينة والسكينة والأمان، كما ذكر القرآن: {**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ**} [الفتح:4]، {**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**} [الأنعام:82].

فهنا يخاطب الله هذه النفس الساكنة الموقنة تمام اليقين، التي ارتبطت به، وانخلعت من عباده، واطمأنَّت إلى جنابه: {**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**} [الفجر:27، 28].

ارجعي إلى ربِّك، أي: إلى صاحبك وجسده، {راضيةً }عنه سبحانه بما نلتِ من الثواب، {**مَرْضِيَّةً**} مقبولةً مقرَّبةً مكرَّمةً عنده تعالى بسبب ما عملتِ، كما قال: {**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**} [البينة:8].

أو ارجعي إلى ربِّك، أي: إلى الله تعالى، أي: إلى ثواب ربِّك وكرامته. فهذا ما يُقال للنفس الزكيَّة الدائرة مع الحقِّ.

{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}

أي: ادخلي في زمرة عبادي الصالحين الذين اصطفيتهم وشرفتهم بعبوديتهم لي ، وانضمّي إلى حزبهم، وادخلي جنتي ودار نعيمي الدائم معهم ، كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}** [العنكبوت:9].

وهذا يُقال للنفس عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشِّرون المؤمن عند احتضاره: **{تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}** [فصلت:30]، وعند قيامه من قبره.

قال ابن كثير:" فكذلك ههنا. وذكر ابن أبي حاتم حديثًا عن سعيد بن جبير: قال: قرأتُ عند النبي صلى الله عليه وسلم: **{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}**. فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ هذا لحسن! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت". رواه ابن جرير[307]. قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن[308].

قال الرازي: (قوله: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}**، أي: انضمِّي إلى عبادي المقرَّبين. وهذه حالة شريفة؛ وذلك لأنَّ الأرواح الشريفة القدسيَّة تكون كالمرايا المصقولة، فإذا انضمَّ بعضها إلى البعض، حصلت فيما بينها حالة شبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة، من انعكاس الأشعَّة من بعضها على بعض، فيظهر في كلِّ

307- رواه الطبري في تفسيره (396/24).
308- تفسير ابن كثير (401/8).

واحد منها كلٌّ ما ظهر في كلِّها. وبالجملة فيكون ذلك الانضمام سبباً لتكامل تلك السعادات، وتعاظم تلك الدرجات الروحانيَّة)[309].

309- التفسير الكبير للرازي (179/31).

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)}

السورة مكيَّة بلا ريب، ومَن زعم أنها مدنية فهو واهم.

وقد بدأت بالقسم بهذا البلد، يعني: مكة المكرمة، البلد الحرام، وفيه البيت الحرام، أقسم الله بالبلد ووالد وما ولد، لعله بإبراهيم، وما ولد من إسماعيل وأبنائه.

وكان المُقْسَم عليه: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}**، خلق الإنسان في حياة مكابدة ومشاقة، وبينهما منحة الله للإنسان من جوارح ونِعَم، يستطيع بها أن يحصل من أسباب الحقِّ والخير ما يُهيِّئ الله له بقوله: **{أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}**، طريقَي الخير والشرِّ، ولكلِّ طريق منهما أدوات وأعوان ومصير ومسير.

{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}، ويفسِّر هذه العقبة وطريق اقتحامها، حتى يكون **{مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}**، وهذا هو الفريق الناجي، ومقابله الفريق الخاسر الضائع، **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}**.

الإنسان محاط بالمكابدة والمعاناة من كل صوْب

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ }

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}

لستُ في حاجة إلى أن أقسم، فالأمر واضح، ولا يحتاج إلى قسم، وهذا البلد هو أعظم بلاد الله، البلد الحرام، الذي فيه المسجد الحرام، والبيت الحرام، مكة المكرمة. التي وُلد ونشا فيها خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وبنى فيها إبراهيم وابنه إسماعيل المسجد الحرام.

{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}

وأنت ساكن بهذا البلد. وهو بلد آمن بحكم تكوينه، ووجود البيت الحرام فيه، فكلُّ شيء فيه آمن إلا الرسول الكريم، حرَّموا أن يقتلوا به صيداً، وأن لا يعضدوا به شجرة، واستحلُّوا إيذاءك وإخراجك.

{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}

وأقسم بالوالد وما ولد، والمراد بالوالد: إبراهيم خليل الرحمن. وما ولد: إسماعيل عليه السلام، وذريته من العرب المستعربة، الذين منهم محمد عليه الصلاة والسلام، ونكرهما، **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}** إيذانا بالتفخيم والتعظيم.

وقيل: الوالد آدم، والولد ذريَّته، وهو أنسب لمضمون الجواب: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}**.

وقيل:كلُّ والد وولده من الموجودات التي تتوالد ؛لأن بهذا التوالد بقاء النوع .

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}

جواب القسم السابق، وهو قسم أيضا من الله تعالى بأنه خلق الإنسان في شدَّة وعناء، وتعب ومشقَّة. مكابدات مستمرَّة منذ الطفولة وما بعدها، إلى الموت. فإنه لا

يزال يقاسي فنون الشدائد، من وقت نفخ الرُّوح فيه، إلى حين نزعها منه، وما وراءه. يقال: كبد الرجل كبدا، إذا وجعت كبده. وأصله: كبده إذا أصاب كبده، ثم اتَّسع فيه، حتى استُعمل في كلِّ نصب ومشقَّة، ومنه اشتقَّت المكابدة.

وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بما كان يكابده من كفار قريش. وقال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة.

وعنه أيضا: يكابد الشكر على السرَّاء، ويكابد الصبر على الضرَّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر.

وقال يَمان: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق.

قال علماؤنا: أول ما يكابد قطع سُرَّته، ثم إذا قُمط قِماطاً، وشدَّ رباطا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابدُ الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرُّك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصَوْلته، والمؤدِّب وسياسته، والأستاذ وهيْبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدُّور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صُداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغمِّ الدَّيْن، ووجع السِّنِّ، وألم الأذن. ويكابد محناً في المال والنَّفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضى عليه يوم إلا يقاسي فيه شدَّة، ولا يكابد إلا مشقَّة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة المَلَك، وضغطة القبر وظلمته؛ ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنَّة وإما في النَّار؛ قال الله تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا**

الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد. ودلَّ هذا على أن له خالقاً دبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليَمتثل أمره)[310].

كلُّ الأئمة والدعاة والهداة عظَّموا من مكابدة الإنسان لمشاقِّ الحياة، كما قال عليٌّ حين طلب منه أن يصف الدنيا: ماذا أصف لك من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء[311]؟

ودلَّل ابن الرومي على هوان الدنيا فقال:

لِمَا تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يُولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح ممَّا كان فيه وأرغد

310- تفسير القرطبي (62/20).
311- رواه القالي في الأمالي في لغة العرب (2/ 122).

قدرة الله على الإنسان وما منحه من جوارح ونِعَم، يستطيع بها أن يصل إلى أسباب الحقِّ والخير

{ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) }

يبيِّن القرآن الكريم حقارة الدنيا، التي سحرت كثيراً من العقول، فألهتها عن الآخرة، وأنستها مقام ربِّها، وأغراها المال الذي أنفقته فيما لا يستيقن نفعه، ولهذا يقول سبحانه:

{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}

أيظنُّ صاحب المال أنَّ ماله الذي لا يدري من أين اكتسبه، ولا أين أنفقه، ولا ماذا عليه من حقٍّ فيه؟ قد أعطاه قوَّة يستطيع أن يقهر بها كلَّ مَن وقف أو يقف في طريقه. والاستفهام لطلب التصديق معناه الاستنكار التوبيخي والتعنيف والتعجب والزجر، أي: كيف يظن هذا الظن وهو مخلوق مقهور لا يستطيع ان يدفع عن نفسه شدائد الحياة ؟!!وإنما كان ذلك بضمير الغائب للإعراض عن المذكور ، والإشعار أن قبائحه تقتضي ذكرها لغيره تشهيرا وعظة .

وهنا نبَّهه القرآن من غفلته، وأرجعه إلى نقطة ضعفه، حين قال: **{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}**، وهو حسبان خاطئ بلا ريب، فما أكثر مَن يقدرون عليه، حين يشيخ، وحين يمرض، وحين يفتقر، وحين يصاب ويجرح، وحين يبتلى ويحزن، وحين تتكاثر عليه الأوصاب، وتتزاحم عليه الأوجاع، ولا يملك طبيب أو ممرِّض أن يزيل عنه الألم، أو سببه، أو يُخفِّف عنه.

{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا}

ويقول مجاهراً على سبيل الفخر والتعنُّت : **{أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا}**" لبداً" جمع لُبْدة بوزن غُرَف وغُرْفة ، وأصله : الصوف المتلبِّد الملتصق بعضه فوق بعض. يريد كثرة

ما أنفقه من أموال، فيما يدعوه أهل الجاهلية مكارم، ويُسمُّونه معالي ومفاخر. ولن يغنيَ عنه أو يُخفِّف عنه قوله: أهلكت مالاً كثيراً، بعضه فوق بعض، زاعماً أنه أنفق بعضه في خير الناس، أو على الفقراء والمساكين، أو اليتامى وأبناء السبيل، وأنه لم يكن يريد به إلا الخير، يقول هذا، وكأن أعمالها كلَّها غطيت بغطاء لا يكشف، أو مقفلة بأقفال لا يملك أحد فتحها، وكأنَّ الله مالك الإنسان والبرية، لم يعرف ماذا كان يريد، ولا ما يخبئه في صدره. وإنه أمام الله مكشوف تماما، لا يخفى عليه خافية، ولا يغيب من أمره، ولا من عمله سرٌّ ولا علانية، ولهذا يعقب الله عليه بقوله تبارك وتعالى:

{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}

لقد رآه الخلق، ورآه الملائكة، وكتب الكاتبون، وسجَّل المُحصون، ورآه قبل هؤلاء جميعاً ربُّ العالمين، الذي قال له إبراهيم: **{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}** [إبراهيم:38].

{أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ}

هنا يخاطب الله الإنسان بصيغة الاستفهام المنفي، الذي يفيد التقرير، فكأنه يقول: لقد خلقنا لهذا الإنسان الأدوات اللازمة لحياته، فجعلنا فيما يملكه ويتصرَّف فيه: عينين يبصر بهما كلَّ ما يهمُّه أن يراه ويعرفه، ويهتدي به إلى ما وراءه، وكذلك جعلنا له لسانًا يترجم عن ضميره، وما يحتاج إليه في حياته الخاصَّة والعامَّة، وفي دينه ودنياه، وشفتين يكتمل بهما النُّطق، ويُزيِّنان وجْهه، ويُخبِّئان أسنانه، ويساعدانه على الأكل والشرب، والنَّفخ والتبسُّم والضحك، وغير ذلك.

وهذا النُّطق دليل على العقل، ولهذا قالوا: الإنسان حيوان ناطق. يعنون: أنه مفكِّر. فالنطق والكلام المرتَّب من أدلَّة التفكير.

دلالة الإنسان إلى طريقَي الخير والشرِّ :

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}

أي: بيّنا له طريقي الخير والشر، وجعلناهما واضحين كوضوح النَّجدين، وأصل النَّجْد: الطريق البارز الواضح الذي فيه ارتفاع ، والنَّجدان هما: طريق الخير وطريق الشرِّ. والهداية نوعان: هداية بيان ودلالة، وهداية توفيق والتزام. وهداية البيان والدلالة قد أعطاها الله تعالى للإنسان، كما قال عن ثمود الهالكة: **{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}** [فصلت:17]. بل الهداية العامَّة مُعطاة من الله لكلِّ المخلوقات، كما قال تعالى: **{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه:50].

والله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الهداية إلى طريق الخير والهدى والنور، وإلى طريق الشرِّ والضلالة والظلمة، فليس مضطرًّا أن يسلك أيَّ الطريقين إلا بإرادته واختياره الحرِّ، إن شاء آمن، وإن شاء كفر، **{فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}** [يونس:108]، **{وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}** [النمل:40]، **{فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}** [الكهف:29].

وهذا ما يذكره القرآن ويتبنَّاه، ويبيّنه أبدا، كما قال تعالى: **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}** [الإنسان:2، 3]، **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}** [الروم:30].

العقبة وطريق اقتحامها

{ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)}

{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}

هذا الإنسان الذي آتاه الله مفاتيح الإدراك، وهيَّأ له الأدوات، ووضع أمامه (عقبة) أي عقبة، لا بدَّ أن يجتازها، إذا أراد أن يصل إلى الله، وإلى جنَّته ومثوبته، ليحيا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

ولماذا لا يقتحم الإنسان هذه العقبة التي تقف في طريق نجاحه وفوزه، **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}** . (والاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير رويَّة.

قال الفرَّاء والزجَّاج: وذكر (لا) مرَّة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد (لا) مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى: **{فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى}** [القيامة:31]، **{وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}** [البقرة:62]. وإنما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه؛ فيجوز أن يكون قوله: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}**، قائما مقام التكرير؛ كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}، قال سفيان بن عيينة: كلُّ ما في القرآن: وما أدراك؟ فإنه أخبر به. وكلُّ شيء قال فيه: وما يدريك. فإنه لم يخبر به. كما في قوله تعالى: **{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}** [عبس:3].

وقال جماعة من المفسِّرين: الاستفهام الذي معناه الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة؟ أو: هلاَّ اقتحم العقبة؟ يقول: هلاَّ أنفق ماله في فكِّ الرقاب، وإطعام السَّغْبان، ليجاوز به العقبة، فيكون خيرًا له من إنفاقه في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومقاومة دعوته ودينه؟

وقال بعضهم: اقتحام العقبة ها هنا ضرب مثل، أي: هلاَّ تحمَّل عظام الأمور في إنفاقه ماله في طاعة ربِّه، والإيمان به. وهذا يليق بقول مَن حمل **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}**، على الدعاء. أي: فلا نجا ولا سلم مَن لم ينفق ماله في كذا وكذا)[312].

وجاء عن عدد من مُفسِّري السلف: أن العقبة في الآخرة، وممَّا كان معناها: النار، أو جزءاً من النار، أو من الدار الآخرة. أو نحو ذلك.

والرأي المختار: هو أن العقبة في الدنيا.

(رُوي عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه، أنه قال: إنَّ وراءنا عقبة، أنجى الناسِ منها: أخفهم حملاً.

وقال الحسن: هي والله عقبة شديدة: يجاهد الإنسان نفسه وهواه وعدوَّه الشيطان.

وأنشد بعضهم:

إني بُليتُ بأربع يرمينني ... بالنَّبل قد نَصبوا عليَّ شِراكا

إبليس والدنيا ونفسي والورى ... من أين أرجو بينهنَّ فكاكا

يا رب ساعدني بعفو إنني ... أصبحتُ لا أرجو لهنَّ سواكا)[313]

والعقبة: المركَّب الصعب من الجبال. كما قال في القاموس[314]. واستخدمها أهل الدين وغيرهم، كلٌّ فيما يريده من مراكبه الصعبة التي يحدِّدها.

312- تفسير القرطبي (66/20).
313- تفسير القرطبي (67/20).
314- القاموس المحيط (116/1). مؤسسة الرسالة- بيروت، ط: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م.

قالوا: في قوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}**، حذف، أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين. والخطاب للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، ليعلمه اقتحام العقبة.

{فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ}

فسَّر ربُّنا عزَّ وجلَّ العقبة، التي يجب على الناس اقتحامها، وهي أمور كلُّها تتعلَّق بالخلاص من أسْر المال للإنسان، وإنفاقه حيث يحبُّ الله سبحانه. وهو لا يحبُّ إنفاق المال إلا في الجهات التي فيها حرية الإنسان وخيره وقضاء حاجاته.

أول هذه الإنفاقات: **{فَكُّ رَقَبَةٍ}**، والمراد رقبة الإنسان الواقع في الرق، أو في الأسر، والمطلوب تخليصه وفكُّ رقبته المغلولة، بكونه رقيقاً، أي عبداً أو أمَة لسيِّده، إن كان واحداً، أو لعدد من السادة إن كانوا شركاء فيه.

والإعانة في فكِّ رقبة الإنسان من الرق والعبوديَّة من أعظم ما يُقرِّب الإنسان إلى ربِّه؛ ولذا يُعتبَر (الإعتاق) من أعلى الخيرات، وأفضل القُرُبات إلى الله في نظر الإسلام.

ويقرُب من ذلك إذا كان أسيراً، يُطلب إخراجه من أسره، وتسليمه مُحرَّرًا إلى قومه.

بدأ القرآن بفكِّ الرقبة؛ لأنه تحرير للإنسان وذريَّته من جرثومة العبوديّة، التي تجعله مملوكا لآخر أو آخرين، كما تملك البهيمة، ثم بدأ في لون آخَر من التَّحرُّر، ولكنه ليس الآخِر، حين ينقذ بالإطعام – إعطاء الطعام أو شرائه – لمَن لا يجده، في أيام الجوع والمَسْغَبة، أي: انتشار المجاعة.

والإطعام في أيام الجوع والمَسْغَبة، له فضل عظيم عند الله وعند الناس، ولهذا ذكره القرآن: **{فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}**.

وقوله سبحانه: {فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}، يدلُّ على قلَّة الطعام وعزَّته في ذلك اليوم، ولا يُقصد باليوم هنا: أربع وعشرون ساعة، بل مدَّة السَّغب والجوع. والإطعام محمود، ولكنه مع السَّغب أفضل وأحمد، وتركه مع السَّغب وشدَّته أذمُّ وأنكى.

وأنشد أبو عبيدة:

فلو كنتَ جارا يا ابن قيس بن عاصم لما بتَ شبعانا وجارك ساغبا

ثم إن الإطعام أصاب {يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ}، فالذين أُنفق عليهم كانوا أحقَّ بالإطعام والإنفاق: فهو يُطعم يتيماً له قرابة منه، يجب عليه أن يواسيَه ويُكرمه ويعطيه، وتُوجب له حقًّا آخر وهو الصلة. وكذلك المسكين ذو المتربة، فمسكنته لها حقُّها، وكونها مسكنة شديدة جعلت صاحبها (يده والتراب)، كما يقول الناس. ليس بينه وبين التراب حائل.

وإطعام اليتيم ذي المقربة – وهي القرابة – هنا يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، لما لصلة الأرحام من فضل، فهي صدقة وصلة، كما في الحديث[315]. كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد مَن يكفله.

والمسكين ذو المتربة، يعني: الذي لا شيء له، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب. قال ابن عباس: هو المطروح على الطريق، الذي لا بيت له.

315- إشارة إلى الحديث :" الصدقة على المسكين صدقة، والصدقة على ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة " رواه أحمد (16233)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره، والترمذي (658)، والنسائي (2582)، وابن ماجه (1844)، ثلاثتهم في الزكاة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (3858)، عن سلمان بن عامر الضَّبي.

وليس معقولاً أن يُوجب الله الإطعام لإنسان ذي مقربة، أو مسكينٍ ذي متربة، ثم يتركه عرياناً لا يكسوه ما يستحقُّ، أو يحتاج إليه من اللباس، أو يَدَعه في العراء، لا يُهيِّئ له ما يسكنه من الحجرات والمباني اللازمة بإيوائه وستره، وقد قال تعالى: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً}** [النحل:80].

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}

ثم إنه مع إطعامه وإنفاقه واهتمامه بالضعفاء وأهل العوز والحاجة من المسلمين: مشدود إلى أصل الإيمان، مرتبط بالجماعة الإسلامية، والأمة الإسلامية، فإن انفصاله عن الأمة، يجعل نفقاته – وإن كثرت – غير مقبولة عند الله، كما قال تعالى في شأن المنافقين: **{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ}** [التوبة:54].

وقالت عائشة: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية، يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفكُّ العاني، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئا؟ قال: "لا، إنه لم يقل يوما: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين"[316].

والحديث يدلُّ على أنَّ هذه الصدقات والأعمال الطيبة، لا تُؤمِّن له دخول الجنة، لعدم وجود الإيمان، ولا يدخلها إلا مؤمن، ولكنها تُخفِّف من عذابه في النار، فليسوا متساوين فيها، والظالمون والفسَّاق أشدُّ عذاباً من الآخرين من ذوي الرحمة، وأهل القلوب الطيِّبة.

لهذا نفع هؤلاء أنهم يأوون إلى أمة مؤمنة آمنت بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد رسولاً، فنجت به من عذاب النار، واستحقَّت به دخول الجنة. لهذا قال: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}**، انضمامهم إلى هذه الأمة

316 - رواه مسلم في الإيمان (214)، وأحمد (24621).

المرحومة أدخلهم في الرحمة، ومكَّن لهم في الجنَّة، بما آمنوا بالله ورسالاته، ولقائه وحسابه، وجنَّته وناره، وبما أكَّد هذا الإيمان: أنهم أوصَوا بعضهم بعضا بأمرين مهمَّين في غاية الأهمية، وهما: الصبر والمرحمة. تواصى بعضهم مع بعض بالصبر، ظاهراً وباطناً، علناً وسرًّا. الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على قضائه، والصبر على دعوته ومَشاقِّها.

وتواصَوا مرَّة أخرى بالمَرْحَمة، أي: أن يرحم بعضهم بعضاً،ويشفق بعضهم على بعض ، فلا ينسى القويُّ الضعيف، ولا يهمل الغنيُّ الفقير، ولا يترك الناس العناية بالضعفاء، مثل: النساء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل والرقيق، وخصوصاً إذا كانوا من الأهل والقرابة، فيكون حقُّهم حقَّين. بل تتعدَّى الرحمة عندهم إلى جميع المخلوقات حتى الحيوان والنبات .

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}

أولئك الموصوفون بهذه الصفات والأعمال، أهل اليمين، الذين يأخذون كتابهم يوم القيامة بأيْمانهم، وهم من الناجين ومن أهل الجنة، وهم أيضا ميامين على أنفسهم، فإذا أخذتهم من جهة اليمين، أو من ناحية اليُمن كانوا على خير.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}

الذين كذبوا بآيات الله المبثوثة في كتابه وقرآنه العظيم، أوأنكروا الآيات التي بيَّنها في كونه الكبير، وهو مصحف منثور، والآخر مصحف مسطور. الذين كفروا بآيات الله جميعاً، هم أصحاب المشأمة. أي: يأخذون كتبهم بشمائلهم، شأن الكفار جميعا، فالمشأمة هنا: أي: الشمال. أو لأنهم مشائيم على أنفسهم، من الشآمة والشؤم.

وبجمع هذه الأقوال يمكن أن يُقال: إن أصحاب الميمنة أصحاب الجنة، وأصحاب المشأمة أصحاب النار، قال تعالى: **{وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ**

* **فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ}** [الواقعة:27–29]، وقال: **{وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ}** [الواقعة:41–42]، وما كان مثله.

وقوله: **{عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}** أي:فوقهم وتحيط بهم من كل صوب نار مغلقة . كما قال الشاعر:

تحنُّ إلى جبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

ذكـره القرطبـي فـي "الجـامع لأحكـام القـرآن"[317]، وهـو فـي "الـدر المنثـور" للسيوطي[318].

317 - (72/20).
318- (526/8).

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)}

السورة مكيَّة باتفاق. وبعضهم كما في المصاحف اليوم يقولون سورة (الشمس)، وفي صحيح البخاري: سورة: (والشمس وضحاها)[319].

وموضوع السورة القسم من الله تعالى ببعض الظواهر الكونيّة من الشمس والقمر والليل والنهار وغيرها، على أمر مهم وكبير: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}**، وذلك بطاعة الله ورسوله، وأكَّد ذلك بأن الذين خالفوا الله ورسله قد أنزل الله بهم عذابه وأهلكهم، ولم يبقَ لهم من باقية، كما حدث لثمود مع نبيِّ الله صالح عليه السلام، **{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}**.

القسم ببعض الظواهر الكونيّة على أمر مهم كبير

319- صحيح البخاري (169/6).

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) }

القسم بالشمس والقمر :

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا* وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا}

بدأ الله تعالى السورة بواو القسم ليحلف لخلقه بـ(الشمس)، التي خلقها بارتفاعها وضيائها وحرارتها وتأثيرها على الحياة والأحياء، **{وَضُحَاهَا}**: أي ضوئها الذي يظهر في أوائل النهار، وشباب النهار.

ثم يُثَنِّي القسم بـ(القمر)، الكوكب المعروف في السماء، الذي يستمدُّ ضوءه من الشمس؛ لذا قال القرآن في سورة يونس:**{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا}** [يونس:5]، إنما جعل الشمس ضياء؛ لأن حرارتها من نفسها، ومن أشعتها ذاتها، بخلاف القمر، فإن نوره من الشمس.

وتلو القمر للشمس يعني: أنه يتبعها دائما في كلِّ وقت؛ لأنه يستضيء منها، فهو يتلوها لذلك.

القسم بالنهار والليل :

{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا}

النهار: هو الزمن الذي يبدأ من طلوع الشمس. بخلاف اليوم: فهو يبدأ من طلوع الفجر. ولا خلاف أن نهايتهما مغيب الشمس.

والضمير في **{جَلَّاهَا}** يعود على الشمس، كالذي قبله والذي بعده. فالنهار هو الذي يُجلِّي الشمس ويُظهرها بقوَّة ووضوح.

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}

{وَاللَّيْلِ}: هو الزمن يبدأ بعد انتهاء النهار ومغيب الشمس، ولذا قال: **{إِذَا يَغْشَاهَا}**، أي: يَغْشى الشمس ويُغطِّيها بظلمته، وَفْق سنن الله تعالى في كونه. والضمير للشمس على تَجوُّز في المعنى.

القسم بالسماء والأرض:

{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا* وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا}

كلَّها داخل في القَسَم الذي بدأت به السورة، وهي تبدأ بكلِّ اثنين بينهما علاقة، كالشمس والقمر، والنهار والليل، وهنا: السماء والأرض.

أقسم الله هنا بالسماء: هذا المخلوق الذي جعله الله سقفا مرفوعا لنا يُظلُّنا، **{وَمَا بَنَاهَا}**: (ما) هنا مصدرية، أي: والسماء وبنيانها، ولا ضرورة لأن نجعلها موصولة بمعنى (مَن)، ليكون المعنى: والسماء وبانيها وهو الله ربُّ العالمين؛ فلو أراد الله أن يقسم بذاته لأقسم به واضحاً فصيحاً بيِّناً بلا مواراة.

ثم أقسم عزَّ وجلَّ بالأرض في مقابل السماء، وكلاهما من مخلوقات الله تعالى الدالَّة عليه، وعلى علمه وقدرته وإحكامه، كما قال تعالى: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ}** [الذاريات:47، 48].

{وَمَا طَحَاهَا}، أي: وما بسطها وجعلها صالحة للإقامة عليها، قال ابن كثير: (هذا أشهر الأقوال، وعليه أكثر المفسِّرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل: دحوته، أي: بسطته)[320]. وقد قال تعالى على لسان نوح: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}** [نوح:19، 20].

القسَم بالنفس الإنسانية وتسويتهاوقابليتها للفجور والتقوى:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}

هذا هو القَسَم السابع مما أقسم الله تعالى به في هذه السورة، فترك القَسَم بالكونيات والطبيعيات، ليدخل على أنفسنا التي بين جنوبنا، وهي عالم وحدها، لا يقل عن هذه العوالم الكبيرة، كما قال الشاعر قديما:

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر[321]

ولهذا قال القرآن: **{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}** [الذاريات:20، 21]. وقال تعالى: **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}** [فصلت:53].

{وَمَا سَوَّاهَا}: ما مصدرية، أي وتسويتها. والتَّسوية من كمال الخلق، كما أن الهداية من كمال التقدير، ولذا قال تعالى:**{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** [الأعلى:2،

320- تفسير ابن كثير (411/8).
321 - من شعر ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

3]. وتسوية النفس إكمالها، وإتمام خلقها، حتى تؤدِّي ما خُلقت له، كما قال تعالى: {**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**} [طه:50].

فمعنى {**سَوَّاهَا**}: خلقها سويَّة مستقيمة، على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: {**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**} [الروم:30]، وفي الحديث الصحيح: "كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه"[322].

وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المُجاشعي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم"[323].

ثم بيَّن سبحانه وتعالى أثر هذه التَّسوية في الآية التالية فقال: {**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**}، أي: غرس في أنفسهم القابليَّة للفجور والتقوى، أي بيَّن ذلك لها، وهداها إلى ما قُدِّر لها، قال ابن عباس وغيره: أي بيَّن لها الخير والشرَّ[324].

بمَ يكون الفلاح؟ وبمَ تكون التدسية؟

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}

هاتان الجملتان هما الأمر المُقسَم عليه، وهو أمر جدٌّ كبير، وجدٌّ مهم.

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}

الفلاح، وهو نَيْل الإنسان ما يجب، وسلامته ممَّا يكره، مربوط بتزكية النفس.

322- متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (1358)، ومسلم في القدر (2658)، عن أبي هريرة.
323- رواه مسلم في الجنة (2865).
324- رواه الطبري في التفسير (440/24).

والتزكية كلمة تعني أمرين في لغة العرب: الطهارة والنماء. ومعنى هذا: أن الذي يجتهد في تزكية نفسه بتطهيرها من الكفر والنفاق ورذائل السوء، ومنها: الغشُّ والظلم والإيذاء، خصوصاً للمستضعفين من أهل الحقِ، وبتنميتها بالإيمان والإخلاص ومكارم الأخلاق، والتواصي بالحقِ والتواصي بالصبر والمرحمة، ينال الفلاح في الدنيا، وينال الفلاح في الآخرة، كما قال تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** [الأعلى:14]، وقال سحرة فرعون بعد إيمانهم في جزاء مَن آمن وعمل صالحا: **{وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}** [طه:76]،

وقد كان من أساسيات مهمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، في أمَّته: أن يعلِّمهم {الكتاب والحكمة ويُزكِّيهم}.

{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}

هذه هي التكملة المهمَّة لعلاج النفس الإنسانيَّة: أن مَن زكَّاها أفلح وفاز، ومن دسَّاها خاب وأخفق ولم يفلح، كما قال تعالى: **{وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى}** [طه:61].

ومعنى (التَّدسية): أن يُدسِّس نفسه ويُخفيها، كأنما يضعها في الوحل. والمراد: أخفى مزايا إنسانيته ودفنها تحت أقذار الكفر والظلم والجهل والفسوق والعصيان.

قال ابن كثير:"**{دَسَّاهَا}**، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إيَّاها عن الهدى، حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله"[325].

وروى الإمامان أحمد ومسلم، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والهرَم، والجبن والبخل وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك

325- تفسير ابن كثير (412/8).

من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، ومن دعوة لا يستجاب لها".
قال زيد: كان رسول الله يعلمناهن، ونحن نعلمكموهن[326].

تموذج من الأمم السابقة التي أفسدت نفوسها فخسرت

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)}

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}

ثمود قبيلة قديمة من العرب البائدة، كقبيلة عاد، ضربها الله مثلاً للأمم والقبائل والبلاد، التي يهلكها الطغيان إذا انتشر فيها، والتي تُدسِي نفسها فتصيبها الخيبة والخسارة، **{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}**، فهذه تدسيةٌ جماعيةٌ؛ لذا قال: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}**، أي: كذَّبت ثمود بنبيِّها، أو الأنبياء جميعاً، كما قالت سورة الشعراء: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ}** [الشعراء:141]. لأن مَن كذَّب رسولاً واحداً، فكأنما كذَّب كلَّ المرسلين من أمثاله، وهؤلاء كذَّبوا بصالح، وهم في الحقيقة مكذِّبون لمَن هو مثله، وسبب هذا التكذيب إنما هو (الطغوى)، أي: الطغيان، أي تجاوز الإنسان حده، وبغيه على غيره.

326- رواه مسلم في الذكر والدعاء (2722)، وأحمد (19308).

وقد جاءت قصة ثمود في سور عدَّة من القرآن، بتفصيل وإجمال، وفي هذا الجزء الأخير من القرآن ذُكرت في بعض السور مثل البروج والفجر.

{إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}

إذ اندفع هذا الرجل الشقي، بل الأشقى في قبيلة ثمود إلى عقر الناقة بنشاط وحرص، وقد سمَّاه المفسِّرون، ولا دليل على تسميته، ولا حاجة لمعرفة اسمه، وهو أحد التسعة الرهط المفسدين.

{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}

رسول الله هنا هو صالح عليه السلام نبيُّ القوم، الذي دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، واستعمار الأرض، واستغفار الله والتوبة إليه.

وقد طلبوا منه آية من ربِّه، فأخبره أن آيته هذه الناقة، فعليهم أن يَدَعوها تأكل في أرض الله، ولا يمسُّوها بسوء، فيأخذهم عذاب أليم، وأنبأهم أن الماء قسمة بينهم، لهم يوم، وللناقة يوم.

وقال مَن قال من المفسِّرين: إنَّ الناقة خُلقت من الصخر خلقاً غير عاديٍّ، ولم يُبيِّن لنا القرآن هذا الأمر، وإن كان أمرها وحاجتها إلى الماء أمراً غير عاديّ.

{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}

رسول الله هنا هو صالح، الرسول المبعوث إلى ثمود، كما قال القرآن في أكثر من سورة **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}** [الأعراف:73، هود:61].

قال لهم: **{نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}**، فنصب بفعل مُضمَر، تقديره: احفظوا، أو ذروا، أو احذروا، على معنى احذروا الإخلال بحقِّ ذلك، والمراد: التحذير من أن يسقوا إبلهم من الماء الذي في يوم شرب الناقة .

{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا}

نسب إلى القوم كلَّهم التكذيب والعقر، مع قوله في أول القصة: **{إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}**، وقال في سورة القمر: **{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}** [القمر:29]، فنسب العقر أي: النحر إليه وحده، ولكنهم هم الذين نادوه، وهم الذين شجَّعوه، ورضوا بعمله، فكانوا شركاءه في الفعل والإثم، فلا عجب أن ينسب إليهم جميعا العقر، **{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا}**: فقد ذبحوها جميعاً، وباؤوا بوِزْرها.

{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا}

أي فأرسل عليهم ربَّهم صيحة غضب وعذاب، والمراد بهذه الدمدمة صوت الصاعقة والرجفة التي أهلكوا بها ، كما قال تعالى: **{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}** [هود:67]. أو يُقال: دمْدم عليهم، أي: أطبق عليهم الأرض، يقال: دَمْدم عليه. إذا أطبق عليه. فالمراد: أهلكهم إهلاكاً كلياً لم يُبْق لهم أثراً على ظهرها.

ومعنى **{فَسَوَّاهَا}**، أي:فسوَّى القبيلة بالأرض فصاروا لا وجود لهم على ظهرها ، ولم يَنْجُ منهم أحد، كما قال تعالى: **{وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى}** [النجم:51]، فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم، فلم يبقَ منهم ديَّار ولا نافخ نار.

{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}

لهذا ختم الله السورة بقوله: **{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}**، أي: نزلت الصيحة المزلزلة أو الصاعقة المدمِّرة ، فدكَّتهم دكًّا، ولم يُبقِ فيهم حيًّا، **{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}** [هود:102]. وهو إذ فعل ذلك، **{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}**، أي: لا يخاف سبحانه في عزته وجبروته عاقبة ما فعل، كما يخاف الذين يقدمون على أعمالهم الانتقامية الشديدة ، وليس هناك مَن يأخذ بالثأر أو مَن يفكّر فيه، وهم لم يبقَ منهم باقية، ولو كان منهم أحد موجوداً، فهل يكون له شأن أمام ربِّ الأرض والسماوات؟!

قد يرتكب بعض الجبابرة من الأفعال ما يرعب البشر من تقتيل وتذبيح وإحراق، ولكنه يظلُّ خائفاً مرتعداً من عاقبة فعلته، فقد يقوى العدو الضعيف، وقد يكثر القليل، وكم تتغيّر الأيام، والعمل لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديَّان لا يموت.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)}

السورة مكيَّة كلُّها، وإن زعم بعضهم أنها مدنية، أو فيها مدني، وهو وهم.

اختلاف أعمال الناس

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) }

أقسم الله جلَّ شأنه في هذه السورة، كما أقسم في السور التي قبلها: الفجر والبلد والشمس، وفي السورة التي بعدها وهي الضحى، وكلُّ هذه الأقسام بـ(الواو).

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * }

أقسم سبحانه هنا بالليل إذا يغشى ظلامه، ويُغطِّي الكون بظلمته، ويدخل في حالة السكون والهدوء، الذي يتمنَّاه الناس من طول ما عانوا من الحركة والضوضاء، ولهذا كان فضل الله على الناس أن يتعاقب عليهم الليل والنهار، والظلمة والنور، والسكون والحركة.

ومن هنا أقسم بعد هذا الليل إذا يغشى بقوله: **{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}**، فبعد غشيان الظلام على الخلق، يطلع عليهم النهار، الذي يتَجلَّى بضيائه، ويظهر بظهور شمسه،

وحركة أهله، كما قال تعالى: {**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**} [النبأ:10، 11].

هكذا تتوالى ظواهر الكون، لتوفِّر للناس ما يحتاجون إليه، وما يُهيِّئه الله لهم، في وجودهم وفي حياتهم الفرديَّة والاجتماعيَّة، كما قال تعالى: {**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ*وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [القصص:71–73].

وهذا القسم هنا شبيه بالقسم في قوله تعالى في سورة الشمس: {**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**} [الشمس:3–4].

القسم بخلق الذكر والأنثى :

{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى}

(ما) في قوله: {**وَمَا خَلَقَ**}، مصدريّة، معناها: وخلق الذكر والأنثى، وهو كناية عن تعظيم الخالق القادر العظيم القدرة، الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من بني آدم، من ماء مهين، كما قال تعالى: {**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**} [المرسلات:20–24]. والمراد: تعظيم القادر، أو تعظيم القدرة الباهرة التي خلقت الذكر والأنثى، من نطفة إذا تُمْنى.

والإقسام بخلق الذكر والأنثى هنا يتناول الإقسام بذوي الأرواح، الذين هم أشرف من سائر المخلوقات ممَّن دونهم، وهم يشملون عوالم الإنسان والحيوان والطيور والحيوانات المائيَّة والزواحف والحشرات وغيرها، وهي أمم أمثالنا، كما قال الله تعالى في

القرآن: {**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**} [الأنعام:38].

{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}

السعي: هو العمل والكسب. و(شتَّى): أي متفرِّق ومتباعد ومختلف.

وأما جواب {**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى**}، أو المُقسَم عليه، فهو هذه الآية الكريمة: إن أعمال عباده لشتَّى، (أي مختلفة في الجزاء، و(شتَّى): جمع شتيت، مثل مرضى ومريض، وإنما قيل للمختلف: (شتّى)؛ لتباعد ما بين بعضه وبعض. والشَّتات هو التباعد والافتراق. فكأنه قيل: إن عملكم لمتباعد بعضه عن بعض؛ لأن بعضه ضلال وبعضه هدى، وبعضه حقٌّ وبعضه باطل، وبعضه يوجب الجنان، وبعضه يوجب النيران، فشتان ما بينهما.

ويقرب هذه الآية قوله تعالى: {**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**} [فاطر:19-22]. وقوله تعالى:{**لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ**} [الحشر:20]. وقوله عز وجل: {**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ**} [السجدة:18])[327].

ما يترتّب على اختلاف الأعمال من آثار

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) }

ثم بيَّن تبارك وتعالى مدى تشتُّت الأعمال، وافتراق المساعي، وهو افتراق هائل، هوْلَ ما بين السعادة والشقاوة، وما بين الجنَّة والنار، ما بين الله والطاغوت:

327- تفسير الرازي (182/31).

خصال ثلاث تكون بها النجاة :

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى }

فالفريق الأول هو فريق السعداء المُوفَّقون، الذين جمعوا بين خصال ثلاث، بها تكون النجاة، وعليها يكون الخلاص، وهي: (الإعطاء، والاتِّقاء، والتَّصديق بالحُسنى).

الإعطاء: إشارة إلى ما يجب بذله وإنفاقه من المال، ومن القوَّة التي يملكها الإنسان، ومن الحقوق، فذو المال يعطي من ماله ما يعين الضعيف، وذو القوَّة يعطي من قوَّته ما يساعد ذا الحاجة، وذو الجاه يعطي من جاهه ما يقوِّي من شأن المستضعفين والمغموطين، ويدخل فيه ما يُعطى من حقوق المال أو من حقوق النفس، ويشمل إعطاء الواجب والنفل، ويدخل فيه ما في آخر السورة: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى* وَلَسَوْفَ يَرْضَى}.**

الاتقاء: مصدر مَن (اتَّقى)، فهو كـ (التقوى)، فهي واقية من فعل الشرِّ، والاقتراب من الباطل، والقسوة على الفقراء والمساكين، والغارمين وأبناء السبيل، ومَن اتَّصف بذلك كان من المتقين، وهل من شرط التقوى ألَّا يذنب؟ بل يكفي أن يكون كما وصف الله المتقين: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}** [آل عمران:135].

التَّصديق بالحُسنى: يتعلَّق بالاعتقاد والإيمان: من الاعتقاد بوحدانيَّة الله، وأن لا إله إلا هو، وأنَّ محمداً رسول الله، وأنَّ شريعته هي أعظم الشرائع وأعدلها، وأن خير المال ما أُنفق في سبيل الله، وهذا مُؤسَّس على قاعدة عَقَديَّة سليمة من الإيمان، كما قال تعالى: **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا**

بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد:11-17]. فمَن آمن بذلك كُتبت له الحسنى التي آمن بها.

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}

مَن سار في طريق السعداء، بالإعطاء والاتِّقاء والتَّصديق بالحُسنى؛ فإن الله تعالى وعده أن يُيسِّره لليسرى.

ومعنى: **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}**، أنه سيظهر تيسيرنا بما يتدرج فيه من أعمال الخير، وحتم تيسيره، قد كان في علم الله أزلا.

و(اليُسرى): الحالة المرضية في الدنيا والآخرة، فُعْلَى من الأيْسر، مقابل الأعْسر، فهو في طريق علامته اليسر لا العسر، والقرآن يحب دائماً اليسر، ويكره العسر، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا"[328].

العامل من أهل الإعطاء والاتقاء والتصديق بالحسنى، وعده الله – ووعده لا يخلف – أنه ييسِّره لليسرى، أي للطريقة اليسرى، وللعاقبة اليسرى، وليس هناك لغة أفصح ولا أهدى ولا أكرم من لغة القرآن، ومن الواجب الالتزام بها، وعدم تعديلها باللغات التي اخترعها العلماء من عند أنفسهم، وهي تحتوي مضامين فيها تعقيدات وخلافات كثيرة.

خصال ثلاث تكون بها الخسارة:

{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}

هذا هو الصنف المقابل للصنف الأول – قسم السعداء – فهذا هو صنف الأشقياء الضائعين، ويعتمد على أمور أساسية ملازمة: **البخل** بدل الإعطاء، و**الاستغناء** بدل الاتِّقاء، و**التَّكذيب بالحسنى** بدل التَّصديق بالحسنى، فقد وعده الله بالتيسير للعُسرى: الطريقة العُسرى، والعاقبة العُسرى.

328- متفق عليه: رواه البخاري في العلم (69)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (1734)، عن أنس.

و(العُسرى): الحالة السيئة المسخوطة عند الله في الدنيا والآخرة.

أول فضائل فريق السعداء: هو الإعطاء والبذل والإنفاق من كلِّ ما لديه من خير. وأول رذائل فريق الأشقياء: هو البخل والضنّ والإمساك بكلِّ ما عنده من مال أو قوَّة أو جاه، أو علمٍ أو خيرٍ – إن عرف الخير طريقه – فالبخل هو باب الشرِّ للفرد والمجتمع.

وثاني فضائل الفريق الأول: هو الاتِّقاء لكلِّ ما يسخط الله ويكرهه. ولذا كان ثاني رذائل الفريق المقابل: الاستغناء، وهو ما ذكره الله في سورة العلق، بقوله: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}** [العلق:6–7]. والاستغناء هنا عن الناس، وعن الله، أي: يظنُّ أن ماله جعله يستغني عمَّن هو مثله، بل يستغني عن ربِّه. فحين يكون الأوَّلون يعوِّلون على تقوى الله، واجتناب كلِّ مناهيه، يشعر هؤلاء أنهم في غنًى عن الله، وعن فضله، وكأن ليس عندهم أدنى نعمة من الله تردعهم عن تفكيرهم في الشرِّ.

وثالث فضائل فريق السعادة: التَّصديق بالحسنى التي تفوق كل حُسن. وأما هؤلاء ليس عندهم إلا التَّكذيب بالحُسنى، فهم يعيشون حياتهم الأولى – إن سمَّينا مثل ذلك عيشاً – لحظة بلحظة، لا يرجون الآخرة، ولا يحسبون حسابها، ولا يتوقَّعونها، وكيف وهم يُكذِّبون بها؟

و(الحسنى): فُعْلى من الأحسن، فهي الفعل الأحسن من غيرها: في الكمِّ، وفي الكيف ، وفي الشكل، وفي المضمون، وفي الظاهر والباطن. وكما قال القفَّال: (هي بالجملة لفظة تسع كلَّ خصلة حسنة، قال الله تعالى: **{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}** [التوبة:52]. يعني النصر أو الشهادة. وقال عزَّ وجل: **{وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}** [الشورى:23]. فسمّى مضاعفة الأجر:

(حسنى)، وقال: {**إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى**} [فصلت:50])[329]، وقال تعالى: {**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**} [يونس:26].

واعتبر بعض المفسِّرين أن الحُسنى: هي الخَلَف الذي يخلف الله به على المُتَصدِّقين والباذلين، كما صحَّ ذلك في حديث المَلَكَين، إذ يقول أحدهما: "اللهم أعطِ منفقا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكا تلفًا"[330]. فهذا الإخلاف جزء من الحسنى.

{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}

هذا الشقي المُيسَّر للعسرى، والذي غلبت عليه الشقاوة، هو جدير بما هُيِّئ له، وما أُعدَّ له، فالجزاء من جنس العمل، وليس هناك أمل في تخفيف ما هُيِّئ له من جزاء أو عذاب لائق به.

وربَّما ظنَّ بعض الناس أنَّ ما لديه من غنىً ومال كثير سينفعه في هذا الوقت العصيب، ولكن هيهات، ذهب وقت المال، وجاء وقت العمل، ولهذا قال القرآن بصريح العبارة: {**وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**}. إذا وقعت الواقعة، وتردَّى هذا إلى الهاوية، فما عاد مال ينفعه، أو يدفع عنه، أو يفيء عليه.

على الله سبحانه هداية البيان والدلالة

{ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13)}

أخبر تعالى أن عليه – بمقتضى عدله وحكمته– هداية الناس جميعاً، أي تعريفهم بالسبل كلِّها، ومنحهم الإدراك الكافي لمعرفتها، كما قال تعالى: {**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**} [النحل:90]، فهداية البيان والدلالة من الله تعالى، وليست هداية التوفيق إلى الإيمان، ولو تمَّ ذلك لم يوجد كافر.

329- تفسير الرازي (183/31).
330- متفق عليه: رواه البخاري (1442)، مسلم (1010) كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

{وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى}، أي: إن الله تعالى هو الذي يملك الدارين، دار الدنيا ودار الآخرة، كما قال تعالى: **{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** [الانفطار:19]، مالكٌ وحده، هو الملك الذي يحكم كلَّ الخلائق في هذه الدار، وفي الدارين جميعاً.

من سيدخل النار ويقاسي حرها ؟

{فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) }

{فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}

الإنذار ضد التبشير، التبشير يكون بالخير والمحبوب، والإنذار يكون بالشرِّ والمرهوب، والله سبحانه ينذر هنا عباده الكافرين به، الذين لم يرضوا بقرآنه، ولا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

{نَارًا تَلَظَّى}أصلها : تتلظى، أي: تتوهج وتتأجَّج وتوقد وتلتهب،وتحيط به من كل جوانبه ، ويقاسي أهوالها أبدا، كما قال تعالى في سورة أخرى: **{تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ}** [الملك:8].

وعن سِماك بن حرب قال: سمعتُ النعمان بن بشير يقول: سمعتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم يخطب، يقول: "أنذرتُكم النار". حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه[331].

{لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى}

331- رواه أحمد (18398) وقال مخرجوه: إسناده حسن، والحاكم في الجمعة (287/1)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

لا يَصْلى هذه النار المُتلظِّية خالدا فيها إلا الإنسان الذي يُعتبر أشقى الناس، قال ابن عطيّة: (لا يصلاها صَلْي خلودٍ إلا الأشقى. ومن هنا ضلَّت المرجئة؛ لأنها أخذت معنى (الصلي) مطلقاً، في قليله وكثيره. والأشقى هنا: الكافر، بدليل قوله تعالى: **{الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى}**)[332].

مَنْ سيُجنَّب هذه النار ويُبْعَد عنها؟

{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21) }

{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}

إذا كان الأشقى سيصلى النار الكبرى صَلْيَ الكفار الجاحدين، فهناك في الجانب الآخر، على الحافّة الأخرى: مَن سيُجنَّب هذه النار ويُبْعَد عنها، ولا يمرُّ عليها مُجرَّد مرور، وذلك هو الشخص الأتقى، الأكثر تُقى لربِّه ومولاه، وأول ما يدلُّ على هذا التُّقى، وهذا النقاء، الذي ينبئ عن كمال الإيمان، وحقيقة اليقين: موقفه من المال، الذي أضلَّ الناس من عدَّة جهات: بكسبه من غير حقِّه، وإنفاقه في غير حقِّه، وإمساكه عن حقِّه، أما شخصية **{الْأَتْقَى}**، فهو **{يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}**، يؤتيه بيسر وسهولة لمَن يستحقُّونه، وهم معروفون، والمهم أن عطاءه ليس لشيء يهواه من أمور الدنيا، ولكن يريد تزكية نفسه**{يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}**قاصداً تطهير نفسه من دنس الشح والمعاصي.

{وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}

يعمل ذلك بماله الذي يعتبره الناس شقيق الرُّوح، وليس يبغي به ما يبغي الناس من وراء هذه الأعمال، فهو لا يعطي ليُثاب من بعض مَن يعطيهم في المستقبل، وليس لأيِّ أحد عنده إعطاء سابق يردُّه إليه،وفضل يجازيه عليه ، لكن يفعل ما يفعل ابتغاء رضا

332- تفسير ابن عطية (492/5).

الله، وطلب وجْه ربِّه الأعلى، فلوجهه وحده توجَّه الأعمال، ولا يجوز لمَن أخلصه الله لدينه، أو أخلص دينه لله أن يبتغي بأيِّ عمل من الأعمال الآخرة وجها من وجوه الدنيا.

{وَلَسَوْفَ يَرْضَى}

وهذا **{الْأَتْقَى}** الذي اصطفاه الله من عباده، وانتقاه ليقوم بهذا العمل الذي لا مجال فيه لرياء ولا عُجب ولا نفاق، ولا أدنى اتِّباع لأهواء الناس، سوف يمنحه الله سبحانه خاصة (الرضا) الذي تسكن إليه الأنفس، وتستريح إليه القلوب، ووصف به خلاصة عباده، فقال: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}** [البيِّنة:8].

قال ابن كثير: (وقد ذكر غير واحد من المفسِّرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسِّرين على ذلك، ولا شكَّ أنه داخل فيها، وأوْلى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى}**، ولكنه مُقدَّم الأمة، وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صدِّيقا تقيًّا كريماً جواداً، باذلاً لأمواله في طاعة مولاه ونُصْرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربِّه الكريم!!

ولم يكن لأحد من الناس عنده منَّة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود، وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أَمَا والله لولا يد لك كانت عندي لم أجزك بها لأجبتُك[333].

وكان الصِّدِّيق قد أغلظ له في المقالة.

333- رواه البخاري في الشروط (2731) ، عن المستور بن مخرمة ومروان.

فإن كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمَن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: {**وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى**}.

وفي الصحيحين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَن أنفق زوجين في سبيل الله، دعته خَزَنَة الجنَّة: يا عبد الله، هذا خير". فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على مَن يدعى منها ضرورة، فهل يُدعى منها كلِّها أحدٌ؟ قال: "نعم، وأرجو أن تكون منهم"[334])[335].

334- متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (1897)، ومسلم في الزكاة (1027)، عن أبي هريرة.
335- تفسير ابن كثير (422/8).

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)}

السورة مكيَّة، بل هي من أوائل ما أنزل من القرآن، وإن كنا قرأنا في المصاحف، التي حفظنا عليها القرآن في صبانا، أن سورة الضحى هي السورة الثانية والتسعون في ترتيب السور في المصحف، وهذا بخلاف ترتيب النزول. والذي يبدو جيِّدًا لمَن يتأمل في مسيرة الوقائع النبويَّة: أن السورة من أوائل ما نزل من القرآن، وأنَّ الله أراد أن يبتليه بعد أن ذاق حلاوة نزول القرآن، وعرف حامله إليه جبريل عليه السلام، ولا بدَّ أن يكون قد نزل عليه مرَّات ببعض الآيات، ثم شاء الله تعالى – لحكمة أرادها – أن يبطئ عنه مدَّة من الزمن.

وأن يشتدَّ هذا الإبطاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُؤرِّقه هذا الشوق، أو القلق على الوحي الحبيب إليه، الملهوف عليه، وأن يحسَّ المشركون بهذا الأمر، فيزيدوا في إثارة خوفه وقلقه، بما أشاعوه من قولهم: إنَّ ربَّ محمد قد ودَّعه أو قَلَاه، ولم يعد يأتيه ما كان يأتيه من قبل.

وازداد قلق النبي الكريم على فتور الوحي عنه، حتى قيل ما قيل من تفكير غير مقبول من مثل محمد صلى الله عليه وسلم– ولكن كانت هذه لحظات– ثم يعود

الوعي العميق والحبُّ الوثيق والفَهم الدقيق، ويكتئب الرسول الكريم مؤقتا، وينتظر الفرج من الله تعالى.

حتى جاء الفرج، وأشرقت الأرض بنور ربِّها، وعاد الوحي مرَّة أخرى، فنزلت آياته مبشِّرة لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومرجِّية له في مستقبل مديد، ودعوة منتصرة، ترغي وتزبد، وتقوم على الحقِّ، وتستمرُّ عليه، حتى تتمَّ نعمة الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: {**وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**}.

كما يربط القرآن أبداً بين الطبيعة والكون وما فيها من آيات الله الدالَّة عليه، وعلى سُننه وأحكامه، وبين وحي الله وهدايته لخلقه.

آيات مبشِّرة لمحمد صلى الله عليه وسلم ومرجِّية له في مستقبل مديد، ودعوة منتصرة

{وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) }

أقسم الله الواحد القهَّار بالضحى، وهو ضوء الشمس الساطع في أوائل النهار، وشبابه، كما أقسم بالليل{ إذا سَجَى}، أي : إذا سكن واستراح الناس فيه من عناء النهار وأشغاله ومتاعبه، فَأَوَوْا إلى الظلمة، واطْمَأنَّت الجنوب في المضاجع.

وهنا نجد القرآن قال: **{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}**. على حين قال في السورة السابقة: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}**؛ وذلك لأنَّ السَّجْو من لوازم الليل أو الظلمة، فناسبه أن يأتي بالفعل الماضي، كما قال في النهار: **{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}** [الليل:2]، بخلاف الغشيان في الليل، فقال فيه: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** [الليل:1]؛ لأن هذا يعرض للَّيل في أوقات قليلة، يغشى فيها الضياء بخلاف الضياء الذي يغلب أجزاء الزمن.

فالوحي هنا يثبِّته ويطمئنه إلى أنه سائر في الطريق الصحيح، كالشمس التي تنتقل من ضحى مُشرق، إلى ليل ساجٍ، أحوج ما يكون الناس إلى سجوه والاستراحة فيه، ليبدأوا عملهم غدًا، ويستمرُّوا في العمل، حتى يكمل الدين، وتتمَّ به النعمة، ويستقيم الأمر. وهو ما يفهم من قوله تعالى: **{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}**، أي: إن ربَّك الذي اختصَّك من دون العالمين بوحيه، وأرسلك إلى الناس كافَّة، لم يودِّعك، ولم

يتركك يوماً من الأيام، ولا ساعة واحدة من الساعات، ولا كرهك في أيِّ وقت أو أبغضك. فالقلا هو: البُغض.

{وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى}

يبشِّره أن كرَّة الوحي التالية، بما يُنزِل الله فيها من آيات بيِّنات، ومن سور مُفَصَّلات، سيدلُّك على أنَّ الغد أفضل من اليوم، وأن المفصَّل سيريحك وينعشك أكثر من المجمل، وما يأتي من بيان الأصول، وتأصيل العقائد، وتأسيس القيم، وتوضيح الشرائع، وتبيين المعاملات، ستجد فيه من الخير ما تزداد به ثقة، واطمئنانا على مستقبل دعوتك.

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}

ثم زاد الأمر إيضاحاً وتأكيداً، بهذا الوعد الإلهي الذي لا يكذب، **{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}**، سوف: حرف تنفيس، تتحدَّث عن الغد أو المسقبل، وقد تعوَّد العرب أن يتحدثوا عن المستقبل القريب بالسين، وعن المستقبل البعيد بـ(سوف).

وليس المقصود هنا، أن ما يعطى للرسول شيء بعيد غير قريب، وإنما يذكره بأسلوب علمي لا يستطيع أحد أن يكذِّبه، ونحن في أوائل العهد المكي، لا يزال أمامنا عدَّة سنوات حتى ينتهي، ثم يبدأ العهد المدني، ومنه تبدأ آيات الله تَتْرى، ويجيء نصر الله، ويظهر أمره وهم كارهون.

ثم إن ما يُعطى لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيرات وفضائل ومُقوِّمات حتى يرضى، بعضها ممَّا يكون في الآخرة، من الشفاعة العظمى، والموقف المشهود، واللواء المعقود، والمقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة لعصاة المؤمنين، وأنه أول مَن يُفتح له باب الجنة، إلى آخره. والمهم هنا أن الله سيعطيه مما عنده من فضل وخير، فيرضى.

نعمه سبحانه على عبده محمد صلى الله عليه وسلم

{الَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) }

{الَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}

بيَّن الله تعالى نعمه على محمد صلى الله عليه وسلم، من قديم، وذكَّره بها هنا، فقال: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}**، الاستفهام الداخل على النفي هنا للتقرير، أي: إنا وجدنا وعلمنا أنك يتيم فقدت أباك قبل أن تُولد، وفقدت أمَّك في السادسة من عمرك. عرفنا ذلك فلم نَدَعَك ولم نتركك وحدك، عن طريق جدِّك سيِّد مكة، الذي كان مهتمًّا بك غاية الاهتمام، ثم عن طريق عمِّك، الذي ضمَّك إلى سائر أبنائه، وآواك بقُربه، وآثرك به، صغيراً وكبيراً، قبل البعثة وبعد البعثة.

{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}

وقد عرفك الله، وعلم ما تفكِّر فيه، فيما وصلت إليه حال الأمة، وحال الناس من حولك، صحيح أنه لم يعبد إلا الله، ولم يسجد يوماً لصنم، ولم يذهب إلى واحد من دعاة الأصنام، ولكنه كان يُهمُّه ما فيه قومه من عبادة غير الله ، ومن انحرافات الجاهلية وخرافاتها، ومن تبعات العصبيَّة القاتلة، ومن طغيان المال على أصحابه،

حتى أكلوا الربا، وقبلوا الغَرَر الفاحش، وتعاملوا بالظلم البيّن، وأصبح الضعيف والفقير ومَن لا ظهر له ضائعاً في المجتمع، كما قال تعالى: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}** [الفجر:17–20].

فَضَلال محمد هنا ليس هو الضلال الديني، وليس هو الشِّرك، ولا ما استباحه قومه من الربا والخمر والزنا والبغي والمنكر، بل الضلال هنا: حيْرة الفكر فيما ينبغي عمله في إنقاذ الناس ممَّا هم فيه، كيف يوضع طريق لإنجاء الناس، وكيف يقاد الناس إلى ما فيه خيرهم في دينهم ودنياهم.

ولكن الله اختارك دون العالم لتقوم على إنجاء البشريَّة، من ظلمة الجاهليَّة، وتهديها إلى الصراط المستقيم، فأنزل عليك الوحي، وختم بك النبوَّة، **{وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}** [النساء:113]، وهذا كقوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [الشورى:52].

{وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}

وممَّا وجدك الله عليه، وعلمه من حالك – وهو لا تخفى عليه خافية – ما كنتَ عليه من الفقر وقلَّة المال، فلم ترث عن أبيك مالاً، وكنتَ تعمل بجهدك وقوَّتك، فكنتَ **{عَائِلًا}**، أي: فقيراً، فأغناك الله، بما هيَّأ لك من المضاربة في مال خديجة، ثم أصبحت خديجة ومالها كلُّه بين يديك، ثم رزقناك من الصفات، وهيَّأنا لك من أسباب

الخير ما تعلمه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس"[336]. وقال: "قد أفلح مَن أسلم، ورُزق كفافا، وقنَّعه الله بما آتاه"[337].

336- متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (6446)، ومسلم في الزكاة (1051)، عن أبي هريرة.
337- رواه مسلم في الزكاة (1054)، عن عبد الله بن عمرو.

مقابلة النعم الإلهية والمِنن الربانيَّة بالشكر القلبي والعملي والقولي

{فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)}

بعد أن بيَّن الله تعالى لرسوله وصفيّه محمَّدٍ في الآيات السابقة، نِعمه التي أسبغها عليه، وأحاطه بها، وقد كان في أشدِّ الحاجة إليه، فآواه، وضمَّه وحضنه من اليتم، وحماه من الضلال والحيرة فيما يجب عمله لإنقاذ المجتمع وهداية البشر، وأخرجه من ضياع العَيلة وضراوة الفقر، فأغناه من فضله، بما أُوتيه من مال هيَّأه له، وتوافرَ وطاب لمثله، كان لا بدَّ أن يبيِّن ماذا يجب عليه بعد توفير هذه النعم الإلهية، وهذه المِنن الربانيَّة، أمام أمثال هذه الحالات الثلاث: اليتم المنجبر، والحيرة المهتدية، والعَيلة المواجَهة بالنعمة. فقال تعالى:

{فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}

فأول ما يطلب منك نحو اليتيم، هو أن تكرمه ولا تهينه، وأن لا تقهره ولا تدعَّه، وأن لا تذلَّه ولا تشعره بأيِّ هوان، فهو إنسان كريم على الله، كريم على الناس، كريم على نفسه، وقد قال تعالى: **{أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ}** [الماعون:1-2]، وذمَّ الله المجتمع الجاهلي بقوله: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ}** [الفجر:17]، فالمجتمع الجاهلي بحقٍّ، هو الذي يُقهر فيه اليتيم ويُهان، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم[338].

{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}

338- انظر: تفسير القرطبي (100/20).

والسائل هنا هو الذي يظهر في مجتمع الحيْرة والضلال، والبحث عن الحقيقة، يسأل مَن يجد من أهل العلم، ليعلم الجواب عن سؤاله، ويعرف الحقَّ فيحتضنه، ويعرف الباطل فيجتنبه، فالسؤال هنا سؤال المتعلِّمين عن العلم، وليس سؤال المحتاجين عن المال، وإن كان كلٌّ منهما له حقُّه وله مجاله الذي يظهر فيه.

قال ابن كثير: (كما كنتَ ضالاًّ فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. وقال ابن إسحاق: **{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ}**، أي: فلا تكن جبَّارًا، ولا متكبِّرًا، ولا فَحَّاشا، ولا فَظًّا على الضعفاء من عباد الله[339]. وقال قتادة: يعني ردَّ المسكين برحمة ولين) [340].

{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}

وهنا قد تفضَّل الله عليك، وأعطاك من فضله، وقد كنتَ عائلاً فأغناك، وضعيفاً فقوَّاك، ومنقطعاً فوصلك، حاظياً بنعمة ربِّك عليك، فالمطلوب أن تشكر ما أنعم الله به عليك، وما امتنَّ به من هداية وصحَّة ومال وقوَّة وطيِّبات، أفاضها عليك ربُّك الكريم، وأن تُحدِّث بها خلقه، بمقتضى تمام نعمته.

قال ابن كثير: (وكما كنتَ عائلاً فقيرًا فأغناك الله، فحدِّث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: "واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُثنين بها، قابليها، وأتمَّها علينا"[341].

وذكر ابن جرير، عن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يُحدَّث بها[342].

---

339 - سيرة ابن هشام (243/1).

340- تفسير ابن كثير (427/8).

341- رواه أبو داود في الصلاة (969)، والحاكم في الطهارة (265/1)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن مسعود.

342 - رواه الطبري في التفسير (491/24).

وعن أنس: إنَّ المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كلِّه. قال: "لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم"[343].

وروى أبو داود، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس"[344].

وروى أبو داود أيضاً، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن أُعطيَ عطاء فوجد فليجزِ به، فإن لم يجد فليثنِ به، فمَن أثنى به فقد شكره، ومَن كتمه فقد كفره"[345].

وقال مجاهد: في تفسير الآية: يعني النبوَّة التي أعطاك ربُّك. وفي رواية عنه: القرآن[346].

وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوَّة، فحدِّث بها واذكرها، وادعُ إليها)[347].

وكلٌّ هذا داخل في مضمون قوله تعالى: **{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}**، وكلٌّ واحد من الأمة مأمور بما أُمر به رسوله الكريم، وبهذا تفيض جنبات الأمة، وتمتلئ حياضها من التَّحديث بنعم الربِّ الكريم وشكرها، أتَّمها الله عليها وعلينا أجمعين.

343- رواه أبو داود في الأدب (4812)، والترمذي في الزهد (2487)، وقال: حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (3026).
344- رواه أحمد (10376)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الأدب (4811)، والترمذي في البر والصلة (1954)، وقال: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (416).
345- رواه أبو داود في الأدب (4813)، والترمذي في البر والصلة (2034) وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (6056).
346- رواه الخلال في السنة (210).
347- تفسير ابن كثير (428/8).

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)} .

السورة مكيَّة كلُّها، وإن ورد عن بعضهم أنها مدنيَّة، ويردُّه ما اعتبره البعض من أنها تكملة لسورة الضحى، مما يدلُّ على أنهما نزلتا في أمر واحد، وفي زمان متقارب.

شرح صدره صلى الله عليه وسلم :

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}

همزة الاستفهام إذا دخلت على الحرف (لم) – وهو حرف نفي وجزم وقلب – حوَّلت الجملة الاستفهاميَّة إلى جملة تقريريَّة، فإذا قلتَ لامرئ ما: ألم أقل لك كذا؟ فمعناها: لقد قلتُ لك كذا.

والخطاب هنا لرسول صلى الله عليه وسلم، يقول له ربُّه مبشِّراً ومُرَجِّياً بلغة التقرير: لقد شرحنا لك صدرك، وفتحنا لك قلبك، الذي بين جَنْبيك، أي: نوَّرناه، وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً، كما قال تعالى في موضع آخر: **{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ}** [الأنعام:125]، وكما شرح الله صدره صلى الله عليه وسلم، كذلك جعل الله عزَّ وجلَّ شرعه فسيحاً واسعاً سمْحاً سهلاً، لا حرج فيه ولا إصْر ولا ضِيق. وقد قال تعالى: **{أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}** [الزمر:22].

وقد استخدم القرآن مع كلمة (الشرح) مع كلمة (الصدر)، ولم يستخدم القلب، ولا الفؤاد، ولا النفس، والعرب كانوا ينظرون إلى من عظُم صدره أنه قريب إلى اكتمال القوَّة، وكثيراً ما يفتخر أحدهم بعِظَم صدره، وكذا كنَّوا بشرح الصدر عن المسرَّة، وانبساط النفس إلى القول أو الفعل.

وقد سأل موسى عليه السلام – وهو من الرسل أولي العزم – ربَّه حين أمره أن يذهب إلى فرعون بالرسالة، أن يؤتيَه أربعة أشياء أو أمور يستعين بها على مهمَّته، فكان أوَّلها: **{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}** [طه:25].

ولكنَّ محمَّداً أعطاه ربُّه شرحَ الصدر، دون أن يسأله من ربِّه، لما علم سبحانه أنه يضيق صدره، وتقتم نفسه، لما رأى من كثافة الظلمات التي تغطِّي على فطرة قومه، فلا يعرفون حقًّا من باطل، وعلى ضمائرهم، فلا يعرفون خيراً من شرٍّ، ولا رحمة من قسوة، وأصبحوا في جاهليتهم: **{كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}** [النور:40].

فشرح الله صدره بإنزال القرآن، والهداية إلى الإسلام، ودخول النُّور الإلهيّ إلى تلك القلوب المظلمة، والهداية إلى الحقِ، ويُهيِّئ لها أسباب الحركة والخير.

وَضْع وِزْره صلى الله عليه وسلم :

{وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}

وضعنا: حططنا وأزلنا.والوزر: الحِمْل الثقيل.أثقل ظهرك: أهمّك وأتعب نفسك .والمراد به : اهتمامه الشديد بهداية قومه ، ودفع إيذائهم عنه .

أول ما صنع الله لرسوله: أنه شرح له صدره ووسَّعه، وأزال عنه كلَّ ضيق.

وثاني ما صنع له: أن وضع عنه حمله الثقيل، الذي كان يحمله على ظهره، بثقله ومتاعبه.

الله جلَّ جلاله برحمته وتيسيره وضع عنك هذا الحمْل؛ تخفيفاً وتوسعةً عليك، وإنهاضاً لك، وتقويةً لعزمك، لتقوم بما أنت مُكلَّف به، في تبليغ الدعوة، وإتمام الرسالة.

نَشْر ذكره صلى الله عليه وسلم في الآفاق :

{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}

وإتماماً لنعمته تعالى عليك، بعد أن جمع لك بين إعطاء الخير، المُتمثِّل في شرح الصدر، ورفع الشرِّ عنك، المُتمثِّل في وضْع الوزر، زادك فضلاً وتكريماً برفع الذكر. ومعنى رفع الذكر: نشره في كلِّ الآفاق في الأرض وفي السماء، فيُذكر محمد صلى الله عليه وسلم، كلَّما ذُكر اسم الله تبارك وتعالى، في الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وفي الأذان، وفي الإقامة، وفي الصلاة، وفي ختام الصلوات، وفي سائر الأذكار والدعوات.

قال حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم:

وضمَّ الإله اسم النبيَّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المُؤذِّن أشهد

وشقَّ له من اسمه ليجلَّه فذو العرش محمود وهذا محمد

فرفع ذكره في الأوَّلين والآخرين وقدره، وأخذ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به.

اليسرهو القاعدة والعسر استثناء:

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}

مع هذه النِّعم والمواهب التي آتاك الله إيَّاها من عنده كرماً وفضلاً، وبرغم ما كنتَ تشكوه من الضيق والعسر والعنت الذي يبدو من حولك، فإنَّ الله تعالى مُوسِّع عليك كلَّ ضيق، ومُيسِّر عليك كلَّ أمر، ومُغْنيك من كلِّ فقر، ومُفرِّج عنك كلَّ كرب، فهذا شأن الله معك، ومع الناس جميعاً: أنَّ العسر لا يستمرُّ أبدا، وأن الحزن لا يطول مدداً، فإنَّ الأصل هو السَّعة، وإن القاعدة هي اليسر، فالعسر طارئ، واليسر دائم، والعسر قليل، واليسر

كثير، والعسر فرع، واليسر قاعدة؛ ولهذا ثبتت هذه القاعدة في عقول المسلمين وضمائرهم: أن العسر يلاصق اليسر دائماً، ولا يتركه ينفرد بالساحة أو يُيئس المؤمن.

ويعبّر القرآن عن ذلك بكلمة **{مَعَ}**، المصاحبة للفعل، فهو لا يتأخَّر عنه، بل يواكبه ويزاحمه حتى يطرده.

والتنكير في قوله: **{يُسْرًا}**، معناه التعظيم والتفخيم، كأنه قيل: إن مع العسر يسراً عظيماً، وأيُّ يسر.

دعوة الإسلام إلى التيسير، وكراهية التعسير:

ولما كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل، كان مقطوعا به، فجُعل كالمقارن له، وهذا يتَّفق مع الأصل الكلِّي العام في الإسلام، وهو الدعوة إلى التيسير، وكراهية التعسير، وهو ما نوَّه به القرآن، وأكَّدته السنة، فقال تعالى: **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** [البقرة:185]، **{يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}** [النساء:28]. وقال صلى الله عليه وسلم: "يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا"[348]، "إنما بُعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسّرين"[349]. لهذا كان من القواعد الفقهية الأساسية: (المشقَّة تجلب التيسير). وما يتبعها ويلحق بها من قواعد وفروع ومهمَّات.

وصيتان كريمتان :

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}

فرغت: انتهت أعمالك من واجبات لنفسك وأهلك والناس والدعوة ، فانصب : فاتعب ، من النصَب – بفتح النون والصاد– كما قال تعالى في سورة الحجر عن أهل الجنة : [لا يمسَّهم فيها نصب] 48، وعن وجوه أهل النار في سورة الغاشية : [عاملة ناصبة] .

348- سبق تخريجه صـ.
349- سبق تخريجه صـ.

بعد هذه المواهب الكريمة، والهبات العميمة، لمحمَّد رسول الله من ربِّه، تأتي في هاتين الآيتين الوصيَّتان الكريمتان من الله الربِّ العليِّ الكريم إلى رسوله المُكرَّم توصِيه بأمرين: ماذا يفعل عند الفراغ؟ وبماذا يتَّجه إلى ربِّه؟

وهنا يقول القرآن للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولكلِّ مَن فهم الخطاب العربي: فإذا فرغتَ من عمل اليوم، فانْصب في تدبير عمل الغد، وإذا فَرَغْت من عمل الصباح، فانْصب في عمل المساء، أو فرغت من عمل النهار، فانصب في عمل الليل، وإذا فرغت من عمل الدنيا، فانصب في عمل الدين، وإذا فرغت من واجبك نحو الناس، فانصب في واجبك نحو الله، وإذا فرغت من واجبك في أداء الفرائض، فانصب في توفية النوافل وقيام الليل، وإذا فرغت من أداء الواجبات المُحدَّدة، فانصب في أداء الواجبات غير المحدَّدة، وما أكثرها! وإذا فرغت من الجهاد والغزو، فانصب في طلب العلم، وإذا فرغت من صلاة الفجر، فانصب في الذكر والدعاء إلى الله.

ومعنى هذا: أن المؤمن لا يكون فارغا تمام الفراغ بحال؛ لأن فراغه ملحوق بما يشمله من تعدُّد الواجبات، وكثرة الحقوق، وقصر العمر، وقلَّة الأعوان.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أكره أن أرى أحدكم فارغاً ، لا في عمل الدنيا، ولا في عمل الآخرة350 .

قال علي بن أبي طلحة: إذا كنتَ صحيحاً فانصب. يعني: اجعل فراغك نصبا في العبادة. ويدلُّ عليه ما رُوي أن شُريحا القاضي مرَّ برجلين يتصارعان، فقال: الفارغ ما أُمر بهذا، إنما قال الله: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}**.

قال الرازي: (وبالجملة فالمعنى: أن يواصل بين العبادات وبعض، وألا يخلي وقتا من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى)[351].

350- تفسير الزمخشري (772/4).

ففي هذا يكون النَّصَب، ويحلو التعب، وتلذُّ المعاناة: كما قال صلاح الدين الصفدي:

الجدُّ في الجدِّ والحرمان في الكسل   فانصب تُصِب عن قريب غاية الأمل

وقال آخر:

بصرتُ بالراحة الكبرى فلم أرها   تُنال إلا على جسر من التعـب

وقال ثالث:

بقدر الجدِّ تُكتسب المعالي   ومَن طلـب العـلا سهر الليالي

ومَن طلب العلا من غير كدٍّ   أضـاع العـمر في طلب المحال

{وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}:

وإذا كان هذا هو المطلوب من الإنسان عند الفراغ، وهو التعبُّد والإعداد لما بعده، فعليه بعد ذلك أن تكون رغبته، واتِّجاهه إلى الله وحده، لا إلى الناس، ولا إلى المطالب الماديَّة، ولا إلى المتاع الأدنى الذي ينحدر إليه أكثر الناس، بل يلجأ إلى ربِّه الذي ربَّاه وعلَّمه وأرشده إلى كلِّ خير، فليجعل رغبته خالصةً إليه، لا يسأل إلا فضله متوكِّلاً عليه، ولا يرغب في سائر ما يلتمسه إلا له، ولا نصره على الأعداء إلا منه، وكفى به هادياً، وكفى به نصيراً.

351- تفسير الرازي (209/32).

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إلا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) اليْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ (8)}

هذه السورة مكيَّة على القول الصحيح .

وفي السورة قسمٌ بمهابط الشرائع الإلهيَّة المباركة، ومنازل الوحي بالكلام الإلهيّ النازل على رسله صلوات الله عليهم ؛ مهبط نزول الوحي على عيسى ، وإنزال الإنجيل عليه ، وهو البقعة المباركة من فلسطين ، ومهبط نزول التوراة على موسى بطور سيناء ، ومهبط نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في بلد الله الحرام ، على خلق الإنسان في أحسن تقويم ،واكتمال واعتدال، وتعهُّده بما يسعده ويصلح شأنه في أمر التشريع ، ليحفظ عليه حُسن تقويمه وكماله الإنساني ، وهناك قسم كبير من بني الإنسان أعرض عن تلك الشرائع وردّها، فردَّه أسفل سافلين ؛ لأنه هو الذي سفَّل نفسه ونزل بها إلى مستوى البهيميَّة. ولكنَّ قسماً آخر من بني الإنسان آمنوا بما أنزل الله تعالى، وعملوا الصالحات التي تشمل جميع الأعمال الإيمانية، فلهم أجر دائم غير مقطوع من نعيم الآخرة .

ويخاطب الله هذا الإنسان المكذِّب بدين الله وبالحساب والجزاء : أيُّ شيْء يجعلك منكراً لدين الله الذي جاء به أنبياء الله ورسله، ومكذباً بالحساب والجزاء بعد هذا البيان والبرهان ، وقد خلقك الله في أحسن تقويم ، وتعهّدك بالشريعة التي فيها صلاحك وسعادتك ، ولم يتركك سدى ، فكيف تنكر الحساب والجزاء ، وهو سبحانه قادر على إعادتك بعد موتك .وذلك بمقتضى حكمته في مجازاة المحسن بإحسانه ، والمُسيء بسيئاته ، والاقتصاص من الظالم للمظلوم.

قسم الله ببعض مخلوقاته :

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا البَلَدِ الأَمِينِ}

أقسم الله في هذه السورة ببعض مخلوقاته، على أمر يتعلَّق بخلق الإنسان وفطرته، كما أقسم في سورة مرَّت قبل ذلك على أمر شبيه بذلك، هي سورة البلد: **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}** [البلد:1-4]. أقسم الله في سورة (البلد) بهذه المخلوقات: أنه خلق الإنسان في مكابدة للمتاعب والمشقَّات، وأقسم هنا في سورة التين: بأنه سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم.

حرَّم الله تعالى علينا أن نقسم إلا به، كما قال رسوله الكريم: "مَن حلف بغير الله فقد أشرك"[352]. وأقسم هو بما شاء من خلقه، في سُور كثيرة في القرآن، تحدَّث عنها ابن القيم في كتابه (أقسام القرآن)[353]. وممَّا أقسم به ههنا: الأمور الأربعة: **{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا البَلَدِ الأَمِينِ}**.

ومن المفسِّرين القدامى مَن فسَّر الآيات على أن المُقسَم به أربعة أشياء، وقدَّر التين والزيتون بالصنفين المكيلين، أو الموزونين من المأكولات، التي يُتحلَّى بها، أو يُؤتدم بها، وما فيهما من فوائد عظيمة أفاض بها رجال التغذية.

ولكن من علمائنا وأئمتنا الموهوبين من نَظَر إلى هذا القسم نظرة أخرى، فيها كثير من التَّعمُّق والتوفيق، فلم يجعل التين والزيتون قَسَمين، بل اعتبرهما قسماً بشيء واحد، وهو الأرض التي تُنبِتهما، أرض فلسطين وما حولها، التي تُنبت التين والزيتون

352- رواه أحمد (5593)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لجهالة الرجل الكندي، وأبو داود (3251)، والترمذي (1535) وقال: حديث حسن، والحاكم (4/ 297) وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الأيمان والنذور، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2952)، عن ابن عمر.
353- التبيان في أقسام القرآن، صـ43. دار المعرفة، بيروت، لبنان، تحقيق: محمد حامد الفقي.

المباركين، وهي الأرض التي نشأ فيها عيسى ابن مريم، أحد الرسل الكبار من أولي العزم، الذين أخذ الله عليهم الميثاق.

قال الإمام ابن كثير هنا: (هذه مَحالٌّ ثلاثة، بعث الله في كلٍّ واحد منها نبيًّا مرسلاً من أُولي العزم أصحاب الشرائع الكبار: فالأول: مِحلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم.

والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران.

والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي مَن دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً صلى الله عليه وسلم.

قالوا: وفي آخر التوراة ذُكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء – يعني الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران – وأشرق من ساعير – يعني: جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى– واستعلن من جبال فاران – يعني: جبال مكة التي أرسل الله فيها محمدا. فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}

وقوله: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}**، هذا هو المُقسَم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة، سويَ الأعضاء حسنَها)[354].

وهو ما أكَّده القرآن في أكثر من سورة، كما في سورة التغابن: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}** [الآية:3]، وقال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}** [الانفطار:7، 8].

354- تفسير ابن كثير (435/8).

الجمع بين الحُسن المادي والحُسن الرُّوحي المعنوي:

وهنا سؤال مهم يجب أن نسأله هنا، وهو: هل المهم في الفطرة والخلقة الإنسانيَّة، التي خلق الله عليها الإنسان: الجانب الماديّ أم ما يشمل الجانب الماديّ والروحيّ معاً، بحيث تتضمَّن اللفظ والمعنى، والظاهر والباطن، والصورة والحقيقة؟

أعتقد أن الإسلام يهتمُّ بالجانبين معاً، ويحرص على المعنى قبل اللفظ، وعلى الرُّوح قبل المادَّة، وعلى الموضوع قبل الشكل، وعلى الحقيقة قبل الصورة، وعلى الباطن قبل الظاهر.

وفي هذا يُعَوِّل القرآن على تقوى القلوب، لا على الظواهر أو الجوارح، قال تعالى: **{ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}** [الحج:32]، **{لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}** [الحج:37].

ويقول الرسول الكريم في الدلالة على أهمية القلب في صيانة الإنسان، في الحديث الصحيح المتَّفق عليه: "ألا إنَّ في الجسد مُضغةً إذا صَلَحت صلَح الجسد كلُّه، وإذا فَسدَت فسدَ الجسدُ كلُّه، إلا وهي القلب"[355].

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فيما رواه مسلم في صحيحه: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[356].

ومن هنا نقول: إن الإسلام يهتمُّ بالحُسن الظاهر في أمور الحياة، الذي يجمِّل الحياة، ويصوغها صياغة حسنة الظاهر، مقبولة الشكل، ولكنه لا يكتفي بذلك، بل يضمُّ إلى ذلك – ولا بدَّ – الحُسن المعنوي، والجمال الأدبي، والحياة الرُّوحيَّة العليا، كما كان صلى الله عليه وسلم في نفسه مثلاً أعلى في ذلك، وكما حرص على أن

355- متفق عليه: البخاري في الإيمان (52)، ومسلم في المساقاة (1599)، عن النعمان بن بشير.
356- رواه مسلم في البر والصلة (2564) , عن أبي هريرة.

يكون جملة أصحابه وعِلْية أصحابه ممَّن ضربهم الله مثلاً للذين آمنوا، في الجمع بين الحُسن المادي والحُسن الرُّوحي المعنوي.

وتحت هذا الضوء يُفهم قوله تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}**. الخلق للإنسان في أحسن تقويم، وتركيبه أعظم تركيب، وتعديله أقوم تعديل، يشمل الجانب المادي والجانب المعنوي، كما أشرنا.

فما معنى قوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}؟

إن الردَّ إلى أرذل العمر ليس هو التنكيس إلى أسفل سافلين، ثم هذا لا ينال إلا القليلين جدًّا من الناس. إنما الذي يليق بهذه العملية الإلهية: هو ردُّ الناس إلى غرائزهم، وإلى طبائعهم البشريَّة وحدها، تَتَحكَّم فيهم وتسوقُهم إلى مهاويها الرذيلة، إذا اتَّبع الإنسان أهواءه وغرائزه الدنيا وحدها، ولم يركِّز على الإيمان بالله ولا بالدار الآخرة، ولا بالعدالة وحسن الجزاء، بل يكون كما قال الله تعالى: **{إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}** [الأحزاب:72]، **{إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}** [إبراهيم:34]، **{إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}** [العاديات:6]، **{وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولًا}** [الإسراء:11]، **{وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}** [الإسراء:67]، **{وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا}** [الإسراء:100]، **{وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}** [الكهف:54]، **{إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}** [المعارج:19]، **{إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}** [العصر:2].

فإذا تُرك الإنسان لهذه الطبائع والغرائز: من الجهل، والبُخل، والظلم، والكفر، والكنود، والعجل، والجدل، تقوده وتُسيِّره وحدها، بلا تدخُّل من إيمان يهدي، ومن عقل يُصوِّب، ومجتمع يُعدِّل، كان الإنسان أشبه بذئب مفترس أو بهيمة عمياء، كما قال الشاعر:

أبنيَّ إن من الرجال بهيمةً		في صورة الرجل السميع المبصر
فطن لكلِّ مصيبة في ماله		وإذا أصيب بدنه لم يشعر

فإذا تُرك الإنسان وحده بدون إيمان يسنده ويحميه، سُلِّطت عليه هذه الطبائع والغرائز، وحدها تكتنفه وتحتويه، فلن يكون مصيره إلا التَّردِّي إلى الجحيم، والسقوط إلى أرذل الأرذلين: {**أُولَئِكَ الذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ**} [محمد:16]، {**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**} [الفرقان:43، 44].

ما الذي ينجّي الإنسان من هول السقوط والضياع ؟

إنما الذي يُنجِّي الإنسان من هول هذا السقوط والضياع، هو ما استثناه القرآن في السورة الكريمة، حين قال:

{**إلا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**}

هنا أبرز القرآن دور الإيمان الحقِّ وحده مصدرًا للإنقاذ، وسبيلاً للنجاة، حين يكون الإيمان صادقاً لا مُجرَّد كلمة تُقال، أو دعوى تدَّعى، فهم الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات.

وعمل الصالحات هنا عامٌّ يشمل كلَّ الأعمال الإيمانية: الماديَّة والمعنويَّة، الماليَّة والعاطفيَّة، العباديَّة وغير العباديَّة، وهي تشمل التَّواصي بالحقّ، والتَّواصي بالصبر، والتَّواصي بالمرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فهؤلاء المؤمنون الصالحون المصلحون لهم {**أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**}، أي: غير مقطوع بحال من الأحوال، كما قال تعالى: {**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**} [هود:108].

وهنا يبرز القرآن مهمَّة الإيمان الحقيقي في حياة الإنسان، فهو ليس دوراً دخيلاً ولا دوراً ثانويًّا، بل دور أصيل، كما في قوله تعالى، في سورة العصر: **{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** [العصر:1-3].

{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ}

الخطاب هنا للإنسان، فهل بعد هذه الدلائل والبيّنات يجد ابن آدم العاقل مجالاً يكذِّب فيه بالدين؟ والمراد بالدين: ما يحتوي الإيمان بالله ربِّ العباد، ويحتوي ضرورة الجزاء والحساب ثواباً وعقاباً، لما عمله الناس في حياتهم الدنيا من خير أو شرّ.

فالفطرة الإنسانيّة تقتضي التصديق بهذا القانون المغروس في فطرة البشر، أن لهذا الكون ربًّا، وأنَّ لهذا الربِّ عدلا، وأن العدل لا يسوّي بين الخير والشرِّ، ولا بين المؤمن التَّقي والفاجر الشقي، وأن التفريق بينهما هو ما تقتضيه الحكمة، **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}** [ص:27، 28].

لا يوجد أيُّ شيء يكذب بالدين، بل كلُّ الحقائق العقلية والفعلية، والداخلية والخارجية كلُّها تؤيِّد الدين، وتصدِّق بقواعد الدين، أي: يا ابن آدم، ما الذي يكَذِّبك بعدُ بالدين؟ أي: بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البدأة، وعرَفت أن مَن قدر على البدأة، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأيُّ شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرَفت هذا؟

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ}

أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور، ولا يظلم أحدا؟ ومن عدله: أن يقيم القيامة، فينصف المظلوم ممَّن ظلمه في الدنيا.

وقد ذكر ابن كثير هنا حديث أبي هريرة مرفوعا: "فإذا قرأ أحدكم: **{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}**، فأتى على آخرها: **{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ}**. فليقُل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين"[357].

وأخرج الجماعة عن البراء بن عازب: كان النبي صلى الله عليه وسلم، يقرأ في سفر في إحدى الركعتين: **{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}**، فما سمعت أحداً أحسن صوتا أو قراءة منه[358].

357- رواه أحمد (7391) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الصلاة (887)، والترمذي في التفسير (3347) وقال: هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي، عن أبي هريرة ولا يسمى، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (156)، عن أبي هريرة.

358- متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (769)، ومسلم في الصلاة (464)، عن البراء بن عازب.

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * المْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}

سورة العلق مكيَّة، والآيات الخمس الأولى منها: أول ما نزل من القرآن، هذا ما جاءت به الأحاديث الصِّحاح، وأثبتته السيرة المحمديّة، وهو ما عليه معظم العلماء والمفسِّرين.

وقال بعضهم: الفاتحة أول ما نزل. وكأنهم نظروا إلى أنها أول ما كُتب في المصحف الشريف، وأول ما يقرأه المسلم منه، ولكن من المعلوم المقرَّر أن الكتابة في المصحف شيء، وتاريخ النزول شيء آخر نعلمه تماماً، فآخر آية نزلت من القرآن ليست هي (سورة الناس)، بل قوله تعالى: **{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [البقرة:281؟].

وأول ما أنزل من القرآن – كما في حديث عائشة أم المؤمنين الصحيح– قالت: أول ما بُدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رُؤيَا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حِراء فيتحنَّث فيه – وهو التَّعبُّد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حِراء؛ فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ.

فقلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطَّني الثالثَة، ثمَّ أرسلني فقال: {**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**}"[359].

أمره صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ قراءة لها هدف ومعنى:

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * }

كان محمد بن عبد الله المُطَّلبي الهاشمي العربي هو مَن خوطب بهذي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، طُلب منه القراءة، {**اقْرَأْ**}، طالبه بها الملك جبريل؛ وهو أُمِّيٌّ كامل الأميَّة، كما ذكر القرآن نفسه في مقام آخر: {**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**} [العنكبوت:48]. فردَّ عليه محمد كما هو معروف ومنقول في السير: "ما أنا بقارئ!". ثلاث مرات، وبعد الثالثة، قال له: {**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ**}. فهو يأمره بأن يقرأ قراءة لها هدف ولها معنى، فهو لا يقرأ كما يقرأ سائر الناس، ولكنه يقرأ كلام الله تعالى المُنزَّل عليه، ويقرأه مستعيناً به سبحانه، ومُسمِّيًا به، لا يقرأه باسم أمير ولا مخلوق، كائناً ما كان، ولكن باسم الله سبحانه، مُستحضراً في نفسه أنَّ (الله) هو (ربُّه)، أي: مالكه، وسيِّده، ومُربِّيه، ومُرقِّيه في مدارج الكمال، وشامله بحفظه ورعايته دائماً.

{**بِاسْمِ رَبِّكَ**}، فإذا كانت القراءة هي مفتاح العلم، فإن القراءة باسم ربِّنا هي مفتاح الإيمان. فكثير من الناس يقرؤون ويصلُّون، ولكن الذين يقرؤون باسم الله تعالى يُهدَون ويصلحون.

{**الَّذِي خَلَقَ**}، ربُّك الذي تقرأ باسمه، وتستعين به، هو الذي خلق، هو الخالق وحده، لا أحد غيره، ولا أحد معه، هو الذي خلقك، وخلق الذي قبلك، والذي بعدك، وهو الذي خلق السماوات والأرض، وما بينهما، وما شاء ربُّنا من شيء بعدُ. ومعنى خلقها: أنه

359 - متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (3)، ومسلم في الإيمان (160).

أوجدها من عدم، وكوَّنها ونظَّم أمرها على أحسن ترتيب، وأحسن تقويم، بحيث يقول مَن رآها: **{تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ}** [المؤمنون:14].

إفراد الإنسان بالذكرمن المخلوقات البشرية لشرفه ولأنه المقصود بنزول القرآن :

{خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}

وأول ما يبدو من خلق الله جلَّ شأنه، هو خلقه لهذا الإنسان، والمراد بالإنسان هنا: الجنس البشريُّ كلُّه، الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وصَوَّره فأحسن صورتَه، وأعطاه العقل ليفَكِّر، وعلَّمه البيان ليتكلَّم، وجعله في الأرض خليفة، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، وألقى عليه أمانة التكليف.

هذا الإنسان المُستخلف، خلقه الله أول ما خلقه الله خلقه من الدم الجامد، الحاصل من مَنِيِّ الرجل الذي علق ببويضة المرأة، **{فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}** [الطارق:5-7]. وهذه العلقة ستتطوَّر إلى مضغة، ثم تكون عظاماً .. إلخ.

تكرار الأمر بالقراءة :

{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ}

كرَّر عليه الأمر بالقراءة تبياناً وتأكيداً، وليضيف إليه معنىً جديدًا، يشدُّ أزره، ويسند ظهره، وهو أن ربَّك الذي تستعين به وتقرأ باسمه هو **{رَبُّكَ الأَكْرَمُ}**، أي: من صفاته الأولى (الكرم)، بل الأكرميَّة، فإنه هو الذي يمنح صفة الكرم لمَن يشاء من عباده، ويبقى هو أكرم من غيره، بل هو الأكرم على الإطلاق، بل هو أكرم الأكرمين. ومن إكرامه أنه يعطي بغير حساب، ويعطي الجزاء الكثير على العمل القليل، ويعطي مَن لا يستحق العطاء فضلاً منه، ويغفر الذنب العظيم، ويهب الخير والرحمة لعباده، ويهديهم سواء السبيل، ويُنزل عليهم الكتب، ويبعث إليهم الرسل مبشِّرين ومنذرين.

دلائل الأكرميَّة التي وصف الله بها نفسه:

{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}

ومن دلائل الأكرميَّة التي وصف الله بها نفسه: أنه يُعلِّم عباده ما يحتاجون إليه، بواسطة الفطرة والمعقول أولاً، ثم بواسطة الأنبياء المرسلة، والكتب المنزَّلة.

ومن أهم المسائل التي علَّم بها عباده: (القلم)، هذه الأداة التي تُعين على الكتابة، التي يُدوَّن بها العلم، ويُنقل بها العلم من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، ومن أمّة إلى أمّة.

ولولا هذا (القلم) ما وجدنا تراث الأمم – على سَعَته واختلاف أبوابه منذ عرَف الإنسان الكتابة – بين أيدينا اليوم.

و(القلم) في عصرنا أصبح يمثل عالماً يشمل كلَّ ما يُطبع، فلم يعد مقصوراً على القلم الفردي، الذي يمسكه الإنسان بيده، بل أصبح يمثِّل قلم الفرد والمجتمع والدولة والمؤسَّسات الكبرى، من مطابع، وما تفرع عنها، وما أضيف إليها من أدوات بشريَّة، يمثلها الإنترنت ونحوها من وسائل الاتِّصال الشفاهي والكتابي، **{وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}**.

ومن عناية القرآن بـ(القلم)، جاء القسم من الله تعالى به في سورة سُمِّيت باسمه، من أوائل ما نزل من القرآن، وهي قوله تعالى: **{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}**.

{عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}

ومن نتائج وصفه تعالى بالأكرميَّة، والتعليم بالقلم: أنه علَّم الإنسان ما لم يعلم، فالإنسان مخلوق قابل للتعلُّم، يكتسب العلم ويُنمِّيه باستمرار، كما قال تعالى: **{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [النحل:78].

ويقول الشاعر:

تعلَّم فليس المرء يولد عالماً   وليس أخو علم كمَن هو جاهل[360]

فالمرء الذي يُولد من غير علم يكتسب العلم ممَّن حوله، ومن الأرض التي يعيش فوقها، ومن السماء التي يجلس تحتها، ويكتسب العلم الديني من الأنبياء، الذين بعثهم الله لهداية البشر، ومَن ورثتهم من العلماء، ومن مصادر علمهم الذي ورَّثوه للبشر، ويكتسب علوم الدنيا من أهلها الذين يتقنونها، ومن وسائلها المعلومة، ومآلاتها المعروفة، من الملاحظة، والتجربة، والتأمُّل.

ومن هنا رأينا في عصرنا تتكاثر المعرفة على الدوام، وتزداد الإنسانيَّة كلَّ يوم من المعارف والمعلومات ما تزداد، **{عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**.

هذه الآيات الخمس الأولى هي أول ما نزل من القرآن، أما بقية آيات السورة فقد نزلت بعد ذلك، بعد الإعلان عن الدعوة، والاصطدام بالمجتمع القرشي الجاهلي، كما تجلِّيه آيات السورة.

{كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعَى }

{كَلَّا}، حرف ردع وزجْر، فهي تُوحي بانتقال من جوٍ إلى جوٍ، من جوِّ التعليم الإيجابي إلى جوٍ آخر، يحتاج إلى لغة أخرى، تبدأ بهذا الحرف لتبيِّن صفة الإنسان وجنسه، الذي يَدَع الحياة المتوازنة ليطغى، ليتكبَّر ويتمرَّد ويتجاوز الحدَّ، وقد أكَّد ذلك بوجود اللام في خبر **{إنَّ}**، وهذا الطغيان هو شرُّ ما يصيب الإنسان، ويخرجه عن حقيقة الإنسانية، كما قال تعالى لموسى: **{اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}** [النازعات:17]. فأرسله إلى فرعون لهذا السبب، وهو **{إِنَّهُ طَغَى}**، أي: تكبَّر وتجبَّر وجاوز الحدَّ.

---

360 - من شعر الإمام الشافعي.

وقال الله تعالى في وصف الآخرة: **{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى}** [النازعات:34-39]، فبيَّن عاقبة أهل الجحيم، الذين حُرموا السعادة، وكُتبت عليهم الشقاوة، عنوان مَن طغى، وعلامة طغيانه، أنه: **{آثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا}**.

وفي حياة الأمم ذَكَرَ القرآن أن الطغيان الذي يتَّبعه الفاسدون هو سبب هلاكهم، قال تعالى بعد أن ذكر عادا وثمودَ وفرعونَ: **{الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ*فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** [الفجر:11-14].

ما سبب طغيان الإنسان؟

سببه أنه رأى نفسه مستغنياً عن غيره، وهذا عمًى في الحقيقة؛ فالمرء لا يستطيع الاستغناء عن غيره، كما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعضٌ لبعض - وإن لم يشعروا - خدم

كلُّ إنسان لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لا بدَّ أن يحتاج إلى آخرين، كما يحتاج إليه آخرون؛ ولهذا ذمَّ الله سبحانه الاستغناء، كما في قوله تعالى في سورة الليل: **{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}** [الليل:8-10].

الغنى في ذاته ليس شرًّا، فقد آتى الله بعض خلقه المال، والملك وكثيراً من النِّعم، "ونِعْم المال الصالح للعبد الصالح"[361]، ولكن المذموم حقًّا هو الاستغناء

361- رواه أحمد (17763) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في البيوع (2/ 2)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مشكلة الفقر (19).

واعتقاد نفسه غنيًّا عن كلِّ ما سواه؛ لأن لديه مالاً وثروة، فهذه الرؤية هي التي غشَّته، وطمست على بصيرته.

فليس الغنى هو مصدر الطغيان، بل رؤية الشخص نفسه مستغنيا عن غيره، هو المصدر.

أُوتي سليمان مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ولكنه كان يخالط المساكين، ويقول: مسكين خالط مساكين[362].

ونقل الفخر الرازي عن الجرجاني أنه قال: **{كَلَّا}**، هنا بمعنى (حقًّا)، لأنه ليس قبله ولا بعده شيء تكون (كلا) ردًّا له، قال: وهذا كما قالوه في: **{كَلَّا وَالْقَمَرِ}** **[**المدثر:32**]**، فإنهم زعموا أنه بمعنى (إي والقمر)[363].

{إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعَى}

هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان، تهديداً له، وتحذيراً من عاقبة الطغيان.

والرُّجعى، والمرجع، والرجوع كلُّها مصادر، يقال: رجع إليه رجوعاً، ومرجعاً، ورُجعى. ومعنى هذا: أنه سبحانه ترجع كلُّ أموره إليه، فهو الذي يُثيبه على ما يفعل من طاعة، ويعاقبه على طغيانه وتمرُّده: **{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** **[**الانفطار:19**]**، كما أنه تعالى يردُّه ويرجعه إلى النقصان بعد الاكتمال، كما قال الشاعر:

إذا تمَّ شيء بدا نقصانه   توقَّع زوالا إذا قيل: تمَّ

-362
363- تفسير الرازي (32/219- 220).

فهو يشيب بعد الشباب، ويضعف بعد القوَّة، ويفتقر بعد الغنى، ويذلُّ بعد العزَّة، وهذا هو شأن الدنيا: **{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}** **[**النساء:77].

تعجيب الرسول من نموذج من نماذج الطغيان :

{أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * المْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}

{أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى}

الآيات خطاب للرسول الكريم. وكلمة **{أَرَأَيْتَ}**، في القرآن تعني: (نبِّئني) أو(أخبرني)، واسم الموصول وصلته هنا تعني أبا جهل الكافر القرشي الطاغية، التي كانت قريش تكنِّيه أبا الحكم، ولكن تصرُّفه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع المسلمين يدلُّ على غاية الجهل والحماقة. قال الشاعر:

لكلِّ داء دواء يستطبُّ به   إلا الحماقة أعيت مَن يداويها

فهو ينهى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، أن يُصلِّي عند الكعبة، وهنا يذكُره الله مُجرَّدا عن اسمه وصفته، وما يملك من مال وغنى، وما عنده من خدم وأتباع، فليس لهذا كلُّه قيمة، إنما الذي يؤخذ عليه هنا: (أنه ينهى عبدا إذا صلَّى).

ينهى عبداً لله تعالى يؤدِّي إليه أمره، ويسبِّح بحمده، ولا يبالي بمَن صدَّه عنه من خلقه. إنه يُصلِّي لربِّه، لا يُؤذي أحدا من الناس، ولا يأخذ من ماله، ولا يُضيِّق عليه في شيء من حياته، فكيف يجترئ هذا الجهول أن ينهاه؟! وهل يُنهَى أحد عن مثل هذا الخير؟!

{أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى}

الخطاب في ظاهره موجَّه إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، يُعجِّبه ممَّا يجري من حوله، فهو يُعجِّب من الكافر الشقيّ الذي ينهى عبداً من عباد الله إذا صلَّى،هل هو على هدى عندما منع عبداً من طاعة ربه ؟ أو هو أمر بالتقوى عندما أمرغيره بعدم إطاعة خالقه ؟ لم يكن هذا ولا ذاك .

ويُعجِّبه كذلك أن تصير حال هذا الشقيّ على الهدى، فيُهدى إلى الحقِّ وإلى الصراط المستقيم، ويأمر الناس بتقوى الله وطاعته، واتباع نبيِّه،مكان نهيه عن الصلاة ، كيف يكون حاله؟ وكيف ترتفع درجاته؟ وكيف ينقلب ميزانه؟

والتقوى معروفة، وهي تقوى الله عزَّ وجلَّ، باتقاء ما يُسخطه ويبعده عن مرضاته، وقد مرَّ من قبل حديثنا عن التقوى[364].

{أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}

أخبرني عن حال هذا الرجل إن كذَّب ما جاء به النبيُّون، وأُرسل به المرسلون، من عقائد وعبادات وأخلاق، وأعرض عن التقوى والعمل الصالح، أفلا يخشى أن تنزل به مصيبة، أو تقرعه قارعة تحلُّ بداره، ممَّا لا طاقة له باحتماله.

وجواب الشرط في الآيتين محذوف، كما هو بيِّن في التفسير، وهو من الإيجاز المحمود في القرآن، وقد دلَّ على المحذوف قوله تعالى:

{أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى}

أجهِلَ هذا الكافر المُتجبِّر الطاغية أن الله يرى ويطَّلع على كلِّ شيء، فلا يفوِّت جزاؤه عند الله جلَّ شأنه، فإن كان مستقيما على الهدى، آمرا بالتقوى، فنعمت عاقبته، وإن كذَّب وتولَّى، فيا ويله ثم يا ويله، فلن يُفلت من عقوبة الله التي يستحقُّها.

364- سبق تخريجه صـ .

وعبّر { **بِأَنَّ اللهَ يَرَى**} لأن العرب تزيد الباء في المفعول لتقوية ربط الفعل به بقوة، ومثل ذلك قوله تعالى: {**وهزِّي إليك بجذع النخلة** } [**سورة مريم : 25**] ، ومثله قوله تعالى : { **فليَمْدد بسبَب**} [**سورة الحج: 15**] ،{**ومن يُرد فيه بإلحاد** } [**سورة الحج: 25**]

تهديد ووعيد

{ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ }

{كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ }

{**كَلَّا**}، هنا للردع والزجر، وهو توجيه جديد للطاغية المستكبر، ووعيد له لئلا يستمرَّ في غروره وطغيانه وجهله، فهو عزَّ وجلَّ يقسم هنا: {**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ**}، كأنه يقول: لئن لم ينتهِ هذا المستكبر عن هذا الطغيان، ولئن لم يكفَّ عن نهي المُصلِّي عن صلاته، لنأخذنَّ بناصيته، والأخذ بالناصية مَثَلٌ في القهر والإذلال والتعذيب والنكال.

و{ **لَنَسْفَعًا**} تنطق في حال الوصل :(لنسفعنْ) بنون التوكيد ، أما عند الوقوف عليها فإنها تنطق ألفا كما هي. و(السفع): القبض على الشيء وجذْبه بشدة. و(التاصية): شعر مقدَّم الرأس ، وتطلق أيضا على الجبهة.

{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}

وصفها بعد إعادتها بوصفين مذمومين قبيحين: الكذب والخطيئة، ونسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية مع أن الموصوف بهما هو صاحبهما، لأن الناصية هي مظهر الغرور والتَّعزُّز والكبرياء عند القوم، كما هو معروف. ولإخواننا من رجال الإعجاز العلمي كلام جيِّد ها هنا.

{فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ }

هذا الكافر المستكبر بما عنده من نادٍ وأتباع كثيرين، يأتمرون بأمره، كما روي أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أتُهدّدني، وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا[365]؟!

والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم، ويُطلق أيضاً على القوم أنفسهم.

هنا يقول الله له: {**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**}، هذا النادي الذي يعتزُّ به وبكثرته وبقوَّته، فليدعُه، وليُحضر كلَّ رجاله وأتباعهم، وليحشروا معهم مَن يشاؤون، فنحن: {**سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**}، الزبانية لغة: الشُّرَط وأعوان الولاة. قيل: إنه جمع لا واحد له من لفظه، وقال آخرون: له واحد، قيل: هو (زِبْنِي)، كـ(إنسيّ)، أو (زِبِنية) كـ (عِفْرِية)، أو واحده (زابن)، مأخوذ من الزَّبْن – بفتح فسكون– وهو الدفع بشدّة. ويطلقه العرب على كل قوي شديد البطش، والمراد بهم هنا الملائكة المشار إليهم في قوله تعالى : { **عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ...** }[التحريم :6]

على كلِّ حال، عندما يدعو ناديَه، ويدعو الله سبحانه الزبانية، سيعلم مَن الغالب ومَن المغلوب، ولا شكَّ أنه عزَّ وجلَّ الغالب القادر.

ثبات الرسول الكريم في مخالفة المكذب الطاغي والاستمرار في القرب من الله:

{ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }

أعاد {**كَلَّا**}، مرَّة أخرى، زيادة في الزجر، وتأكيدًا وتبيينًا لموقف الرسول الكريم

في الوقوف مع الحقِّ، والثبات على الخير، فلا ينبغي أن يُصغي لدعوة الطاغي إلى

365- رواه أحمد (3044) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي (3349) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبري (11620)، كلاهما في التفسير، وصححه الألباني في الصحيحة (275)، عن ابن عباس.

النهي عن الصلاة، وليستمرَّ في سجوده لربِّه والاقتراب منه، وأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد[366].

ومن المعروف أن هذه السورة نزلت قبل أن تُفرض الصلوات الخمس، ولكن ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت لهم صلاة قبل أن تُفرض الصلاة، فهذه التي جاءت هذه السورة وأمثالها فيها.

والأصل أن السورة بحسب ألفاظها عامَّة، تخاطب المكلَّفين في كلِّ وقت وزمن، كما ترى، والخطاب فيها موجَّه إلى كلِّ مَن يُخاطَب، وإن كان النبي الكريم هو المخاطب الأول.

366- إشارة إلى حديث: " أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء "، رواه مسلم في الصلاة (482)، عن أبي هريرة.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ * لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ الفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ}

هذه السورة مكيَّة.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ}

الجملة الاسميّة أوكد من الجملة الفعليّة، ثم هي مؤكَّدة بالحرف (إنَّ)، وجاءت بصيغة الجمع للدلالة على تعظيم المنزِّل، والضمير فيها (الهاء) راجع إلى القرآن الكريم، رغم أنه لم يسبق ذكره، ولكنه حاضر في مشاعر الأمة المنزَّل عليها القرآن، والمستمعين إليه، فهو المذكور دائما وإن غاب.

وقد أنزله سبحانه في ليلة ليست كسائر الليالي، بل هي ليلة القدر، والقدر: الشرف والذِّكر، فهي ليلة ذات ذِكر وشرف، وقدر ومقام، وقد ذكرها الله تعالى بمثل ذلك في سورة الدخان حين قال: **{حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}** [الدخان:1-5].

أجمع المفسِّرون على أنَّ المراد: إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، لكنه تعالى ترك التَّصريح بذكر القرآن، واكتفى بضمير الغائب؛ لأن هذا التركيب يدلُّ على عِظَم القرآن من ثلاثة أوجه:

أولها: أنه أسند إنزاله إليه سبحانه، وجعله مختصًّا به دون غيره.

ثانيها: أنه جاء بضميره، دون اسمه الظاهر، شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح.

وثالثها: لتعظيم الوقت الذي أُنزل فيه.

وهنا قد يسأل سائل: ما معنى إنزال القرآن في ليلة القدر، مع أنَّا قد علمنا أنه أُنزل منجَّما؟

ردَّ بعض العلماء على ذلك بأن المراد بالإنزال (الابتداء)، ومعلوم أن الابتداء كان في شهر رمضان، ولهذا جاء عن بعضهم تقدير ليلة القدر في السابع عشر من رمضان.

الثاني: ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: أُنزِل إلى السماء الدنيا جملة ليلة القدر، ثم نزل إلى الأرض نجوما[367].

معنى القدر ولم سمِّيت تلك الليلة بليلة القدر ؟

و(القدْر) مصدر قَدُرَ يقدر، و(القدْر والقدَر) واحد، إلا أنه بالتَّسكين مصدر، وبالفتح اسم.

قال الواحدي: القدْر في اللغة بمعنى التقدير، وهو جعل الشيء على مساواة غيره، من غير زيادة ولا نقصان.

وإنما سُمِّيت بذلك لما قاله الزهري: من أنها ليلة العظمة والشرف. بدليل قوله تعالى: **{لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ الفِ شَهْرٍ}**، وهذا يحتمل وجهين:

أن يرجع ذلك إلى الفاعل، أي من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف.

وثانيها: إلى الفعل قدر زائد، وشرف زائد.

367- رواه النسائي في الكبري في التفسير (11308)، والحاكم في التفسير (222/2)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

وعن أبي بكر الورَّاق: سُمِّيت ليلة القدر؛ لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر، على لسان ملك ذي قدر، إلى أمة لها قدر[368].

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}

يُخاطب الله تعالى رسوله بقوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ}**، أي: وما أعلمك حقيقة ليلة القدر وعظمتها عند الله؟ تفخيم لأمر هذه الليلة، ومقدارها وقيمتها عند الله، فكلمة **{وَمَا أَدْرَاكَ}**، لا تأتي إلا في الأشياء العظيمة: المرجوَّة، أو المخوفة. وهي هنا مرجوَّة؛ لما يعظم فيها من الأجور والطاعات، وهناك أشياء مخوفة، مثل: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ}** [الحاقة:3]، **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ}** [القارعة:3].

فضائل هذه الليلة العظيمة:

{لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ الفِ شَهْرٍ}

هنا يفصِّل الله سبحانه، بعض ما أخفاه من فضائل هذه الليلة العظيمة، التي أنزل فيها القرآن؛ وهي أن العبادة والطاعة وفعل الخير فيها أفضل من العبادة والطاعة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

فإذا كانت بعض الأمم تطول أعمارها أكثر من هذه الأمة، فإن ليلة واحدة أُعطيت لهم يستطيعون أن يحصِّلوا فيها أكثر من كلِّ ما حصَّلته الأمم في أيامها العادية المتطاولة.

وإذا كان الشاعر العربي زهير بن أبي سلمى يقول:

سئمتُ تكاليف الحياة ومَن يعشْ   ثمانين حَوْلا لا أبا لك يسأم

368- تفسير الرازي (229/32).

فاعتبر الثمانين سنة عمراً مديداً، فإنَّ ليلة القدر وحدها تمنح الإنسان عمراً خلاصته ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، ليس فيها ليالي الصبا، التي لا تكليف فيها.

الاختلاف في تعيين هذه الليلة :

ولكن المسلمين اختلفوا في تحديد هذه الليلة إلى أقوال، وصل بها الحافظ ابن حجر إلى تسعة وثلاثين (39) قولا، ولكن جمهور المسلمين على أنها في العشر الأواخر من رمضان، وفي ليالي الأوتار منه، على ما صحَّت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[369]. وإذا كان الشهر يختلف بدءاً وختاماً ما بين بلدة وأخرى، فليس لدينا يقين بأيِّ ليلة تكون، والاحتياط إحياؤها كلها.

وفي الحديث: "التمسوها في العشر الأواخر". وكان الرسول الأكرم يُحيي العشر الأواخر كلَّها من رمضان، ويوقظ نساءه ليحيينها معه، ويقول: "مَن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه"[370]، "التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز، فلا يُغلبنَّ على السبع البواقي"[371]، "التمسوها في العشر الأَواخر، في تاسعة تبقى، أَوْ سابعة تبقى، أو خامسة تبقى"[372].

والسرُّ في عدم تعيين ليلة القدر من شهر رمضان، ليكون الشهر كله لا سيما العشر الأخيرة منه ظرفا لطلبها ، ليذكر المؤمنون ويشكروا نعمة الله عليهم في إنزال القرآن.

369- منها: " إني أريت ليلة القدر، ثم أنسيتها - أو نسيتها - فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر ...." متفق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (2016)، ومسلم في الصيام (1167)، عن أبي سعيد الخدري.
وحديث: " تحروا ليلة القدر في الوتر، من العشر الأواخر من رمضان "، متفق عليه: رواه البخاري في فضلة ليلة القدر (2017)، ومسلم في الصيام (1169)، عن عائشة.

370- متفق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (2014)، ومسلم في صلاة المسافرين (760)، عن أبي هريرة.

371- رواه مسلم في الصيام (1165) وأحمد (5485) ، عن ابن عمر.

372- رواه البخاري في فضلة ليلة القدر (2021)، عن ابن عباس.

{تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}

من فضائل هذه الليلة الرمضانية المباركة: أنها تتنزَّل فيها الملائكة الأطهار ، وتهبط افواجاً من السماء إلى الأرض، لتهنِّئ العباد، وتشاركهم فرحتهم الموسمية.

{وَالرُّوحُ فِيهَا}، ذلكم الملك الكبير من الملائكة الأبرار في تلك الليلة، لعله جبريل الذي قال الله فيه في سورة الشعراء، حين حدَّثنا عن نزول القرآن: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}** [الشعراء:193]. ونزولهم من السماء إلى الأرض مُرتَّب، كما قال تعالى: **{بِإِذْنِ رَبِّهِمْ}**، فكلُّ خطوة من الخطوات، وكلُّ مرحلة من المراحل، وكلُّ شكل من الأشكال، مأذون به من الله جلَّ جلاله.

{مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}، أي تتنزَّل الملائكة والرُّوح فيها من أجل كلِّ أمرمقدّر فيه مصلحة للخلائق، وخير لبني الإنسان.

وإنما عبّر بالمضارع**{تَنَزَّلُ}** لحكاية الحال واستحضارها في الذهن لعظمتها. و"من" في قوله : **{مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}**سببيَّة ،يعني أن تنزّل الملائكة سببه تلك الأمور. وقد تكون " من " للتعليل ، أي: لأجل الأمور المذكورة .

{سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ}

هذه الليلة ليلة سلام من كلِّ شر، ومن كلِّ آفة، ومن كلّ خوف، من أوّلها حتى وقت طلوع الفجر؛ لدعاء الملائكة وتحياتهم .فطاعة الله في هذه الليلة سبب للسلامة والنجاة من كل مخوف في الدنيا والآخرة ، ويستمرُّ نزول الملائكة على العباد فوجا بعد فوج إلى طلوع فجرها..

يقال: طَلَعَ الفجر يطلُع طلوعاً ومطلَعاً، ووزن مطلع: مفْعَل، اسم زمان من مصدر طلع. و{**مَطْلَعِ الفَجْرِ**}، أي: طلوع الفجر، وهو انكشاف ظلمة الليل عن نور الصبح.

فما أكرمها من ليلة، وما أعظم حظَّ مَن وُفِّق إليها، فقام ليلها كلَّه، حتى غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه.

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

{لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ (5) إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ (6) إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ (7) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)}

السورة مدنيَّة على القول الصحيح.

محمد رسول الله: البيّنة الواضحة والحُجَّة الظاهرة

{لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) }

{لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ}

تحدَّثت السورة عن صنفين ممَّن حُكم عليهم بالكفر، وهم الذين كفروا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى.

والآخرون هم المشركون من عَبَدَة الأوثان والنِّيران من العرب.

قالت الآية عن هؤلاء وهؤلاء **{الذِينَ كَفَرُوا}**: إنهم ليسوا بمنفكِّين أو منتهين عن ذلك حتى يتبيَّن لهم الحقُّ: **{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ}**، والبيّنة هنا هي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو البيِّنة الواضحة، والحُجَّة الظاهرة.

كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

وكُفر هؤلاء من أهل الكتاب من اليهود والنصارى كان واضحاً مكشوفاً، فاليهود أدخلوا الشِّرك على التَّنزيه الإيمانيّ الأصيل، والنصارى أدخلوا التثليث على التوحيد الأصيل، وأدخل كلٌ منهما البنوَّة لله زوراً على الحقيقة العليا: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}** [التوبة:30].

والقرآن يبيِّن للجميع أن هؤلاء وهؤلاء لن ينفكُّوا عمَّا قالوه، ولن يخرجوا منه، حتى تأتيَهم البيِّنة بما في القرآن الذي يجيئهم به محمد، ويقرؤه عليهم، ويتحدَّاهم به، ويعجزون عن مواجهة التحدِّي.

فالبيّنة المذكورة في الآية، فُسِّرتْ في الآية التالية لها بأنها: (رسول الله)، كما قال تعالى: **{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}**، فرسول الله الذي يتلو صحفاً مطهَّرة هو محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يتلو هذه الصُّحف بتلاوة القرآن الكريم، فيُمكن أن يُقال بسبب ذلك: أن البيِّنة هي: (القرآن)، باعتبار أن الرسول يتلوه ويبيِّنه.

ولكن الأوْلَى بالسياق أن نأخذ بظاهر ما جاء به، وهو قد جاء بقوله: **{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ}**، فهذا في غاية البيان والوضوح.

{يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}

وصف الرسولَ الآتي من الله تعالى بأنه يتلو ويرتل بالوحي عن ظهر قلب صحفاً مُطهَّرة، وهي الصحف التي يتلقَّاها، من القرآن، فيحفظها ولا ينساها، كما قال تعالى: **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}** [الأعلى:6].

وهي صحف مُطهَّرة، منزّهة خالية عن كل باطل فلا يُذكر فيها باطل بوجه من الوجوه، كما قال تعالى: **{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ**

حَمِيدٍ} [فصلت:42]، وقال تعالى: **{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ}** [عبس:13-14].

وفي هذا الوصف**{مُطَهَّرَةً}** تعريضٌ بما عند أهل الكتاب من الخلط في كتبهم التي بايديهم ، وباحتياجهم الشديد إلى هذا الدين ، كالمشركين .

ومعنى أنها مُطهَّرة أيضاً : أنها مُطهَّرة عن الذكر القبيح، فإنَّ القرآن يُذكَر بأحسن الذكر، ويُثنَى عليه بأحسن الثناء.

ومن معاني الطهارة التي يتميَّز بها القرآن، قوله تعالى: **{فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُونَ}** [الواقعة:78-79].

وفي هذه الآية إعجاز من القرآن بإخبار عن أمر غيبيّ، وهو كتابة هذا القرآن في الصحف، إذ أنه لم ينزل صحفاً، بل وحياً على قلب رسول الله ، وسيبقى محفوظاً مُطهَّراً من التلاعب والتغيير .

{ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) }

ثم وصف هذه الصحف المُطهَّرة بقوله: **{ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ }**أي : ذات قيمة لما فيها من الحق، أو مستقيمة ناطقة بالحق والصواب.وهي ما في القرآن من الأحكام والبيانات والهدايات، وكذلك ما اشتمل عليه ممَّا صحَّ من كتب الأوَّلين ، كصُحُف إبراهيم وكتاب موسى، وكتاب عيسى عليهم السلام، فإنها موجودة في ضمنه.

تفرُّق أهل الكتاب بعد قيام الحجَّة عليهم

{وَمَا تَفَرَّقَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ (5) }

{وَمَا تَفَرَّقَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ}

ومن عجب أمر هؤلاء الكفَرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومَن لحق بهم: أن تفرُّقهم وتشرذمهم إنما وقع وتحقَّق بعد أن أتتهم البيِّنة، وقامت عليهم الحجَّة، وطاردتهم الأدلَّة هنا وهناك.

{وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ}

وما أُمر هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم إلا ليعبدوا الله مخلصين له العبادة والطاعة، **{حُنَفَاءَ}** : مائلين عن جميع العقائد الزائفة، أي أن الله تعالى أمرهم بالعبادة الخالصة لله، لا العبادة التي فيها شرك مع الله، ولا العبادة التي فيها رياء للناس؛ لأن المطلوب عمل خالص لوجه الله، لا يُراد به أحد سواه، مائلين عن منهج الشرك والانحراف عن سَنَن الإخلاص.

وهذا كقوله تعالى في سورة الأنبياء: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إليه أَنَّهُ لَا إله إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء:25]. ولهذا قال: **{حُنَفَاءَ}**، أي متحنِّفين عن الشرك إلى التوحيد، لأن الحَنَف هو الميل، كقوله: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** [النحل:36].

{وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ} إقامة مستوية لا يشوبها أيُّ لون من الشِّرك صغُر أو كبُر ، وهي أشرف عبادات البدن.

{وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ}، يؤدُّوا زكاة أموالهم لوجْه الله تعالى، وهي العبادة المالية التي تُحسن إلى الفقراء والمحتاجين.

{وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ}، وذلك الذي ذُكِر من المأمور به هو دين الرسالة القيّمة، التي أنزل الله بها كتبه، وبعث بها رسله، وقامت عليها بيِّنته.

وسواء فسَّرنا {**الْقَيِّمَـةِ**} بالملَّة، أم الأمَّة، فالمعنى: ذلك دين الملَّة القائمة العادلة، أو دين الأمّة المستقيمة المعتدلة.

جزاء الفريقين: الكافرين والمؤمنين

{إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ * إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}

يخبر تعالى عن مآل الفجَّار من أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزَّلة، وأنبياء الله المرسلة؛ أنهم يوم القيامة: **{فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا}**، أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون، وعلل ذلك بقوله:**{أُولَئِكَ }** البعداء عن رحمة الله المنحطُّون في الدركات **{همُْ شَرُّ البَرِيَّةِ}**، أي: شرُّ الخليقة التي برَّأها الله وذرأها.

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار – الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم – بأنهم **{خَيْرُ البَرِيَّةِ}**أفضل البشريَّة وأكثرهم خيريّة ؛لأنهم حقَّقوا معنى الإنسانيَّة التي شرّفهم الله بها، بسبب إيمانهم الصحيح الصادق، وأعمالهم الصالحة المرضية، ولأنهم دعَوا غيرهم بحُسْن الأسوة إلى مثل ما هُدوا إليه من الحق والخير . فمن يكون أفضل منهم ؟

وقد استدلَّ بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البريَّة على الملائكة؛ لقوله: **{أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ}**.

ثم قال تعالى مبيّناً ثوابهم ومكافأتهم على ما قدّموا من الإيمان والعمل الصالح : **{جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}**، أي: يوم القيامة، **{جَنَّاتُ عَدْنٍ }**أي: إقامة دائمة **{ تَجْرِي}**أي: تسيل بسرعة **{ مِنْ تَحْتِهَا}**أي: من تحت قصورها **{ الأَنْهَارُ}**من الماء والخمر والعسل واللبن **{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}**على امتداد الزمن، أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ.

{**رَضِـيَ اللَّهُ عَـنْهُمْ** }قبل أعمالهم وأكرمهم بفضله ورحمته، { **وَرَضُـوا عَنْـهُ**}فرحوا واطمأنوا وسعدوا فيما منحهم من الفضل العميم . ومقام رضاه عنهم أعلى ممَّا أُوتوه من النعيم المقيم.

وقوله تعالى: {**ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**}، أي: هذا الجزاء العظيم والرضا الكبير حاصلٌ لمَن خشيَ الله واتَّقاه حقَّ تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

حتى لا يظن أن هذا الثواب العظيم يناله بمجرَّد الإيمان الوراثي دون خشيةٍ من الله توجب تعظيم الله وشدة حبه ، فهذا الجزاء لا يناله إلا من ملأت خشية الله قلبَه ، فلايصلّي إلا خاشعاً، ولا ينفق إلا لوجه الله، وإذا وقع في معصية سارع إلى التوبة منها .

روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بخير البريَّة؟". قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: "رجل آخذ بعِنان فرسه في سبيل الله، كلَّما كانت هيعة استوى عليه. إلا أخبركم بخير البريَّة؟". قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: "رجل في ثُلة من غنمه، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة. إلا أخبركم بشرِّ البرية؟" قالوا: بلى. قال: "الذي يسأل بالله ولا يُعطي به"[373].

373- رواه أحمد (9142) وقال مخرجوه: حديث صحيح.

*سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)}

السورة مكيَّة على القول الصحيح، وتُسمَّى سورة الزلزلة.

{إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا}

هذه السورة من السور التي تبدأ بكلمة (إذا)، كما رأينا ذلك في سورة التكوير والانفطار والانشقاق، وقبل ذلك في سورة الواقعة والمنافقون، وكما سيأتي بعد ذلك في سورة النصر.

ومن المعلوم في علم النحو أنَّ (إنْ) تُستعمل في المحتمل والمشكوك في وقوعه، أما (إذا) فلا تستعمل إلا فيما يتحقَّق وقوعه. ولذلك استعملها هنا ولم يستعمل (إن).

كان الناس يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم: متى الساعة؟ كما قال تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ}** [الأعراف:187]، **{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ}** [الأحزاب:63].

ولكن لا مانع أن ينبِّئهم بعض علاماتها التي تسبق وقوعها، وتُمهِّد لها، فكأنه تعالى قال: لا سبيل إلى تعيين وقتها، ولكن أعيِّنه بحسب علاماته وأماراته.

والزِّلزال – بكسر الزاي– المصدر، وبالفتح الاسم. مثل الوِسواس – بكسر الواو – المصدر. وبالفتح: الاسم، فهو اسم للشيطان، الذي يوسوس اليك.

ومعنى {**زُلْزِلَتِ**}: حُرِّكت حركةً شديدة، يُعبَّر عنها أحيانا باسم (الرج)، كما قال تعالى: {**إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا**} [الواقعة:4]، وقد قال تعالى في وصف هذه الزلزلة، في أول سورة الحج: {**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**} [الحج:1].

وما المراد من هذه الزلزلة؟

(قال مجاهد: المراد من هذه الزلزلة: النفخة الأولى، كقوله: {**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**} [النازعات:6]، أي تُزلزل في النفخة الأولى، ثم تزلزل ثانيا فتُخرج موتاها، وهي الأثقال.

وقال آخرون : هذه الزلزلة هي الثانية، بدليل أنه تعالى جعل من لوازمها: أنها تخرج الأرض أثقالها، وذلك إنما يكون في الزلزلة الثانية.

ومعنى {**زِلْزَالَهَا**} أي: القدر اللائق بها في الحكمة، كقول: أكرم التقي إكرامه وأهان الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة.

وكذلك يمكن أن يُراد {**زِلْزَالَهَا**} كلَّه، وجميع ما هو ممكن منه. والمعنى: أنه وجد من الزلزلة كل ما يحتمله المحل)[374].

{وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا}

أثقالها: جمع ثِقْل – بكسر فسكون – وهو ما تنوء الأرض به. مثل: متاع البيت

وغيره. قال تعالى في الأنعام: {**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلى بَلَدٍ**} [النحل:7]، جعل ما في

جوفها من الدفائن أثقالاً لها. قالوا: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها،

374- تفسير الرازي (254/32).

وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها، ولهذا سُمِّي الجن والإنس بالثقلين؛ لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا في بطنها، ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها.

وقيل: المراد من هذه الزلزلة: الزلزلة الأولى يقول: أخرجت الأرض أثقالها، يعني: الكنوز. فيمتلىء ظهر الأرض ذهبًا، ولا أحد يلتفت إليه، وهو الذي كانوا يتقاتلون من أجل شيء منه.

ومَن قال: المراد من هذه الزلزلة الثانية، وهي بعد القيامة. قال: تخرج الأثقال، يعني الموتى من بطنها أحياء، كالأم تلده حيًّا. وكما قال تعالى: {**يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**} [القمر:7].

وهناك معنى آخر لإخراج الأثقال: أي: أن الأرض تكشف أسرارها ومُخبَّآتها، فيومئذ لا يعرف أحد كيف يواري سوءاته، كما قال تعالى: {**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ**} [ق:22]، {**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**} [مريم:38].

{وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا؟}

وهنا يقول الإنسان لما دهاه من المفاجأة : ما لهذه الأرض، تزلزل هذه الزلزلة الشديدة، وتتحرَّك هذه الحركة الهائلة، وتلفظ ما في بطنها!! وذلك إما عند النفخة الأولى، حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن، أو عند النفخة الثانية، حين تلفظ ما فيها من الأموات.

وهذا شأن الإنسان عامَّة، فهو كما وصفه القرآن الكريم كنود ظلوم جهول، من شأنه الغفلة والجهالة، يقول: ما لها! وهو ليس بسؤال بل هو للتعجُّب، لما يرى من

العجائب التي لم تسمع بها الآذان، ولا نطق بها لسان. ولهذا قال الحسن: إنه للكافر والفاجر معًا[375].

وإنما قال الإنسان: ما لها؟ على غير المواجهة؛ لأنه يعاتب بهذا الكلام نفسه، كأنه يقول: يا نفس، ما للأرض تفعل ذلك؟ أنت السبب، يا نفس، فلولا معاصيك ومظالمك، ما صارت الأرض كذلك!

وهذا كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}** [الحج:1]، وقوله: **{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}** [الانشقاق:4-5].

وروى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة مرفوعا: " تقيء الأرض أفلاذ كبدها، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلتُ. ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي. ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي. ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا"[376].

قال ابن كثير: (وقوله: **{وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا}** أي: استنكر أمرها بعد ما كانت قارَّة ساكنة ثابتة، وهو مستقرٌّ على ظهرها، أي: تقلَّبت الحال، فصارت متحرِّكة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أُعد لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأوَّلين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدَّلت الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار)[377].

{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}

في هذا اليوم تُحَدِّث الأرض الخلقَ بأخبارها، وتخبرهم بما عندها، وما تضمره من أسرارها، فيومئذ يتبيَّن لكلِّ أحد جزاء عمله، فكأنَّ الأرض حدَّثته بذلك، كقولك:

375- انظر: تفسير الرازي (255/32).
376- رواه مسلم في الزكاة (1013) عن أبي هريرة.
377- تفسير ابن كثير (460/8).

الدار تحدِّثنا بأنها كانت مسكونة. والمقصود: كأن الأرض تشكو من الطغاة والعصاة عليها، وتشكر مَن أطاع الله وأدَّى حقَّه على ظهرها. فتقول: إنَّ فلانا أقام الصلاة وأدَّى الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وفلانا فرَّط في ذلك وسرق وزنى وجار وطغى، حتى يودُّ الكافر أن يُساق إلى النار.

وقد ورد أن سيدنا عليًّا رضي الله عنه: إذا فرغ بيت المال بأدائه الحقوق، صلَّى فيه ركعتين ويقول: لتشهدنَّ أني ملأتُك بحقٍّ، وفرَّغتك بحقٍّ[378].

وقد يقال: إن لفظ التحديث يفيد الاستئناس، وهناك لا استئناس، فما وجه هذا اللفظ؟

والجواب: أن الأرض كأنها تبثُّ شكواها، إلى أولياء الله وملائكته والمؤمنين به سبحانه.

{بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}

تحدِّثهم الأرض بأن ربَّك الذي يُربِّيك ويُرقِّيك، وهو الله تبارك وتعالى، أوحى إليها بما أوحى، والوحي والإيحاء هو الإعلام بخفاء. وأنشدوا للعجاج:

أوحى لها القرار فاستقرت

وإنما أوحى لها بما أوحى، لتشتفي الأرض من العصاة والطغاة.

{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُم}

الصدور ضد الورود. فالوارد: الجائي. والصادر: المنصرف. وأشتاتاً: متفرِّقين.

{لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}، أي: ليريَهم الله أعمالهم، أي: ليشاهدوها كما عملوها، فتكون حجَّة بالغة عليهم، **{اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** [الإسراء:14].

378- انظر: تفسير الرازي (255/32).

وما قاله بعض المفسِّرين أنهم يرون جزاء الأعمال، أو صحائف الأعمال، أو الجنة والنار، وإنما أوقع اسم العمل على الجزاء، لأنه جزاء وفاق، فكأنه نفس العمل، بل المجاز في ذلك أدخل من الحقيقة.

وهذا كلُّه إخراج للكلام عن حقيقته، وعن ظاهره، وبدون داعٍ إلى ذلك، فالأولى إبقاء الكلام على الحقيقة لا على المجاز، إذ لا دليل على مشروعية تحويل الكلام من الحقيقة إلى المجاز. وسنعود إلى هذا الموضوع في سورة القارعة.

{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}

مثقال ذرَّة من خير: أدنى ما يُقاس من الخير، قال تعالى: **{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}** [لقمان:16]، وقال في سورة الأنبياء: **{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}** [الأنبياء:47].

فإن كان المثقال أدقُّ وأصغر: مثقال الذرَّة، أو مثقال حبَّة الخردل، سيأتي بها الله، ويُحاسب عليها، ولا يضيع عنده شيء. وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها، فكل واحد مما لزق بها من التراب مثقال ذرة، فليس من عبد عمل خيرا أو شرًّا، أو قليلا أو كثيرا، إلا أراه الله إياه[379].

شرط قبول العمل: أن يكون مؤسَّسًا على الإيمان:

وشرط قبول العمل عند الله: أن يكون مؤسَّسًا على الإيمان: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} [الأنبياء:94]، {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}

379- انظر: تفسير الرازي (256/32).

[النساء:124]، {وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء:19].

يجب أن يتحقَّق شرط الإيمان: الإيمانُ بالله خالق هذا الكون، أما إذا لم يكن مُعترفًا به فكيف يكافئه؟ كيف تطلب من مَلِكٍ أن يكافئك وأنت غير معترف بملكه، تقول: إنه لا يستحقُّ الملك لا يمكن أن يُكافئك. فالذي يكفر بالله لا يُنتظر منه أن يكافئه.

نتيجة أعمال الخير من الكافر:

هل معنى هذا أنه يضيع عمله الخيِّر تمامًا؟ لا يكافأ عليه إطلاقا؟!

أما في الآخرة فلا أثر لعمله هذا في دخول الجنة.

السيِّدة عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ابن جُدْعان كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِم، ويُطْعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟

قال: "لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين"[380]. لم يذكر ربَّه في يوم من الأيام، عملُهُ غير مؤسَّس على الإيمان. لم يقل: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

يقول بعض الناس: الذي اخترع الكهرباء يدخل النار!! الذي اخترع الإنترنت يدخل النار؟

والجواب: هل عملها لله عزَّ وجلَّ أم لأمر دنيويٍّ؟!

الإنترنت أصله ـ كما قرأتُ ـ عند وزارة الدفاع الأمريكية، فاكتشفت هذه الوسيلة من الاتِّصالات، وكان خاصًّا بالجيش الأمريكي، ووزارة الدفاع، ثم بدأت تُعمِّمه على الناس شيئًا فشيئًا، ولم تكن تريد خدمة البشريَّة.

لا بد لقبول العمل الصالح: أن يكون القصد هو وَجْهَ الله عزَّ وجلَّ. وليس معنى هذا أنه لا يكافأ على عمل الخير إطلاقًا.

مكافأة الكفار على عمل الخير:

يُكافئ الله تعالى الكافر على عمل الخير في صورتين:

في الدنيا يُوسِّع له في الرزق، ويُعطيه مَجْدًا وجاهًا وأولادًا، ويُبارك له في صحَّته. وكلُّ هذه من المكافآت الدنيويَّة مقابل أعماله الخيِّرة.

---

380 - رواه مسلم في الإيمان (214)، وأحمد (24621).

وفي الآخرة لا يساويه بالظَّلَمة المُعذَّبين.

هناك كَفَرةٌ فقط، وهناك كَفَرة وظَلَمة: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا} [النساء:168]، هناك كافر فقط، وهناك كافر ظالم، ليس مُجرَّد كافر، فَعَل البلايا والمصائب بالبشر، وقتل العشرات أو المئات أو الألوف أو الملايين من الناس، فعلوا بشعوبهم ما فعلوا، هؤلاء لا يكونون مثل غيرهم من الكفار.

الله سبحانه وتعالى يقول: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل:88]، ويقول الله سبحانه عن مؤمن آل فرعون: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر:45،46]، فهناك عذابٌ شديد، وهناك أشدُّ العذاب.

الكافر الذي فعل أفعالاً في ميزان الخير تنفع الناس يكافئه الله بأنه يُخفَّف عنه من العذاب يوم القيامة، هذا من فضل الله تبارك وتعالى، ويسير مع القانون الذي يقول: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:7،8]، فهذا الخير الذي فعله الكافر رأى نتيجته في الدنيا، ورأى نتيجته بوجهٍ ما في الآخرة.

ما جاء في السورة من الحديث:

روى الإمام أحمد في مسنده، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فقال: أقرئني يا رسول الله. قال له: "اقرأ ثلاثا من ذات الر". فقال له الرجل: كبر سنِّي، واشتدَّ قلبي، وغلظ لساني. قال: "فاقرأ من ذات حم". فقال مثل مقالته الأولى. فقال: "اقرأ ثلاثا من المسبِّحات"، فقال مثل مقالته. فقال الرجل: ولكن أقرئني – يا رسول الله– سورة جامعة. فأقرأه: "إذا زلزلت الأرض زلزالها". حتى إذا فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحقِّ، لا أزيد عليها أبدًا. ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفلح الرويجل! أفلح الرويجل!". ثم قال: "عليَّ به". فجاءه فقال له: "أمرت بيوم الأضحى جعله الله عيدا لهذه الأمة". فقال له الرجل: أرأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحِّي بها؟ قال: "لا. ولكنك تأخذ من

شعرك، وتقلّمِ أظفارك، وتقصُّ شاربك، وتحلق عانتك، فذاك تمام أضحيتك عند الله، عزَّ وجلَّ"[381].

381- رواه أحمد (6575) وقال مخرجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (1399)، الحاكم في التفسير (2/ 532)، وصححه على شرط الشيخين. وقال: بل صحيح.

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)}

السورة مكيَّة على القول الصحيح.

القسم بالخيل وأوصافها على جحود الإنسان وشدة حبه للمال

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخيْرِ لَشَدِيدٌ (8) }

هذه السورة المكيَّة، تتضمَّن قسماً ومُقسَماً به، ومُقسَماً عليه، وتعقيباً على هذا القسم.

وقد اعتاد القرآن الكريم، أن يقسم لنا بهذه الأشياء، التي يعبِّر عنها بجمع الألف والتاء، أو ما يسمُّونه جمع المؤنث السالم، وقد تكرَّر كثيراً في هذا القرآن، وفي أوائل السور خاصَّة، مثل سورة: **{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا}**، وسورة: **{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا}**، وسورة: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}**، وسورة: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}**، ثم سورة: **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}**، وكلُّها سُور مكيَّة عند المُحقِّقين.

وهذا القسم، يشير إلى معنى (القوَّة) التي يهتمُّ بها القرآن، كما تقدم في مقصد هذه السورة .

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}

العاديات جمع عادية، من العَدْو، وهو الجَرْيُ والوَثْب، التي تقوم به الخيل الغازية؛ التي تنزل على الأعداء كالصاعقة، تضبَح ضبْحا.

والضَّبْح: أصوات أنفاس الخيل إذا عَدَتْ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمْحمَة، ولكنه صوت نفَس. وأريد به هنا اسم الفاعل الواقع حال من العاديات، أي: والعاديات حال كونها ضابحات، أي: مرتفعات أصوات أنفاسها.

والواو في أول السورة للقسم، فهو سبحانه يقسم بالخيل العاديات، وهو عزَّ وجلَّ، له أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، كما بيَّنا ذلك في النازعات وغيرها.

قال الفخر الرازي: (واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تُنادي أن المراد هو الخيل، وذلك لأن الضَّبْح لا يكون إلا للفرس ... وأيضاً فالقدْح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل.

وقد أقسم الله بالخيل؛ لأنَّ لها في العَدْو من الخصال الحميدة، ما ليس لسائر الدواب، فإنها تصلح للطلب والهرب، والكرِّ والفرِّ، فإذا ظننتَ أنَّ النفع في الطلب عدوتَ إلى الخصم لتفوز بالغنيمة، وإذا ظننتَ أن المصلحة في الهرب قدرت على أشدِّ العدو، ولا شكَّ أن السلامة إحدى الغنيمتين، فأقسم تعالى بفرس الغازي لما فيه من منافع الدنيا والدين)[382] اهـ.

{فَالمُورِيَاتِ قَدْحًا}

382- تفسير الرازي (259/32).

الموريات: جمع مورية من الإيراء.وهو إخراج النار من الحجر بالزناد .كما قال تعالى في سورة الواقعة{أفرأيتم ما تورون}

يقسم الله تعالى بالخيل التي يركبها الغزاة، تُوري في حوافرها بالحجر من شدَّة العَدْو، فتضرب به حجراً آخر، فتُوري النار وتقدحها قدحاً. والقدح: الصدم والضرب.

هكذا يُصوِّرها القرآن، وبعضها يعدو وراء بعض، نسمع الضبح من حناجرها، ونرى القدح من حوافرها.

{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}

المغيرات: جمع مُغيرة، من الإغارة، وهي سرعة السَّيْر في اندفاعٍ إلى العدوِّ المرتَقَب. يبدؤون من الليل، ليصلوا إليه في الصباح، فيستطيعوا أن ينالوا منه ما ينالون، فإن الصباح له أعين يستبين بها ما لا يُستبان بالليل، والناس عادة يكونون في هذا الوقت في غفلة وعدم استعداد، والشاعر يقول:

نحن الذون صبَّحوا الصباحا   يوم النخيل غارة ملحاحا

والعطف هنا في هذه الآيات بالفاء، وهي التي تفيد الترتيب والتعقيب، لا الترتيب والتراخي، كما تفيده (ثم)، ولذا قال: **{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}**.

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}

{فَأَثَرْنَ}: هيّجن ، **{نَقْعًا}**:غباراً شديداً بسبب شدّة حركتهنّ.

قال الفخر الرازي: (النقع: فيه قولان: أحدهما: أنه الغبار، قيل: إنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع، فالغبار يُسمَّى نقعا لارتفاعه. وقيل: هو من النقع في الماء، فكأن صاحب الغبار غاص فيه كما يغوص الرجل في الماء.

والثاني: النقع: الصياح[383]، من قوله عليه الصلاة والسلام: "ما لم يكن نقع[384] ولا لقلقة"[385]. أي فهيَّجن في المُغَارِ عليهم صياح النوائح، وارتفعت أصواتهن. ويقال: ثار الغبار والدخان: أي ارتفع. وثار القطا عن مفحصه، وأثرن الغبار أي هيَّجنه. والمعنى: أنَّ الخيل أثرن الغبار؛ لشدة العَدْو في الموضع الذي أغرن فيه.

والضمير في قوله: **{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}**، يعود إلى العَدْو، المفهوم من قوله: **{وَالْعَادِيَاتِ}**، أي فأثرن بالعَدْو نقعًا. أو يعود إلى المكان الذي انتهى إليه، والموضع الذي تقع فيه الإغارة، لأن في قوله: **{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}**، دليلاً على أن الإغارة لا بدَّ لها من موضع، وإذا عُلم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجرِ ذكره بالتصريح، كقوله **{إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}** [القدر:1]، أو يعود إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة، أي: فأثرن في ذلك الوقت نقعا.

وعطف فعل **{فَأَثَرْنَ}**، على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه. والتقدير: واللائي عدون فأورين، وأغرن فأثرن.

{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}

هذه الخيل العاديات التي تضْبَح ضبْحاً، وتُوري قدحاً، وتُغير صبحاً، وتُثير نقعاً، ينتهي بها هذا الصخب، فتوسط جمعاً بهذا النَّقع الذي تُثيره.

وهذه الصفات والحركات كلُّها في وصف الفرس الغازية في سبيل الله، وهو متَّفق مع ما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيل معقود بنواصيها الخير"[386]، وقالوا: ظهرها حرز، وبطنها كنز.

383- مكتوبة بالباء، وأظنها (الصياح) بالياء، بدليل الاستدلال.
384 - أي: رفع الصوت بالبكاء.
385- أي: شدت الصوت.
386- متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (2852) ومسلم في الإمارة (1873) عن عروة بن أبي الجعد.

وهذا كلُّه في المُقسَم به من الله تعالى، أما المُقسَم عليه، فتذكره الآيات التالية.

{إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}

أول ما أقسم الله عليه هو الكنود الطبيعي للإنسان.والمراد: أغلب أنواع الإنسان، وإلا فمن عصمه الله لا يكون هكذا.

والكُنود: منع الحقِّ والخير، والكَنود: الذي يمنع ما عليه. والأرض الكَنود: هي التي لا تُنبت شيئاً.

والمفسِّرون قالوا: الكنود هو الكفور. وفي بعض ما ورد: أنه الذي يمنع رفده، ويأكل وحده، ويضرب عبده[387].

وقال الحسن: اللوَّام لربِّه، يعدُّ المحن والمصائب، وينسى النعم والراحات، وهو كقوله: **{وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَه فَيَقُولُ رَبِّى أَهَـانَنِ}** [الفجر:16][388].

ومعنى هذا أن طبع الإنسان يحمله على ذلك، إلا مَن عصمه الإيمان بالله وباليوم الآخر، فرقَّق من طبعه، وخفَّف من حرصه، وخالطت قلبه البشاشة.

{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}

أي: الإنسان يشهد على ذلك بنفسه، وأنه كنود جحود ، فهو أمر ظاهر لا يمكنه أن يجحده، ولا داعي لإرجاع الضمير هنا إلى الله تعالى؛ لأن جملة الكلام كلِّه من الإنسان وخصاله.

{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخيْرِ لَشَدِيدٌ}

387- رواه الطبري في تفسيره (587/24)، من قول أبي أمامة .
388- انظر: تفسير الرازي (261/32).

وإنَّ هذا الإنسان لحبِّ الخير – أي: المال الكثير – لشديد فيبخل به. بل شدَّة حبه للمال تحمله على معارضة الرسل ومقاومة الإصلاح حفظاً لمركزه الزائف وماله المكنوز.

والقرآن كثيراً ما يُسمِّي المال خيراً، خصوصاً إذا أُنفق في وجهه؛ لأنَّ الناس يعدُّون المال فيما بينهم خيراً، قال تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا}** [البقرة:180]، **{وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا}** [المعارج:21]، **{قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ}** [البقرة:215]، أي: ما أنفقتم من مال.

توعُّد الحريصين على المال الناسين مآلهم يوم القيامة

{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)}

هذا هو الجزء الأخير من السورة، وهو تعليق على ما مرَّ منها، وهو القسم والمُقسَم به. وفيه عدَّد خصال الإنسان وطبائعه الغالبة.

ذكر أنه تعالى ليس بغائب عمَّا يجري في هذا الكون، ولا ببعيد عما يدور في خَلَد الإنسان وفكره وطبيعته.

{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ}

ومعنى بُعثر، أي: بُعث وأُثير وأُخرج **{مَا فِي القُبُورِ} من الموتى** .وقد قال تعالى: **{وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ}** [الانفطار:4].

{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}

أي: مُيِّز ما في الصدور، قالوا: الحاصل من كلِّ شيء، ما بقي وثبت، وذهب ما سواه. والتحصيل: تمييز ما يحصل. والاسم: الحصيلة. قال لبيد:

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه إذا كُشِّفَتْ عندَ الإلَهِ المَحاصِلُ

ومعنى **{وَحُصِّلَ}**: جُمع من الصحف، أي: أُظهر مُحصَّلاً مجموعاً.

كما أنه لا بدَّ من التمييز بين الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحظور، فإن لكلِّ واحد حكماً على حدة، فتمييز البعض عن البعض، وتخصيص كلِّ واحد منها بحكمه اللائق به، هو التحصيل. ومنه قيل: للمنخل المُحصِّل.

وأيضاً كثيراً ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره، أمّا في يوم القيامة فإنه تتكشَّف الأسرار، وتُنتهك الأستار، ويظهر ما في البواطن كما قال تعالى: **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ}** [الطارق:9].

قال الفخر الرازي: (واعلم أن حظَّ الوعظ منه أن يُقال: إنك تستعد فيما لا فائدة لك فيه، فتبني المقبرة، وتشتري التابوت، وتفصِّل الكفن، وتغزل العجوز الكفن. فيقال: هذا كلُّه للديدان، فأين حظُّ الرحمن؟

بل المرأة إذا كانت حاملا، فإنها تعدُّ للطفل ثيابًا، فإذا قلتَ لها: لا طفل لكِ، فما هذا الاستعداد؟ فتقول: أليس يبعثر ما في بطني؟

فيقول الربُّ لك: إلا يبعثر ما في بطن الأرض، فأين الاستعداد؟)[389].

{إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ}

أفلا يعلم الإنسان الكَنود لربِّه، المحبُّ لماله، الشحيح به، عندما تُكشف الأستار، وتظهر الأسرار يوم القيامة: أن الله الذي خلقهم ورزقهم وربَّاهم، خبير بهم وبأحوالهم وبواطنهم، لا يخفى عليه شيء، **{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}** [إبراهيم:38].

389- تفسير الفخر الرازي (263/32).

وإنما قال {**بِهِمْ**}، بصيغة الجمع؛ لأن الإنسان المذكور في السورة، في معنى الجمع، كقوله تعالى: {**إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**} [العصر:2]، ثم قال: {**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**} [العصر:3]؛ دلالة على أنه للجمع، وإلا لما صحَّ ذلك.

وقال صاحب " الظلال" رحمه الله تعالى: (يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزًا وركضًا ووثْبًا، في خِفَّة وسرعة وانطلاق، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها، فيستقر عندها اللفظ والظلُّ والموضوع والإيقاع! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف!

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة، القادحة للشرر بحوافرها، المُغيرة مع الصباح، المُثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العَدُوِّ فجأة، تأخذه على غِرَّة، وتثير في صفوفه الذعر والفرار!

يليه مشهد في النفس، من الكنود، والجحود، والأَثَرة، والشحِّ الشديد!

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور، وتحصيل ما في الصدور!

وفي الختام ينتهي النقع المُثار، وينتهي الكنود والشحُّ، وتنتهي البعثرة والجمع .. إلى نهايتها جميعًا .. إلى الله، فتستقر هناك: {**إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**}.

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمْدَمة وفرقعة، تناسب الجوَّ الصاخب المُعفَّر، الذي تنشئه القبور المبعثرة، والصدور المُحصَّل ما فيها بشدَّة وقوَّة، كما تناسب جوَّ الجحود والكنود، والأَثَرَة والشحِّ الشديد .. فلما أراد لهذا كلِّه إطارًا مناسبًا، اختاره من الجوِّ الصاخب المُعفَّر كذلك، تُثيره الخيل العادية في جرْيِها، الصاخبة بأصواتها،

القادحة بحوافرها، المُغيرة فجأة مع الصباح، المُثيرة للنقع والغبار، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار .. فكان الإطار من الصورة، والصورة من الإطار)[390].

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

{الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)}

سورة القارعة، سورة مكية.

{الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}

نفس البداية التي بدأ الله بها سورة الحاقَّة، فقد قال تعالى: **{الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}** [الحاقة:1-3]، بهذه الكلمات يُطبِق الله الإله العظيم، على الذين أشركوا به، **{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}** [الفرقان:3].

{الْقَارِعَةُ}

390- في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب (3957/6).

القارعة: اسم فاعل من مادة (قرع)، كما إذا قرع الباب ونحوه، فهو صوت شديد هائل، وقد سمَّى الله بهذا الاسم – الذي يقرع الأسماع، ويقرع معها القلوب – يوم القيامة. فهو القارعة، كما هو الحاقَّة، كما هو الصَّاخَّة، **{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}** [عبس:33]، كما هو الطَّامَّة، **{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}** [النازعات:34–36].

قالوا: إن الأجرام السماوية، والأجرام السفلية، يصطكَّان اصطكاكا شديدا عند تخريب العالم، فبسبب تلك القرعة، سُمِّي يوم القيامة بـ (القارعة).

{وَمَا أَدْرَاكَ}

الخطاب لرسول الله محمد، الذي أُنزل عليه القرآن، ولكلِّ مَن يخاطبه التنزيل، أي: ما الذي أعلمك وعرَّفك بقدر هذا اليوم، وبقيمته وبعمله وكُنهه، فهو خطاب لكلِّ مَن يتأتَّى خطابه.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ}

معناه: لا علم لك بكُنْه هذه القارعة وهولها، لأنها في الشدَّة بحيث لا يبلغها فَهم أحد، ولا وهمه، وكيفما قدَّرته فهو أعظم من تقديرك، كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في تلك القارعة، كأنها ليست قوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار، لهذا قال في آخر السورة: **{نَارٌ حَامِيَةٌ}**؛ تنبيهاً على أن نار الدنيا في جنب تلك، ليست بحامية. وصار آخر السورة مطابقا لأوَّلها من هذا الوجه.

قال الرازي: (نظير هذه الآية قوله: **{الْحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ}** [الحاقة:1–3]، ثم قال المحقِّقون قوله: **{الْقَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ}**، أشد من قوله **{الْحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ}**؛ لأن النازل آخراً لا بدَّ وأن يكون أبلغ، لأن المقصود منه زيادة التنبيه، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى. وأما بالنظر إلى المعنى، فالحاقَّة

أشدُّ لكونه راجعًا إلى معنى العدل، والقارعة أشدُّ لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل)[391].

وعلى هذا تكون كلٌّ من الحاقَّة والقارعة، أشدُّ في ناحية من النواحي، وكلُّ هذا وبال على أهل الشرك والكفر.

391- تفسير الرازي (266/32).

{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)}

{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ}

الظرف – كلمة يوم – نصب بمضمر دلَّت عليه القارعة. أي: هذه القارعة تقرع يوم يكون الناس كذا.

ثم إنه تعالى وصف هذا اليوم بأمرين: وصف يتعلَّق بالناس، ووصف يتعلَّق بالجبال. فالناس أصبحوا فيه كالفراش المبثوث. والفراش هو الحشرة الطائرة الصغيرة الذي تتهافت على النار، وسُمِّي فراشًا لتفرُّشه وانتشاره.

ثم إنه تعالى شبَّه الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبثوث، وفي آية أخرى: بالجراد المنتشر[392].

أما وجه التشبيه بالفراش؛ فلأنَّ الفراش إذا ثار لم يتَّجه لوجهةٍ واحدة، بل كلُّ واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدلَّ هذا على أنهم إذا بُعثوا فزعوا، واختلفوا في المقاصد إلى جهات مختلفة غير معلومة. والمبثوث: المفرَّق. يقال: بثَّه إذا فرَّقه.

وأما التَّشبيه بالجراد، فهو في الكثرة. قال الفرَّاء: كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا[393]. وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبَّه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث؛ لأنهم لمَّا بُعثوا يموج بعضهم في بعض، كالجراد والفراش. ويتأكَّد ما ذكرنا بقوله تعالى: **{فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا}** [النبأ:18]، وقوله: **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ**

392- في قوله تعالى: { يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ } [القمر: 7].
393- معاني القرآن للفراء (286/3).

الْعَالَمِينَ} [المطففين:6]، وقوله في قصة يأجوج ومأجوج: **{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}** [الكهف:99].

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}

لم يقُل: والجبال كالعهن المنفوش، بل أعاد كلمة التكوين: **{وَتَكُونُ الْجِبَالُ}**؛ لأن التكرار في هذا المقام أبلغ في التحذير.

كما أنَّ القارعة هي التي تقرع الناس بالأهوال والأفزاع، وذلك في السماوات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكوير، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدكِّ والنَّسف، وفي الأرض بالطَّيِّ والتَّبديل، ثم هي تقرع أعداء الله بالعذاب والخِزْي والنَّكال.

في هذا اليوم العظيم الذي ينتظره الناس للحساب، يتغيَّر الناس، وتتغيَّر أركان العالم من حولهم، وأهمُّ ما فيها الجبال، كما أرشد إلى ذلك القرآن حين قال: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}** [طه:105-107].

أرشد القرآن إلى أنَّ الجبال مختلفة الألوان، مُتقلِّبة الحركة، كما قال تعالى: **{وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ}** [فاطر:27]، ثم إنه سبحانه يفرِّق بين أجزاءها، ويزيل التأليف والتركيب عنها، ويصير ذلك مشابهاً للصوف الملوَّن بالألوان المختلفة، إذا جُعِل منفوشاً. وقال تعالى: **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}** [النمل:88].

تغيُّر أحوال الجبال:

وقد وصف القرآن تغيُّر الأحوال على الجبال من عدَّة أوجه، منها: أنها تصير قِطَعا، كما في قوله تعالى: **{وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا}** [الواقعة:5]، قال ابن عباس وغيره: فُتِّت تفتيتا[394]. وقوله تعالى: **{وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}** [الحاقة:14].

ثم تصير كثيباً مهيلاً، كما في قوله تعالى: **{يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا}** [المزمل:14].

ثم تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذرِّ، تدخل من كوَّة الباب، لا تمسُّها الأيدي.

ثم في الرابع تصير سراباً، كما قال تعالى: **{وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}** [النبأ:20].

وقرن بين الناس والجبال، تنبيهًا على تأثير تلك القارعة في الجبال، حتى صارت كالعهن المنفوش؛ فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها؟!

انقسام الناس إلى قسمين أساسيين: أهل السعادة، وأهل الشقاوة:

{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}

وهنا في يوم القارعة والحاقَّة والقيامة، ينقسم الناس إلى قسمين أساسيين: أهل السعادة، وأهل الشقاوة.

394- رواه الطبري في التفسير (283/22).

وفي أحيان ينقسم أهل السعادة إلى قسمين: السابقين والمقرَّبين، وأهل اليمين، ولكنه هنا اكتفى بالتقسيم الأساسي، حسب ما تقضي الموازين، وما تحكم الدواوين. فينقسم الناس في القيامة إلى قسمين أصليين: أهل السعادة وأهل الشقاوة.

أهل السعادة يأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقولون: **{هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}** [الحاقة:19].

وأهل الشقاوة يأخذون كتابهم بشمائلهم، ومن وراء ظهرهم، ويقول أحدهم: **{يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ}** [الحاقة:25، 26].

كما أن أهل السعادة تحكم لهم موازينهم، كما تحكم على أهل الشقاوة موازينهم. وهذه الموازين موازين عادلة، لا تميل مع أحد، ولا تميل على أحد، ولا تجور ولا تنقص، كما قال تعالى: **{وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}** [الأعراف:8، 9].

وقد عرف الناس في عصرنا موازين شتَّى لكلِّ الأشياء، وليس من الضروري أن يكون الميزان هو ذا الكفتين، فقد عرفنا موازين القَبَّان، وليس بكِفَّتين، وعرَفنا موازين تزن القمح والغلال ونحوها، وليس بكِفَّتين، وعرَفنا موازين المياه، وموازين الحرارة، وموازين الضغط الجوي، إلخ

وميزان الله سبحانه الذي يزن به أعمال الناس يوم القيامة، هو واحد من هذه الموازين، أو هو غيرها كلُّها، ولكنه ميزان أو مقياس أو مقدار لا يشكُّ أحد في عدالته، وصواب تقويمه. وفيه يقيس الله ويزن الحسنات والسيِّئات، والطاعات والمعاصي، والصغائر والكبائر، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والسنة والبدعة،

ويعرف مقاديرها وقِيَمها، والاختلاف بينها، وأحياناً يكون دقيقا جدًّا، وقليلا جدًّا، وكثيراً جدًّا.

قال المفسِّرون: في الموازين قولان: أحدهما: (أنه جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. وهذا قول الفرَّاء قال: ونظيره يقال: عندي درهم بميزان درهمك .. إلخ. والثاني: أنه جمع ميزان، أي معيار الوزن وأداته.

قال المتكلِّمون: إنَّ نفس الحسنات والسيِّئات لا يصحُّ وزنهما، خصوصًا وقد تقضيا، بل المراد أنَّ الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة، فيظهر بذلك الثقل والخفَّة.

وتكون الفائدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم، فيزداد سرورا، وظهور حال صاحب السيئات، فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق)[395].

الرد على المتكلمين المُؤولين للميزان ورؤية الأعمال:

وقول المتكلِّمين عن الميزان يوم القيامة ووزن الأعمال، مبنيٌّ على مقولات الفلسفة القديمة، وهي أن العَرَض لا يبقى زمانين، وهو لم يعُد مسلَّما اليوم، على أنه يقال اليوم: إنَّ أقوال الإنسان وأعماله باقية، وهي يمكن أن تُؤْخَذ وتُصَفَّى وحدها، وتُقدَّم للإنسان يراها، هي بنفسها، وليس شيئاً نائباً عنها، وهذا يوافق ظاهر ما في القرآن الكريم، حين يبيِّن للإنسان أنه يجد أعماله ذاتها، ويراها ويشهدها، لا أنه يجد ثمرتها أو جزاءها، أو ثواب الله عليها، أو عقاب الله عليها.

ومن هنا نجد قول الله تعالى في سورة الزلزلة التي مرَّت بنا قبل سورة واحدة: **{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ**

395- تفسير الرازي (32/ 268).

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:6-8]، فنقول: **{يَرَهُ}**، أي: مثقال الذرَّة من الخير أو من الشرّ الذي عمله، على الظاهر المظنون، دون تأويل.

وفي بعض الأحيان نجد المجرمين وأمثالهم، مقرّين بالحقِ الذي يظنُّ مَن ظنَّ أنه فَنِي وانتهى من يوم عُمِل في الدنيا، ولكن القرآن يقول لنا: إنه باقٍ، وإن الإنسان يجده ويراه، كما قال تعالى: **{وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [الكهف:49]، **{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ}** [آل عمران:30].

وكثير من هذه الآيات واضحة لا تحتاج إلى تأويل، ولا إلى إخراجها عن ظاهرها الذي جاء به القرآن، كما في قوله تعالى: **{وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** [الإسراء:13، 14].

جزاء أهل السعادة:

يقول تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}**، فثِقَل الموازين دليل على أن كِفَّة الحسنات والخيرات والطاعات اليُمنى، هي التي كانت أثقل بما فيها من أحمال. فلا غرو أن تكون الحياة سعيدة، والعيشة راضية.

ومعنى **{عِيشَةٍ }**: العيش : الحياة ، يقال : عاش فلان عيشا ومعاشا ومعيشة، أي :حيا وصارحيًّا، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة "[396] أي: لا حياة دائمة إلا حياة الآخرة ، فالعيشة :الحياة يوم القيامة بالروح والجسد {راضية} : أي: مرضيَّة، يحبها صاحبها ويسعد فيها،لا يمل منها ولا

---

396 - متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (3795)، ومسلم في الجهاد (1805)،عن أنس.

يسأمها، وقد وصفها بوصف الفاعل كأنها تعي وتعقل ما هي فيه، فهي ليست مجرد مرضية، بل راضية.

جزاء أهل الشقاء:

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ}

إذا عرَفنا جزاء أهل السعادة، وهم المقصودون بالخلق أساسًا، فلا بدَّ لنا أن نعرف مَن يقابلهم، ويملأ الجهة الأخرى، وهي الأكثر عدداً، والأوفر من الدنيا حظًّا، وقد ذكر لنا القرآن مصيرهم السيئ والأسود، فقال: **{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ}**، أي: مَن كِفَّته الشمال هي التي تمتلئ – عادة – بالكفر، وعقائد السوء، والمبتدعات والسيِّئات، والضلالات والمعاصي، وكان الأصل أن تمتلئ بعكس هذه، فلم تنجح خيراته وحسناته القليلة، ولهذا كانت النهاية الأليمة، **{فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}**.

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ }، أي: قلَّت حسناته، فرجَحَت السيِّئات على الحسنات، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنما ثقلت موازين مَن ثُقُلت موازينه باتِّباعهم الحقِّ في الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحقُّ أن يكون ثقيلاً. وإنما خفَّت موازين مَن خفَّت موازينه باتِّباعهم الباطل في الدنيا، وخفَّته عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا. وقال مقاتل: إنما كان كذلك؛ لأن الحقَّ ثقيل والباطل خفيف[397].

397- تفسير الرازي (268/32).

والموازين جمع موزون، أو جمع ميزان – كما بيَّنا قبل ذلك – وخفَّة الموازين؛ لخفَّة ما فيها من الحسنات والخيرات وقلَّته، فهي نتيجة ما عمله الإنسان في حياته من ائتمار بما أمر، وانتهاء عما نهي، وما ضاعف الله له من حسنات، وما أضاف إلى عمله من مثوبات، وما زاد عليه المؤمنون من خيرات، وكلُّها لا تغني عنه شيئا، إذا لم يقِ صاحبها نفسه.

هذا الذي خفَّت موازينه، قال القرآن عنه: **{فَأُمُّـهُ هَاوِيَـةٌ}**،أي: مرجعه الذي ياوب إليه كما يأوي الطفل إلى أمه، وهذا تهديد شديدن وأنه لن يجد مكان راحة حتى ما كان يظن أنه راحة فهو نار حامية ن والكلام هنا من قبيل التهكّم كا في قوله تعالى: **{فبشِّرهم بعذاب أليم }** .

وهناك عدة أوجه في معنى **{ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}**: (أحدها: أنَّ الهاوية من أسماء النار، وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوىً بعيدًا. والمعنى: فمأواه النار. وقيل للمأوى: (أم) على سبيل التشبيه بالأم، التي لا يقع الفزع من الولد إلا إليها.

وثانيها: فأمُّ رأسه هاوية في النار. ذكره الأخفش والكلبي وقتادة، قال: لأنهم يهوون في النار على رؤوسهم.

وثالثها: أنهم إذا دَعَوا على الرجل بالهلاك قالوا: هوت أمّه؛ لأنه إذا هوى أي سقط وهلك، فقد هوت أمه حزنًا وثكلًا، فكأنه قيل: **{وَأَمَّـا مَـنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـه}** فقد هلك)[398].

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ}

ما أعلمك ما الهاوية ؟ استفهام يراد به التعجب والتهويل . أي :لا تعرف أنت – يا محمد – حقيقة هذه الهاوية، أعاذك الله منها.

398- تفسير الرازي (268/32).

و **{مَا هِيَهْ}**أصلها:(ماهي) والعرب تزيد هاء ساكتة على آخر الكلمة، ويسمونها : هاء السكت، كما في قوله تعالى في سورة الحاقة : **{اقرؤوا كتابيَهْ}.**

{نَارٌ حَامِيَةٌ}

تلك الهاوية هي نار شديدة الحرارة، والمعنى: أنَّ سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية، وهذا القدر كافٍ في التنبيه على قوَّة سخونتها. أعاذنا الله والمؤمنين شرَّها، ووقانا عذاب النار.

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)}

السورة مكيَّة، وموضوعها يدلُّ عليها.

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ (5) }

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}

اللهو – كما قال الراغب – ما يشغل الإنسان عمَّا يعنيه ويهمُّه، يقال: لهوتُ بكذا، ولهيْتُ عن كذا: اشتغلتُ عنه. قال تعالى: **{إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}**[محمد:36]، ويقال: ألهاه كذا: أي شغله عما هو أهم إليه[399]. قال تعالى: **{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}**.

وقوله تعالى: **{لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}** [الأنبياء:3]، أي: ساهية مشتغلة بما لا يعنيها.

فمعنى **{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}**: أي شغلكم عمَّا يعنيكم ويهمُّكم، وعمَّا هو أهمُّ اليكم.

وقد حذَّر القرآن من إلهاء الأموال والأولاد، فقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}** [المنافقون:9]، ووصف عمَّار مساجده، فقال: **{رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ}**

399- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ748.

[النور:37]، وليس ذلك نهيا عن التجارة وكراهية لها، بل هو نهي عن التهافت عليها، والاشتغال عن الصلوات والعبادات بها. ألا ترى إلى قوله تعالى: {**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**} [الحج:28]، وقوله تعالى: {**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**} [البقرة:198]

وفي الآية الكريمة يخاطب القرآن المشركين من قريش وأمثالهم، الذين نزل القرآن يخاطبهم ويحرِّكهم، فقال: {**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**}، والتكاثر: تفاعل مشتقٌّ من الكثرة، فهم من كثرة ما أُوتوا من المال والنعمة والولد، أصبحوا يكاثر بعضهم بعضاً بالأموال والأولاد والرجال، كما هو شأن أهل الدنيا، كما قال تعالى: {**اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**} [الحديد:20]، فهذا التكاثر في الأموال والأولاد، ومتاع الحياة الدنيا، هو الذي ألهى هؤلاء الذين خاطبهم النصُّ القرآني، وشغلهم عن مصيرهم الذي ينتهون إليه، وعن أصل حياتهم ووجودهم، وماذا أعدُّوا له.

المكث في القبور قليل سيعقبه سريعا حساب ثقيل:

{حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ}

حتى متّم ودفنتم في القبور، وقال: { زُرْتُمُ } مع أن المخاطبين لا زالوا أحياء جريا على عادة القرآن في نسبة عمل الآباء لأبنائهم الذين ساروا على طريقهم، فكأنه يقول : شغلتكم الدنيا كما شغلت آباءكم الذين ماتوا. ومن ذلك خطابه لبني إسرائيل الذين كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم بما حصل من آبائهم في عهد موسى .

وهكذا ألهاهم وشغلهم وفتنهم عن طاعة الله، هذا التكاثر الدنيويّ، الذي ينسى الإنسانُ فيه نفسَهُ، وينسى ربَّه، وينسى إخوانَه، وينسى مصيره، حتى يأتيَه الموت فجأة، فينقله إلى رحلة جديدة، حينما يموت ويُقبر، فحياته في قبره – وإن طالت – ما هي إلا زيارة تُوشك أن تنقضي.

روى ابن أبي حاتم، عن ميمون بن مهران، قال: كنتُ جالسا عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: **{الهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ}**، فلبث هنيهة، ثم قال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلى منزله. وقال أبو محمد: يعني: أن يرجع إلى منزله – إلى جنَّة أو نار– وهكذا فهموا أن زائر المقابر سيرحل من مكانه ذاك إلى غيره[400].

وروى الإمام أحمد في مسنده، عن مطرَّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن أبيه، قال: انتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: "**{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}**، يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقت فأمضيتَ؟"[401].

{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}

---

400 - تفسير ابن كثير (474/8).
401- رواه مسلم في الزهد والرقائق (2958)، وأحمد (16305).

وعيد من الله بعد وعيد. تكرار الآية بلفظها:{ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** }، أو بزيادة حرف العطف عليها :{**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** }، وتكرار حرف {**ثُمَّ**}، وكرَّر الفعل المضارع مقترنا بـ "سوف"، وهو يفيد المستقبل البعيد، وتكرار الجملة الفعلية: {**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**}، بوضع الفعل المتعدي موضع الفعل اللازم، لتهويل ما يمكن أن يُعلم، والتخويف منه، وهذا التكرار هو ما يسمِّيه النحويون: التوكيد اللفظي، ولا يستعمل القرآن هذا التوكيد إلا في أحيان قليلة، يريد بها أن يُليِّن القلوب القاسية، وأن ينبِّه العقول الغافلة، وأن يوقظ الضمائر النائمة، لما يمكن أن يعلموه ممَّا أخفاه الله عنهم، وهو يعلمه: فيا ترى ماذا سيكون حينما ينكشف الغطاء، ويرتفع الخفاء، وهو أمر يُزعج المشركين، ويخيف المؤمنين.

وذكر الإمام الرازي في الجملة المكرَّرة: (أن الكلام يتَّصل بما قبله وبما بعده، أما الأول: فعلى وجه الردِّ والتكذيب، أي ليس الأمر كما يتوهَّمه هؤلاء، من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأموال والأولاد.

وأما اتِّصاله بما بعده، فعلى معنى القَسَم: أي حقًّا سوف تعلمون، ولكن حين يصير الفاسق تائبًا، والكافر مسلمًا، والحريص زاهدًا. ومنه قول الحسن: لا يغرَّنك كثرة مَن ترى حولك، فإنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك! وتقريره: {**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ**

مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ} [عبس:34-35]، {وَيَأْتِينَا فَرْدًا} [مريم:80]، {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} [الأنعام:94]، وهذا يمنعك عن التكاثر)[402].

{كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ}

اليقين: الإدراك الذي لا شك فيه.وهو أرفع مراتب العلم . أي : لو تعلمون علما يقينا الحقائق الثابتة عند خروج الروح من الجسد، ثم في القبر . فجواب " لو" محذوف للتهويل والتهديد تقديره: لصرفكم ذلك عن التكاثر من المتاع الزائلن ولدفعكم إلى السعي فيما به السعادة الخالدة. .

وحذف الجواب من حُسن الكلام، يقول الرجل للرجل: لو فعلت هذا! أي: لكان كذا. كما قال تعالى: **{لَوْ يَعْلَمُ الذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}** [الأنبياء:39]، والجواب محذوف، ومثله كثير في القرآن.

وقال الأخفش: **{لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ}**، ما ألهاكم التكاثر.

وقال بعضهم: لو علمتم لأيِّ أمر خلقناكم، لاشتغلتم به. وقال غيره: إنما حذف الجواب؛ ليذهب الوهم كلَّ مذهب، فيكون التهويل أعظم. وكأنه قال: لو علمتم علم اليقين، لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنَه، ولكنكم ضُلَّال وجهلة[403].

و**{عِلْمَ اليَقِينِ}**، هو العلم الذي وصل إلى مرتبة الجزم، بحيث لا يعتريه تردُّد ولا تحيُّر، وهو المرتبة الأولى، ويرتقي بعدها إلى مرتبة **{عَيْنَ الْيَقِينِ}**، ثم مرتبة أعلى وهي: **{حَقُّ الْيَقِينِ}** [الواقعة:95].

402- تفسير الرازي (271/32).
403- تفسير الرازي (272/32).

توكيد للوعيد وتشديد للتهديد

{لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)}

{لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ}

{لَتَرَوُنَّ}: اللام – لقسم محذوف، دلَّت عليه اللام، والنون للتوكيد، و **{الجَحِيمَ}**: اسم من أسماء جهنم. أعاذنا الله من نارها وشرها، وتُسمَّي (الجحيم)، وتُسمَّى (السعير)، وتُسمَّى (لظى)، وتُسمَّى (الهاوية).

ولكن القرآن يبرز هذا القسم للناس، أنهم لا محالة سيرون في الآخرة الجحيم، التي أعدَّها للفجَّار من خلقه، كما أعدَّ النعيم للأبرار من عباده، **{إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ}** [الانفطار:13-16],

{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ}

تكرار لرؤية الجحيم، مُؤكِّدة لها، وخصوصاً أنَّ رؤيتها أقوى من الرؤية التي قبلها، **{عَيْنَ اليَقِينِ}**، لن يكون هناك أدنى شك ولا تردُّد في رؤية الجحيم. فأما المؤمنون فيوقنون بما أخبرهم به ربُّهم، ويزدادون إيماناً ويقيناً بما أكَّده لهم القرآن. وأما الكافرون فيَرَوْنَها رؤية مَن يلامسها ويلابسها ويتذوَّقها، وكلٌّ منهما عين اليقين.

{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}

{ثُمَّ } للترتيب الإخباري؛ لأن السؤال في موقف الحساب قبل رؤية جهنم. و{النعيم}: ما التذَّ به في الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك .

وهل الخطاب للمؤمنين أم للكافرين ؟

الراجح أن هذه الآية خطاب للجميع، للمؤمنين والكافرين، كلُّهم سيسألون عما أعطاهم الله من النعيم، وما منهم إلا منحه الله من نعيمه، ما يستحقُّ أن يُسأل عنه، ويستوجب أن يُشكر عليه، كما قال صلى الله عليه وسلم، أي لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحَّة والأمن والرزق وغير ذلك، ما قابلتم به من نعمة من شكره وعبادته.

ذكر ابن كثير ما قاله ابن جرير، قال: (حدَّثني الحُسَين بن علي الصدائي، حدَّثنا الوليد بن القاسم، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "ما أجلسكما هاهنا؟". قالا: والذي بعثك بالحقِّ، ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: "والذي بعثني بالحقِّ، ما أخرجني غيره". فانطلقوا حتى أتَوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "أين فلان؟". فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قِربته فقال: مرحبا، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلَّق قِربته بكرب نخلة وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا كنت اجتنيت؟". فقال: أحببتُ أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياك والحلوب؟". فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لتسألنَّ عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم"[404].

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان به[405]، ورواه أبو يعلى وابن ماجه، من حديث المحاربي، عن يحيى بن عُبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بكر

404- رواه الطبري في تفسيره (605/24).
405 - رواه مسلم في الأشربة (2038).

الصديق به[406]، وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحو من هذا السياق وهذه القصة[407])[408].

406 - رواه ابن ماجه في الذبائح (3181)، وأبو يعلى (78).
407 - رواه أبو داود في الأدب (5128)، والترمذي في الزهد (2369)، والنسائي في الكبري في الوليمة (6583)، وابن ماجه في الأدب (3745).
408- تفسير ابن كثير (475/8).

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)}

هذه السورة:

هذه السورة مكيَّة بالإجماع، دلَّ على ذلك موضوعها وأسلوبها، وهي من قصار المفصَّل في ثلاث آيات، تُكتب في المصحف في سطرين، وتستغرق تلاوتها نحو دقيقة واحدة، ولكنها تضمَّنت من المعاني الجليلة المُؤثِّرة ما جعل الإمام الشافعي رحمه الله يقول: لو عمل الناس بما في هذه السورة وحدها لكفتهم[409].

وذلك لأنها تضمَّنت من أصول المعاني الكبيرة، ما يحتاج إليه الفرد، ويحتاج إليه المجتمع، وتحتاج إليه الأمة، وتحتاج إليه الإنسانية كلُّها. إذا تدبَّر الإنسان بعمق ما تضمَّنته من توجيهات ربَّانية قويمة.

القَسَم في القرآن :

{وَالْعَصْرِ}

هذه السورة بدأت بالقسم ببعض مخلوقات الله تعالى، كإحدى السور الكثيرة التي بدأت بمثل هذا القسم، فقد عرَفنا أن هناك سوراً بدأت بالقسم بجمع المؤنث السالم، المختوم بالألف والتاء، وهي خمسة، ذُكرت اثنتان منها في جزء (عم)، وهي: **النَّازعات، والعاديات**، وبقيت ثلاث سُور أخرى، هي: **الصَّافَّات، والذاريات، والمرسلات.**

409- تفسير ابن كثير (203/1).

وهنـاك سُـوَرٌ تبـدأ بالقَسَـم بـبعض الحـروف المقطَّعـة، مثـل: {يـس * وَالْقُـرْآنِ الْحَكِـيمِ}، {ص وَالْقُـرْآنِ ذِي الـذِّكْرِ}، {حـم * وَالْكِتَـابِ الْمُبِـينِ} فـي بدايـة الزخـرف والدخان، {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

وهنـاك سُـور تبـدأ بالقَسَـم أوّلا، مثـل قولـه تعـالى فـي سـورة الطـور: { وَالطُّـورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} [الطور:1–8]، ومثل قوله تعالى في سورة البروج: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} [البروج:1–3]، وبعدها سورة الطارق: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ} [الطارق:1–3]، ثم سورة الشمس: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} [الشمس:1–7]، ثم سورة الليل: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} [الليل:1–4]، ثم سورة الضحى: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى:1–3]، ثم سورة التين: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين:1–4].

ثم تأتي في ختام هذه السور كلِّها: سورة (العصر): التي نفسِّرها الآن.

القسم المنفيّ في القرآن :

ومن القَسَم المُعتبَر في القرآن الكريم: القَسَم المنفي، كما في سورة القيامة: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة:1–2]، وكذلك سورة البلد، كما في قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد:1–4]، هذا ما جاء في أوائل السور.

وما جاء في وسط السور، مثل قوله في سورة الواقعة: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}** [الواقعة:75–76]، وقوله في سورة الحاقَّة: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}** [الحاقة:38–40]، وقوله في سورة التكوير: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}** [التكوير:15–19]، وقوله في سورة الانشقاق: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}** [الانشقاق:16–19].

وهذه المواقع كلُّها دلَّت على أن قوله تعالى: **{لَا أُقْسِمُ}**، أي: ليس الأمر في حاجة إلى القَسَم، فالأمر أظهر وأوضح في ثبوته من أن يحتاج إلى قسم. فهو نفي للقسم في الظاهر، يراد به الثبوت في الواقع. كما نرى ذلك في حقيقة الأمر، كما في قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}** [الواقعة:75–76]، فهو ينفي الإقسام ثم يُعظِّم من هذا القَسَم وينوِّه به، كما يقول: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}** [الحاقة:38–40]، يتحدث عن القرآن العظيم. فهو قَسَم ثابت مُثبت له شأن خطير.

ومما ذُكر من القسم في وسط السور قوله تعالى: **{كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ}** [المدثر:32–35]، وقوله تعالى: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** [التكوير:17–18].

ولقد اهتمَّ الإمام ابن القيم رحمه الله بهذه الأقسام في كتاب الله، وأولاها عناية، وخصَّص لها كتابه الذي سمَّاه (التبيان في أقسام القرآن)، ويبدو لمَن قرأ أوله أنه جزء من كتاب كبير؛ لأنه لم يبدأه بمقدمة تتحدَّث عنه، وعن مضمونه وخصائصه وفوائده، كما هي عادته في كلِّ الكتب.

المراد بـ(العصر):

في هذه السورة الموجزة القصيرة: مُقسَم به، ومُقسَم عليه. فأما المُقسَم به، فهو العصر. وأما المُقسَم عليه، فهو المذكور في قوله تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**

فما العصر الذي جاء القسم به في السورة؟

قيل: هو الوقت الذي يليه المغرب من النهار، وهو ما بين الظهر والمغرب. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته.

وقال بعضهم: المراد صلاة العصر، التي فسَّرها بعضهم بالصلاة الوسطى، المذكورة في قوله تعالى: **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}** [البقرة:238].

وأكثر المُفسِّرين على أن المراد بالعصر المُقسَم به في هذه السورة هو: الدهر. وهو الذي يستغرق أعمال الإنسان كلِّها، خيرا كانت أو شرًّا، ويُسجِّل ما له منها وما عليه.

وأحسب أنَّ هذا هو الراجح، كما رَجَّحه ابن القيّم وابن كثير وغيرهما[410].

وفي هذا القسم تنبيه على قرب انتهاء الدنيا ، لأن وقت العصر يُؤْذن بأفول النهار ، وزمان هذه الأمة بالنسبة لأزمان الأمم السابقة كمقدار العصر من النهار . والعصر هو الدهر ، والدهر هو الزمن ، الذي تتقلب فيه الأيام ، ويتعاقب فيه الليل والنهار ، والزمان بتقلب ساعاته عبرة لمن أراد أن يعتبر : {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً} (الفرقان:62) . وعصر الإنسان عمره

410- التبيان لابن القيم صـ 84، وتفسير ابن كثير (480/8).

، والعمر ظرف ووعاء يملؤه الإنسان بما شاء من خير أو شر ، لذا فإن الزمان لا يلام ولا يعاب ولا يشتم :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا[411]

عناية القرآن بالوقت :

وقد رأينا القرآن الكريم يهتمُّ بالزمان أو بالوقت بالنسبة للإنسان، وأهمِّيته في حياته وتأثيره في دينه ودنياه، كما قال تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}** [إبراهيم:33]، وقال: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}** [الفرقان:62].

وهناك مظاهر عدَّة لعناية القرآن بالزمن أو بالوقت، فنرى القرآن يُقسم بالفجر في سورة الفجر: **{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ}** [الآيات:1-2].

ويقسم بالصبح في سورة المدثر: **{وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ}** [الآية:34]، وفي سورة التكوير: **{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** [الآية:18].

ويقسم بالضحى، في سورة الضحى: **{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [الآيات:1-2].

ويقسم بالليل في سورة الضحى: **{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [الآية:2]، وفي سورة الليل: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** [الآية:1]، وفي سورة الشمس: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}** [الآية:4]، وفي سورة المدثر: **{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}** [الآية:33]، وفي سورة التكوير: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}** [الآية:17]، وفي سورة الفجر: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}** [الآية:4]، وفي سورة الانشقاق: **{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}** [الآية:17].

---

411 - من شعر الإمام الشافعي.

ويقسم بالليالي العشر في سورة الفجر: **{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}** [الآية:2].

ليدلَّ على فضل بعض الأوقات مثل ليلة القدر ، أو الليالي ، مثل الليالي العشر في ذي الحجَّة، أو الأواخر من رمضان. أو بعض الأيام كيوم الجمعة، أو يوم التاسع من ذي الحجَّة (يوم عرفة)، أو يوم عيد الأضحى (يوم الحج الأكبر)، وغيرها.

وكلُّ هذا يفيدنا عناية القرآن الكريم بالوقت أو بالزمان الذي تقوم فيه أعمال الإنسان، أيًّا كان نوعها، ومهما كان قدرها.

فلا عجب أن يهتمَّ بالدهر، الذي يشمل الزمان كلَّه، بما فيه من ليل ونهار، وصبح ومساء، وصيف وشتاء، وظلمة ونور، وبرد وحرٍّ، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدَّره العزيز العليم، منظِّم لمصالح العالم، على أكمل ترتيب ونظام.

المُقْسَم عليه في السورة:خسارة الإنسان وهلاكه:

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ }

المُقْسَم به في السورة هو العصر أي الوقت والزمان، والمُقسَم عليه هو خسارة الإنسان وهلاكه وضياعُه، مؤكِّداً ذلك بالجملة الاسميّة التي تدل على الدوام والثبات ، وبنون التوكيد، وبتحلية الإنسان باللام الاستغراقية المفيدة للعموم، وبدخول اللام على الخبر.

والخُسر: ضد الربح، ومثله الكسب والظفر والفوز. **{لَفِي خُسْرٍ }**، معناه: أنه لم يربح في تجارته، ولم يكسب في صفقته، ولم يظفر بمراده، ولم يفُز في حياته، كما وصف الله جماعة المنافقين بقوله: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}** [البقرة:16].

والخُسْر خُسْران: خُسْر دنيوي، كأن تكسد تجارة الإنسان، أو يضيع ماله، كلُّه أو بعضه، أو يفقد عزيزًا عليه، أو يغيب عنه حبيبٌ إليه، أو يُبتلى بمصيبة من المصائب، كلُّ هذه تُعَدُّ من خُسْر الدنيا، الذي يحزن عليه الإنسان، وينغِّص عليه نهاره، ويُكدِّر عليه ليله.

وخُسْر أخرويٌّ، وهو شرُّ الخُسْرَين، أن يخسر آخرته، وتبور تجارته مع ربِّه، كما قال تعالى: {**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**} [الزمر:15]، وقال تعالى: {**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**} [البقرة:121]، وقال عزَّ وجلَّ: {**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**} [البقرة:27].

ويشبه ما قلناه هنا الآن ما قاله بعضهم من تقسيم الخسر إلى ماديٍّ ومعنويٍّ، فالخسر الأول هو المادي، والخسر الثاني هو المعنوي، وهو الخسر الحقيقي: أن يخسر الإنسان نفسه، ولا يجدها، أو يجدها ولا يعرف ماذا تطلب منه، وماذا يجب عليه نحوها.

وهذا شأنُ الإنسان إذا تُرك وحده، بلا هادٍ يهديه، ولا مرشد يأخذ بيده.

فالإنسان إذا تُرك لطبائعه وحدها تُسيِّره وَفْق رغائبها ودوافعها ومشتهياتها، ستنزل به في بحر لُجيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض.

من أوصاف الإنسان في القرآن :

الإنسان وحده وصفه ربُّه بقوله تعالى: {**إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**} [العاديات:6–9]، وبقوله سبحانه: {**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**} [إبراهيم:34]، وبقوله عزَّ وجلَّ: {**وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا**} [الإسراء:11]،

وبقوله عزَّ شأنه: {**وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا**} [الإسراء:100]، وبقوله تبارك وتعالى: {**وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**} [الكهف:54]، وبقوله سبحانه: {**وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**} [الأحزاب:72]، وبقوله تعالى: {**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ**} [المعارج:19-22].

فالإنسان الكنود الشديد الحبِّ للمال، الظلوم، الكفَّار، العَجول، القتور، كثير الجدل، الجهول، الهلوع، إذا تُرك وحده في بيْداء الحياة بغير كتاب مُنزَّل من ربِّه يهديه للَّتي هي أقوم، ولا رسول من عنده يرشده إلى ما فيه خيره ونجاته الأبديَّة، ويصرفه عن طريق الشرِّ إلى الخير، إذا لم يوجد ذلك المُعين من الله، فيوشك أن يغرق في بحور الحياة المائجة المضطربة، كما قال تعالى: {**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**} [النور:40].

شروط النجاة من الخسران:

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}

أكَّدت السورة القصيرة العظيمة: أن الإنسان - كلَّ إنسان، فـ (ال) هي للاستغراق - في ضياع وهلاك، إلا مَن اعتصم بما ذكرته الآية من الشروط الأربعة، التي وصفها الله لمَن يتمسَّك بها، ويرتبط بحبالها، ويلتزم بطريقها.

الشرط الأول: الإيمان:

استثنت السورة ممَّن هم في خُسْر وهلاك وضياع، من استوفوا شروطاً أربعة، أوَّلها ما عبَّرت عنه بقولها: {**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**}.

والعجيب أن تتَحدَّث السورة عن الإنسان بصيغة المفرد: {**إِنَّ الْإِنْسَانَ**}، ثم يستثني الناجين بصيغة الجمع، {**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**}؛ لتدلُّنا من أول الأمر: أن النجاة

ليست فرديّة، إنما النجاة مع الجماعة. الفرد غارق في اللجَّة، لا يستطيع النجاة بمفرده، إنما يفوز بالنجاة إذا تشبَّث بالجماعة.

فالمرء هالك وحده، سالم إذا تقوَّى بغيره، وهو قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، ضعيفٌ بمفرده، قويٌّ بجماعته، فمَن هم الذين آمنوا؟

مفهوم{الَّذِينَ آمَنُوا} في القرآن :

{الَّذِينَ آمَنُوا}، مفهوم قرآنيٌّ جديد، جاء به هذا الكتاب المبين، ليعرفه الناس ويفهموه ويحفظوه ويعملوا به. لم يقل لنا القرآن بماذا آمنوا؛ لأنه أراد هذا الفعل **{آمَنُوا}**؛ ليكون حقيقة واقعة، تفهمها العقول، وتنشرح بها الصدور، وتطمئن إليها القلوب، وتتفاعل معها الجوارح.

ومعروف عند هؤلاء ما يؤمنون به، إنهم يؤمنون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، **{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}** [البقرة:177]، **{وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}** [النساء:136].

فالشرط الأول للنجاة من الخسر والهلاك والضياع: أن يتحقَّق الإيمان الذي أشارت الآية، أن يتمثَّل في جماعة **{الَّذِينَ آمَنُوا}**.

من صفات المؤمنين في القرآن :

ومَن أراد أن يعرف حقيقة **{الَّذِينَ آمَنُوا}**، وأوصافهم الإيمانيّة والأخلاقيّة والفعليّة والعاطفيّة والسلوكيّة، فليقرأ القرآن، فهو الذي يعطيهم وصفهم الحقيقي بالتفصيل.

وحسبنا هنا: أن نقرأ بعض هذه الصفات في شأن المؤمنين:

ففي سورة الأنفال يقول تعالى: {**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**} [الأنفال:2-4].

وفي سورة المؤمنين يقول تعالى: {**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**} [المؤمنون:1-11].

وفي سورة الحجرات يقول سبحانه: {**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**} [الحجرات:15].

وكثير من آيات القرآن تتحدَّث عن الإيمان، فتصوِّره في عقائد سليمة، وعبادات خالصة، وأخلاق قويمة، وسلوكيات مستقيمة، وليس مجرَّد شعارات أو كلمات.

خيرات الدنيا والآخرة مترتِّبة على الإيمان :

والقرآن يُرتِّب خيرات الدنيا والآخرة كلِّها على الإيمان، ويركِّزها في الذين آمنوا، أو المؤمنين.

فولاية الله إنَّما هي للذين آمنوا، كما قال تعالى: {**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**} [البقرة:257].

ودفاع الله تعالى إنما يكون عن الذين آمنوا دون غيرهم: {**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**} [الحج:38].

والعـزَّة إنمـا يُمَكِّنهـا الله للمـؤمنين لا لغيـرهم: **{وَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** [المنافقون:8].

والنُّصرة إنما هي حقُّ المؤمنين: **{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الروم:47].

والإنْجاء إنما هو للمؤمنين: **{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}** [يونس:103].

والمعيَّة من الله للمؤمنين، معية الرعاية والتأييد: **{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}** [التوبة:40]، **{وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأنفال:19].

ودخول الجنـة إنما هو للمؤمنين: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّـةٍ عَرْضُـهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}** [الحديد:21].

والنجاة من النار إنما هي للمؤمنين: **{ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}** [مريم:71-72]، والتقوى تعبِّر عن الإيمان الصادق.

وكلُّ خير وفلاح في الدنيا والآخرة، إنما جعله للمؤمنين في كتابه الكريم، فهم الذين يستأهلون العناية والرعاية من الله عزَّ وجلَّ، فهو ينظر إليهم بعينه، ويكلؤهم بعونه، ويحرسهم بجنده، ويعزُّهم بعزَّته، ويهيِّئ لهم كلَّ أسباب الخير، مما يحقِّق لهم الأمن والإيمان، والسلامة والإسلام.

ما الإيمان؟

ولكن ما حدُّ الإيمان الذي تحدَّثت عنه السورة، باعتباره عنوانا للنجاة من الخُسر، وتحدَّث عنه القرآن كلُّه في سوره وآياته؟

تحدَّث عنه علماء الإسلام في تخصُّصاتهم المتعدِّدة، واختلفوا في حقيقته: أيُّ شيء هي!

أهو **المعرفة** التي تكشف الشيء، وتعرِفه على ما هو به، وما هو عليه، ويتجلَّى مفهومه للعارف ولا يكون غامضا عليه؟

هكذا ظنَّ بعضهم، ولكن القرآن الكريم بيَّن لنا أن كثيرا من الناس يعرفون الحقَّ معرفة جيِّدة، ولكنهم لا ينقادون له، ولا ينزلون على حكمه. كالذين قال الله فيهم: **{وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [البقرة:146]، **{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}** [البقرة:109]، وقال تعالى في فرعون وقومه عن آيات موسى: **{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}** [النمل:14].

وقد اختلف فلاسفة اليونان من قديم حول ما يشبه هذه القضية، فكان (سقراط) يرى: أنَّ الفضيلة هي المعرفة. وخالفه (أرسطو)، في أن المعرفة وحدها لا تكفي لتحصيل الفضيلة، ما لم تنضمَّ إليها الإرادة.

وذهب بعض العلماء من المسلمين، إلى أن الإيمان هو: **التَّصديق**، فلا بدَّ أن يُصدِّق الإنسان بالله تعالى ربًّا، وبمحمد رسولا، وبالقرآن إماما. وقالوا: إن كلمة الإيمان معناها في اللغة، هو: التَّصديق. كما في قول إخوة يوسف: **{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}** [يوسف:17]، أي: بمُصَدِّق لنا.

وزاد بعضهم مع المعنى اللغوي التصديق: **الإقرار باللسان**، فإنه لا بدَّ أن يشهد أن: لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. وبدون هذا لا يتمُّ الإيمان.

وذهب عدد منهم إلى أنَّ الإيمان: **إقرار باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.**

وقال بعضهم: بل هذا هو الإيمان الكامل، وليس مطلق الإيمان.

والذي يعنينا الحديث عنه، هو: **الإيمان الكامل**، الذي ذكره القرآن، وأكَّدته السنة النبوية، وعمل به المسلمون الصادقون، وتداولته الكتب والمآثر. وهو المعنيُّ بالإيمان الذي يطلقه الله تعالى في القرآن، كما في قوله في هذه السورة: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}**، فالمطلق ينصرف عادة إلى الكامل. وهو الذي عُلِّق عليه كلُّ الخيرات والدرجات العُلى في الأولى والآخرة، ولا يمكن أن تعلَّق هذه الخيرات والدرجات على إيمان ناقص، لا يؤثِّر في الواقع، ولا يغيِّر في حياة صاحبه، ولا حياة الناس من حوله.

الشرط الثاني: عملُ الصَّالحات:

والشرط الثاني للخلاص من الخُسْر والهلاك والضياع الذي ربطته السورة الكريمة بجنس الإنسان بعد الإيمان: أثر الإيمان في الإنسان، فالإيمان ليس شيئاً تافهاً، أو شيئاً فارغاً، أو أداةً عاطلة، بل هو شيء مُؤثِّر قويُّ التأثير. وأول تأثيره: أنه يهدي صاحبه إلى عمل الصَّالحات.

و**{الصَّالِحَاتِ}**، مصطلح قرآني شائع في القرآن حوالي ستين مرَّة، من مثل قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}** [الكهف:30].

وقد تأتي مفردة كما في قوله تعالى: **{إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}** [سبأ:37]، **{وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}** [الفرقان:71].

و**{الصَّالِحَاتِ}**: جمع صالح أو صالحة، وهو ضد الفاسد والفاسدة.

والصلاح: ضد الفساد. **{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}** [البقرة:205]، **{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}** [المائدة:64]، **{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}** [الأعراف:56]، وقال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}** [يونس:81]، أي: المفسد يضادُّ الله

في عمله، فإنه يفسد، والله تعالى يريد في جميع أفعاله الصلاح. فهو إذن لا يصلح فعله.

وفي القرآن يستعمل أيضا مقابل الصلاح: السوء، كقوله: {**خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا**} [التوبة:102].

والصالحات من عمل المؤمن: ما تصلح به حياته ماديًّا وروحيًّا، ونفسيًّا وخلقيًّا، وعقليًّا وجسديًّا، وما يصلح به فردًا، وما تصلح به الأسرة، وما يصلح به المجتمع، وما تصلح به الأمّة، وما تصلح به الإنسانيّة. كلٌّ هذا يدخل في عمل الصَّالحات. فهي تشمل الفرائض، وتشمل النوافل، وهي تشمل عمل الدنيا، وتشمل عمل الآخرة.

فالصَّالحات قد تكون عبادات يُتقرَّب بها إلى الله، وقد تكون أعمالاً خيِّرة يُتقرَّب بها إلى الله، من برِّ الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، ومودَّة الأيتام، والإحسان إلى المساكين وأبناء السبيل، وعمارة الأرض، وإشاعة نصرة الحقِ، وإشاعة الخير.

وقد تكون عملا دنيويًّا بحتاً، يمتهنه المسلم، كالعمل في الزراعة، أو الصناعة، أو التجارة، أو البناء، أو العلم والتكنولوجيا، أو في المعارف الكبيرة، كالعمل في العلوم، وفي الذرة، وفي غيرها. ممّا تحتاج إليه الأمم في رُقيِّها وتقدُّمها. فهذا كلُّه من عمل (الصَّالحات). وهو ممَّا يُتقرَّب إلى الله سبحانه به، ويُعطَى عليه المسلم درجات عظيمة من المثوبة عنده سبحانه، على قدر إتقانه وتفانيه وإخلاصه لله.

ولا يوجد مؤمن يدعو إلى الله تعالى، وإلى الإيمان به، ولا يدعو إلى عمل الصَّالحات، فالإيمان لا يعتبر ما لم يُؤدِ إلى العمل، ولا يعتدُّ به عند الله ما لم يكن من عمل الصالحات، كما نجد ذلك جليًّا في القرآن.

ولذلك رأينا مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، حين كشف عن نفسه، وأفصح عن إيمانه، يدعو إلى العمل الصالح، قال: {**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**} [غافر:38–40].

الشرط الثالث: التواصي بالحق:

مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فقد أصبح صالحاً في نفسه، ولكن بقي عليه شيء حتى يكتمل إيمانه حقًّا، ويُؤدِّي دوره المطلوب منه، ذلك أن الإنسان في نظر المسلم لا يكون إنساناً حقًّا يستحقُّ الإنسانيَّة إلا بأمرين أساسيين: أن يُصلح نفسه، ويعمل على إصلاح غيره. ولا يكون كلُّ همِّه: نفسي نفسي!

ذلك أن الناس كلَّهم إخوة له، جمعته بهم العبوديَّة لربٍّ واحد، خلقهم ورزقهم وكرَّمهم، {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**} [الإسراء:70]، والنبوَّة لأبيهم آدم، الذي خلقهم الله تعالى من ذريَّته. ولهذا قال تعالى في كتابه: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**} [النساء:1].

والمعروف: أن النفس الواحدة هي: آدم أبو البشر، وزوجها هي: حواء. والأليق في معنى الأرحام في الآية، أن تكون الأرحام والقرابة العامَّة بين البشر.

فالبشر إخوة بعضهم لبعض، وهذه هي الأخوة العالميَّة العامَّة، التي تُوجب على البشر كلِّهم: أن ينصح بعضهم لبعض، وأن يتعاونوا على البرِّ والتقوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان، وأن يقفوا جميعاً في وجه الشرِّ الذي يَتَهدَّدهم كلَّهم.

لهذا لم تكتفِ هذه السورة الوجيزة من المسلم أن يعمل صالحاً في نفسه، ويَدَعَ غيره، فهذا لا يكفيه لكي ينجو من الخسران المبين، في الدنيا والآخرة، بل لا بدَّ من فريضة أخرى، يكمِّل بها دينه، ويُعزِّز بها شخصيَّته، ويكون له بها أثر في غيره من الناس.

هذه الفريضة يُعبَّر عنها أحيانا بـ (**الدعوة إلى الله وإلى الخير**)، كما في قوله تعالى: **{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}** [فصلت:33]، وقال تعالى: **{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}** [يوسف:108]، فكلُّ من اتَّبع رسول الله، عليه أن يدعو مثله إلى الله تعالى.

وقد يُعبَّر عنها بـ (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**)، وهي التي قدَّمها القرآن على الإيمان في بيان خصيصة هذه الأمة، فقال تعالى: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران:110]، فالإيمان بالله تعالى هو أساس أمة الإسلام، ولكن قدَّم الله عليه في الآية: الأمر والنهي، لأهميتهما البالغة في تكوين الأمة، وأداء رسالتها.

وقال تعالى: **{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [آل عمران:104].

وفي حديث أبي سعيد الصحيح: "مَن رأى منكم منكرا فليُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان"[412].

وقد يُعبَّر عن فريضة التواصي بالحق بـ (**النصيحة**)، كما في حديث تميم الداري الصحيح: "الدين النصيحة". قلنا: لمَن؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامَّتهم"[413].

412- رواه مسلم في الإيمان (49)، وأحمد (11150)، وأبو داود في الصلاة (1140).

وقد عبَّرت عنه هذه السورة بـ (التواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر).

والتواصي: تفاعل من هذه المادة: وصَّى وأوصى، وصيّة. والوصيّة هي: التَّقدُّم إلى الغير بما يعمل به، مقترناً بوعظ.

وتواصى القوم: أوصى بعضهم إلى بعض. فكلُّ إنسان عليه أن يوصي غيره بما يعتقد أنه الحقُّ، ويرى أنه الخير والصلاح، وأن يقبل الوصية من غيره أيضا: فليس هناك أحد أصغر من أن يُوصي، ولا أحد أكبر من أن يُوصَى.

ومن مزايا الإسلام: أنه ربط بين الناس بعضهم وبعض، وجعلهم أوصياء بعضهم على بعض، فليس من حقِّ أحدهم أن يقول لمَن يوصِيه وينصح له: أنا حرٌّ، وليس لك شأن بي. فإنّ هذه النزعة الفردية قاتلة لمعنى المجتمع المسلم، والأمة المسلمة، بل كلُّ مسلم يقول لأخيه: أنا منك وأنت مني، أنت تنصحني وأنا أنصحك، أنت تعظني وأنا أعظك.

يقول ذلك المسلم لمَن هو مثله، ولمَن هو أدنى منه، ولمَن هو أكبر منه، للأمراء والسلاطين، ومَن هو أكبر منهم، كالخلفاء.

وأقرب الناس إلى الإنسان هم أولى بوصيته من غيرهم، مثل أولاده، كما وصى إبراهيم بنيه ويعقوب: **{يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** [البقرة:132].

حقّ الله سبحانه وحق العباد :

413- رواه مسلم في الإيمان (55)، وأحمد (16940)، وأبو داود في الأدب (4944)، والنسائي في البيعة (4197)، عن تميم الداري.

وفي هذه السورة فرض الله التَّواصي بالحقِ بين الذين آمنوا، فكلُّ مؤمن عليه أن يُوصِي إخوانه المؤمنين أولا بالحقّ: وهو ما على كلِّ امرئ لغيره: ما عليه لله عزَّ وجلَّ من حقّ، وما عليه للناس من حقوق. وما له على الله من حقٍ، وما له على الناس من حقّ.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا أَخَرَة الرَّحل، فقال: "يا معاذ بن جبل". قلتُ: لبيك رسول الله وسعديك.

ثم سار ساعة، ثم قال: "يا معاذ". قلتُ: لبيك رسول الله وسعديك.

ثم سار ساعة، ثم قال: "يا معاذ". قلتُ: لبَّيْك رسول الله وسعدَيْك. قال: "هل تدري ما حقُّ الله على عباده؟". قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: "حقُّ الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا".

ثم سار ساعة، ثم قال: "يا معاذ بن جبل". قلتُ: لبَّيْك رسول الله وسعديْك. فقال: "هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوه؟". قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: "حقُّ العباد على الله أن لا يعذِّبهم"[414].

كتم معاذ بن جبل هذا الحديث في نفسه، ولم يشعه في الناس، خشية أن يتَّكل الناس عليه، معتمدين على أن الله لن يعذِّبهم بمجرَّد تركهم الشرك، واعتمادهم التوحيد، ولكنه بشَّر به قبل أن يموت، حتى لا يضيع علم أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا بدَّ للمؤمن أن يعلم أن الإيمان وحده لا يكفيه في النجاة حتى يضمَّ إليه عمل الصَّالحات، والتواصي بالحقِ والتواصي بالصبر.

414-متفق عليه: رواه البخاري في العلم (5967) ومسلم في الإيمان (30)، عن معاذ بن جبل.

أعظم ما تدلُّ عليه كلمة (الحقِّ): الله تبارك وتعالى :

وأعظم ما تدلُّ عليه كلمة (الحقِّ): إنه الله جلَّ شأنه، كما قال تعالى: **{فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ}** [يونس:32]، وقال تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [الحج:6]، **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** [الحج:62].

فهو الخالق لهذا الكون كلِّه، أرضه وسمائه، وبحاره وجباله، وجنِّه وإنسه وملائكته، وناطقه وصامته، وعاقله وغير عاقله. وهو خالق الإنسان وواهب الحياة، ومودع الرُّوح في ذوي الرُّوح، والعقول في أولي العقول، وربُّ هذا الوجود كلِّه، الذي وضع فيه من الأدلَّة ما يشير إليه، وما يدلُّ عليه، **{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** [الرعد:4]، **{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ}** [آل عمران:191]، **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}** [آل عمران:190].

ومَن جهل هذه الحقيقة في هذه الدنيا ستتجلَّي له يوم، وتتكشف كأجلى ما يكون: **{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}** [النور:25].

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل"[415].

وهذا من أعظم ما يجب أن يتواصى به المؤمنون، لينجوا من مباءة الخسران والهلاك، أن يجتمعوا على هذه الحقيقة الكبرى، التي تنتظمهم جميعاً، وتجمعهم ولا تفرِّقهم، وتُحييهم ولا تميتهم، وهي الإيمان بالله تبارك وتعالى ربًّا واحداً لا شريك له، هو الذي أحياهم، وهو الذي رزقهم، وهو الذي دبَّر أمرهم، وهو الذي أنزل إليهم

415- متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (3841) , ومسلم في الشعر (2256) , عن أبي هريرة.

كتبه، وهو الذي بُعث إليهم رسله، وهو الذي أقام عليهم حُججه، وهو الذي هداهم إلى صراطه المستقيم، ووهب لهم فِطَراً يستندون إليها، وعقولا يفكِّرون بها، ولم يخلقهم عبثا، ولم يتركهم سُدى، فعلى البشر العقلاء أن يدركوا خطورة الموقف الكبير الذي يحيونه، وهو أنهم مربوبون مخلوقون مُكلَّفون من قِبل ربِّهم وبارئهم ورازقهم ومدبِّر أمرهم: أن يؤمنوا به، ويتآخوا فيما بينهم على طاعته، ويستعدوا للقائه، ويتواصَوا بذلك كلِّه فيما بينهم.

وقد ذكر علماء الإسلام كثيراً من الأمور التي يرونها من الحقِّ، أو قُل: يراها الإسلام من الحقِّ، الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وطالب الناس أن يؤمنوا به، ويعملوا به، ويعملوا له.

من ذلك ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قيام الليل، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجَّد قال: "اللهمَّ لك الحمد، أنت قيِّم السموات والأرض ومَن فيهنَّ ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمد، أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، ولقاؤك حقٌّ، وقولك حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيُّون حقٌّ، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم حقٌّ، والساعة حقٌّ، اللهمّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت المقدِّم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت" أو: "لا إله غيرك". قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: "ولا حول ولا قوة إلا بالله"[416].

الحقوق التي بين الناس :

416- متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (1120) ومسلم في صلاة المسافرين (769).

وهناك حقوق كثيرة بين الناس بعضهم وبعض، يجب أن يُؤدِّيها الذي وجبت عليه للتي هي له، ولو لم يطالبه بها، فكيف إذا طالبه بها وهي من حقِّه؟

هناك حقُّ الأولاد على أبيهم وأمِّهم، وحقُّ الآباء والأمهات على أولادهم، بنين وبنات، وهو ما يُسمَّى برُّ الوالدين، ولو كانا مشركين، كما قال الله تعالى: **{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** [لقمان:15].

وهناك حقوق ذوي القربى وأولي الأرحام، كما قال تعالى: **{وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}** [الأنفال:75]، وقال سبحانه: **{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}** [الإسراء:26].

وهناك حقوق الجيران وأهل الحيِّ الواحد بعضهم مع بعض، من الجار **{ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ}** [النساء:36].

وحقوق الأزواج بعضهم على بعض، مما فسَّر به بعضهم قوله تعالى: **{وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ}** [النساء:36]، في آية الحقوق العشرة في سورة النساء[417].

حقوق غير الآدميين وتجريم أعمال الإبادة :

وهناك حقوق للناس كافَّة، ولو كانوا أبناء سبيل أو غير مسلمين، بل هناك حقوق لغير الآدميين من الدواجن والأنعام والحيوانات البرية والبحرية، والأسماك والوحوش، والطير والحشرات، كما قال عليه الصلاة والسلام: "لولا أن الكلاب أمَّة من الأمم

417- يعنون بها آية: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى...} [النساء:36].

لأمرتُ بقتلها"[418]، يشير إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}** [الأنعام:38].

فهناك أمّة الأنعام، وأمّة الكلاب، وأمّة القطط، وأمّة الفئران، وأمّة الأسود، وأمّة العناكب، وأمّة النَّحل، وأمّة النمل، وغيرها من الأمم التي لا تُحصى. وكلٌّ أمة خلقها الله، وهيَّأ لها خصوصيتها، ومن حقِّها أن تعيش، فلا ينبغي أن يعمل الإنسان على إبادة أمة كاملة من الأرض.

وإذا كان الإسلام يجرِّم أعمال الإبادة في أمم كالكلاب أو النمل أو الصراصير، فماذا نقول في الذين يبيدون أمماً من البشر، كما هي نظرة الصهاينة في تلمودهم – وفيما حرَّفوه من توراتهم – إلى غيرهم من البشر، ومن الأمم الذين يعتبرونهم أخسَّ من البهائم، وأذلَّ من الكلاب.

وما بالكم فيما فعله الغربيون في أهل أمريكا الأصليين، الذين أبادوا منهم الملايين، بوسائل لا تليق بالآدميين، وما بالكم بمَن قتلوا الاستراليين الأصليين، ولم يُبقوا منهم أحدا؟!!

الوصية بالحق تشمَل الشريعة كلَّها:

فالوصيَّة بالحق تشمَل الشريعة كلَّها، أصولَها وفروعها، ماضيَها وحاضرها، من ذلك ما وصَّى الله به الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا ﴾ [الشورى: 13]، وكما وصَّى بهذا الحقِّ إبراهيمُ ويعقوبُ أبناءهم: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

418- رواه أحمد (16788) وقال مخرجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الصيد (2845)، والترمذي في الأحكام (1486)، وابن ماجه في الصيد (3205)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (5322) عن عبد الله بن مغفل.

مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 132]، فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة، وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة؛ كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى – عليه السلام –: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ [مريم: 31، 32].

وكذلك الوصية بالحقِّ في الحالة الاجتماعية ماثِلة في الوصية بالوالدَين والأولاد لترابُط الأسرة؛ ففي الوالدين قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: 14، 15]، وفي الأبناء قال: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ [النساء: 11].

وفي الحقوق العامة أوامرُ ونواهٍ، عبادات ومعاملات، جاءت آيات الوصايا العشر التي قال عنها ابن مسعود – رضي الله عنه –: من أراد أن ينظُر إلى وصيَّة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التي عليها خاتَمه، فليقرأ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: 151، 153][419]، وتلك الوصايا العشر في سورة الأنعام جامِعةٌ لأبواب الخير، موصِدةٌ لأبواب الشر.

التواصي بالمرحَمة:

419 - رواه الترمذي في التفسير (3070) وقل: حسن غريب، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (593).

ومن التواصي بالحق : التواصي بالمرحمة التي ذكرها الله سبحانه في سورة البلد: { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } [البلد: 17] أي: يتراحمون فيما بينهم بأن يرحم قويُّهم ضعيفَهم ، وغنيُّهم فقيرَهم؛ لتكون الأمة الإسلامية كالجسد الواحد يشُدُّ بعضهم بعضًا، يجمعهم الحبُّ والتعاطف؛ يقول صلى الله عليه وسلم: "مَثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم وتراحمهم مَثلُ الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسهر"[420]؛ وفي رواية لمسلم: "المؤمنون كرجل واحد"، وفي رواية له أيضًا: "المسلمون كرجل واحد؛ إذا اشتكى عينُه، اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسُه، اشتكى كلُّه"[421].

الشرط الرابع: التواصي بالصبر:

الشرط الرابع للنجاة من الخسر والضياع في هذه السورة، بعد التواصي بالحقِّ، هو التواصي بالصبر.

فعلى أهل الإيمان الذين يرجون أن ينجوا من الخسران: أن يتواصوا بأمرين أساسيين هنا: أولهما: أن يتواصوا بالحقّ، فلا يجهلوه، ولا يُغفلوه إذا عرفوه، بل يوصون به بعضها بعضا. ولا يكتفوا بهذا، بل عليهم تواصٍ آخر ضروري ولا بدَّ منه، لكي يقبلهم الله ويرضى عنهم، وهو ما سمَّته السورة: أن يتواصوا بالصبر.

ذلك أن الحقَّ ثقيل، لا يقدر على تكاليفه إلا كلُّ ذي عزم من أهل الصبر والتقوى، كما قال تعالى: **{وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}** [آل عمران:186]، وقال تعالى على لسان يوسف: **{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}** [يوسف:90].

---

420 - متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (6011)، ومسلم في البر والصلة (2586) (66)، عن النعمان بن بشير.

421 - رواه مسلم في البر والصلة (2586) (67).

وقال عزَّ وجلَّ: **{وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِـنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِـنَ الْأَمْـوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُهْتَـدُونَ}** [البقرة:155–157]. فهذه الآية ابتدأت باللام الموطِّئة للقَسَم، وأُكِّدت بنون التوكيد، وقالت: **{بِشَـيْءٍ مِـنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ}** وغيرها، حتى لا تهول على الناس الأمر، ولكن ذكرت أنه ابتلاء تنوُّع، وأنه يحتاج إلى الصبر.

وفي آية أخرى، قال تعالى: **{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}** [آل عمران:186]. ولهذا قالوا: الصبر مرٌّ، لا يتجرَّعه إلا حرٌّ، فلا بدَّ أن تربَّى الأمة على الصبر، لتقوم بما أُمرت به، وتنتهى عما نُهيت عنه، وترابط على أمر الله.

الصبر من أعظم الأوامر الإلهيَّة :

ولهذا كان الصبر من أعظم الأوامر الإلهيَّة، التي أُمر بها المؤمنون في القرآن المكِّي، والقرآن المدني، ومما أُمر به النبيُّ صلى الله عليه وسلم خاصَّة.

فالرسل والأنبياء جميعا قد أُمِروا بالصبر، وأَمَروا به، قال شعيب لقومه: **{وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}** [الأعراف:87].

وقال القرآن على لسان الرسل: **{وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}** [إبراهيم:12].

{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:128].

وفي القرآن المدني يقول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}** [البقرة:153]، وقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [آل عمران:200]، وقال سبحانه في سورة الأنفال: **{وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}** [الأنفال:46]، وقال تعالى: **{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}** [محمد:31].

فإذا كان الله تبارك وتعالى قد أخذ على المؤمنين في هذه السورة – سورة العصر – أن يؤكِّدوا إيمانهم بالتَّواصي بالحقِّ، يَصُونونه جميعا، ويحفظونه ويدافعون عنه، حتى لا يضيع ولا يهون، وعزَّز ذلك بأن عليهم أن يتواصَوا ويتعاهدوا فيما بينهم بمراعاة الحقوق التي بين بعضهم وبعض، ويرعوا جانب الحقِّ، وهو الله عزَّ وجلَّ، فلا بدَّ لكي يستمرُّوا في أداء هذا الحقِّ والعناية به، وعدم الغفلة عنه، أو إهداره ونسيانه: أن يتواصَوا بالصبر عليه؛ فإن الصبر على الحقِّ أمر في غاية الأهمية، إذا لم يكن محفوظا ومرعيًّا ومعتنىً به، هان على الناس، وإذا طال هوانه عليهم ضيَّعوه شيئا فشيئا، حتى يتسرَّب منهم، فلا يكادون يحصلون عليه.

كلام ابن القيم عن هذه السورة:

وللإمام ابن القيم في هذه السورة كلام جميل وعميق، يجب علينا أن نُسجِّله عنه ههنا، ليستفيد منه قارئنا، فابن القيم من أعظم الذين فهموا القرآن بأحكامه وحِكَمه ومعانيه وأسراره، وعلَّموه للأمة، وأبلغوه للناس.

يقول رحمه الله في الحديث عن إنسان سورة العصر: (فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلُّها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبَّه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأنَّ قدرته كما لم تقصر عن المبدأ، لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًّا، تأبى أن يسويَ بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا مَن رحمه الله، فهداه ووفَّقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به، وهذا نظير ردِّه الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمَّل حكمة القرآن لما قال: {**إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ**}، فإنه ضيَّق الاستثناء وخصَّصه، فقال: {**إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**}. ولما قال: {**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**} [التين:5]، وسَّع الاستثناء وعمَّمه، فقال: {**إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**} [التين:6].

ولم يقل: (وتوَاصَوْا)، فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرَّد فعله. فمَن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر. ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإنَّ الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضًا على الأعيان، وقد تكون فرضًا على الكفاية، وقد تكون مستحبَّة.

والتواصي بالحقِّ يدخل فيه الحقُّ الذي يجب، والحقُّ الذي يستحبُّ.

والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحبُّ.

فهؤلاء إذا تواصَوا بالحقِّ، وتواصوا بالصبر، حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم، ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء، والخسار المطلق شيء. وهو سبحانه إنما قال: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}**، ومَن ربح في سلعة وخسر في غيرها، قد يطلق عليه أنه في خُسر، وأنه ذو خُسر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[422]. فهذا نوع تفريط، وهو نوع خُسر بالنسبة إلى مَن حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة التين: **{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}** [التين:5]، قال: **{إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**، فقسَّم الناس إلى هذين القسمين فقط. ولما كان الإنسان له قوَّتان: قوَّة العلم، وقوَّة العمل. وله حالتان: حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى سبحانه من كمَّل قوَّته العلمية بالإيمان، وقوَّته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به، من الإنسان الذي هو في خسر. فإن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحقِّ، وصبر عليه.

فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمَن يأمره بذلك، وقوله تعالى: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**، إرشاد إلى منصب الإمامة في قوَّة

422- متفق عليه: رواه البخاري (1323، 1324)، ومسلم (945)، كلاهما في الجنائز.

الدين. كقوله تعالى: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**} [السجدة:24]، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

والصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع.

وهذا النوع أيضا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر، فمشترك بين المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، لا يُثاب عليه لمجرَّده، إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي صلى الله عليه وسلم، في حقِّ ابنته: "مُرها فلتصبر ولتحتسب"[423]. وقال تعالى: {**إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**} [هود:11]، وقال تعالى: {**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**} [آل عمران:125]، وقال: {**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**} [آل عمران:120]، فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوَّة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

وقال تعالى: {**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ**} [الروم:60]، فأمره أن يصبر ولا يتشبَّه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم. خفوا واستخفوا قومهم. ولو حصل لهم اليقين والحقُّ لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، فمَن قلَّ يقينه قلَّ صبره، ومن قلَّ صبره خفَّ واستخفَّ، فالموقن الصابر رزين؛ لأنه ذو لبٍّ وعقل. ومن لا يقين له ولا صبر عنده، خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان)[424].

اتفاق الصحابة على قراءة السورة عند الافتراق:

423- متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (7377)، ومسلم في الجنائز (923)، عن أسامة بن زيد.
424- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، 84-88.

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلامذته الذين تلقَّوا عنه العلم والعمل، تعوَّدوا إذا اجتمع بعضهم مع بعض ألا يفترقوا حتى يُذكِّر بعضهم بعضاً بما نبَّههم الله على التَّواصي به في سورة العصر.

روى الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي مدينة الدارمي، قال: كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: **{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}** [العصر:1-2]، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر[425].

ولم يكن القصد من قراءتها التَّبرُّك، كما يتوهَّم بعض الناس، وإنما التذكير بما تضمَّنته السورة من التعهُّد بالشروط الأربعة، من الإيمان والعمل والتواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر.

ذكر السيوطي في (الدر المنثور)، ما أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القُرظي: **{وَالْعَصْرِ}** قال: قسم أقسم به ربُّنا وتبارك وتعالى، **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}** قال: الناس كلُّهم، ثم استثنى فقال: **{إِلَّا الَّذين آمنُوا}**، ثم لم يَدَعهم وذاك حتى قال: **{وَعمِلُوا الصَّالِحَات}**، ثم لم يَدَعهم وذاك حتى قال: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}**، ثم لم يَدَعهم وذاك حتى قال: **{وَتَوَاصَوْا بِالصبرِ}** يشترط عليهم[426].

425- رواه الطبراني في الأوسط (5124)، والبيهقي في الشعب (8639)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (18198): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة، وهو ثقة. وصححه الألباني في الصحيحة (2648).

426- الدر المنثور للسيوطي (622/8).

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ (6) التِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)}

سورة الهمزة مكيَّة.

نزلت في ذمِّ أحد كفَّار قريش، ووصفته بهذه الأوصاف السيئة المذمومة عند الله وعند الناس، وبيَّنت سائر خصاله الأخرى، التي تُثبت حقيقة شخصيته، وما يستحقُّه من جزاء وعقاب شديد، يدَّخره الله له يوم القيامة، **{فِي الحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ}**.

وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل غيره. وقال مجاهد: هي عامَّة[427].

{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}

الويل: الهلاك والعذاب، أعدَّه الله لكلِّ هُمزة لُمزة. والهُمزة واللُّمزة: صيغة مبالغة على وزن (فُعلة) من الهمز واللمز، وكلٌّ منهما إساءة إلى الناس بالازدراء والتحقير. الهمز بالقول، ويُسمَّى (الهمَّاز) أيضا، كما في قوله تعالى: **{هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}** [القلم:11]، والمراد النَّيل من أعراض الناس، والغضُ منهم، والطعن فيهم.

واللمز: بالفعل. وعن ابن عباس: هُمزة لُمزة: طعَّان مُغْتَاب 428. وبعضهم قال: الهُمزة يهمزه في وجهه. واللُّمزة من خلفه. وقيل: الهُمزة واللُّمزة: بلسانه وعينه. وقال بعضهم: الهمزة باليدين والعين، واللُّمزة باللسان.

427- معالم التنزيل، للبغوي (530/8).

428 - رواه الطبري في التفسير (618/24).

وكلُّها متقاربة ومتداخلة، المهم أن هذا الشخص لا يأتي الناس منه إلا شرٌّ، من قوله وفعله، من لسانه وعينه ويده، من وجهه ومن خلفه، قال تعالى: **{وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}** [الحجرات:11]. وبناء (فُعَلة) يدلُّ على أن ذلك عادة منه قد جرى بها، ونحوها: اللُّعبة والضُّحَكة.

{الذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ}

هذا الشخص الهُمزة اللُّمزة الطعَّان العيَّاب، المؤذي للناس، ليس هذا عيبه الوحيد، بل له عيوب أخرى، تتعلَّق بالمال، **{الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ}**، أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده، كقوله تعالى: **{وَجَمَعَ فَأَوْعَى}** [المعارج:18]. أي: أنه دائما مشغول بالمال وتعديده، وجمعه هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام وهمد كأنه جيفة.

{يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}

ومن غفلته وبلادته أن شدَّة حبِّه للمال جعلته يظنُّ أن هذا المال وجمعه، وكسبه يخلِّده في هذه الدار.

{كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ}

{كَلَّا}، أي: ليس الأمر كما زعم، ولا كما حسب. فالمال لا ينفع صاحبه في الآخرة، ولا يشفع له، وكما قال سيدنا إبراهيم في دعائه لربِّه: **{وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [الشعراء:87-89]. ومن هنا قال: **{كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ}**، أي: لينبذنَّ هذا الذي جمع المال وعدَّده في الحطمة.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ}

وهل تدري ما الحطمة، وما معناها ومفهومها إذا ذُكرت؟

{نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ}

الحُطَمَـةُ}، نـار الله الموقدة، فهي اسم من أسماء جهنم، نـار الآخرة، وهو علـى وزن (فُعَلة) من الحطم، وهو الكسر، فهي تحطِّم وتكسر كلَّ مَن يُلقى فيها. إنها **{نَـارُ اللَّهِ}**، منسوبة إلى الله، ومعناها: أنها ليست كنار الدنيا، بل جاءت الأحاديث تقول: " ناركم جزء من سبعين جزءا من نـار جهنم "429. فهي نـار الله، ليست نـار عبد من عباده، ومن أوصافها اللازمة لها: أنها **{ المُوقَـدَةُ}**، المشتعلة المتوهِّجة، لا تنطفئ ولا تضعُف هي دائما موقدة.

{الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ}

هـذه النـار ليسـت كـالنيران، التـي لا تأكـل إلا ظـاهر الأجسـاد، ولا تتغلغـل فـي الداخل إلى الأفئدة والقلوب، بل أول ما تهتمُّ به وتطَّلع عليه هي الأفئدة، أي: القلوب المكنونة في صدور الناس. يقال: طلع الجبل، واطَّلع عليه إذا علاه.

قال الفخر الرازي: (في تفسير الآية وجهان: الأول: أن النار تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم، وتطَّلع على أفئدتهم، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألُّما منـه بـأدنى أذى يماسُّـه، فكيف إذا أُطلقت نـار جهنم فاستولت عليه. ثم إن الفؤاد – مع استيلاء النار عليه – لا يحترق، إذ لو احترق لمات، وهذا هو المراد من قوله تعالى: **{فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}** [طه:74]. ومعنـى (الاطلاع): أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد.

والثاني: أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك، هو أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة، والنيَّات الفاسدة)[430].

{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ}

429- سبق تخريجه صـ .

430- تفسير الرازي (286/32).

مؤصدة: مغلقة مطبقة، وهذه زيادة في العقاب والإيلام؛ لأن مَن يعيش في مكان مغلق، يزداد ألما وكمدا، ويشعر بالحرارة والاختناق، فكيف إذا كان في النار؟

{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}

عمد من حديد، ممدودة عليهم. قال ابن عباس: أدخلهم في عمد، فمُدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل، فسدَّت بها الأبواب[431]. وقال قتادة: كنا نحدِّث أنهم يعذَّبون بعمد في النار. واختاره ابن جرير[432]. وقال أبو صالح: **{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}**: يعني القيود الثقال[433].

خُذ ما شئتَ من هذه التفاسير، فليس هناك إلا العذاب الغليظ، من أيِّ وجه طلبتَه، ومن أيِّ جهة أثبته، فلا حول ولا قوَّة إلا بالله.

اللهم قنا عذاب النار.

431- رواه الطبري في التفسير (625/24).
432- المصدر السابق، نفسه.
433- تفسير ابن كثير (675/2).

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ (1) الَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)}

السورة الكريمة مكيَّة بالإجماع.

وهي تتضمَّن التذكير بحادث كبير، وقع عند مولد محمد بن عبد الله، العربي القرشي الهاشمي المطَّلبي، الذي بعثه الله – بعد ذلك بأربعين سنة – برسالة عظيمة للعرب خاصَّة، وللناس كافَّة. فكانت هذه الحادثة التي هزَّت العرب عامة، وخصَّت قريشا حُماة الكعبة بالحماية: إرهاصا لنبوَّة محمد، الذي كانت البشائر تبشِّر به، وكان العرب يؤرِّخون حوادثهم بعام الفيل، يقال: هذا وقع بعد عام الفيل بخمس سنوات، أو بعشر سنين، وهكذا.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ}

الخطاب في هذه الآية وما بعدها، لمَن أُنزل عليه القرآن وخوطب به، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي خُوطب بكثير من السور التي فاتت والتي ستأتي، مثل سورة الماعون، وسورة الكوثر، وسورة الكافرون، وسورة النصر، وسورة الإخلاص، وسورتي المعوذتين. وهي هنا خطاب كذلك لكلِّ مَن يتأتَّى خطابه من أمَّته.

لِمَ قال: **{أَلَمْ تَرَ}**، مع أن هذه الواقعة، وقعت قبل البعثة النبوية بزمن طويل؟ والجواب: إن المراد من الرؤية في قوله: **{أَلَمْ تَرَ}**: العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكان العلم الحاصل به ضروريًّا مساويا في الوضوح والجلاء للرؤية.

ولِمَ كان الاستفهام عن الكيفية: **{كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ}**؟ لأن الأشياء لها ذوات، ولها كيفيَّات، باعتبارها يدلُّ على مداومتها، وهذه الكيفية هي التي يُسمّيها المتكلمون وجه الدليل، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات. ولهذا قال تعالى: **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}**، ولا شكَّ أن هذه الواقعة كانت دالَّة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالَّة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم فيما بعد، لأن مذهبنا – كما قال الإمام الرازي – أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان بعثة الرسل، تأسيسا لنبوَّتهم وإرهاصا لها[434].

وإنما قال: **{كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ}**؛ ليكون ذلك في معرض التعجُّب، فهو تعجُّب من الله ربِّه، الذي يرشده ويربِّيه ويرقِّيه في مدارج الكمال، واختار هذا الاسم **{رَبُّكَ}** بدلا من لفظ الجلالة (الله)؛ ليكون أدلُّ على الحضور والشهود.

{بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}، اختار لهم اسم (الأصحاب)، ولم يقل مُلاَّك الفيل، أو أربابه، قال الرازي: (لأن الصاحب يكون من الجنس، فكأنه يدلُّ على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل، في البهيمية وعدم العقل والفَهم. بل القرآن قال عن أمثالهم: **{أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}** [الأعراف:179])[435].

والفيل هو أضخم حيوان عرَفه الناس من ذوات الأربع. ومعروفة للجميع قوَّته وقدراته.

{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}

الاستفهام للتقرير. يعني أنه جعل كيدهم الذي كادوه، ومكرهم الذي دبَّروه في تضليل، أي: في إبطال وتضييع، فلم يُفلح ولم يغنِ عنهم شيئا.

434- تفسير الرازي (289/32).
435- المصدر السابق (290/32).

كما هو شأن الكافرين والظالمين، الذين يقفون في وجه دعوة التوحيد ضدَّ الشرك، وفي وجه العدل ضدَّ الظلم، وفي وجه الحقِّ ضدَّ الباطل، يحبط الله مكرهم، ويدرأ شرَّهم، كما قال تعالى: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}** [الطارق:15-17]، وقال تعالى: **{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** [النمل:51، 52].

وقد كان من كيد هؤلاء تدبير الجيش المقاتل بجنوده وضبَّاطه وأسلحته وأدواته، ومن أعظمها الفيل؛ الذي لم يكن العرب يعرفونه، ولعله كان على رأسه فيل معيَّن، أو هو ومعه أفيال أخرى. فلم تغن عنهم شيئا، فإن الفيل الأكبر الذي يركبه القائد، كلَّما وجهوه إلى مكة نكص وتمرَّد، وكلَّما وجهوه إلى جهة أخرى سار وركض.

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ}

أرسل الله على هذا الجيش اليمني، الذي يقوده أبرهة الحبشي، مدجَّجا بالفيل وما معه من ألوان الأسلحة، وأدوات التدبير طيرًا أبابيل، والأبابيل: الفرق والجماعات يتبع بعضها بعضا، كثيرة شتَّى متتابعة مجتمعة. وقال بعضهم: مختلفة، تأتي من هاهنا ومن هاهنا، أتتهم من كلِّ مكان.

والأبابيل قال الجمهور: لا واحد له من لفظه. وقال آخرون: جمع إبيل، أو إبالة، ومما ورد في ذلك من أمثال: (ضِغث على إبَّالة).

كانت هذه الجماعات الكثيرة من الطير صفوف منتظمة في جيش مجهَّز، كامل العدد والعُدة.

{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}

{سِجِّيلٍ}، شديد صُلب، أي: طين متحجِّر، وأصل الكلمة فارسية دخلت العربية، وهي في أصلها كلمتان (سنك وكل) والكاف هنا جيم قاهرية، والسنك يعني: الحجر، والكِل يعني: الطين. ويقول: الحجارة من هذين الجنسين.

وكلُّ طير منها يضرب ويرمي بالحجارة التي يحملها، بعض هؤلاء الجنود، الذين جاءوا من بلادهم البعيدة، لهدم الكعبة البيت الحرام، فيصيبه الحجر فيقتله، فهي جند الله، المحمَّل بعذاب الله، ولن ينجوَ منه أحد من الظالمين.

{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٌ}

فحوَّل الله هؤلاء الجنود، المهيَّئين للقتال، المعدِّين للنزال، إلى مادة أشبه بورق الزرع الذي يُقضم، شبَّهوه بالتبن الذي تأكله الدواب، أو القَصيل الذي يجز للدواب، وجاء عن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبَّة، كالغلاف على الحنطة[436].

ما أغنى عنهم الفيل، ولا أغنى عنهم السلاح الثقيل، ولا أغنى عنهم الجيش الخطير، ولا أغنى عنهم العدد الكثير؛ ولا الجم الغفير، لأنه لم تكن هناك جيوش دولة تحاربهم، وتقاومهم، إنما كانوا يحاربون الله وحده، فأعدَّ لهم جندًا من جنده، **{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ}** [المدثر:31]، وما كان لجند الله أن يُهزم، بل لا بدَّ له أن ينتصر، وحُقَّ له أن ينتصر، **{إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}** [الصافات:172-173].

كان أبرز رجل في مكة عبد المطلب بن هاشم جد محمد بن عبد الله، وقد أخذ أبرهة عددًا كبيرا من إبله، فأقبل عليه يطلب أن يردَّ إليه إبله، فعجب الرجل أن يسأله

436- تفسير ابن كثير (488/8).

عن الإبل، ولا يسأله عن البيت، فقال لـه: أما الإبل فأنا ربُّها، وأما البيت فله ربٌّ يحميه.

ورجع من عنده يدعو على هذا المتجبِّر الظالم، ومن الأبيات التي كان يدعو بها، كما رووها:

يارب إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك[437]

437 - السيرة النبوية لابن إسحاق صـ 62.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)}

السورة مكيَّة.

وهي سورة مستقلَّة، بحكم تسميتها، وبحكم موضوعها، وبحكم صياغتها وأسلوبها.

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}

اللام في الآية الكريمة للتعليل، أي: من أجل إيلاف قريش لرحلة الشتاء والصيف، أي: من أجل جعلهم يألفون هاتين الرحلتين الكبيرتين العالميتين، إحداهما في الشتاء إلى اليمن، والأخرى في الصيف إلى الشام.

وكانت هاتان الرحلتان في غاية الأهمية لسكان هذه المنطقة الحجازية، وقضاء كثير من حاجاتهم التي تُهمهم، ويحتاجون إليها من الخارج، ولكلٍّ واحدة من هاتين الرحلتين مصالح وأهداف تحقِّقها، لا تحقِّقها الرحلة الأخرى، لاختلاف طبائع البلاد ومنتجاتها وصناعاتها، وما اعتاده أهلها في مختلف الشؤون مما يؤكل وما يلبس وما يصنع، وما يصدَّر إلى الآخرين، وما يُستورد منهم.

وقد ألقى الله في قلوب قريش حبَّ هاتين الرحلتين، والاعتياد عليهما، وتآلف سائر الناس من حولهما معهم عليها.

وكان هذا مما هيَّأ الله لقريش ومَن حولها، ومَن كان على مثل حالها من العرب، فقريش أبناء وذرية فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، هم قبيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجماعته، الذين حاربه منهم مَن حاربه، كعمه أبي لهب، وآمن به مَن آمن، وناصره من ناصره عصبية له، وحفاظا عليه.

وهاتان الآيتان هما جزء من الآيتين الكريمتين، اللتين بهما تكتمل السورة الكريمة، فالسورة بآياتها الأربع جملة واحدة.

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}

من أجل إيلاف قريش رحلتهم، فهم مطالبون مأمورون من الله تبارك وتعالى، ربِّ هذا البيت العتيق، البيت الحرام بمكَّة المكرَّمة، التي هيَّأهم الله ليعيشوا فيها، ويقيموا بها، كما قال تعالى: **{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [آل عمران:96، 97].

هم مطالبون أن يعبدوا ربَّ هذا البلد، ويوحِّدوه ويفردوه بالعبادة والطاعة، ولا يشركون به ولا معه إلها آخر. كما فعل الكثير من العرب، ممَّن أفسدوا هذه العبادة، فلم تَعُد لله وحده، ولم يعد ربُّهم الذي خلقهم وسوَّاهم ورزقهم، هو الذي تعنو له وحده الوجوه، وتسجد له الجباه، وتركع له الظهور.

ثم يبيِّن الله تعالى لهم جدارته بأن يعبدوه، وحده لا شريك له، فقال: **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}**، هذا الإله العظيم ربُّ البيت، هو الذي تميَّز بأمرين أو بنعمتين عظيمتين، ليس لأحد سواه فضل فيهما.

النعمة الأولى:

نعمة إطعامهم من جوع، فقد خلق الإنسان بطبيعته محتاجا إلى الطعام، لا يستغني عنه، كما قال تعالى: **{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}** [الأنبياء:8].

لهذا هيأ الله للناس الأطعمة المختلفة من البرِّ والبحر، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، بل هيَّأ (أم الإنسان) لتطعمه من ثديها، قبل أن تظهر له أسنان تستطيع أن تقطع، ومن هنا كان على كلِّ قادر أن يطلب الطعام الملائم له ليأكله، ومَن لم يجد فعلى مَن عنده طعام أن يؤتيه، و"ليس منا مَن بات شبعان، وجاره إلى جنبه جائع"[438].

{وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}

ذكر الله النعمة الثانية بعد ذكر النعمة الأولى، وهي الإطعام من جوع.

والنعمة الثانية:

الأمن من الخوف، فدلَّنا هذا الجزء من الآية على أن نعمة الأمن من الخوف، نعمة كبيرة. مَن هيَّأها الله له، كان أهلا أن يشكر الله تعالى، وأن يسأله المزيد منها، والحفاظ عليها.

وبهاتين النعمتين: الإطعام من جوع، والأمن من خوف، تتكامل على الإنسان نعم الله، التي لا بدَّ للإنسان منها. الأولى: نعمة الكفاية من العيش. والثانية: نعمة الأمن من الخوف.

ويجب على المجتمع المسلم أن يسعى بكلِّ قوَّة، مع الآخرين من جيرانه وأعوانه وخلطائه، أن يوفِّر هاتين النعمتين بالقدر المناسب لكلِّ مسلم: الطعام أو الكفاية، والأمن.

438- رواه الطبراني (1/ 259)، والبزار (7429)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (3874)، والهيثمي في مجمع الزوائد (13554)، وابن حجر في القول المسدد (1/ 21)، عن أنس بن مالك.

ولهذا اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم الأمن من العناصر الأساسية لكلِّ فرد في حياته، كما قال: "مَن أصبح آمنا في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها"[439].

واعتبر القرآن شرَّ المجتمعات مَن ابتُلي بالمصيبتين معا: الجوع والخوف، فقال تعالى: **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}** [النحل:112].

ولهذا كانت نعمة الله على قريش أن أنعم عليهم، بالرخاء من العيش، وبالأمن من الخوف، بفضل سدانتهم ورعايتهم للبيت الحرام، الذي جعلهم الله خدمًا له، وقوَّامًا بأمره وأمر حجَّاجه ومعتمريه، بإطعامهم وسقايتهم، وخدمتهم طوال حجِّهم وعمرتهم، فوفَّر الله – بوساطة ما يقومون به للبيت – الأمن في سفرهم وسياحتهم في طول البلاد وعرضها، والأمن في بلدهم، كما قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}** [العنكبوت:67]، **{وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إليه ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [القصص:57].

439- رواه الترمذي في الزهد (2346) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد (4141)، وحسنه الألباني في الصحيحة (2318)، عبيد الله بن محصن الأنصاري.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ (7)}

هذه سورة مكية، من قصار المفصَّل، عُرفت باسم سورة (الماعون).

{أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}

الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم، الذي يتنزَّل عليه القرآن، ويُخاطَب به، قبل أن يخاطِب غيره، وهو في الوقت ذاته، خطاب لكلِّ عاقل يتأتَّى خطابه، فهو خطاب لكلِّ مسلم.

وهو – وإن كان في صورة الاستفهام – فإن الغرض بمثله المبالغة في التعجُّب، كقولك: أرأيتَ فلانا ماذا ارتكب؟ ولماذا عرَّضَ نفسه؟

{أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}، أرأيتَ يا محمد، أو أرأيتَ أيها العاقل، هذا الذي يُكذِّب بالدين، بعد ظهور دلائله، ووضوح بيّناته.

والدين يُراد منه عدَّة معانٍ، فالدين هو ما بُعث به رسله، وأنزل به كتبه إلى الخلق، ليعبدوه، ويطيعوه، ويتَّبعوا منهجه، فيجب التصديق به، ولا يجوز تكذيبه.

والدين أيضا هو المعاد والجزاء والثواب والعقاب.

ومن المؤسف حقًّا: أن نجد في الناس في كلِّ عصر مَن يكذِّب بهذا الدين، ومن يصدُّ الناس عنه، ومَن يقف في وجه مَن أُرسل به، من الكفرة والمكذبين، كما قال تعالى: **{أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}**، هل عرفتَ هذا الجاهل الأبله، الذي يُكذِّب بالدين والجزاء والآخرة؟ إن كنتَ لم تعرفه، فها أنا أدلُّك عليه، وأهديك إليه .

{فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ}

هو رجل قاسي القلب، حجري العواطف، لا يلين ولا يرحم، ولا تهمُّه البطون الجائعة، ولا الأعين الدامعة، ولا القلوب الخاشعة، **{فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ}**، فهو يقهر اليتيم، ويَدُعُّه ويدفعه بعنف وجفوة، دلالة على انتزاع الرحمة من قلبه، ولا يهتمُّ بأمر المسلمين، وهو الذي لا يفكِّر في غيره، فلم يعد ينشغل بأمر الناس من حوله، وخصوصا الذين أسكتهم الفقر وأضعفهم، فلا يحضُّ غيره من القادرين على إطعام المساكين، أن يقوموا بواجبهم ويكفلوهم، ويضمنوا لهم المعيشة المعقولة، الكافية لأمثالهم، وقد أكَّد القرآن الوصية باليتيم، فقال تعالى في سورة الضحى: **{فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** [الضحى:9].

وهذا كلُّه من الحفاظ على شخصيَّته ونفسيَّته، كما أمر أيضا بالحفاظ على ماله: **{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}** [الإسراء:34]، وشدَّدت في ذلك الأحاديث النبوية، حتى قال عليه الصلاة والسلام: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئا[440]. وصحَّت في هذا المعنى أحاديث أخرى.

هذا الإنسان الذي فقد هذا العنصر القوي في حياته، وهو عنصر الدين، فقد منه خصلتين مهمَّتين: التعامل برحمة ولطف مع اليتيم، الضعيف الذي فقد أباه، ففقد كلَّ

440- رواه البخاري في الأدب (6005)، وأحمد (22820)، وأبو داود في الأدب (5150)، والترمذي في البر والصلة (1918)، عن سهل بن سعد.

ما يسند ظهره، ويشدُّ أزره، وفقد النخوة والعاطفة الحيَّة والقلب الرحيم، الذي جعله لا يهتمُّ بالمسكين، ولا يحضُّ على إطعامه.

والإسلام يرى من الفرائض الدينية الأساسية على الناس جميعا: أن يحضَّ بعضهم بعضا على إطعام المسكين، ولا يجوز أن يضيع المساكين والفقراء في قلب مجتمع مسلم.

وهذه فريضة دينية كالزكاة، أهملها المجتمع، وقد ذكرها القرآن في سورة الماعون، وفي سورة الفجر، **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** [الفجر:17، 18]، وفي سورة الحاقَّة حيث يحدثنا القرآن عن أهل الشمال، الذين يأخذ أحدهم كتابه بشماله، ويقول: **{مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** [الحاقة:28-34].

الحضُّ على طعام المساكين والفقراء فريضة دينية، لها هذه المنزلة في دين الله، وهذا الحضُّ يوجب على جماعة المسلمين، أن يقيموا جمعيات خيرية إسلامية، تقوم بهذا الأمر، وتتفرَّغ له، وتجمع من القادرين من المسلمين، ما يسدُّ رمق المحتاجين، ويغنيهم، ولا يدعهم يموتون جوعا بين الناس.

{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5)}

ذكر ابن كثير، (عن ابن عباس وغيره، يعني المنافقين، الذين يصلُّون في العلانية، ولا يصلُّون في السر. ولهذا قال: **{للمصلين}**، أي: الذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن نقلها في الوقت المقدر لها شرعا، فتخرجها عن وقتها بالكلية، كما قال مسروق وأبو الضحى.

وقال عطاء بن دينار: والحمد لله الذي قال: **{عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}**، ولم يقل: في صلاتهم ساهون.

وإما عن وقتها الأول، فيؤخِّرونها إلى آخره دائما أو غالبا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبُّر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كلَّه، ولكلِّ مَن اتَّصف بشيء من ذلك، قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تمَّ نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي.

كما ثبت في الصحيحين[441]، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا"[442]. فهذا أخَّر صلاة العصر التي هي الوسطى، كما ثبت به النصُّ إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا؛ ولهذا قال: "لا يذكر الله فيها إلا قليلا")[443].

{الذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ}

الذين يؤدُّون فرائض الله، التي أُمروا بها رياء وسمعة للناس، لا لابتغاء وجه الله سبحانه، والله تعالى لا يقبل من الأعمال، إلا ما كان خالصا لوجهه.

وفي الحديث أن الله تعالى يقول: "مَن عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه"[444].

{وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ}

---

441 - كذا في تفسير ابن كثير، ولم أقف عليه في صحيح البخاري، وعده الحميدي في الجمع بين الصحيحين من أفراد مسلم، وعزاه ابن الأثير في جامع الأصول، والمزي في تحفة الأشراف (1122)، إلى مسلم وحده.

442- رواه مسلم في المساجد (622)، عن أنس.

443- تفسير ابن كثير (493/8).

444- رواه مسلم في الزهد (2985) عن أبي هريرة، وفي معناه عدة أحاديث.

هذا الصنف من خلق الله، من الذين لا قلوب لهم، تخفق بحبِّ الله، أو برحمة الضعفاء من الناس، أو التعاطف معهم، ومحاولة تسهيل أعمالهم، بمعاونتهم فيما يحتاجون إليه من متاع البيت، وحاجات المجتمعات الصغيرة بعضها مع بعض، كما نقل عن الصحابة وتلاميذهم رضي الله عنهم، من مثل القدر، والمنخل، والإبرة، وكلِّ الأدوات التي يعتاد الجيران استعارتها، بعضهم من بعض، وبعدها يردُّونها إلى أهلها.

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (3)}

هذه أقصر سورة في القرآن الكريم، وهي مكيَّة.

وفيها امتنان من الله عزَّ وجلَّ على رسوله الكريم، بما أعطاه من نِعَم شتَّى في الدنيا والآخرة، وهو يذكر له هذه النعم، ليذكِّره بها، ويذكِّر أمَّته معه، حتى لا ينسوها، ويقوم الرسول وأمَّته بواجب شكرها، فمن حقِّ كلِّ نعمة تُسدى أن تُشكَر، وأن يُشكَر مسديها، ويفرح بها مَن أُعطيها، ويسأل الله له أن يديمها عليه.

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ}

بهذه الجملة الاسمية المؤكَّدة بـ(إنَّ)، المعبَّر بضمير الجماعة الحاضر **{إِنَّا}** دلالة على عظمة المتكلِّم، فهذا كلُّه يُوحي بعظمة المعطِي والمعطَى له، وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم المُخاطَب، والمعطَى هو ما سمَّاه القرآن بـ**{الكَوْثَرَ}**.

و**{الكَوْثَرَ}**، صيغة مبالغة من الكثرة، ومعناه: الشيء البالغ من الكثرة حدَّ الإفراط. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بمَ رجع ابنك؟ قالت: رجع بكوثر. وقال الكُميت الشاعر:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب		وكان أبوك ابن العقائل كوثرا[445]

ومن الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، في الآخرة، ما رواه الإمام أحمد قال: (حدَّثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن فُلْفُل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة، فرفع رأسه مبتسما، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكتَ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه أنزلت عليَّ

445 - من شعر الكميت.

آنفا سورة". فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ}** حتى ختمها، قال: "هل تدرون ما الكوثر؟". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هو نهر أعطانيه ربِّي عزَّ وجلَّ، في الجنَّة، عليه خير كثير، ترِدُ عليه أمَّتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يُخْتَلَج العبد منهم فأقول: يا رب، إنه من أمتي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك". هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياق عن محمد بن فضيل، عن المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك[446].

وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة: أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأن آنيته عددَ نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، من طريق محمد بن فضيل، وعلي بن مُسْهِر، كلاهما عن المختار بن فُلْفُل، عن أنس. ولفظ مسلم قال: "بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: "أُنزلت علي آنفا سورة". فقرأ: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}**، **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}** ثم قال: "أتدرون ما الكوثر؟". قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنه نهر وَعَدنيه ربِّي عزَّ وجلَّ، عليه خير كثير، وهو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فَيختلجُ العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك"[447].

وقال الإمام أحمد أيضا، حدَّثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دخلتُ الجنة فإذا أنا بنهر، حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربتُ بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أذفر. قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله عزَّ وجلَّ"[448].

446- رواه أحمد (11996).
447- رواه مسلم في الصلاة (400)، وأبو داود في السنة (4747)، والنسائي في الافتتاح (904).
448- رواه أحمد (12008).

ورواه البخاري في صحيحه ومسلم، من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما عُرجَ بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال: "أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر"[449]. وهو لفظ البخاري رحمه الله.

وقال البخاري: حدَّثنا خالد بن يزيد الكاهلي، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عائشة قال: سألتُها عن قوله تعالى: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ}**. قالت: نهر أُعطيه نبيُّكم صلى الله عليه وسلم، شاطئاه عليه درٌّ مجوَّف، آنيته كعدد النجوم. ثم قال البخاري: رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرَّف، عن أبي إسحاق[450]. ورواه أحمد والنسائي، من طريق مُطرّف، به[451].

ثم قال البخاري: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلتُ لسعيد بن جبير: فإن ناسًا يَزْعُمون أنه نهر في الجنة؟ قال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[452].

ورواه أيضا من حديث هُشيم، عن أبي بشر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير[453]. وقال الثوري: عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير[454].

وهذا التفسير يعمُّ النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جُبير، ومجاهد، ومحارب بن

449- متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4964)، ومسلم في الإيمان (162).
450 - رواه البخاري في التفسير (4965).
451- رواه أحمد (26403)، والنسائي في الكبري في الصلاة (11641).
452- رواه البخاري في التفسير (4966).
453- رواه البخاري في الرقاق (6578).
454- زيادة من تفسير الطبري (682/24).

دِثَار، والحسن بن أبي الحسن البصري. حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة[455]. وقد صحَّ عن ابن عباس أنه فسَّره بالنهر أيضا، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عمر بن عبيد، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدرِّ، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل[456].

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا هُشيم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن محارب بن دِثار، عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدرُّ والياقوت، ماؤه أشدُ بياضا من اللبن، وأحلى من العسل[457].

وكذا رواه الترمذي، عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء بن السائب، به مثله موقوفا[458]. وقد روي مرفوعا فقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن حفص، حدثنا ورقاء قال: وقال عطاء بن السائب: عن محارب بن دِثار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشدُّ بياضا من اللبن، وأحلى من العسل"[459].

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير من طريق محمد ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، به مرفوعا. وقال الترمذي: حسن صحيح[460].

455- رواه الطبري في التفسير (684/24).
456- المصدر السابق (679/24).
457- المصدر السابق، نفسه.
458- لم أقف على في سنن الترمذي من هذا الطريق ولا ذكره المزي في تحفة الأشراف. رواه الطبري في التفسير (679/24).
459- رواه أحمد (5355)، وقال مخرجوه: حديث قوي.
460- رواه الترمذي في التفسير (3361)، وابن ماجه في الزهد (4334)، والطبري في التفسير (688/24)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (3498).

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، أخبرنا عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق، والله إنه للخير الكثير. ولكن حدَّثنا ابن عمر قال: لما نزلت: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}**. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، يجري على الدرِّ والياقوت"[461].

وقال ابن جرير: حدَّثني ابن البرقي، حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا محمد بن جعفر ابن أبي كثير، أخبرني حَرَام بن عثمان، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أسامة بن زيد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى حمزة بن عبد المطلب يوما فلم يجده، فسأل امرأته عنه – وكانت من بني النجار– فقالت: خرج يا نبي الله آنفا عامدًا نحوك، فأظنُّه أخطأك في بعض أزقة بني النجار، أولا تدخلُ يا رسول الله؟ فدخل، فقدَّمت إليه حيسا، فأكل منه، فقالت: يا رسول الله، هنيئا لك ومريئا، لقد جئتَ وأنا أريد أن آتيك فأهْنيك وأمْريك؛ أخبرني أبو عمارة أنك أُعطيت نهرا في الجنة يُدعى الكوثر. فقال: "أجل، وعرضه – يعني أرضه – ياقوت ومرجان، وزبرجد ولؤلؤ"[462]. حَرَام بن عثمان ضعيف. ولكن هذا سياق حسن، وقد صحَّ أصل هذا، بل قد تواتر من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض. وهكذا رُوِي عن أنس، وأبي العالية، ومجاهد، وغير واحدٍ من السلف: أن الكوثر: نهر في الجنة. وقال عطاء: هو حوض في الجنة[463])[464].

{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}

أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهرُ الذي تقدَّمت صفته – فأخلص لربِّك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونَحْرَك، واعبده وحده لا شريك له،

461- رواه الطبري في التفسير (689/24).
462- المصدر السابق، نفسه.
463 - المصدر السابق (685/24).
464- تفسير ابن كثير (498-502/8)

وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**} [الأنعام:162-163].

وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: {**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**} [الأنعام:121].

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلِّي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول: "مَن صلَّى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومَن نسك قبل الصلاة فلا نسك له". فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نَسكتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: "شاتُك شاة لحم". أي: لا تصلح ضحية. قال: فإن عندي عناقا هي أحب اليَّ من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: "تجزئك، ولا تجزئ أحدا بعدك"[465].

465- متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (955)، ومسلم في الأضاحي (1961)، عن البراء بن عازب.

{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}

إن مبغضك – يا محمد – ومبغض ما جئت به من الهدى والحقّ، والبرهان الساطع، والنور المبين، هو الأبتر، الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه. وقد عرَفنا كيف باد هؤلاء وذهبت آثارهم، ولم يبقَ مَن يذكرهم إلا بالسوء.

وقد كثر من مشركي قريش أنهم إذا رأوا أبناء محمد صلى الله عليه وسلم، الذكور يموتون واحدًا بعد الآخر، قالوا: إنه أبتر قد انقطع ذِكره. وحاشا وكلا؛ بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرًّا على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد. كما قال ابن كثير رحمه الله[466].

كما أبقى أمَّته إلى يوم التناد، كما قال تعالى: **{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** [الأعراف:181]، كما أبقى فيها طائفة الخير، المستمرَّة إلى يوم الدين، لا يضرُّهم مَن خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

466- تفسير ابن كثير (505/8).

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}

هذه السورة المكيَّة، وهي إحدى السورتين من قصار المفصَّل التي تدعو إلى التوحيد، وتُقرِّر التوحيد باعتباره القضية الدينية العَقَدية الأساسية الأولى، التي بُعث بها الأنبياء، ونزلت بها الكتب السماوية، وقرَّرها وأمر بها وعظَّم أمرها محمد عليه الصلاة والسلام، كما قرَّرها وأكَّدها القرآن العظيم، فهي التي خُلق لها الخلق، وقام لها الأمر، ووقعت لها الواقعة، ورجفت الراجفة، وقامت سوق الجنة والنار.

كان المشركون يُبدئون ويُعيدون، ويلفون ويدورون حول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، يريدون أن يتفاوضوا معه حول آلهتهم التي يعبدون من هُبل واللات والعُزى ومناة الثالثة الأخرى، وحول إلهه الواحد، الذي بدا منذ دعا إلى دينه الجديد أنه لا يرى إلها غيره، يُدعى إلى عبادته ودعائه والاستجابة لأمره، فكانوا يحاولون عن طريق المباحثات والمحادثات وجسِّ النبض بالأسئلة والطلبات، عن إمكانية التنازل بينهم وبين محمد صاحب الدين الجديد، والرسالة الجديدة، من ممارسة تجربة جديدة بين الفريقين: محمد ودعوته التوحيدية الحديثة، وطريق الشرك والوثنية القديمة: أن يجرِّب كلُّ فريق منهما ما عند صاحبه، ليمتحنه ويختبره عن كثب، بل عن واقع مجرَّب، فيتنازل محمد عن عبادة إلهه الواحد فترة من الزمن، قد تكون سنة، أو شهرا، أو أقل أو أكثر، عن طريق الممارسة الفعلية بالتعامل مع هذا الإله أو الآلهة الجديدة، وهل تستجيب هذه الآلهة للدعوات؟ أو تتفاعل مع الآهات؟ وهل تنتصر للمظلومين؟ وتنتقم من الظالمين؟ وهل وهل؟ أم أنها كما يقول محمد: أحجار وأوثان، لا تُبصر ولا تسمع، ولا تضرُّ ولا تنفع،

و {**لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**} [الفرقان:3].

ويجرب هؤلاء المشركون التعامل مع إله محمد الواحد، الذي لا يقبل معه شريكا ولا ولدا، ولا مُعينا ولا وزيرا، بل هو ربُّ الناس، ملك الناس، إله الناس، هو الخالق وهو الرازق، وهو المدبِّر، وهو المحيي المميت، وهو الذي إذا أراد شيئا قال له: {**كُنْ فَيَكُونُ**} [البقرة:117].

كانت هذه الأفكار والمساءلات قد امتلأت بها رؤوس المشركين، وأصبحوا وأمسَوا يُزعجون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومَن معه، فكانت هذه السورة هي الناطقة والفاصلة في هذه القضية، فقد أغلقت هذا الباب أمام المفاصلات إغلاقا نهائيًّا، ولم تترك أيَّ مكان لمتردِّد، أو محاول للمواربة أو السؤال، بل الجواب الذي لا يحتمل وجها آخر، وهو قوله تعالى: {**قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**}.

هكذا أُمر الرسول الكريم أن يواجه الناس بالإجابة الصريحة الحاسمة بالنفي: {**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**}، بعد مناداتهم بهذا الاسم الكريه: {**أَيُّهَا الكَافِرُونَ**}، مع أن القرآن لا يحبُّ أن ينادي المسلم زميله الكافر بهذا اللقب، ولكن نداء الجماعة كلِّها في هذا الوقت بهذا اللقب أمر مطلوب وضروري، ولا حجر فيه ولا تردُّد، {**قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ**}، فهم لا شكَّ قد كفروا بالله الواحد، وكفروا بمحمد الرسول، وكفروا بما جاء به من بينات.

أنا لا أعبد ما تعبدون من آلهتكم المفتراة من دون الله، لا أعبد هُبل، ولا أعبد مناة، ولا اللات، ولا العُزَّى ولا غيرها.

{وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}

وأنتم أيضا لستم عابدين ما أعبد، وهو الله وحده، الذي تشركون به غيره من المخلوقات في الأرض أو في السماء، وهو الإله الواحد، الذي لا يستحقُّ العبادة غيره، ولا يُدعى سواه، وبهذا انقطعت كلُّ علاقة بيني وبينكم، من جانبي ومن جانبكم.

ثم قال: **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ}** وهنا يقرر هذه الحقيقة بهذه الصيغة، وهي: ولا أنا عابد في الحال، ولا في المستقبل ما عبدتم في الماضي.

{وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}

كرَّر ما ذكره من قبل، تأكيدا للأمر، وتثبيتا للموقف، وتقريرا لهذه الحقيقة التي جاء بها هذا الدين، بل جاءت بها الأديان كلُّها، وهي أن يُعبَد الله وحده لا شريك له، ولا ندَّ له، ولا شبيه له.

{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}

كلُّ ما أقوله لكم هذه الكلمة، وهي الحقيقة الناصعة: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**، لكم دينكم الذي تؤمنون به، وتُحاسَبون عليه، وتُؤاخَذون، وهو دين الشرك، ولي ديني الذي أُؤمن به، وأدعو إليه، وأحاسَب عليه، وأعامل على أساسه وهو الإسلام، فكلٌّ منا له دينه، وليس مسؤولا عن دين غيره، كما أن الآخرين ومنهم المسلمون مسؤولون عن دينهم لا عن دين غيرهم.

هذا ما جاء به الإسلام واعتنقه المسلمون، فهذه السورة في أوَّلها شديدة ترفض عبادة غير الإله الواحد، وفي نهايتها تقرُّ هذه الحقيقة: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**.

ولكن المشركين أقرَّوا بنصف الحقيقة التي قالها النبي محمد: **{لَكُمْ دِينُكُم}**، ولم يقرُّوا بالنصف الآخر: **{وَلِيَ دِينِ}**، فقالوا لنا ديننا وليس لك دين.

وفي آية أخرى قال القرآن: **{وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}** [يونس:41]، ولكن المشركين الجفاة قالوا: لنا عملنا، وليس لك عملك، ونحن بريئون مما تعمل، وأنت لستَ بريئا مما نعمل. هذا هو منطق الشرك العنيد المستكبر في الأرض بغير الحقِّ، ولذلك كانت عاقبته أن يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

وجاء في فضل هذه السورة ما رواه مسلم، عن جابر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهذه السورة، وبـ**(قل هو الله أحد)** في ركعتي الطواف[467].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعتي الفجر[468]. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله علية وسلم قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعا وعشرين مرَّة – أو بضع عشرة مرَّة – **{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ}**، **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}**[469].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن ابن عمر قال: رمقتُ النبي صلى الله عليه وسلم أربعا وعشرين مرَّة يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بـ**{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ}**، و **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}**[470].

وروى أيضا عن ابن عمر قال: رمقت النبي صلى الله عليه وسلم شهرا، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ**{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ}**، و **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}**[471]. وكذا روى

467- رواه مسلم في الحج (1218).
468- رواه مسلم في صلاة المسافرين (726).
469- رواه أحمد (4764) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
470- رواه أحمد (5691) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
471- رواه أحمد (5742) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الترمذي، وابن ماجه من حديث أبي أحمد الزبيري، وأخرجه النسائي من وجه آخر، عن أبي إسحاق، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن[472].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن فروة بن نوفل، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟" قال: أراها زينب؟ قال: ثم جاء فسأله النبي عنها، قال: "ما فعلت الجارية؟" قال: تركتُها عند أمها. قال: "فمجيء ما جاء بك؟" قال: جئتُ لتعلمني شيئا أقوله عند منامي. قال: "اقرأ **{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ}**، ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك". تفرد به أحمد[473].

وروى أحمد نحوه، عن فروة بن نوفل، عن الحارث بن جبلة[474]، وذكر ابن كثير رواية الطبراني في الكبير عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة[475]، كما روى بسنده عن خباب في قراءة السورة عند النوم، وأنها براءة من الشرك[476].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ}**، يشمل كلَّ كافر على وجه الأرض، ولكن المواجَهين بهذا الخطاب هم كفَّار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده

472- رواه الترمذي في الصلاة (417)، والنسائي في الافتتاح (992)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (1149)، وصححه الألباني في الصحيحة (3328).
473- رواه أحمد (488/39) رقم (49) وقال مخرجوه: حديث حسن على اختلاف في إسناده على أبي إسحاق. وهذا الحديث مما استدركته طبعة مؤسسة الرسالة على الطبعة الميمنية.
474- رواه أحمد (440/39) رقم (5) وقال مخرجوه: حديث حسن على اختلاف في إسناده على أبي إسحاق. وهذا الحديث مما استدركته طبعة مؤسسة الرسالة على الطبعة الميمنية.
475- رواه الطبراني (287/2)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (17033) ، ورجاله وثقوا.
476- رواه الطبراني (81/4)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (17031) : فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فيها أن يتبرَّأ من دينهم بالكلية، فقال: {**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**}، يعني: من الأصنام والأنداد، {**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**}، وهو الله وحده لا شريك له، فـ{**مَا**} ها هنا بمعنى (مَن).

ثم قال: {**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**}، أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبُّه ويرضاه؛ ولهذا قال: {**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**}، أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم، كما قال: إنْ {**يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى**} [النجم:23].

فتبرَّأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بدَّ له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول صلى الله عليه وسلم، وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم:{**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**}، كما قال تعالى:{**وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**} [يونس:41]، وقال:{**لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**} [القصص:55].

وقال البخاري: {**لَكُمْ دِينُكُمْ**} الكفر، {**وَلِيَ دِينِ**} :الإسلام، ولم يقل (ديني)؛ لأن الآيات بالنون، فحذف الياء، كما قال: {**فَهُوَ يَهْدِينِ**} [الشعراء:78]، {**فَهُوَ يَشْفِينِ**} [الشعراء:80][477]، ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية: أن ذلك من باب التوكيد، كقوله: {**فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**} [الشرح:5، 6]، وكقوله:

477 - صحيح البخاري (178/6).

{لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ} [التكاثر6، 7][478]، وحكاه بعضهم، - كابن الجوزي، وغيره - عن قتيبة فالله أعلم.

وذكر ابن كثير قولا نصره أبو العباس ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}**: نفي الفعل؛ لأنها جملة فعلية، **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ}**: نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلا لذلك، ومعناه نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضا، وهو قول حسن أيضا، والله أعلم.

وقد استدلَّ الإمام أبو عبد الله الشافعي، وغيره بهذه الآية الكريمة: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**، على أن الكفر ملَّة واحدة، فَوَرَّث النصارى من اليهود، وبالعكس - إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به - لأن الأديان - ما عدا الإسلام - كلُّها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومَن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس؛ لحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يتوارث أهل ملَّتين شتَّى"[479])[480].

---

478 - تفسير الطبري (704/24).

479- رواه أحمد (6844) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وأبو داود (2911)، وابن ماجه (2731)، كلاهما في الفرائض، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (2207).

480 - تفسير ابن كثير (507/8- 508)، بتصرف.

سورة النصر

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)}

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}

هذه السورة مدنيَّة، حتى قالوا: إنها آخر ما نزل من السور المدنية[481]. وتبدأ بكلمة {**إِذَا**}، وهي ظرف زمان يُعتبر شرطا له جواب، وهو قوله تعالى: {**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**}.

ومن هنا نجد القرآن العظيم يوجِّه الإنسان في كلِّ حالاته – سواء كانت سارَّة أم محزنة – أن يرجع إلى ربِّه بالذكر والحمد والاستغفار، فيجد في حالة الضيق والعسرة والشدَّة، ما يكون من تفريج الكربة، وتوسعة الضيق، ووجود اليقين، كما قال سبحانه {**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**} [الحجر:97–99].

وهنا في الحالة المقابلة للعسر والشدَّة، وهي حالة مجيء نصر الله والفتح، ونصر الله يعني: الانتصار المتكرِّر على المشركين، وعلى اليهود، وعلى غيرهم، كما نصر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بعد الإخراج من مكة، {**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**} [التوبة:40].

وكذلك الانتصار في غزوة بدر: {**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [آل عمران:123].

---

481 - رواه مسلم في الإيمان (3024)، من قول ابن عباس.

والانتصار في الخندق يوم الأحزاب، كما قال تعالى: **{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}** [الأحزاب:25-27].

والانتصار في خيبر، والانتصار في صلح الحديبية، التي سمَّاها القرآن الكريم **{فَتْحًا مُبِينًا}** [الفتح:1]، **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}** [الفتح:18-19].

وبعد ذلك تُفتَح مكة المكرمة، بلد الإسلام الأول، وهو الفتح الأعظم، الذي يستحقُّ أن يقال فيه: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**.

أي: عندما يغيِّر الله الأحوال، وتعود الحياة من عسر إلى يسر، ومن ضيق إلى فرج، ومن هزيمة وكرب إلى فتح ونصر، أو كما قال سبحانه: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، نصر الله: ما حقَّقه لعبادة المؤمنين في غزوات متتابعة من نصر إلى نصر، لا يجوز أن يُنسب إلا لله وحده، ولذا قال: **{نَصْرُ اللَّهِ}**. والفتح: يعني فتح مكة، إذ لا فتح بعده، ولا فتح مثله، وهو ما قاله ابن عباس[482].

{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}

وكان من ثمرات نصر الله تعالى لنبيِّه، وفتحه لدينه ولأمَّته، أن رأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجا، أي: يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، وأقواما أقواما، كما رأيناهم بعد فتح مكة، فهذه هي النعمة الكبرى، التي أنعم الله بها على رسوله، وعلى إخوانه من المؤمنين الذين أيَّدهم الله بنصره، وآواهم، ورزقهم من الطيبات، لعلهم يشكرون.

482- رواه عبد الرزاق في تفسيره (3729).

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}

هنا يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمدا، الذي أُنزل عليه القرآن، إذا جاء نصر الله والفتح، ورأى الناس يدخلون في الإسلام العظيم دين الله، أفواجا وجماعات، مما يدلُّ على انتشار دعوة الإسلام، وامتداد قوَّة الإسلام، وصمود أمة الإسلام، أن يكون موقفه من هذه النعم العظيمة، في الإمداد والتأييد، هو موقف الذكر والتسبيح، بحمد الله والاستغفار لله، فالله سبحانه هو الملجأ وهو الملاذ، وهو الذي يأنس إليه العباد، ويلوذون به، ويذكرونه ويدعونه، ويسبِّحونه، ويحمدونه، ويستغفرونه.

فهو ملجؤهم وملاذهم عند الشدائد والكُرُبات، كما قرأنا قوله سبحانه: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}** [الحجر:97-99]، وهو ملجؤهم وملاذهم عند النصر والفتح والخروج من الأزمات، فهنا يطلب الله سبحانه من رسوله ومصطفاه محمد، عندما يرى هذه الآيات الباهرات، من انتصار الإسلام، على أعدائه الكثيرين، ودخول الناس فيه جماعات متتالية، أن يتميَّز بموقفين كريمين يليقان به، وبالمرحلة التي يختارها، وكلا الموقفين هو من ذكر الله تعالى، ولكن ذكر الله أنواع.

فأول أنواع الذكر: هو التسبيح بحمد الله، وهو تنزيه الله تعالى، عن كلِّ ما لا يليق بجلاله، وجماله وكماله، مما قد يلامس النفس البشرية، في أوقات الضعف، وتأخُّر النصر لحكمة إلهية، فقد تطوف بالبال خطرات، وقد يبدر بادرات، في أوقات متناثرات، إذا تذكَّرها الإنسان بعد ذلك، شعر بقصوره وتقصيره، ودخل ذلك في تسبيحه بحمد الله جلَّ جلاله.

والنوع الثاني من الذكر: كما يبيِّنه القرآن، هو الاستغفار، **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ}**، فهو يسأل المغفرة من ربِّه، الذي يعفو عن عباده، الذين قد يسيئون في بعض اللحظات، أو يستبطئون النصر، على نحو ما جاء في قوله تعالى: **{أَلَمْ**

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ إلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة:214]، وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ} [يوسف:110].

فهو استغفار من كلِّ خواطر السوء، التي قد تنزل بالإنسان أو تطوف به في أيام الشدائد، والساعات الحوالك، فهو يشعر بها ويضيق بها، ويستغفر الله منها.

{إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}

سبِّح بحمد ربِّك، نزِّهه عما لا يليق به، واحمده على ما أولاك من نعمه، واستغفره لما تشعر به من تقصير أو ذنب، أو ما يخيل اليك أنه ذنب، فاطلب من الله أن يغفره لك، ويطهِّرك من أيِّ أثر منه، كما في قنوت ابن مسعود، في صلاة الوتر بعد العشاء: "اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك ونتوب اليك، ونثني عليك الخير كلَّه، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك مَن يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد[483]، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجِد بالكفار ملحق"[484].

{إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}، لماذا تطلب منه أن يغفر لك؟ إنه كان توَّابا، كان سبحانه موصوفا أبدا بـ(التوَّاب)، والتوَّاب: هو كثير التوبة على عباده، يمحوها عنهم، ويغفرها لهم، ويكفِّرها عنهم، ولا يُبقي لها أثرا في حياتهم، إلا ما تثمره لهم المغفرة المقرونة بالرحمة، إنه هو الغفور الرحيم.

---

483 – نحفد مضارع حفد أي نسرع ونخدم.

484– هذا هو القنوت المأثور عن ابن مسعود رضي الله عنه، ويلتزم الأحناف قراءته بعد القيام من ركوع الركعة الثالثة في الوتر. كما يفعل مسلموا العند، وباكستان وبنجلاديش. رواه ابن أبي شيبة في الصلاة(6965).

قال ابن عباس لعمر رضي الله عنه، حين سأله عن هذه السورة، سورة النصر؟ فقال: نُعيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه. فقال عمر: ما أفهم منها إلا ما فهمتَ[485].

كأن الله تعالى ذكر في هذه السورة، كمال الدين، وتمام النعمة، ونصر الله وفتحة، ودخول الناس في دين الإسلام أفواجا وجماعات، فهذا يبشِّر المؤمنين، ويذكِّرهم بأن الله تعالى أتمَّ عليهم نعمته، وليس بعد التمام إلا النقص، كما قال الشاعر:

إذا تمَّ شيء بدا نقصه　　　　توقَّع زوالا إذا قيل: تمّ[486]

وكذلك بكى سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حين نزل قوله تعالى: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا}** [المائدة:3].

وهكذا نجد سيدنا يوسف بن يعقوب، يقول، بعد أن أتمَّ الله عليه النعمة، وجمعه بأبويه وإخوته، في مصر آمنين: **{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}** [يوسف:100، 101].

وداود بعد أن آتاه الله الملك، وجعله في الأرض خليفة، ومكَّن له ما مكَّن، قال له: **{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}** [ص:26].

485- رواه البخاري في المناقب (3627).

486 - من شعر عبد الله بن المبارك.

وسليمان حينما آتاه الله الملك الذي لم ينبغِ لأحد غيره، استغفر ربَّه، وطلب إليه أن يغفر له ويرحمه، {**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**} [النمل:17-19].

ودخل في قصته مع ملكة سبأ بلقيس الشهيرة، حين طلب إلى الملأ عنده أن يأتوه بعرشها، قبل أن يأتوه مسلمين، {**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**} [النمل:40].

وكذلك عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا إلى ربِّه، مهاجرا مجاهدا، لا يخاف في الله لومة لائم، مضحِّيا بكلِّ غالٍ في سبيل الله، حتى جاء نصر الله والفتح، ورأى الناس يدخلون في دين الله – وهو دينه الذي دعا إليه – أفواجا وجماعات، وأكمل الله له الدين، وأتمَّ عليه النعمة، ورضي له الإسلام دينا، فآثر ما عند الله، ولقي ربَّه راضيا مرضيا، وترك أمَّته على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

هذه السورة بكلِّ ما تحتويه من معان: جملة واحدة، جملة شرطية، أداة شرطها {إِذَا}، التي تفيد تحقُّق الوقوع، وليست مثل (إن) التي تفيد التشكيك في الوقوع، وهنا نجد {إِذَا} بشرطها – وهو مجيء نصر الله والفتح، ورؤية الناس يدخلون في دين الله أفواجا – وجوابها، وهو قوله تعالى: {**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**} وتكملته: {**إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**} فهي ملحق للجملة.

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}

حينما أنزل الله من القرآن الكريم قوله تعالى: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}**، أراد النبي صلى الله عليه وسلم، أن يوسّع نطاق الدعوة فيمن يلقاه من الناس، ومَن يقترب من خلصائه، فعزم أن يخرج إلى الصفا علناً، وينادي بطون قريش، ويُبلِّغهم دعوةَ الله التي بُعث بها إليهم.

وهذا موقف عظيم له ما بعده، فلا بدَّ أن يُهيِّئ له نفسه، ولا بدَّ أن يتحمَّل ما يمكن أن تعقبه هذه المواجهة، فنحن في مجتمع غلب فيه التقليد، وانتُقد فيه كل مَن يأتي بجديد، وبخاصَّة ما يتعلَّق بعقيدة التوحيد.

وقد ذكر القرآن في قصص الرسل والأنبياء ماذا لقوا من عداء أقوامهم، وماذا قاسَوا من عدوانهم وإيذائهم حينما جاهروهم بالحقِّ الذي أنزله الله عليهم، وبعثهم به لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وهو ما لقيه خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، من قومه عامَّة، ومن عمِّه أبي لهب خاصَّة، حتى جمعهم وحشدهم من بيوتهم ليبلِّغهم دعوته، ويُسمعهم كلمته، ويقيم عليهم حجَّته: "أيها الناس، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم، أكنتم مُصدِّقيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. فهنا قال لهم بصريح العبارة: "فإني رسول الله اليكم خاصَّة، وإلى الناس كافة".

وهنا سكت القوم، ولم يستطع أحد منهم أن يقول شيئاً، إلا رجلاً واحداً، هو الذي وقف في وجه محمد صلى الله عليه وسلم، وردَّ على دعوى محمد، وهو عمُّه عبد العُزَّى بن عبد المطلب بن هاشم المعروف باسم (أبي لهب)، هو الذي ردَّ على ابن أخيه، وقال له: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟!

الردُّ الوحيد الصارخ الناطق بالباطل يقابل الحقَّ، وبالخرافة تقابل العقل، فلا عجب أن يغضب الله جلَّ شأنه في سماواته العلا من أجل رسوله وحبيبه ومبعوثه إلى جميع خلقه محمد عليه الصلاة والسلام، وينزل عليه هذه السورة تدافع عنه: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}**.

لقد دافع الخالق البارئ المصوِّر سبحانه عن رسوله وحبيبه محمد، بعد أن قال أبو لهب: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟![487]

لقد كان أبو لهب يعيش في قلب الجاهليّة، وغفلات الجاهليّة، وانحرافات الجاهليّة، ولا يجد فيها ما يتطلَّب الثورة عليها، وتغيير أفكارها وأخلاقها، ونظامها كلَّه، فهو في وادٍ ومحمد عليه الصلاة والسلام في وادٍ آخر.

لذا استخدم القرآن من أسلوب الشدَّة في الطرح والذمِّ، جزاء أسلوبه الهجومي على خاتم رسل الله، ليثبت القرآن للناس قوَّة الدعوة، وقوَّة حاملها ومبلِّغها، وعدم تأثُّره بعدوان العادين عليه، وخصوصاً أن هذه أول مرَّة يدافع القرآن فيها عن حامل الدعوة، وصاحب الرسالة، وهو دفاع مباشر من الربِّ الأعلى في مواجهة رجل أشبه بالإقطاعي أو الرأسمالي الغاشم، الذي نصَّب نفسه ليقاوم الدعوة ردًّا عليها، ويدفعها عن الناس، ويدفع الناس عنها بكلِّ قوة.

لهذا بدأت السورة بهذا الذمِّ الإلهي المباشر لمَن تطاول على رسول الله. وقال تعالى: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}**. فالعرب يقولون: تبَّت يدا فلان من الناس. بمعنى: هلكت يداه وخسرتا ولُعنتا، ولكن الله هنا يقول: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}**، أي وتبَّ كلَّه، فليس عنده شيء لا يستحقُّ التَّباب والدمار والهلاك والخسارة، بل كلُّه تابٌّ هالك، زائل مَمْحو؛ لأنه قائم على باطل، والباطل ممْحو زائل ممحوق بحسب وعد الله وسُنَّة الله: **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}** [الأنبياء:18]، **{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}** [الإسراء:81].

487 - متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4770)، ومسلم في الإيمان (208)، عن ابن عباس.

ثم قال تعالى: **{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}**، بيَّن الله تعالى بهذه الآية أن تباب أبي لهب وهلاكه أمر واقع لا محالة، قد قدَّره الله عليه، فهو واقع بلا ريب، وفي هذه الحالة لن يغني عنه ماله الذي ورثه، ولا ماله الذي كسبه، أي ما جاء عن طريق النسب والحسب، ولا ما جاء عن طريق التجارة والشطارة والمكاسب القريبة في الأسواق، فكلُّه ذاهب. وقد جاءت الآية بالصيغة (الماضوية)، للدلالة على تحقُّق الوقوع، وأنه لا ريب فيه، فكأنما وقع بالفعل.

فمعنى: **{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}**، أي لم ينفعه ماله الذي جاءه من الميراث، وماله الذي كسبه بالجهد. أو ما أغنى عنه ماله الموروث ولا ما كسبه من الأرباح.

ثم قال عزَّ وجلَّ: **{سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}**، أوعد أبا لهب بهذا الوعيد الشديد، الذي ترتعد منه الفرائص، ويرجف منه الفؤاد، ومفاده: أنه سيصلى يوم يقوم الناس لربِّ العالمين نارا ذات لهب، أي شديدة الحرارة، إنها نار الآخرة، التي ثبت في الأحاديث الصحاح، أن نار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار الآخرة[488]. وقد قال الشاعر:

جسمي على الشمس ليس يقوى   ولا على أهون الحرارة

فكيف يقـــوى على جحيم   وقودها الناس والحجارة؟

وقد وصف الله هذه النار المعدَّة بأنها نار ذات لهب! ليست ناراً منطفئة، ولا ناراً توشك أن تنطفئ، بل هي نار حيَّة حامية، ذات لهب، لا زال لهبها مشتعلاً متوهِّجاً فعَّالا، فإذا كان من النيران ما لا لهب له، فهذه النار ذات لهب، وكفى به.

ثم قال تعالى: **{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ}**، لم يكن أبو لهب وحده هو الذي يقف في وجه الدعوة المحمديّة، دعوة التوحيد والتحرير، بل كانت أسرته كلُّها مُجنَّدة لذلك، ومن ذلك امرأة أبي

488- سبق تخريجه صـ .

لهب: أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان، وعمَّة معاوية، وقد وصفها القرآن بوصف يضفي عليها صفة مخزية مسيئة، تصوِّرها كأنها حمَّالة الحطب، وهي تسعى أبدًا لإيقاد نيران الفتنة في الناس، وإشعال الشرِّ بينهم.

ثم قال عزَّ وجلَّ: **{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}**، لزيادة التبشيع في التصوير أبرزها القرآن في هذه الصورة المُزرية.

{فِي جِيدِهَا}: أي في عنقها، **{حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}**: أي من ليف خشن، تلفُّه على رقبتها، فيؤثِّر فيها، ويترك آثاره عليها، وهذه أشنع صورة تظهر عليها امرأة تكلِّف نفسها المشقَّة الفادحة للإفساد بين الناس، وتأجيج نار العداوة والبغضاء بينهم وبين الدعوة الجديدة.

ولقد أظهر القرآن أبا لهب وامرأته بهذه الصورة الكريهة المقيتة، دفاعاً عن رسوله الكريم، ووقوفا ضدَّ ما علم الله أنه سيقوم به في الصدِّ عن الدعوة، وتنفير الناس منها، حتى إنه كان يمشي وراء رسول الله الذي يقول للناس: أدعوكم أن تعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا. فيقول أبو لهب: أيها الناس لا تسمعوا له، فهو رجل يهذي[489]!

فكان رسول الله الهادي إلى سواء الصراط، وأبو لهب الداعي الدائم للصدِّ عن سبيل الله،

{وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ} [فاطر:19].

ولهذا حقَّت على أبى لهب وزوجته هذه النهاية الأليمة، جزاءً بما كسبا، ووفاقاً لما عملا.

489- رواه عبد الله بن أحمد (16021) في زوائد المسند، وقال مخرجوه: إسناده حسن، عن ربيعة بن عباد الديلي.

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}

هذه سورة عُرفت باسم سورة الإخلاص، سورة (قل هو الله أحد)، التي تكتب في المصاحف عادة في سطر واحد، أو على الأقل في أكثر المصاحف، وذكر الإمام الرازي أنها تُسمَّى: سورة التَّفرِيد، وسورة التَّجرِيد، وسورة التوحيد، وأسماء كثيرة أخرى[490].

وهي السورة الثانية التي جاءت لإقرار عقيدة التوحيد في قصار المُفَصَّل، بعد السورة الأولى التي جاءت كذالك، وهي سورة (قل يا أيها الكافرون)، قبلها بسورتين، ولهذا يُقرن بينهما في القراءة، كما فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في حجَّته، فقد جمع بينهما بعد طوافه بالكعبة في صلاة الركعتين الخفيفتين بعد الطواف[491]، ويسنُّ قراءتهما في سنَّة الفجر والمغرب[492]، وإنما جمع بينهما لقصرهما، ولتفرُّدهما بموضوع واحد، هو توحيد الله جلَّ جلاله.

وقد بيَّنت هذه السورة العظيمة أنها آخر سورة في القرآن تحتوي على لفظ الجلالة مرتين: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ}**.

كما بيَّنت هذه السورة الكريمة: أنها اشتملت على وصف الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى، لم يذكرا إلا في هذه السورة وحدها، وهما: اسم (الأحد)، واسم (الصمد).

490- تفسير الرازي (357/32).

491- سبق تخريجه صـ .

492- عن ابن عمر، " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب، بضعا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة: قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد". رواه أحمد (4763) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في الصلاة (417)، وحسنه، والنسائي في الافتتاح (992)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (1149).

ومعنى (الأحديَّة) في وصف الله تعالى، كما عبَّر عنها العلاَّمة ابن كثير في تفسيره: (هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل. ولا يطلق هذا الاسم على أحد في الإثبات إلا على الله عزَّ وجلَّ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

ومعنى (الصمديَّة) في صفته تعالى **{اللَّهُ الصَّمَدُ}**، كما رُوي عن ابن عباس ترجمان القرآن، يعني: الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم[493].

وعنه: هو السيِّد الذي كمُل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والعليم الذي كمل في علمه، والحكيم الذي كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، ولا يشبهه شيء، سبحان الله الواحد القهار[494].

وقال أبو وائل: الصمد السيِّد الذي قد انتهى سؤدده[495]. وعن ابن مسعود مثله[496].

وقال الحسن وقتادة: الصمد هو الباقي بعد خلقه[497].

وقال الحسن: هو الحيُّ القيوم الذي لا زوال له[498].

وقال عكرمة: هو الحيُّ القيوم الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم[499].

وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد، كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}**.

وقال السُّدّي: الذي لا جوف له.

---

493 - رواه أبو الشيخ في العظمة (92)، بنحوه.
494 - رواه البيهقي في الأسماء والصفات (98).
495 - رواه البخاري تعليقا (180/6)، وابن أبي عاصم في السنة (671)، وصحح إسناده الألباني.
496 - رواه ابن ابي عاصم في السنة (666)، وحسن إسناده الألباني.
497 - المصدر السابق (679)، وصحح إسناده الألباني.
498 - رواه أبو الشيخ في العظمة (93).
499 - رواه الطبري في التفسير (734/24).

وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب[500].

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب "السنة" له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير **{الصَّمَدُ}**: وكلُّ هذه صحيحة، وهي صفاتُ ربِّنا عزَّ وجلَّ، وهو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سُؤْدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك أيضاً[501].

وقوله: **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}**، أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

قال مجاهد: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}**، يعني: لا صاحبة له.

وهذا كما قال تعالى: **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}** [الأنعام:101]، أي: هو مالك كلِّ شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يُساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه، قال الله تعالى: **{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}** [مريم: 88-95]، وقال تعالى: **{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}** [الأنبياء:26، 27]، وقال تعالى: **{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}** [الصافات:158، 159].

وفي صحيح البخاري: "لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم"[502].

وقال البخاري: حدَّثنا أبو اليمان، حدَّثنا شعيب، حدَّثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله عزَّ وجلَّ: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني

---

500 - رواه ابن أبي عاصم في السنة (682)، وصححه إسناده الألباني.
501 - الأسماء والصفات للبيهقي (159/1).
502- متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (6099)، ومسلم في صفات المنافقين (2804)، عن أبي موسى الأشعري.

ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمه إيّاي فقوله: اتَّخذ الله ولدا. وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد"[503])[504].

وقد ثبت في الصحيح أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أرشد إلى أن مَن قرأ هذه السورة فقد قرأ ثلث القرآن[505].

وقال كثير من علماء القرآن كابن عطيّة ومَن وافقه: إن القرآن يشتمل على ثلاثة أمور:

1. توحيد وعقائد.

2. توجيهات وأحكام.

3. وقصص ومواعظ.

فهذه السورة على وجازتها قد تضمَّنت الجزء الأول.

وقوله تعالى: **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}**، ينفي عنه هذا النقص من جهتيه، فهو لم يلد كما زعم النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله. أو اليهود الذين يقول طائفة منهم: عزيرٌ ابن الله. والعرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله. وطوائف من الهنود ممَّن نسبوا إلى الله آلهة وأبناء آلهة، زعموا أنهم أولاد الله.

وقد ردَّ الله في كتابه ببراهين قطعيّة على هذه المعتقدات الباطلة، وأثبت أنها خرافات، لا تستند إلى دليل ثابت منقول عن الله ربِّ العالمين، ولا على دليل عقلي، يقوم على نتائج تفكير عقلي سليم.

503- رواه البخاري في التفسير (4974)، عن أبي هريرة.

504 - تفسير ابن كثير (8/527- 529).

505 - إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في فضائل القرآن (5015) :" أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: "الله الواحد الصمد ثلث القرآن "، عن أبي سعيد الخدري.

فقال تعالى في نفي الولد: **{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}** [الأنبياء:26-28]، وقال تعالى: **{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}** [مريم:89]، وقال تعالى: **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ}** [الأنعام:101].

وكذلك قوله تعالى: **{وَلَمْ يُولَدْ}**، ردٌّ على مَن كان يتصوَّر أنَّ لله نسباً، وأن يكون له والد ينسب إليه، فكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربَّك[506]! فيبيِّن القرآن الكريم لهم أنَّ الله هو (الأول)، الذي ليس قبله شيء، وهو مصدر كلِّ الموجودات في الأرض والسماوات، وفي الدنيا وفي الآخرة، وكلُّ مولود فهو مخلوق يحدث بعد أن لم يكن، والله تعالى هو الأول الذي لا افتتاح لوجوده القديم، الذي كان سبب كلِّ موجود، والذي كان ولم يكن معه شيء غيره، فلا يمكن أن يكون مولوداً تعالى الله عن ذلك.

وقوله تعالى: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}**، تتميم لأوصاف الله جلَّ شأنه، وهذه تثبت له سبحانه: أنه لا كفء له، ولا ندَّ له، ولا شبيه له، على غرار ما جاء في سورة الشورى من قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** [الشورى:11].

فهو تبارك وتعالى ثابت في ذاته، كامل في ذاته، وكامل في صفاته، وكامل في أفعاله، ولذا نفى عنه سبحانه (الولديّة) و(الوالديّة)، فهو ليس ولداً ولا والداً : **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}**، كما نفى عنه المكافأة لأحد من خلقه، فهو ليس كفؤاً لأحد، كما أنهم ليسوا أكفاء له، كما أنه ليس جزءاً منهم، وهم أيضا ليسوا جزءاً ولا أجزاء منه، فكلُّ ما عداه يحتاج إليه، ولا يستغني عنه في أيِّ حال من الأحوال، ولا في أيَّة لحظة من اللحظات، ولا في أيِّ مكان في العالم، فهم عبيده وهو ربُّهم، وهم

506 - رواه أحمد (21219) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، عن أبي بن كعب.

فقراء إليه وهو مغنيهم، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إلى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِـيُّ الحَمِيدُ * إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}** [فاطر:15].

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)}

أولى المعوذتين:

هذه أولى المعوذتين، اللتين بدأتا بهذه الصيغة **{قُلْ أَعُوذُ}**، والعوذ هو: اللياذ والاحتماء باللجوء والتَّحصين. إلى ما يليق بهذه المعاني.

وللمسلم أن يلوذ بالأسباب الماديّة والمعنويّة التي شرعها الله له، في قضاء حاجاته، وتحقيق غاياته الدينيّة والدنيويّة.

ولكن فيما يعجز عنه البشر، أو يؤودهم ويثقلهم، يلوذون بأقوى منهم، وهو الله جلَّ جلاله، فهو أولى من يُؤمِّن مَن لاذَ بجنابه، ووقف على بابه، واحتمى بحماه، واستعان بقوَّته، وقد علَّمنا في سورة الفاتحة: أن نعبدَه ونستعينَ به، بل نفرده بالعبادة والاستعانة. وهذا الإفراد هو حقيقة التوحيد، **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [الفاتحة:5].

وقد علَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبد الله بن عباس، وهو غلام هذا المبدأ، حين قال له ضمن حديث: "إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله"[507].

ولكن ممَّا يُؤسَف له: أن من الناس مَن يَدَع باب الله المفتوح لكلِّ مخلوق، ويلوذ بأبواب البشر العاجزين مثله، ليسألهم، ويستعين بهم، ويستغيث بهم، ويلوذ بجوارهم، معتقداً أنهم يغنونه عن الله، أو أنهم واسطة إلى الله، أو شفعاء عند الله، والله تبارك وتعالى ليس على بابه حاجب ولا بوَّاب، ومُسْتَغْنٍ عن الوسائط والسماسرة، الذين أفسدوا الأديان قبل الإسلام، واحتكروا الوساطة بين الله

507- رواه أحمد (2669) وقال مخرجوه: إسناده قوي، والترمذي في صفة القيامة (2516) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (5302) .

وعباده، فلجأ الناس إلى هؤلاء الكهنة، وأمثالهم من العرّافين والمنجِّمين، والسَّحَرة، الذين منحوا لمَن يحبُّون – أو يشترون – صكوك الغفران، وعاقبوا آخرين بقرارات الحرمان.

ومن هنا علَّم القرآن أمَّته: أن يستعيذوا بالله وحده من شرور الدنيا، أو من شرور الخلق على تنوُّعها وكثرتها، فهو القادر على أن يعيذهم منها، فهو الذي بيده مقاليد كلِّ شيء، وله الخلق والأمر.

العياذ برب الفلق ومعناه:

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ}

بدأت السورة بقوله تعالى لرسوله: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ}**، وقد قلنا غير مرَّة: إن كلمة **{قُلْ}** – وهي فعل أمر من القول – والتي تكرَّرت في القرآن (332 مرَّة)، تدلُّ على أن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم مُلقَّن مُعَلَّم، يلقَّى هذا القرآن من سلطة أعلى منه، تأمره وتنهاه، كما قال تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}** [النمل:6]، **{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى}** [النجم:3-5].

والآية خطاب للنبيّ عليه الصلاة والسلام، وللأمَّة كلِّها من بعده.

ومعنى **{أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ}**، ألوذ وأحتمي بهذا الربِّ الذي وصف نفسه في كتابه بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}** [الأنعام:95، 96].

ومعنى: **{فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى}**، أي: واهب الحياة للكائنات الحيَّة، ومعنى: **{فَالِقُ الإِصْبَاحِ}**، أنه واهب النور لهذا العالم، الذي أصله الظلمة. ولولا الحياة والنور ما قام هذا الكون بمَن فيه وما فيه، ماديًّا ولا معنويًّا، ونحن نقرأ قول الله سبحانه: **{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأنعام:122].

وقد نقل بعض المفسرين: إنَّ {**الفَلَقِ**}، هو كلُّ ما يفلقه الله تعالى كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار، والحبِّ والنوى عمَّا يخرج منهما[508].

ولا تنافي بين هذا القول وما قبله، بل يثري معنى الفلق ومضمونه.

وقد أورد الحافظ ابن كثير في " تفسيره " عن عدد من مفسِّري السلف: إن معنى (الفلق): الصبح، كقوله تعالى: {**فَالِقُ الإِصْبَاحِ**}، قال: وهذا هو الصحيح[509]. وهو اختيار البخاري في صحيحه[510].

وإنما خصَّ الاستعاذة بـ(ربِّ الفلق)، مع أنه تعالى ربُّ كلِّ شيء، لأن المستعاذ منه شرور تقوم على الظلمات والهلاك، فهو يستعيذ بربِّ النور من شرِّ الظلمات، وبربِّ الحياة من أعداء الحياة.

يقول المفسِّرون: وفي تعليق العياذ (الاستعاذة) باسم الربِّ المضاف إلى الفلق، المنبئ عن النور عقب الظلمة، والسَّعَة بعد الضيق، والفتق بعد الرتق: عِدَةٌ كريمة بإعادة العائذ ممَّا يعوذ منه، وإنجائه منه، وتقْوية لرجائه بتذَكُّر بعض نظائره، ومزيد ترغيب له في الجدِّ والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه تعالى[511].

الاستعاذة من شرور الخلق:

{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}

هذا أول ما يُستعاذ بالله أو بربِّ الفلق منه، وكلمة شرٍّ تطلق ويراد بها أحد أمرين: إما بمعنى (أشرّ) تقول: شرُّ ما خلق الله إبليس. أي: أشرُّهم وأسوأهم، ونقول: شرُّ الإنسان يعود عليه، كما في قوله تعالى: {**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**} [الزلزلة:8].

والمقصود هنا: المعنى الثاني، وهو شرور الخلائق، بدليل المعطوفات عليها، {**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**}.

508- تفسير أبي السعود (214/9).
509- تفسير ابن كثير (535/8).
510- صحيح البخاري (181/6).
511- تفسير أبي السعود (214/9).

والشرُّ هو الضرر والأذى والألم والفساد ونحوه، من كلِّ ما يشكو منه الناس من الآفات والأمراض والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وغيرها، ومنها: الموت الذي ينزع الإنسان من أهله وذويه وأحبابه.

وهو يشمل الشرور المعنويَّة من الكفر والفسوق والعصيان، والرذائل والانحرافات الأخلاقيَّة والفكريَّة التي تصيب الأفراد والمجتمعات والأمم ويكون لها آثارها العميقة في حاضرها ومستقبلها.

والخير مقابل هذا الشرِّ وعكسه، وهو يشمل كلَّ النِّعم الماديَّة والمعنويَّة، التي يسبغها الله على خلقه، ظاهرة وباطنة.

وشرُّ ما خلق، أو الشرور المستعاذ منها في الخلق كثيرة، بكثرة الخلائق في هذا الكون، بما فيه من أجناس وأنواع وفصائل من المخلوقات، بما فيها الإنسان، وما فيها الحيوان، من دوابّ، ووحوش، وطيور، وحشرات، وزواحف، ومن مخلوقات صغيرة، كالجراثيم، والفيروسات، ومن أحياء مائيّة تسكن البحار والأنهار والبحيرات، ومن نباتات من فصائل بالألوف، ومن جمادات في الأرض، كالجبال، والصخور، والصحاري، والمحيطات، والغلاف الجوي، والفضاء الواسع، الذي يُسمَّى في الكتب السماوية: السماوات، وما فوقها، وما بينها، وما تحتها، وما ينشأ عن الأكوان من أحداث هائلة، من أعاصير، وفيضانات، وزلازل، وبراكين، يُسمِّيها الناس أحيانا: (غضب الطبيعة)، والطبيعة لا ترضى ولا تغضب، ولكنَّ ربَّ الطبيعة، وربَّ الكون كلِّه، يجريه على سنن محكمة ثابتة، بعضها نعلمه وبعضها لا نعلمه.

وبعض هذه الشرور يُبتلى بها الإنسان من حيث لا يحتسب، ولا إرادة له فيها، ولا دخل له بها، لحكمةٍ يعلمها الله، ويجهلها الإنسان، ولكن المؤمنين من أُولي الألباب يقفون أمامها قائلين: **{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [آل عمران:191].

وبعض هذه الشرور كثيراً ما يكون ممَّا قدَّمته يد الإنسان، مباشرة أو غير مباشرة، مثل ما نرى من اختلال التوازن البيئي، أو التوازن الكوني، مثل ثقب الأوزون، وتغيير المناخ، وغيرها.

وفـي هـذا يقـول القـرآن: {**وَمَــا أَصَــابَكُمْ مِــنْ مُصِــيبَةٍ فَبِمَــا كَسَــبَتْ أَيْــدِيكُمْ وَيَعْفُــو عَــنْ كَثِيــرٍ**} [الشورى:30]، ويقول: {**ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**} [الروم:41].

سؤال مهم: هل يخلق الله الشر؟ ولماذا؟

هنا يعنُّ لبعض الناس سؤال مهم، عن الشرور في هذا العالم: هل يخلق الله الشرَّ؟ وهل يليق بالرحمن الرحيم، البرُّ الكريم، أن يخلق الشرَّ؟ ولماذا لم يكفنا الشرَّ ويرحمنا منه، وهو الغني الذي بيده كلُّ شيء؟

ولا مفر من الجواب المطلوب هنا، وهو أنَّ الله تعالى لا يخلق (الشرَّ)، أعني الشرَّ المطلق المقصود لذاته، بل هو مصدر الخير والنِّعم كلِّها، كما قال تعالى: {**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**} [النحل:53]، {**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**} [إبراهيم:34، والنحل:18].

وقد قال تعالى: {**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} [آل عمران:26]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في مناجاة ربه: "الخير بيديك، والشرُّ ليس إليك"[512].

وكلُّ ما نراه من شرٍّ في هذا الكون إنما هو شرٌّ جزئيّ، نسبيّ خاص، في مقابل الخير الكلِّي المطلق العام، وهو من لوازم هذا الخير.

انظر إلى خلق الإنسان، فلا ريب أن خلق الإنسان في ذاته؛ خير، وإعطاءه العقل والإرادة والقدرات التي تُؤهِّله للخلافة في الأرض؛ خير، وتمييزه بالتكليف وحمل الأمانة التي عُرضت على

512- رواه مسلم في صلاة المسافرين (771)، وأبو داود في الصلاة (760)، والترمذي في الدعوات (3422)، عن علي بن أبي طالب.

السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها؛ خير، وهدايته النجدين، وإلهام نفسه التقوى والفجور؛ خير، وإرسال الرسل له، وإنزال الكتب، وقطع المعاذير بالنسبة له؛ خير، وتحميله المسؤولية عن أعماله الظاهرة والباطنة؛ خير، فإذا ترتَّب على هذا الخير أنه قد يكفر بربِّه، أو يكذِّب رسله، أو يُسيء في عمله، ليستحقَّ عقوبة ربِّه الذي لا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما، وإنما يجزي كلَّ نفس بما كسبت، **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة:7، 8]، فهذا شرٌّ جاء للإنسان، نتيجة لسوء عمله، وعدم استفادته من الخير الذي هيَّأه الله له، وأنعم به عليه.

ونجد أن الله تعالى أنزل لعباده الأمطار، وأجرى لهم الأنهار، وقد يسبب نزول الأمطار، وفيضان الأنهار، مصائب جزئية لبعض الناس، عندما يزيد الفيضان في بعض السنوات، ولكن في مقابل هذه الفئة المتضرِّرة، يستمتع الملايين بهذه الحياة، ويعتبرونها نعمة عظيمة من الله، وفي هذا يقول الناس: مصائب قوم عند قوم فوائد.

وقد يفعل الناس هذا بأنفسهم عامدين، موازنين بين مصالح وأخرى، كما أقامت مصر (السدَّ العالي) لتخزين المياه خلفه، حتى لا يضيع هدراً في البحر الذي هو المصب، وقد غرقت قرى كاملة وراء السد وخسرها أهلها، وعوَّضتهم الدولة، بالهجرة إلى أماكن أخرى بديلة عن قُراهم.

وقد كنتُ مرة في زيارة لمدينة عمَّان في الأردن، لإلقاء محاضرة في الجامعة، وحاصرني الثلج الذي نزل بقوَّة، وعطَّل ألوف السيّارات في الطرق، ووقعنا في أزمة وقد دخل علينا الليل، ونخشى أن يفرغ (البنزين) من السيارة، فتتعطَّل التدفئة فنهلك من البرد، وبعد نحو ثماني ساعات أو أكثر، جاء الفرج، وتدخَّلت قوات الجيش والدفاع المدني والشرطة وغيرها، لإزاحة الثلج، وفتح الطرق للسيارات، وقلنا: الحمد لله على النجاة.

ولكني في الصباح وجدتُ الناس يهنئ بعضهم بعضا على هذا الثلج، الذي يطهِّر الأرض وينقِّيها من الحشرات الضارة بالزروع، ويزيد مخزون المياه في الأرض ... ورأيت الأولاد يلعبون

بالثلج، ويكوِّنون منه أشكالاً يتقاذفون بها في بهجة وسرور، فما كنا نحسبه نقمة عند حبسنا، أصبح نعمة عند عامَّة المجتمع من حولنا.

المؤمن راض عن نفسه وربه:

وقد ذكرتُ من قديم في كتابي (الإيمان والحياة) فقرة تتَّصل بهذا الموضوع تحت عنوان: (المؤمن راضٍ عن نفسه وربِّه)، قلتُ فيها: المؤمن راضٍ عن نفسه، أعني عن وجوده ومكانه في الكون؛ لأنه يعلم أنه ليس ذرَّة ضائعة، ولا كمًّا مهملاً، ولا شيئًا تافهًا، بل هو قبس من نور الله، ونفخةٌ من رُوح الله، وخليفة في أرض الله.

وهو راضٍ عن ربِّه، لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأنَّ إلى علمه وحكمته، أحاط سبحانه بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا، ووسع كلَّ شيء رحمة، لم يخلق شيئا لهوًا، ولم يترك شيئًا سدًى، له الملك، وله الحمد، نعمه عليه لا تعدُّ، وفضله عليه لا يحدُّ، فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردِّد دائمًا هذا الثناء الذي ردَّده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن: {**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**} [الشعراء:78-82].

المؤمن موقن تمام اليقين أنَّ تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى آثار برِّه تعالى ورحمته، فيناجي ربَّه: {**بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} [آل عمران:26] فالخير بيديه، والشرُّ ليس إليه، وما يظنُّه الناس شرًّا في الوجود، ليس هو شرًّا في الحقيقة. وإذا كان لابدَّ من تسميته شرًّا، فإنما هو شرٌّ جزئي خاصٌّ مغمور في جانب الخير الكلِّي العام، وهذا الشرُّ الجزئي، أو الشرُّ الموهوم اقتضاه التكافل بين أجزاء الوجود.

هذا التكافل الذي يقول فيه الأستاذ العقاد: (إنَّ المعتقدين به – أي بهذا التكافل – يرون أن الشرَّ لا يناقض الخير في جوهره، ولكنه جزءٌ مُتمِّم له، أو شرط لازم لتحقيقه، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدَّة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها. وقد يطَّرد هذا القول في لذَّاتنا المحسوسة، كما يطَّرد في فضائلنا النفسيَّة، ومطالبنا العقليَّة، إذ نحن لا نعرف لذَّة الشبع بغير الم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح)[513].

المؤمن راض عن الكون والحياة

والمؤمن – نتيجة لهذا – راضٍ عن الحياة والكون من حوله؛ لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء، {**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**} [طه:50]، وكلُّ ذرَّة في الأرض أو السماء تدلُّ على حكمة حكيم، وتقدير عزيز عليم، وتدبير ملك عظيم، ورعاية ربٍّ كريم رحيم.

قال الإمام الغزالي في كتابه "الإحياء": (المؤمن يُصدِّق تصديقًا يقينيًّا لا ضعف فيه ولا ريب، أن الله عزَّ وجلَّ لو خلق الخلق كلَّهم على عقل أعقلهم، وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علمًا وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرَّفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات، حتى اطَّلعوا به على الخير والشرِّ، والنفع والضرِّ، ثم أمرهم أن يدبِّروا الملك والملكوت، بما أُعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه، أن يزاد فيما دبَّر الله سبحانه، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمَّن بُلي به، ولا أن يُزال صحَّة أو كمال أو غنى أو نفع عمَّن أنعم الله به عليه، بل كلُّ ما خلقه الله تعالى

513- الإيمان والحياة صـ 127- 128. ط. مكتبة وهبة. الطبعة الخامسة عشر، 1426هـ . 2006م.

من السماوات والأرض- إن رجعوا فيها البصر، وطوّلوا فيها النظر- ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور.

وكلُّ ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكلُّه عدل محض لا جور فيه، وحقٌّ صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحقِّ على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه، ولا أتمَّ، ولا أكمل، ولو كان ادخره - مع القدرة - ولم يتفضل به لكان بخلا يناقض الجود، وظلمًا يناقض العدل، ولو لم يكن قادرًا لكان عجزًا يناقض الإلهية)[514].

فما عرفه المؤمن من حكمة الله في خلقه، وأسراره في كونه، فبها ونعمت. وما خفي عليه وَكَلَه إلى عالمه، وقال في تواضع أولي الألباب: **{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [آل عمران:191].

لهذا نرى المؤمن راضيًا عما قدَّر الله له، وما قضى الله فيه، ينشد دائمًا:

رأيت الله في الكل فاعل   جمع الكائنات ملاحا

الشر الثاني المستعاذ بالله منه:

{وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}

في هذه الآية تخصيص لبعض الشرور بالذكر، مع اندراجه فيما قبله، لزيادة مسيس الحاجة إلى الاستعاذة منه، لكثرة وقوعه، ولأنَّ تعيين المُستعَاذ منه، أدلُّ على الاعتناء بالاستعاذة، وأدعى إلى الإعاذة.

514- إحياء علوم الدين للغزالي (258/4).

ومعنى الآية: أي ومن شرِّ ليل معتكر ظلامه، من قوله تعالى: **{إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ}** [الإسراء:78]، وأصل الغسق: الامتلاء، يقال: غسقت العين، إذا امتلأت دمعاً، وغسق الليل: انصباب ظلامه.

وإضافة الشَّرِّ إلى الليل، لملابسته له بحدوثه فيه، وتنكيره لقوله: **{ غَاسِقٍ}**، ولم يقُل: الغاسق لعدم شمول الشرِّ لجميع أفراده، ولا لكلِّ أجزائه.

وتقييده بقوله: **{ إِذَا وَقَبَ}**، أي دخل ظلامه في كلِّ شيء؛ لأنَّ حدوث الشَّرِّ فيه أكثر، والتَّحرُّز منه أصبر وأعسر، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل، والظلام أخفى للإجرام.

هكذا بعد أن علَّمنا القرآن: أن نستعيذ بالله من شرِّ ما خلق عموماً، بدأ يُعلِّمنا – حينما علَّم رسوله– الاستعاذة بربِّ الفلق من شرور خاصَّة لها تأثيرها على الناس، وأولها: شرُّ الغاسق إذا وقب.

لقد فسَّر أكثر المفسِّرين وأهل اللغة: الغاسق بـ (الليل) كما قال تعالى: **{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ}** [الإسراء:78]، فإنَّ الظلمة – التي هي من خصائص الليل– مَظنَّة كثير من الشرور، كما فسَّروا **{ وَقَبَ}**، بمعنى دخل.

وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سلمة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي، فأراني القمر حين طلع، فقال: "تعوَّذي بالله من شرِّ هذا الغاسق إذا وقب"[515].

وفي رواية أخرى: "استعيذي بالله من شرِّ هذا، فإن هذا الغاسق إذا وقب"[516].

وهذا لا ينافي ما قاله المفسِّرون وعلماء اللغة، من أن الغاسق هو الليل؛ لأن القمر لا يطلع إلا في الليل، حتى إن القرآن سمَّى القمر آية الليل، في نحو قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**

515- رواه أحمد (24323) وقال مخرجوه: حديث حسن، والنسائي في الكبري عمل اليوم والليلة (10065).
516- رواه أحمد (25802) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في تفسير القرآن (3366)، وقال: حديث حسن صحيح.

آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء:12] قال ابن كثير: (هذا لأننا في قولنا: إن الغاسق هو الليل. لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه)[517].

والقمر وإن كان ينير في الليل، لا يمنع الأشرار من اللصوص وقطَّاع الطريق، وغيرهم من التحرُّك فيه، وخصوصاً في غير الليالي البيض.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالقمر أحقُّ ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجنِّ، ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه أنواع الشرِّ ما لا يجري بالنهار، من أنواع الكفر والفسوق والعصيان، والسحر والسرقة والخيانة، والفواحش وغير ذلك.

فالشر دائماً مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله مكانًا لسكون الآدميِّين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجنِّ، تفعل فيه من الشرِّ، ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسَّلون بالقمر ويدعونه، فذكر سبحانه الاستعاذة من شرِّ الخلق عموما، **{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}**، ثم خصَّ الأمر بالاستعاذة من شرِّ الغاسق إذا وقب، وهو الزمان الذي يعمُّ شرُّه، ثم يخصُّ بالذكر: السحر والحسد)[518].

الشر الثالث المستعاذ بالله منه:

{وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}

وهذا لون ثالث من الشرِّ، أمر الله رسوله – وبالتالي كلَّ واحد منا– العياذ بربِّ الفلق منه، وهو **{شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}**، و **{النَّفَّاثَاتِ}**: جمع (نفَّاثة) وهي صيغة مبالغة مشتقَّة من النفث، وهو النفخ مع ريق أو من غير ريق، **{فِي الْعُقَدِ}** جمع (عقدة) وهي: ما يُربط ويُشدُّ من الخيط أو

517- تفسير ابن كثير (536/8).
518- مجموع الفتاوى (506/17- 507).

الحبال. وهو من عادة أهل السحر، وقد ذكرت {**النَّفَّاثَاتِ**}، وهي صفة، ولكن ما الموصوف هنا، وما المراد منه؟ قيل: المراد: النساء، أو النفوس، أو الجماعات.

وبعض المفسِّرين رجَّح النساء، ذهاباً إلى أنَّ السحر أكثر ما يقوم به النساء، وهو غير مُسلَّم، وحتى الحديث الذي روَوه في سحر النبي صلى الله عليه وسلم، كان الساحر فيه رجلاً، وهو لبيد بن الأعصم، كما جاء في الصحيح[519].

قول أبي مسلم الأصفهاني:

وإلى جوار هذه الأقوال، ينقل الينا الإمام فخر الرازي في تفسيره الكبير، قول (أبي مسلم) أو اختيار أبي مسلم: {**شَرِّ النَّفَّاثَاتِ**}، أي: النساء، {**فِي الْعُقَدِ**}، أي في عزائم الرجال وآرائهم، وهو مستعار من عقد الحبال، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حلُّه سهلا، فمعنى الآية: أنَّ النساء لأجل حُبِّهِنَّ في قلوب الرجال؛ يتصرَّفن في الرجال، يحوِّلنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتَّعوُّذ من شرِّهن، كقوله: {**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**} [التغابن:14]، فلذلك عَظَّم الله كَيْدهُنَّ، فقال: {**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**} [يوسف:28].

قال الرازي: واعلم أن هذا القول قول حسن، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين)[520].

ومع أن الإمام الرازي، استحسن هذا القول في ذاته، نجد العلامة الألوسي في (روح المعاني) يعلِّق عليه قائلاً: وهو من بدع التفاسير[521]!

وقد أشار الزمخشري في (الكشاف) إلى هذا القول، وإن لم ينسبه إلى أحد، فقال: (ويجوز أن يُراد بهنَّ النساء (الكيَّادات)، من قوله: {**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**} [يوسف:28]، تشبيهاً لكيدهنَّ بالسحر

519- متفق عليه: رواه البخاري في الطب (5763)، ومسلم في السلام (2189)، عن عائشة.
520- تفسير الرازي (32/374- 375).
521- روح المعاني: (15/522).

والنفـث فـي العقـد، أو اللاتـي يفـتنَّ الرجـال، بتعرُّضـهنَّ لهـم، وعرضـهنَّ محاسـنهنَّ، كـأنهنَّ يسحرنهم)[522].

وممَّا يؤيِّد هذا القول الحديث، المتَّفق عليه عن أسامة: "ما تركتُ بعدي فتنة أضرُّ على الرجال من النساء"[523].

النفاثات هي الأنفس أو الجماعات:

والقول الأشهر: أن النفاثات إنما جُمعت جمع تأنيث؛ لأن المقصود بها: الأنفس أو الجماعات، كما في عدد من التفاسير. فالمراد: الاستعاذة من شرِّ الأنفس النفاثات، أو الجماعات النفاثات.

والمعنى: الأمر بالعياذ والتَّحصُّن بربِّ الفلق، ربِّ الحياة والنور، من شرِّ هذه الأنفس الخبيثة، والجماعات الشِّرِّيرة، التي تشغل نفسها بإيذاء الخلق، وإفساد دينهم ودنياهم عليهم، بهذا العمل الشرِّير، الذي يقوم على النفث في العقد، أي: شدِّها وربطها والنفخ عليها من ريقهم، وتقطيع روابطهم، وتمزيق شملهم، وإرباك أُسرهم، وهو ما يقوم به أرباب السحر أبداً، ومَن يلحق بهم، وينزع عنهم، فشأن هذه الأنفس الخبيثة: أن تتَّخذ هذا السحر أداة للإيذاء والتخريب، وفساد ذات البين، كما قال تعالى في شأن السَّحَرة، في قصة هاروت وماروت: **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ}** [البقرة:102].

والسَّحَرة أعجز من أن يستطيعوا تغيير طبائع الأشياء، وإنما مهارتهم في التَّخييل والإيهام، وسحر الأعين، أما الأشياء من حبال وعصي ونحوها، فهي تبقى حبالاً وعصيًّا، ولكن قدرتهم تكمن في الإيهام والإيحاء والتَّخييل، حتى قال القرآن في سَحَرة فرعون: **{فَلَمَّا القَوْا}**، أي: حبالهم وعصيَّهم، **{سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}** [الأعراف:116]، حتى قال تعالى عن سيِّدنا موسى: **{فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي**

522- الكشاف (822/4).
523- متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (5096)، ومسلم في الذكر(2740).

نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} [طه:66-67]، فإذا كان هذا تأثير السحر في نفس موسى عليه السلام، على ما وصف به من القوَّة، فما بالك بغيره من الناس؟!

اختيار ابن القيم:

وقد اختار الإمام ابن القيم في تفسير السورة: أن النفَّاثات هنا: هي الأرواح والأنفس النفَّاثات، لا النساء النفَّاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذُكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم[524].

ففي الصحيح، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، أن النبي طُبَّ – أي: سُحر – حتى إنه ليخيَّل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه، وأنه دعا ربَّه، ثم قال: "أَشَعُرتِ أنَّ الله قد أفتاني فيما استفتيتُه فيه؟". فقالت عائشة: وما ذاك، يا رسول الله؟ قال: "جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: مطبوب. قال: مَنْ طبَّه؟ قال: لَبيد بن الأعصم. قال له: في ماذا؟ قال: في مشط ومِشاطة، وجفّ طَلْع ذكر. قال: فأين هو؟ قال: في ذَروان، بئرٌ في بني زريق".

قالت عائشة رضي الله عنها: فأتاها رسول الله – أي البئر – ثم رجع إلى عائشة رضي الله عنها فقال: "والله، لكأنَّ ماءها نُقاعة الحناء، ولكأنَّ نخلها رءوس الشياطين". قالت: فقلتُ له: يا رسول الله، هلا أخرجته؟ قال: أما أنا فقد شفاني الله، وكرهتُ أن أثير على الناس شرًّا". فأمر بها، فدُفنت[525]. قال البخاري: وقال الليث وسفيان بن عيينة، عن هشام: "في مشط ومِشاقة".

ويقال: إنَّ المشاطة: ما يخرج من الشعر إذا مُشِّط، والمشاقة: من مشاقة الكتان.

قلتُ: هكذا في هذه الرواية: أنه لم يخرجه، اكتفاء بمعافاة الله له، وشفائه إياه.

524- التفسير لابن القيم، صـ628.

525-متفق عليه: رواه البخاري في الطب (5763)، ومسلم في السلام (2189).

وفي رواية أخرى لهذا الحديث، أنه عليه السلام استخرجه[526]. وترجم البخاري عليه: باب هل يُستخرَج السحر؟ وقال قتادة: قلتُ لسعيد بن المسيب: رجل به طَبٌّ، ويؤخذ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه ويُنشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح. فأما ما ينفع الناس فلم ينهَ عنه[527].

فهذان الحديثان قد يُظَنُّ في الظاهر تعارضهما، فإن حديث عيسى، عن هشام، عن أبيه، الأول، فيه: أنه لم يستخرجه. وحديث ابن جريج، عن هشام فيه: أنه استخرجه. ولا تنافي بينهما. فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه، ثم دفنه بعد أن شُفِي.

وقول عائشة رضي الله عنها: هلاَّ استخرجته. أي: هلا أخرجته للناس، حتى يروه ويعاينوه؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار ويَغضب للساحر قومه، فيَحدث الشرُّ، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدُفنت، ولم يستخرجها للناس. فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة.

والذي يدلُّ عليه أنه إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجئ لينظر إليها ثم ينصرف، إذ لا غرض له في ذلك. والله أعلم.

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقَبول بينهم، لا يختلفون في صحَّته، وقد اعتاصَ على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشدَّ الإنكار، وقابلوه بالتكذيب، وصنَّف بعضهم فيه مصنَّفا مفردًا، حمل فيه على هشام. وكان غاية ما أحسن القول فيه: أن قال: غلط، واشتبه عليه الأمر. ولم يكن من هذا شيء. قال: لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُسْحَر، فإنه يكون تصديقا لقول الكفَّار: **{إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلًا مَسْحُورًا}** [الإسراء:47]. قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: **{إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}** [الإسراء:101]، وقال قوم صالح له: **{إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ}** [الشعراء:153]، وقال قوم شعيب له: **{إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ}** [الشعراء:185].

[526]- البخاري في الطب (5765).
[527] - صحيح البخاري (137/7).

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يُسحَروا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم، وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإنَّ هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب ردَّ حديثه، فما للمتكلِّمين وما لهذا الشأن؟! وقد رواه غير هشام، عن عائشة!

وقد اتَّفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلَّم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير، والسنن، والحديث، والتاريخ، والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلِّمين.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن يزيد بن حباب، عن زيد بن أرقم قال: سَحر النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً. قال: فأتاه جبريل، فقال: "إنَّ رجلاً من اليهود سحرك، وعقدَ لذلك عُقدًا". فأرسل رسول الله عليًّا. فاستخرجها، فجاء بها، فجعل كُلما حلَّ عقدة وجد لذلك خفَّة. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نَشط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط[528].

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه. ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما؛ فإنَّ المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء، فقد أُغمي عليه صلى الله عليه وسلم في مرضه، ووقع حين انفكَّت قدمه، وجُحِش شِقَّه[529].

وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته، ونيل كرامته، و"أشدُّ الناس بلاء الأنبياء"[530]، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به: من القتل، والضرب، والشتم، والحبس. فليس ببدع أن

528- رواه ابن أبي شيبة في مسنده (513).

529 - في الحديث: "أنه صلى الله عليه وسلم ركب فرسا فصرع عنه، فجحش شقه الأيمن، فصلى صلاة من الصلوات وهو قاعد، فصلينا وراءه قعودا" جحش شقه: أي: انخدش. والحديث متفق عليه: رواه البخاري في الإمامة (689)، ومسلم في الصلاة (411)، عن أنس.

530- رواه أحمد (1481)، وقال مخرجوه: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن بهدلة وهو صدوق، والترمذي في الزهد (2398)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (4023)، عن سعد بن أبي وقاص.

يُبتلى النبي من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتُلي بالذي رماه فشَجَّه[531]، وابتُلي بالذي ألقى على ظهره السَّلا وهو ساجد[532]، وغير ذلك. فلا نقص عليهم ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم، وعلوِّ درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبت في الصحيح، عن أبي سعيد الخدري، "أن جبريل أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد اشتكيتَ؟ فقال: نعم"، فقال: باسم الله أرقيك، من كلِّ شيء يؤذيك، من شرِّ كلِّ نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك"[533]. فعوَّذه جبريل من شرِّ كلِّ نفس وعين حاسد، لمَّا اشتكى. فدلَّ على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته صلى الله عليه وسلم.

وقالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها لا حُجَّة لكم فيها.

والجواب الذي ارتضاه ابن القيم هنا: هو جواب صاحب "الكشاف" وغيره: أن (المسحور) وهو من سُحر حتى جُنَّ. فقالوا: مسحور. مثل مجنون. أي: زائل العقل، لا يعقل ما يقول. فإن المسحور الذي لا يُتَّبع: هو الذي فسد عقله، بحيث لا يدري ما يقول. فهو كالمجنون. ولهذا قالوا فيه: **{مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ}** [الدخان:14]، فأما مَن أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يُصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتِّباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يُحذِّرون به سفهاءهم من اتِّباعهم، وهو أنهم قد سُحِروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون، بمنزلة المجانين. ولهذا قال تعالى: **{انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}** [الإسراء:48]، أي: مثَّلوك بالشاعر مرَّة، والساحر أخرى، والمجنون مرَّة، والمسحور أخرى. فضلُّوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيُّره طريقاً يسلكه، فلا يقدر عليه. فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيْرة، فهو مُتَحيِّر في أمره، لا يهتدي سبيلاً، ولا يقدر على سلوكها،

531- إشارة إلى الحديث المتفق عليه: " لما كسرت بيضة النبي صلى الله عليه وسلم على رأسه، وأدمي وجهه وكسرت رباعيته، وكان علي يختلف بالماء في المجن ...." رواه البخاري (2903)، ومسلم (1790)، كلاهما في الجهاد والسير، عن سهل بن سعد.

532- متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (240)، ومسلم في الجهاد والسير (1794)، عن ابن مسعود.

السلا: ما يخرج من بطن الناقة ونحوها مع الولد. مما كان في الرحم لحفظه.

533- رواه مسلم في السلام (2186).

فهكذا حال أعداء رسول الله معه، حتى ضربوا له أمثالاً، برَّأه الله منها. وهو أبعد خلق الله عنها. وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إنَّ سحر الأنبياء ينافي حماية الله تعالى لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاَّهم، يبتليهم بما شاء من أذى الكفَّار لهم؛ ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلَّى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم، إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسَّوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبوا ما أُعدَّ لهم من النَّكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم، فيُعجِّل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله، بإيذاء قومهم. وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه[534].

تأثيرات السحر:

وقد دلَّ قوله: **{وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ}**، وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر، وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض، ولا قتل، ولا حَل ولا عقد. وقالوا: إنما ذلك تخيُّل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك. وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث، وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضًا وثِقلا وعَقْدًا، وحباً وبغضاً ونزيفًا، وغير ذلك من الآثار موجود، تعرفه عامّة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه.

534- تفسير ابن القيم صـ 633- 634.

وقوله تعالى: **{وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ}**، دليل على أن هذا النفث يضرُّ المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً، كما يقوله هؤلاء. لم يكن للنفث ولا للنفاثات شرٌّ يستعاذ منه[535].

وأيضاً فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين (أي: في قصة موسى) مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أنَّ هذا تغيير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟ وما الفرق بين التَّغيير الواقع في الرؤية والتَّغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟

فإذا غيَّر إحساسه حتى صار يرى الساكن متحرِّكاً، والمتَّصل منفصلاً، والميت حيَّاً، فما المحيل لأن يغيِّر صفات نفسه، حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً، والبغيض محبوباً، وغير ذلك من التأثيرات؟!

وقد قال تعالى عن سحرة فرعون: **{سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}** [الأعراف:116]، فبيَّن سبحانه أنَّ أعينهم سُحرت. وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصيُّ، مثل أن يكون السَّحَرة استعانت بأرواح حرَّكتها، وهي: الشياطين. فظنُّوا أنها تحرَّكت بأنفسها، وهذا كما إذا جرَّ مَن لا تراه حصيراً أو بِساطاً، فترى الحصير والبساط ينجرُّ، ولا ترى الجارَّ له، مع أنه هو الذي يجرُّه، فهكذا حال الحبال والعصيّ التبستها الشياطين، فقلَّبتها كتقليب الحيَّة، فظنَّ الرائي أنها تقلَّبت بأنفسها، وإنما الشياطين هم الذين يقلِّبونها.

وإما أن يكون التَّغيير حدث في الرائي، حتى رأى الحبال والعصي تتحرَّك، وهي ساكنة في أنفسها، ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرَّف في نفس الرائي وإحساسه، حتى يرى

535 - بل النفث الذي يليق بعظمة بلاغة القرآن، وفخامة أسلوبه: هو نفث المفسدين سمومهم: بالكذب والغيبة والنميمة وقالة السوء في عقد الصلات بين الناس، حتى يفكّوا عرى الزوجية والمودة والرحمة، وغيرها. وشر وضرر هذا في الناس أكثر جدا من شر من يقولون: إنهم سحرة. والله أعلم.

الشيء بخلاف ما هو به، وتارةً يتصرَّف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانيَّة حتى يتصرَّف فيها[536].

وقد ردَّ ابن القيم على ما يقوله منكرو السحر وتأثيره، من أنهم حرَّكوا الحبال والعصي بوضع مادة تحرِّكها، مثل الزئبق، ونحو ذلك، وقال: إن بطلان ذلك أظهر من أن يتكلَّف ردُّه[537].

رأي الإمام محمد عبده:

وللأستاذ الإمام محمد عبده رأي في معنى الآية المراد، ذكره في تفسيره لجزء (عمَّ)، خالف فيه جمهور المفسِّرين، الذين مالوا إلى أن المراد بـ **{النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ}**، أنفس السحرة الشريرة، ولكنه ذهب إلى أن لفظة **{النَّفَّاثَاتِ}**، جمع نفاثة، وهي صيغة مبالغة مثل علاَّمة وفهَّامة، وهي تشمل الذكر والأنثى.

وقال: إنَّ المراد بهم هنا: النمَّامون المقطِّعون لروابط الألفة[538]. وأنكر ما يقال هنا عن السحر، وأنا أخالفه رحمه الله، رغم إعجابي به، وأجد نفسي مع الجمهور الأعظم من المفسِّرين: أن المراد بهذه الآيه المحذِّرة من النفاثات في العقد يتعلَّق بالسحر، والاستعاذة من شرِّ السحر والسحرة.

والواقع يثبت أن هذه الفئة من الناس من النفَّاثات في العقد هم من أخطر الفئات، ولهم شرٌّ شديد في المجتمع، فالسحرة وما يتفرعَّ منهم، وما يلحق بهم، من المنجِّمين والكَهَنة والعرَّافين والمالين، وكلُّ هذه الأصناف التي تعمل في فضاء المجتمع الواسع، وتعبث بعقول الناس وعقائدهم وأفكارهم وأعمالهم.

وقد نحا نحو الشيخ محمد عبده بعض المعاصرين، في إنكار أن المراد بالنفث في العقد، في الآية (السحر)، ومن هؤلاء: العالم السلفي المحدِّث الشيخ محمد حامد الفقي، رئيس ومؤسس جماعة أنصار السنة في مصر

536 - التفسير لابن القيم، صـ 563-572.
537 - المرجع السابق، صـ573.
538- تفسير جزء عم لمحمد عبده، صـ 185.

حيث علَّق على إثبات ابن القيم أيضاً للسحر، فقال: (إنَّ جوابات الشيخ – غفر الله لنا وله – عن السحر متكلَّفة. وتدلُّ على أنه لم يخبر صناعة المشعوذين والممَخرقين، والقرآن صريح في أن ما صنعه سحرة فرعون كان تخييلاً، لا حقيقة له في الواقع، وسحر الأعين فنٌّ ليس بدقيق كلَّ الدقَّة، ولا خفي كلَّ الخفاء إلا على العامَّة، وعلى مَن لم يدرسه ويعرف حِيل أصحابه، ولذلك كتب مؤلفة مَن قرأها عرف ذلك ..

أما أن يصل إلى إحداث بغض أو حبٍّ أو نزيف في رحم المرأة، من غير أسباب ذلك، فهذا الذي يحتاج إلى دليل، وكلُّ ما ساق الشيخ وغيره من الأدلة: فلا ينهض حجَّة لذلك. والله أعلم)[539].

قول صاحب الظلال:

قال (سيد قطب) رحمه الله، في تفسير الآية: (والسحر لا يُغيِّر من طبيعة الأشياء؛ ولا ينشئ حقيقة جديدة لها، ولكنه يُخيِّل للحواسِ والمشاعر بما يريده الساحر، وهذا هو السحر كما صوَّره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام: **{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ الْقَى * قَالَ بَلْ الْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}** [طه:65–69].

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيُّهم حيَّات فعلاً، ولكن خُيِّل إلى الناس وموسى معهم، أنها تسعى، إلى حدِّ أن أوجس في نفسه خيفة، حتى جاءه التثبيت، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حيَّة، فلقفت الحبال والعصيَّ المزورة المسحورة.

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نُسلِّم بها، وهو بهذه الطبيعة يؤثِّر في الناس وينشئ لهم مشاعر وَفق إيحائه، مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجِّههم الوجهة التي يريدها الساحر، وعند هذا الحدِّ نقف في فَهم طبيعة السحر والنفث في العقد، وهي شرٌّ يستعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه.

539 - التفسير لابن القيم، صـ573.

وقد وردت روايات بعضها صحيح، ولكنه غير متواتر، أن لَبيد بن الأعصم اليهودي سَحر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد، بأن كلَّ فعل من أفعاله صلى الله عليه وسلم، وكلَّ قول من أقواله، سنة وشريعة، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مسحور)[540].

أيَّ الرأيين نرجح؟

والآن ما موقفنا أمام الرأيين المتنازعين بين إثبات السحر ونفيه؟ أيُّهما أحقُّ بالقَبول والترجيح؟!

والذي يلوح لي من خلال النصوص والأدلَّة وموازناتها بعضها ببعض: أن هناك جملة أمور يجب أن نبيِّنها بوضوح وجلاء:

أولا: أن آية النفاثات في العقد يمكن أن نفسِّرها ونشرحها ونبيِّن المراد منها، دون ربطها بما جاء من الأحاديث في سحر النبي صلى الله عليه وسلم، سواء ارتضينا هذه الأحاديث كما ارتضاها جمهور العلماء، مثل: الطبري، والقرطبي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وغيرهم. ولم يثبت أنَّ هذه الواقعة سبب نزول السورتين، بل الثابت المعوَّل عليه: أن السورتين نزلتا بمكة.

ثانياً: حديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم، يمكن أن نُسلِّم به، على أن نحمل ما رُوي أنه كان يخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله، لا يتعلَّق بأمر التَّبليغ ولا التَّشريع، إنما كان في أمر دنيويّ، وهو ما يتعلَّق بأمر الجماع، وهو ليس بأمر ذي بال، ولا يخلُّ بأمر العصمة المطلوبة، والواجبة للأنبياء جميعاً، وهنا نرفض كلَّ ما ينافي العصمة في التبليغ، أو يجوز تطرق الشكِّ إليه، ويكون ذلك طعناً معتبراً في صحّة الرواية التي تثبت ذلك.

ثالثا: أن الذي أصيب به النبي صلى الله عليه وسلم، إنما كان في بدنه لا في عقله، فهو نوع من المرض الذي يُبتلى به الناس عامَّة، حتى الأنبياء عليهم السلام، ولا نقص عليهم في ذلك، كما ذكر ابن القيم[541]. وقد ابتُلي أيوب عليه السلام، بما ابتُلي به، حتى شفاه الله، حين **{نَادَى رَبَّهُ أَنِّي**

540- في ظلال القرآن (4007-4008/8).
541- التفسير لابن القيم صـ633.

مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء:83-84]، على أننا نرجح هنا الرواية التي تجعل مدَّة إصابته بهذا الابتلاء كانت أياما، ولا نُصحح الرواية التي جعلتها عدة أشهر، وإن رضيها بعض العلماء.

رابعا: إننا أخذنا برأي الجمهور في أن {**النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ**}، هي الأنفس التي أنست بالشرِّ، واستراحت إليه، وركنت إلى السحر وأهله ومصادره، تلجأ إليهم وتستعين بهم، فإنا نعلن: أن هذه الأنفس إنما هي أنفس صغيرة مهزومة، جنَّدت نفسها للشيطان تأتمر بأمره، وتسير في ركابه، وأنَّ سحرها لا يعطيها قوَّة خارقة تعلو بها على المؤمنين، وتتطاول بها على الدعاة الصادقين. وأنَّ هؤلاء السَّحَرة، وإن نبغوا في علمهم وتفوَّقوا فيه: لا يضرُّون أحداً إلا بإذن الله، وأن مَن يستعين عليهم بالله تعالى، ويلوذ بحماه، مستعيذاً من شرِّهم، فإنَّ الله أهل أن يعيذه ويحميه من كيدهم وأذاهم.

خامسا: لا أوافق الإمام محمد عبده على إخراجه شرَّ السحرة بإطلاق من الشرور المستعاذ منها في السورة، بل أرى أن من المناسب التَّحذير من شرِّ هذه الفئة الخطيرة، ومن كلِّ ما يلحق بها، ويتفرَّع منها، من المنجِّمين والكهنة والعرَّافين والرمَّالين وأمثالهم.

السحر من كبائر الإثم:

ومما لا خلاف فيه: أن السحر معصية لله تعالى، بل هو من كبائر المعاصي والآثام، حتى جاء في الحديث المتَّفق عليه، أنه صلى الله عليه وسلَّم، قال: "اجتنبوا السبع الموبقات". قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ" الحديث[542]. فانظر كيف جعله بعد الشرك بالله تعالى، وهو أكبر الكبائر.

542- متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (2766)، ومسلم في الإيمان (89)، عن أبي هريرة.

وفي الآية التي ذكرت قصة هاروت وماروت، قال الله تعالى: **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ}** [البقرة:102].

وقد اختلف الفقهاء في عقوبة الساحر، فذهب بعضهم إلى أن عقوبته أن يُضرب بالسيف.

وأعتقد أنه لا خلاف بين الفقهاء في تأثيم الساحر، وأن إثمه عند الله عظيم، ولكن الخلاف إنما هو في حقيقة السحر ما هي؟ وما طبيعتها؟ وما أثرها إن كان له أثر؟

والذي ينبغي أن لا يُختَلف عليه بين الفقهاء: أن يكون للسحر أثر، وأن يكون أثره سيئاً وضارًّا، وإن كان ضرره بإذن الله، كما قال تعالى: **{وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ}** [البقرة:102]، وأنه أمر يعاقب الله عليه في الدنيا والآخرة، وأنه يجب أن يعزَّر فاعله في الدنيا.

أما حقيقته، وهل هو مجرَّد إيهام وتخييل وسحر لأعين الناظرين، أم هو أمر مؤثِّر في الأبدان بالأمراض، وفي العقول بالبلبلة والاضطراب، وفي المجتمع بالتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه.

هنا يحدث الاختلاف، وانقسام العلماء إلى فرقاء[543] ثلاثة:

1. هناك فريق يبالغ في الإثبات، ويرون أن السحر يؤثِّر في الأبدان والعقول، والأُسر والمجتمعات، ويوقنون بأن الساحر له قدرة يلمس الناس أثرها، في الوصل والقطع، والتجميع والتفريق، والصحة والمرض، والبغض والحبِّ، وهو ما يُنسب إلى الأشاعرة، أو إلى أهل السنة عامة.
2. وفريق يبالغ في النفي، ولا يثبت للساحر أيَّ قدرة، أو أثر في غيره، إنما هو إيهام وإيحاء وتخييل، وسحر للأعين، كما صرَّح القرآن في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وهو مذهب المعتزلة، وهو ما اتجه إليه الشيخ محمد عبده، الذي قال: (ماذا لو فهمنا من السحر الذي يفرِّق بين المرء وزوجه: تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التي تصرف الزوج عن زوجته، والزوجة

543- فرقاء: جمع فريق، والفريق هو: الطائفة من الناس أكبر من الفرقة، وتجمع على: فرقاء وأفرقة. انظر المعجم الوسيط (686/2).

عن زوجها؟ وهل يبعد أن يكون مثل هذه الطرق مما يُتعلَّم وتُطلَب له الأساتذة؟ ونحن نرى أن كتباً أُلِّفت! ودروساً تُلقى لتعليم أساليب التفريق بين الناس، لمَن يريد أن يكون من عمال السياسة في بعض الحكومات؟)[544].

3. والفريق الثالث: هم الأمة الوسط، التي تقف بين الغلو والتفريط بين الفئتين المذكورتين، فهي تثبت للساحر عملاً وتأثيراً في الأشياء، وهو تأثير سيئ وضارٌّ، وضرره بإذن الله، وبهذا استحقَّ أن يكون من الموبقات السبع، وأن يُذكر بعد الإشراك بالله سبحانه، حتى أمر الله رسوله – وأمرنا معه بالتالي– أن نتعوَّذ بالله من شرِّ النفاثات في العُقد، والمقصود عند جمهور الأمة من الخلف والسلف: أهل السحر.

ولهذا كتب عمر إلى ولاته: أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحِرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر[545].

ولكن هذا الفريق لا يقولون: إنَّ الساحر قادر على تبديل طبائع الأشياء، فينقل العصا أو الحبل

إلى حيَّة تسعى، أو ثعبان مبين، فهو أعجز من أن يفعل هذا، إنما – كما ذكرنا – إيهام وتخييل.

وسحر أعين هذه الجموع الكثيرة، حتى تحسب الحبال والعصي قد انقلبت إلى حيَّات تسعى، حتى أوجس موسى خيفة في نفسه، حينما وصل إليه من سحرهم أنها تسعى، ليس بأمر هيِّن، وهو يدلُّ على أن لهم شيئاً من التأثير بسحرهم. كما قال ابن القيم[546].

ومن هنا ورد التَّحذير من هذا الباب كلِّه، من السحر وما يتعلَّق به، وما يتنوَّع عنه، من أشباه السحرة، كالكهنة والعرَّافين والمُنجِّمين، وكلِّ هذه الأصناف. وقد جاء في حديث ابن عباس: "مَن اقتبس علماً من النجوم، فقد اقتبس شُعبة من السحر، زاد ما زاد"[547].

544- تفسير جزء عم، للشيخ محمد عبده، صـ187.

545- رواه أحمد (1657) وقال مخرجوه: إسناده على شرط البخاري، ورواه أبو داود في الخراج (3043)، والترمذي في السير(1587) وقال: حسن صحيح.

546- التفسير القيم، لابن القيم صـ489 .

547- رواه أحمد (2840)، وقال مخرجوه:إسناده صحيح، وأبو داود في الطب (3905)، وابن ماجه في الأدب (3726)، وصححه إسناده النووي في رياض الصالحين (1671)، وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود (3305).

وفي حديث أبي هريرة: "مَن أتى كاهناً، أو عرَّافاً، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد"[548]. وفي حديث بعض أمهات المؤمنين: "مَن أتى عرَّافا فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين يوما"[549].

كلام العلامة رشيد رضا في حديث السحر، وتفسير الآية:

ويسرُّني أن أنقل كلام العلاَّمة محمد رشيد رضا، في حديث السحر، وهو ليس كلام النافي له، أو المُكذِّب به، بل كلام مَن يصدِّق به، ويؤوِّله أحسن تأويل، يقنع أهل العقل والنظر، ولا يردُّه أهل النقل والأثر، شأن علماء الوسطيَّة والاعتدال أبدا.

وإليك ما ذكره في نهاية تفسير سورة الفلق، من قصار السور تحت عنوان: علاوة لتفسير السورة في حديث سحر منافق من أشرار اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن ذكر رواية الشيخين للحديث، من طريق عائشة رضي الله عنها، وهي التي أوردناها من قبل، أشار إلى الرواية الأخرى، حيث قال: (وفي رواية الشيخين، كان صلى الله عليه وسلم سُحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنَّ. بنحوه. وفيه: سَحره رجل من بني زُرَيق، حليف اليهود، كان منافقا[550].

وعن زيد بن أرقم، سَحر النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود فاشتكى لذلك أياماً، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عُقداً، في بئر كذا وكذا .. فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم فاستخرجها فحلَّها، فقام كأنما أُنشِط من عقال! فما ذكر ذلك لذلك اليهودي، ولا رآه في وجهه[551]. رواه النسائي. والأيام جمع قلَّة، ولكن بالغ بعض الرواة في غير الصحيحين فجعلوها أشهراً.

548- رواه أحمد في مسنده (9536)، وقال مخرجوه: حسن، وأبو داود في الطب (3904)، بلفظ (فقد برئ مما أنزل)، والترمذي (135)، وابن ماجه (639)، كلاهما في الطهارة، وصححه الألباني في غاية المرام (285)، عن أبي هريرة.
549- رواه مسلم في السلام (2230)، وأحمد (16638)، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.
550 - بنو زريق: بطن من بطون الخزرج، فهو على هذه الرواية يهودي بالحلف لا بالنسب.
551 - رواه النسائي في تحريم الدم (4080)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (3802).

قال السيد رشيد: فهذا الحديث صريح في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء، ولكن فهم أكثر العلماء أنه صلى الله عليه وسلم سحر سحرًا أثَّر في عقله، كما أثَّر في جسده، فأنكره بعضهم، وبالغوا في إنكاره، وعدُّوه مطعنًا في النبوَّة، ومنافيًا للعصمة، لقول عائشة: حتى إنه كان يخيّل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله. فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول، وعدُّوها: مخالفةً للقطعيّ في النقل، وهو ما حكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم في رسلهم بقولهم: {**إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلًا مَسْحُورًا**}، وتفنيده تعالى لهم بقوله: {**انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا**} [الإسراء:47].

ومخالفة للقطعي في العقل، من عصمة النبي صلى الله عليه وسلم، من كلِّ ما ينافي النبوَّة والثقة بها، إذ يدخل فى ذلك التخييل ما هو من التشريع.

ومخالفة لعلم النفس، الذي يُعلم منه أن الأنفس السافلة الخبيثة لا تُؤثِّر في الأنفس العالية الطاهرة، فأنكر صحَّة الرواية بعضُ العلماء.

وأقدم مَن عرَفنا ذلك عنهم من المفسِّرين الفقهاء أبو بكر الجصاص في كتابه: (أحكام القرآن)[552]، وآخرهم شيخنا الأستاذ الإمام في (تفسير جزء عم).

وقد أطال شيخنا في هذا وبالغ فيه. وبنى إنكاره له على القاعدة المتَّفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه، في معارضة الظنِّي للقطعيّ، إذ الحديث آحاد، وهو يفيد الظنَّ، فيُرَدُّ بالقطعي عقلاً ونقلاً، وهو ما ذكرناه آنفًا.

وقد اتَّفقوا على أن أحاديث الآحاد لا يحتجُّ بها في أصول العقائد. وقال: إنَّ كونه يفيد الظنَّ خاصٌّ بمَن صحَّ عنده، وإن له أن يتأوَّله أو يفوِّض الأمر فيه، على قاعدتهم الأخرى في النصوص المعارضة للعقل.

552- أحكام القرآن للجصاص صـ 60، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد صادق القمحاوي.

ولعمري إنَّ ما نعرفه عن شيخنا محمد عبده – قدَّس الله رُوحَه – من إجلاله وإكباره لشأن محمد رسول الله وخاتم النبيين، في نفسه الزكيّة، وروحه القدسيّة، وعُلو مداركه العقلية، مما لم نعرف مثله عن أحد من العلماء العقليين كفلاسفة المسلمين ومتكلِّميهم، ولا من العلماء الرُّوحيين كالصوفية، ولا من علماء النقل كجامعي الروايات الكثيرة في معجزاته صلى الله عليه وسلم، وحسبك منها تلك الإشارة البليغة في: (رسالة التوحيد). بل كان يقول: إنَّ روحه صلى الله عليه وسلم، كانت منطوية على جملة هداية الدين، ومدارك التَّشريع، التي فُصِّلت في كتاب الله تعالى وسُنَّته تفصيلا تامّاً، كما نقلناه عنه في تاريخه.

وأجاب عن الرواية المُحدَثون المصحِّحون لها علمًا، والمقلِّدون لهم: بأن غاية ما تدلُّ عليه: أن ذلك السحر إنما أثَر في بدنه دون رُوحه وعقله، فكان تأثيره من الأعراض الجسدية، كالأمراض التي لم يُعصم الأنبياء عليهم السلام منها.

وقد محَّصت هذه المسألة مرارًا، آخرها في الردِّ على مجلة الأزهر (نور الإسلام) في زعمها المفترى: أنني كذَّبتُ حديث البخاري في سحر النبي صلى الله عليه وسلم، فبيَّنت: أن الحديث الصحيح في المسألة عن عائشة رضي الله عنها، تُوهم عبارة بعض رواياته ما هو أعم من المعنى الخاص الذي أرادته منه، وهو مباشرة الزوجيّة بينه صلى الله عليه وسلم وبينها، فقولها: كان يخيَّل إليه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله. كناية عن هذا الشيء الخاص، لا عام في كلِّ شيء، فلا يدخل فيه شيء من أمور التَّشريع، ولا غير غشيان الزوجيَّة، من الأمور العقليَّة، أو الأمراض البدنيَّة، فضلا عمّا كان يريده الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون؛ لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين، فالمسألة محصورة فيما يُسمُّونه حتى الآن (الربط) أو (العقد)، أي: عقد الرجل المانع من مباشرة زوجته فقط.

وبيَّنت أيضًا أن الرواية في أصحِّ أسانيدها عند الشيخين، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة. فيها علَّة من علل الحديث الخفيَّة التي يشترط في صحَّة الحديث السلامة منها، وهي: أن بعض منكري الحديث أعلُّوه بهشام هذا، وألَّف بعضهم كتابًا خاصّاً فيه، محتجًّا بقول بعض علماء الجرح

والتعديل: إنه كان في العراق يرسل عن أبيه عروة بن الزبير ما سمعه من غيره، وعروة هو راوية عائشة الثقة، وهي خالته. وقال ابن خراش: كان مالك لا يرضاه. يعنى: هشامًا، وقد نقم منه حديثه لأهل العراق. وقال ابن القطان: تغيّر قبل موته[553].

ولا شكَّ أن تعديل الجماعة له ومنهم الشيخان، خاصٌّ بما رواه قبل تغيُّره، فهذا عذر من طعن في روايته لهذا الحديث الذي أنكروا متنه بما علمتَ، والأمر فيه أهون مما قالوا[554]، فالتحقيق أنه خاص بمسألة الزوجيّة كما جاء في التصريح به في الرواية الثانية كما تقدَّم، ولا يعتدُّ بغير هذا.

أما ما رواه البيهقي في دلائل النبوة، عن ابن عباس في مرضه صلى الله عليه وسلم، وأنه كان شديدا، وأنه كان سحرا في بئر تحت صخرة في كربة[555]، وأنهم أخرجوها فأحرقوها فإذا فيها وتر فيه إحدى عشر عقدة، وأنزلت عليه هاتان السورتان – يعني المعوذتين – فجعل كلما قرأ آية انحلَّت عقدة[556]. اهـ ملخصا.

فهذا حديث باطل، مخالف لحديث الصحيحين في المسألة، ولروايات نزول السورتين بمكة، وهو من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. والكلبي هذا متَّهم بالكذب، وطريقه أوهى الطرق عن ابن عباس، واسمه محمد بن السائب.

وأما ما رواه أبو نعيم في الدلائل، عن أنس قال: صنعت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم، شيئاً، فأصابه من ذلك وجع شديد، فدخل عليه أصحابه فظنُّوا أنه ألم به، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوَّذه بهما، فخرج إلى أصحابه صحيحاً[557]. فهو من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، وهما ضعيفان. وليس في متنه ذكر السحر، ولا أن المعوذتين نزلتا في ذلك الوقت، ولا في أيِّ شيء من روايات الصحيحين. فالاستدلال به على أنهما مدنيتان ضعيف، فالحقُّ أنهما مكيَّتان كما تقدَّم اهـ.

553- سير أعلام النبلاء (35/6).
554- راجع تفصيل المسألة في كتاب المنار والأزهر (ص95-105).
555- الكَرَبُ: أصول السعف التي تقطع معها، وواحدتها: كربَةَ. المصباح المنير.
556- رواه البيهقي في دلائل النبوة (248/6).
557 - لم أقف عليه في دلائل النبوة لأبي نعيم، وعزاه له السيوطي في لباب النقول صـ220.

هذا هو كلام العلاَّمة السيد رشيد رحمه الله تعالى في الحديث وتأويله، وهو كلام عالم فقيه جارٍ على نهج المُحدِّثين الأُصلاء، في الجرح والتعديل، والشرح والتعليل، وهو كلام إمام مصلح، حريص على البناء لا الهدم، وعلى التَّجديد لا التبديد، يعرف قدر السلف، ولا ينكر حقَّ الخلف، يخالف شيخه، ولكنه يدافع عنه، ويؤكِّد مقدار حبِّه وتوقيره لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو العدل والإنصاف. فرضي الله عن الشيخ رشيد وجزاه عن الإسلام وأمَّته خيرا، وأثابه على كلِّ ما اجتهد فيه، أخطأ أو أصاب: أجرا أو أجرين. آمين.

رأي ابن باديس:

وللمصلح الجزائري المعروف عبد الحميد بن باديس في تفسير السورة، رأي يشبه رأي الشيخ رشيد، قال فيه عن النفث وأثر السَّحَرة فيه، وما قصدوا به من إيصال الشرِّ من نفوسهم الخبيثة إلى نفس المسحور، ثم قال: (وما أمرنا الله بالاستعاذة من شرِّه، إلا لأنه يؤثِّر في بعض النفوس القابلة للتأثُّر به، حاشا النفوس المعصومة، كنفوس الأنبياء فإنَّ شرور الدنيا وأسواءها لا تعدو أبدانهم إلى أرواحهم.

ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي، لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يوهمه لفظ الرواية، فإن ذلك كلَّه لا يخرج عن التأثُّر البدني)[558] انتهى. وهو نفس ما انتهى إليه رشيد رضا رحمهما الله.

الشر الرابع المستعاذ بالله منه:

{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}

وهذا هو الشرُّ الرابع والأخير مما علمتنا سورة الفلق أن نعوذ بالله رب الفلق، ونحتمي به منه.

وهو شر يصدر من الأنفس الخبيثة، كما يصدر عنها السحر الذي ذكر في الآية السابقة.

معنى (الحسد):

558- تفسير ابن باديس (634-633).

ومعنى الحسد لغة: بغض النعمة عند شخص، وتمنِّي زوالها عنه، وإن لم تنتقل إليه. فهو يكره نعمة الله التي أنعم بها على فلان من الناس، من صحَّة أو ذكاء، أو علم أو مال، أو زوجة أو ولد، أو حب الناس، أو غير ذلك من النعم وما أكثرها، ويتمنَّى زوال هذه النعمة عن صاحبها.

ومثل ذلك: أن يكون الشخص محروما من نعمة ما، كالمال أو الولد أو العلم، فهو يتمنَّى استمرار هذا الحرمان، ويسوؤه أن يعطيه الله شيئا من ذلك.

وقد يكون الحسد متعلِّقا بشخص معيَّن يكره وصول نعمة الله عليه، وقد يكون متعلِّقا بأكثر من واحد، بل هناك مَن يكره كلَّ نعمة عند شخص آخر غيره، وهذا شرُّ الحاسدين. فهو يتلظَّى في جمر من الألم والنكد والكآبة، كلَّما رأى نعمة عند أحد غيره، فلا غرو أن تراه في عذاب دائم، وأسى مستمر، فهذا الحسد يحمل عقوبته لصاحبه معه، ولذلك قالوا: لله درُّ الحسد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله!

وقال الشاعر:

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله[559]

وقوله تعالى: {**إِذَا حَسَدَ**}، دليل على أن الحسد لا يضرُّ إذا كتمه الإنسان في نفسه، ولم يظهر أثره في قول ولا فعل، ولا لسان ولا يد. فإنه يظلُّ مما حدَّثت به الأنفس، مما يدخل في دائرة ما عفا الله عنه، كما في الصحيح: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلَّم"[560].

فمعنى { **إِذَا حَسَدَ**}: أي إذا ظهر حسده، وأذى به المحسود، وضرَّه بوجه من الوجوه.

والحسد من معاصي القلوب، وهي أشدُّ خطراً، وأعظم إثما من معاصي الأبدان والجوارح، ومعلوم أن معصية آدم كانت من معاصي الجوارح، ولذلك سرعان ما تاب منها، بخلاف معصية

559 - من شعر عبد الله بن المعتزّ.
560- متفق عليه: رواه البخاري في الطلاق (5269)، ومسلم في الإيمان (127)، عن أبي هريرة.

إبليس، فقد كانت من معاصي القلوب، وهي حسد آدم على ما آتاه الله من فضل ونعمة، حتى أمر ملائكته بالسجود تكريما له. ولهذا قال اللعين: {**أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ**} [الإسراء:62].

فدفعه الحسد إلى معصية أخرى أعظم وأخطر، وهي الاستكبار على أمر الله، {**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ**} [البقرة:34].

ولهذا قال العلماء: الحسد أول معصية حدثت في السماء، وأول معصية وقعت في الأرض.

يعنون بأول معصية وقعت في السماء: معصية إبليس حين حسد آدم، ويعنون بأول معصية وقعت في الأرض: معصية ابن آدم الذي حسد أخاه، حينما {**قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ**} [المائدة:27]، وهو ما يعرف في الإسرائيليات بقصة قابيل وهابيل.

وقد تُسمَّى (الغبطة) حسدًا، من باب المجاز، كما في حديث: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالا، فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجل أتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمها"[561]. ولكنها ليست الحسد المذموم. فمعنى الغبطة: أن يتمنَّى أن يكون له مثل ما عند المحسود، كأن يرى شخصا حادَّ الذكاء، حاضر البديهة، سريع الجواب، يتمنَّى أن يكون له مثل هذا الإنسان، أو يرى عالما راسخ العلم، واسع الأفق، علاَّمة في تخصصه، فيتمنَّى أن يرزقه الله مثل ما رزقه. ولكنه لا يتمنَّى زوال نعمة الذكاء عن الذكي، ولا نعمة العلم عن العالم، وهكذا في كلِّ النعم من الغنى، والأولاد، وصحَّة الجسم، والجاه والمكانة عند الناس.

تأثير الحاسد في المحسود:

وقد دلَّت الآية على أن الحسد يؤثِّر في المحسود ويصيبه بالشرِّ، ولهذا كان الأمر بالاستعاذة منه. وتأثير (الأنفس) الخبيثة والشريرة الحاسدة في المحسود أمر بيِّن، حتى ليصيبه المرض والألم، خصوصا إذا صوَّب نظرات عينيه، كأنهما سهمان أو رصاصتان يصوبهما إلى صدره.

561- متفق عليه: رواه البخاري في العلم (73)، ومسلم في صلاة المسافرين (816)، عن عبد الله بن مسعود.

وهو ما استفاض، بل تواتر شعور الناس به، وتأثُّرهم بمصائبه، وشكواهم من شدَّة تأثيره وتكراره. بل كثيرا ما يبالغ بعض الناس في ذلك.

وقد صحَّت الأحاديث في تأثير العين في الإنسان، وهي أثر من آثار الحسد غالباً، وجاء في الحديث: "العين حقٌّ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين"[562].

وجاء في تعويذات النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "ومن كلِّ عين لامَّة"[563].

وتحدَّث الفقه عن (العائن) وأثره في الغير، ومدى مسؤوليته.

وفي بلاد الخليج يتحدَّث الناس أن هناك قبائل، أو أفخاذاً، في قبيلة معينة مشهورة بقوة تأثير أعينها في الآخرين.

وقد حُمل قوله تعالى في سورة يوسف على لسان يعقوب: **{وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}** [يوسف:67]. قال أكثر المفسِّرين: خشي عليهم العين.

وقد كشف لنا العلم الحديث من أسرار النفس البشريّة، ما لم يكن يعرفه الأقدمون منها، فذكروا لنا ما يُسمُّونه قراءة الأفكار، أي: قراءة ما يضمره الإنسان في باطنه، وما يُسمُّونه التَّخاطر عن بُعد، وبه فُسِّرت حادثة عمر وسارية. حين قال: يا سارية الجبل الجبل[564]!

وكذلك ما شاهدناه بأعيننا من ظاهرة التنويم المغناطيسي. فهذا كلُّه يقرِّب لنا ما يمكن أن تُحدثه نفس الحاسد من شرٍّ في حياة المحسود، وما يحمله من إثم، إذا كان متعمِّدا لتوجيه الشرِّ إليه، بخلاف ما إذا صدر ذلك قهراً عنه، ولم يكن راضياً عنه، و**{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا}** [البقرة:286].

562- رواه مسلم في السلام (2188)، عن ابن عباس.
563- رواه البخاري في (3371)، وأحمد (2112)، وأبو داود في السنة (4737)، عن ابن عباس.
564- رواه اللالكائي في كرامات الأولياء (67)، والبيهقي في الاعتقاد صـ314.

سورة النَّاس

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس (1) مَلِكِ النَّاس (2) إله النَّاس (3) مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخنَّاسِ (4) الذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاس (5) مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاس (6)}

هذه آخر سورة في القرآن، وهي ثانية المعوذتين، بعد سورة الفلق قبلها، وهي مكيَّة مثلها، وكلتاهما تبدأ بالاستعاذة بالله، أي: بالتحصُّن به، واللياذ بحماه، والالتجاء إلى ركنه الركين، وحصنه الحصين، والاحتماء به من كلِّ الشرور المخوفة، ولهذا يقال عن القرآن: بدأ بالحمد لله، وخُتم بالاستعاذة بالله.

وهو ما يشير إلى أن القرآن كلَّه لله بدءًا وختامًا، على خلاف التوراة، التي يندر فيها ذكر الله.

وهذه السورة تركِّز على الاستعاذة بالله من شرٍّ خاصٍ، ولكنه جدير بأن يُفرد بالاستعاذة منه، وأن تكون له سورة تختصُّ به، إنه شرُّ الشيطان عدو الإنسان الدائم، الذي جاء في القرآن شدَّة التَّحذير منه، والتنبيه لعظم خطره وعداوته، كما قال تعالى في مخاطبته النَّاس جميعا: **{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [فاطر:6]، وقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاس كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [البقرة:168، 169].

وقد أورد القرآن الكريم قصة هذا الشيطان مع الإنسان الأول آدم، وحسده له، واستكباره عن طاعة أمر الله، بالسجود تكريماً له، وطرده من سمائه ورحمته بسببه، وقَسَمِه أمام الله على أن يعمل بكلِّ طاقته هو وذريَّته وجنوده لإغواء بني آدم، وإفسادهم وفتنتهم، قال تعالى: **{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}** [الأعراف:16-17]، **{لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا* وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا}** [النساء:118-119].

وقال الله للشيطان اللعين: {**اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا**} [الإسراء:63-65].

وهكذا أيْأَسه الله من عباده الذين يستحقُّون الانتماء إليه وحده، فليس له عليهم تسلُّط ولا سبيل بحال، فهم في حصانة سيّدهم وسيده، فما هو إلا كلب إذا زجره سيده ومالكه انزجر وانقمع.

وقد اعترف بأنه لا سبيل له على المؤمنين فقال: {**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**} [ص:82-83].

هذا هو الشيطان اللعين الذي حذَّرت منه كلُّ رسالات السماء، وكلُّ كتب الأنبياء، هو موجود حقيقي، نحسُّ أثره، ولا نرى صورته: {**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**} [الأعراف:27].

ثم إن هذه الأسماء الثلاثة: الربُّ والملك والإله، لها في هذا المقام دلالة مهمَّة، فهي تشير إلى كلِّ أقسام التوحيد، التي ركَّز عليها القرآن، ودعا إليها الإسلام: توحيد الربوبيّة، وتوحيد الحاكميّة، وتوحيد الإلهيّة.

فالربُّ هو الخالق، وهو المالك، وهو السيّد، وهو الراعي، وهو الحامي، وهو المُربِّي، أي المُرقِّي في مدارج الكمال، هو الذي يُربِّيهم بالنعم، ويُؤدِّبهم بالنِّقم، وهذه المعاني لها دلالتها في هذا المقام، وهي تشير - بإضافتها إلى النَّاس - إلى (توحيد الربوبيّة)، أي: نعوذ بالربِّ الذي لا ربَّ غيره، كما قال في سورة الأنعام وهي سورة التوحيد: {**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**} [الأنعام:164].

والملك هو الحاكم، الآمر لعباده، المُهَيْمن عليهم، الذي يملك حقَّ الأمر والنَّهي لهم، وحقَّ التشريع المطلق لهم، بالتحليل لهم، والتحريم الدائم عليهم، فهو الملك المطاع، والآمر المُجاب، والحاكم المطلق، له الملك، وله الخلق والأمر، وهذه الصيغة لها دلالتها هنا، وهي تشير إلى (توحيد

الحاكمية)، التي أومأت إليه سورة الأنعام حين قالت: {**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا**} [الأنعام:114].

والإله لها دلالتها هنا؛ لأن الإله هو المألوه، أي المعبود، فهو وحده الحقيق بأن يُعبد لا إله إلا هو، لا يستحقُّ العبادة أحد غيره، ولا شيء غيره، في الأرض أو في السماء، فكلُّ ما عُبد معه أو من دونه فقد عُبد بغير حقٍّ، كما قال القرآن لعابديها: {**إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**} [النجم:23].

أما أن يُعبَد الله وحده، فلأنه هو الخالق المُوجد للإنسان من عدم، وواهب الحياة له، والمنعم بالنعم الكبرى عليه، من العقل والحواس والمواهب المختلفة، ومسخِّر ما في الكون من أجله.

فهي تشير أيضاً إلى توحيد الإلهيَّة، أو توحيد العبادة، الذي جاءت به كلُّ الرسل، حيث كان النداء الأول في كلِّ رسالة رسول: {**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**} [الأعراف:59، وهود:50، والمؤمنون:23]. كما قال تعالى: {**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ**} [الأنبياء:25].

بخلاف توحيد الربوبيّة الذي أقرَّ ببعضه مشركو العرب وأمثالهم، وإنما نازعوا في توحيد الإلهيَّة والعبادة . قال تعالى: {**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**} [لقمان:25]، وإلى هذا تشير سورة الأنعام أيضا في قوله تعالى: {**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**} [الأنعام:14].

أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي أُمر المسلمون معه أن يتذرَّعوا بكلِّ هذه الألوان من التوحيد: توحيد الربوبيّة، وتوحيد الحاكميّة، وتوحيد الإلهيّة، التي تجسِّد غاية الإخلاص لله وحده، كما يُوحى إليه قوله تعالى: {**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} [الأنعام:162].

ليستعينوا بذلك على عدوِّهم – عدوِّ الإنسان أو عدوّ النَّاس الأول– فهي استعانة بقويٍّ غير ضعيف، قادر غير عاجز، عزيز غير ذليل، على مَن يملك قهره بجنود لا يعلمها إلا هو.

وهو يعمل لإضلالنا وإفساد أمرنا باستمرار، ليلَ نهار، لا يكلُّ ولا يملُّ، ولا يأخذ إجازة، حتى سُئل الإمام الربَّاني الحسن البصري رحمه الله: أينام الشيطان يا أبا سعيد؟ قال: لو نام لاسترحنا[565].

فهذا الشرير الفتَّان المُسلَّط علينا هو وجنوده وذُرِّيَّته نفتقر إلى الاحتماء بسيِّده وخالقه من شرِّه وفتنته، التي حذَّرنا الله منها: {**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**} [الكهف:50].

فكانت هذه السورة – خاتمة الكتاب – مُخصَّصة للاستعاذة بالله من شرِّه، ومكمِّلة لما جاء في القرآن من الاستعاذة منه، مثل قوله تعالى: {**وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ**} [المؤمنون:97–98]، وقوله تعالى في سورة الأعراف: {**خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**} [الآية:199].

وكذلك في سورة فصِّلت: {**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**} [الآية:36]، وفي سورة النحل: {**فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**} [الآيات:98–100].

وفي هذا الإطار جاء الأمر من الله في هذه السورة الخاتمة بالتَّعوُّذ من شرِّ هذا الشرِّير المعادي للبشر منذ أبيهم الأول، وما بدأه البشر بأذى، بل حسدهم على ما آتاهم من فضله، فأضْمَر لهم الشرَّ، وبيَّت لهم السُّوء، وكاد كيْده لهم، ولكن كيْد الله العظيم أقوى من كيْده، كما قال سبحانه: {**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**} [النساء:76]، أي: في مقابلة كيْد الله تعالى، الذي قال: {**إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**} [القلم:45]، وقال: {**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا**} [الطارق:15].

في حين قال للنساء: {**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**} [يوسف:28]، أي: في مقابل كيد الرجال.

565- إحياء علوم الدين (31/3).

بدأت السورة بتلقين الرسول الكريم صيغة الاستعاذة كما في السورة قبلها، بلفظة: **{قُلْ}** وبعدها: **{أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس * مَلِكِ النَّاس * إله النَّاس}**.

أُمر الرسول الكريم من ربِّه أن يعوذ ويتَحصَّن ويستعين بصاحب هذه الأسماء الحسنى الثلاثة: **{رَبِّ النَّاس * مَلِكِ النَّاس * إله النَّاس}**، من عدوِّ النَّاس الأول.

وإنما اختار هذه الأسماء الثلاثة دون غيرها، لأنها الأوفق والأنسب من أكثر من جهة:

لأنها كلَّها مضافة إلى النَّاس، فهو يستعيذ من عدو النَّاس، الكائد للناس، المتربِّص الشَّرَّ بالنَّاس، بربِّ النَّاس وملكهم وإلههم. وكأنه يقول: يارب، إنَّ النَّاس الذين خلقتهم ليعبدوك، واستخلفتهم في الأرض لينفِّذوا أمرك، ويعمروا أرضك، ويقيموا دينك: يلجؤون اليك باعتبارك ربِّهم وملكهم وإلههم ومعبودهم، لتحميَهم من عدوِّك وعدوِّهم، فلا تَتَخلَّ عنهم، فقد استعاذوا بمعاذ، واستعانوا على عدوِّهم بمَن هو أقوى منه، بل مَن يملك أمره كلَّه.

وإنما أعادت الآيات لفظ الناس، ولم تكتفِ بقولها: ربِّ الناس وملكهم وإلههم، بل استخدمت أسلوب الإظهار في مقام الإضمار، وذلك بقصد تأكيد ربوبيَّة الله تعالى، وإظهار ملكه وإلهيَّته للناس كلِّ الناس، كقوله تعالى: **{يَلْوُونَ السِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ}** [آل عمران:78]، ولأن تكرارها أشدُّ وقعاً وتأثيراً في نفس السامع، ولتتوافق مع **{الْوَسْوَاسِ الخنَّاسِ}**، وسائر فواصل السورة.

وقال العلاَّمة أبو السعود في تفسيره للسورة: (**{بِرَبِّ النَّاسِ}**: أي مالك أمورهم، ومُربِّيهم بإفاضة ما يُصلحهم، ودفع ما يَضرُّهم.

وقوله تعالى: **{مَلِكِ النَّاسِ}**، عطف بيان جيء به لبيان أن تربيته تعالى إيَّاهم ليست بطريق تربية سائر المُلَّاك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل، والتصرُّف الكُلِّي، والسلطان القاهر.

وكذا قوله تعالى: {**إلـه النَّـاسِ**}، فإنه لبيان أنَّ ملكه تعالى ليس بمجرَّد الاستيلاء عليهم، والقيام بتدبير أمورهم، وسياستهم، والتولِّي لترتيب مبادىء حفظهم وحمايتهم، كما هو قصارى أمر الملوك! بل هو بطريق المعبوديَّة، المؤسَّسة على الألوهيَّة، المقتضية للقدرة التامَّة على التصرُّف الكلِّي فيهم، إحياءً وإماتةً، وإيجادًا وإعدامًا.

وتخصيص الإضافة بالناس، مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيَّته تعالى وملكوتيَّته وألوهيَّته؛ للإرشاد إلى منهج الاستعاذة المرضيَّة عنده تعالى، فإن توسُّل العائذ بربِّه وانتسابه إليه تعالى بالمربوبيَّة، والمملوكيَّة، والعبوديَّة في ضمن جنس هو فردِ من أفراده؛ من دواعي مزيد الرحمة والرأفة، وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة، ولأن المستعاذ منه شرُّ الشيطان المعروف بعداوتهم، ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته، رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان)[566].

{مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخنَّاسِ (4) الذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاس (5) مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاس}

نصف السورة الأول – الآيات الثلاث الأولى – كانت تتحدَّث عن المُستعَاذ به، وهو الله جلَّ جلاله، وهو ذو القوَّة المتين، الذي بيده ملكوت كلِّ شيء، ووصفته بالربوبيَّة والملكيَّة والإلهيَّة للناس.

ونصف السورة الثاني والأخير، يتحدَّث عن المُستعَاذ منه، وهو الشيطان الرجيم، أو إبليس اللعين، وقد اختار القرآن هنا أن يعبر عنه بأهم أوصافه، وهي تتجسد في وصفين: الوسواس والخناس.

معنى {الْوَسْوَاسِ}:

والوسوسة في اللغة: تعني حديث النفس. يقال: وسوست إليه نفسه، ويقال لهمس الصائد والكلاب، وأصوات الحلي: وِسْواس، أو وسوسة. وهي: الصوت الخفي، أو الكلام الخفي، الذي يلقيه الإنسان إلى الإنسان في أذنه، أو يلقيه الشيطان إلى الإنسان في صدره، أو توسوس به نفس الإنسان إليه، كما قال تعالى: {**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**} [ق:16].

566- تفسير أبي السعود (216/9).

وقال تعالى في قصة آدم: {**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا**} [الأعراف:20]، وقال: {**فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى**} [طه:120].

وهنا قال: الوَسوَاس بفتح الواو، مثل: الثَّرثار، وهو المُوَسوِس، أي: الذي يقوم بفعل الوسوسة، بخلاف (الوِسواس)، وهو المصدر أي: فعل الوسوسة نفسه، كالزِّلزال بالكسر، والزَّلزال بالفتح.

فوسوسة الشيطان: ما يلقيه في أنفس النَّاس وعقولهم من الخواطر الشرِّيرة، التي تُزَيِّن الضلال والغيَّ، وتبتعد عن الهُدى والرُّشد.

وإنما جعل الوسوسة في صدور الناس –كما قال الإمام محمد عبده – على ما عُهد في كلام العرب، من أنَّ الخواطر في القلب، والقلب ممَّا حواه الصدر عندهم.

وكثيراً ما يقال: إنَّ الشكَّ يحوك في صدره، وما الشكُّ إلا في نفسه وعقله، وأفاعيل العقل في المخِّ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم، وضربات القلب، وضيق الصدر أو انبساطه[567].

معنى {الخنَّاسِ}:

{**الخنَّاسِ**}، مبالغة من الخنْس، بمعنى أنه الشديد الخنس، أو الكثير الخنس، وهو الاختفاء، فطريقة الشيطان في التزيين والإغواء، التي عبَّر القرآن عنها بقول الشيطان: {**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**} [الحجر:39]، تعتمد الدخول إلى نفس الإنسان بطريقة خفيَّة، فإذا وجد الإنسان منتبهاً ذاكراً لله ولحساب الآخرة، خنس واختفى، ثم يرجع مرة أخرى، ليجد فرصة غفل فيها الإنسان عن نفسه وربه، فيبسط سلطانه عليه.

567- محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي (580/9)، دار الكتب العلميه – بيروت، ط. الأولى - 1418 هـ، تحقيق: محمد باسل عيون السود.

فهو –كما ترى – وسواس خنَّاس: يوسوس للإنسان إذا غفل، ويخنس إذا ذكر، فاشتَّقت له صفتان من عمله ووظيفته مع النَّاس، فلا شيء يضعفه ويجردِّه من سلاحه وقوَّته مثل ذكر الله سبحانه، ولا شيء يجرِّئه على الإنسان مثل الغفلة عن الله.

وقد جاء عن ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب الإنسان، فإذا غفل وسها وسوس، وإذا ذكر الله خنس[568]. أي: تأخَّر وأقصر. وهو لون من التمثيل والتصوير الفني لعمل الشيطان في إغواء الإنسان.

وروى الإمام أحمد، عن أبي تميمة، عن رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: كنتُ رديفه على حمار، فعثر الحمار، فقلتُ: تعس الشيطان. فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقُل: تعس الشيطان. فإنك إذا قلتَ: تعس الشيطان. تعاظم الشيطان في نفسه، وقال: صرعتُه بقوَّتي. فإذا قلتَ: بسم الله. تصاغرت إليه نفسه، حتى يكون أصغر من ذباب"[569].

ووسوسة الشيطان خواطر سيِّئة تُلقى في صدور النَّاس، فتُغريهم بالشَّرِّ والسيِّئات، تُفسد إرادتهم، فالشيطان يحارب النَّاس – وخصوصاً المؤمنين منهم – بسلاحين: الشُّبهات؛ لإفساد العقائد والأفكار، والشهوات؛ لإفساد الضمائر والسلوك.

وعلى المؤمن أن يتوقَّى منه بدرعَيْن: اليقين – وهو قوَّة الإيمان – يدفع به الشبهات، والصبر – وهو قوَّة الإرادة – يدفع به الشهوات. كما قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** [السجدة:24].

فالله جلَّ جلاله لم يَدَع النَّاس مكشوفين أمام الشيطان ووسوسته في صدورهم، بل أمدَّهم في معركتهم الطويلة والمديدة معه بأسلحة ودروع ومعدَّات شتَّى، يواجهونه وأعوانه وجنوده بها:

1. أول هذه المعدات والدروع: الإيمان والعبوديَّة والإخلاص لله، كما قال عزَّ وجلَّ: **{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** [النحل:99]، **{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ**

568- رواه أبو داود في الزهد (337).

569- رواه أحمد (20591)، وقال مخرجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأدب (4982)، والحاكم في الأدب (4/ 292) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (4819).

سُلْطَانٌ} [الحجر:42، والإسراء:65]، وهو ما اعترف به الشيطان نفسه: **{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}** [ص:82].

2. وثاني هذه الدروع: اليقين والصبر، اليقين يدفع به ما يلقيه الشيطان من شكوك وشبهات، تزيغ العقول. والصبر يدفع به ما يلقيه الشيطان من شهوات، تفسد السلوك.

3. وثالث هذه الدروع: ذكر الله تعالى، الذي يطرد الشيطان ويبعده، ويُجرِّده من قوَّته، فيخنس ويختبئ، كما يفعل اللصُّ إذا دخل الدار، فوجد أهلها أو أحداً منهم مستيقظاً، فيختبئ ويخنس، ولا يجرؤ أن يواجهه. فَوَصْفُه تعالى للشيطان بـ**{الخنَّاسِ}**، يؤكَّد أنه ضعيف جبان، يفرُّ من المواجهة إذا كان خصمه منتبهاً محصَّنا بذكر الله، فهو كما وصفه الله تعالى: **{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}** [النساء:76]، وقد قال الله تعالى عن قوم من المنافقين: **{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ إلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخاسِرُونَ}** [المجادلة:19]، كما أن القرآن وصف المنافقين بقوله: **{يُرَاءُونَ النَّاس وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلا قَلِيلًا}** [النساء:142].

4. ورابع هذه الدروع هو: الاستعاذة واللِّياذ بالله ربِّ النَّاس، ملك النَّاس، إله النَّاس، ومَن استعاذ بهذا الربِّ الملك الإله، فقد استعاذ بمُعَاذ، ولذا أمر الله به رسوله عليه الصلاة والسلام، وأمره به يعني أمره لأتباعه جميعا.

وقد أُمرنا أن نستعيذ بالله من الشيطان في مواقف وأمور كثيرة، وورد عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم عدَّة صيغ في الاستعاذة من الشيطان، منها قوله: عند دخول المسجد: "أعوذ بالله العظيم، ووجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم"[570].

لماذا سُلِّط الشيطان على الإنسان؟

وهنا سؤال كبير قد يسأله بعض الناس: لماذا سلَّط الله الشيطان على الإنسان؟ والجواب معروف، وهو أن هذا من تتمَّة ابتلاء الإنسان، فقد خلق الله خلقاً مفطورين على طاعته، **{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}** [الأنبياء:20]، **{لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [التحريم:6]،

570- رواه أبو داود في الصلاة (466)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (485)، وقال النووي في الأذكار (177): حديث حسن، إسناده جيد، عن عبد الله بن عمرو.

وهم الملائكة، الذين تصدر منهم عبادة الله وطاعته، كما نتنفَّس نحن ونقوم بأعمالنا التلقائيَّة، أو الاضطراريَّة، فليس لهم غرائز تغريهم، ولا شهوات تلهيهم، ولا شياطين تغويهم.

أما الإنسان فهو مخلوق من نوع آخر، أعطاه الله العقل والإرادة والمواهب، استخلفه في الأرض، وسَخَّر له ما في الكون، وابتلاه بالتكليف والأمر والنهي، وهداه النَّجديْن، وألهم نفسه فجورها وتقواها، وخيَّره بين الجنَّة والنار، وأنزل له الكتب، وبعث له الرسل، وأزاح عنه العلل، وأعطاه من النِّعم ما لا يُحصى، وكان من جملة الابتلاء الذي خصَّه به، **{إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}** [الإنسان:2]، ابتلاؤه بفتنة الشيطان عدوِّه القديم، الذي أقسم أمام الله ليغويَنَّه وليُضِلنَّه. ولله سرٌّ في ذلك لا يعلمه إلا هو: أنه ابتلى الإنسان بالشيطان، وابتلى المؤمنين بالكافرين، **{وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}** [الفرقان:20].

وابتلى الله المؤمنين الموحِّدين بقتال المشركين المعتدين، **{ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ}** [محمد:4].

كما ابتلى الله الناس بعضهم ببعض في أرزاقهم ودرجاتهم: **{وَهُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ}** [الأنعام:165].

وبهذا يتمُّ إعداد الإنسان وصقله في هذه الدار الفانية، ليصلح للخلود في الدار الباقية، وليتطهَّر تماماً، ويتزكَّى هنا، ليستقبل السعادة العظمى هناك، ويستقبله الملائكة هناك مرحِّبين منذ الوفاة: **{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** [النحل:32]، كما تقول الملائكة عند استقبال المتقين في الجنَّة: **{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}** [الزمر:73].

الاستعاذة من التسلط على النفوس لا على الأبدان:

ومن الملاحظ: أن السورة الكريمة، بل القرآن الكريم كله، يركِّز على الاستعاذة بالله من شرِّ تسلُّط الشيطان على الأنفس بالوسوسة في الصدر، ولم يجئ في القرآن كلِّه الاستعاذة من تسلُّط الشيطان

على بدن الإنسان، كما يزعم بعض الناس: أنَّ الشيطان أو الجنِّي يركبهم، ويلبسهم ويتحكَّم فيهم، ويُسخِّرهم لما يريد، وهو ما نفاه القرآن بقوله على لسان الشيطان يوم القيامة بلفظ صريح: **{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}** [إبراهيم:22]، وهذه الدعوة من الشيطان هي الوسوسة في الصدر.

وفي الحديث أن النبيَّ جاءه ناس من أصحابه فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: "وقد وجدتموه؟". قالوا: نعم. قال: "ذاك صريح الإيمان"[571].

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه رجل، فقال: يا رسول الله، إني أُحدِّث نفسي بالشيء، لأنْ أخِرَّ من السماء أحبُّ الي من أن أتكلَّم به. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيده – أي: الشيطان – إلى الوسوسة"[572].

قوله: "الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة". قال السندي: (أي: كيد الشيطان إلى الوسوسة التي لا يُؤاخَذ بها المرء، ولم يمكِّنه من غير الوسوسة، بل جعل ذلك في يد الإنسان، فلذلك امتنع من التكلم)[573].

ونسأل الذين يقولون: إنَّ الشيطان يلبس الإنسان، أو يدخل فيه، ويتكلَّم باسمه، ويسلبه إرادته، من يكون المسؤول في هذه الحالة؟ أهو الجنِّي الراكب؟ أم الإنسي المركوب؟ ولو ارتكب جريمة في هذه الحال، فمَن المسؤول عنها والمعاقَب عليها شرعيًّا وقانونيًّا؟

الواقع أن هذه ليست إلا أمراضاً نفسيَّة أو أعراضاً لها، ويجب أن يُعامَل صاحبها على هذا الأساس إن كان صادقا، أو يكشف تصنُّعه إن كان كاذبا.

فإن الإنسان أكرم على الله من أن يَدَعَه للاهين واللاعبين من الجنِّ يتعابثون به، مع أنه أكرم على الله منهم، وقد رأينا سليمان يُسخر الجنَّ لما يريد، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان

571- رواه مسلم في الإيمان (132)، عن أبي هريرة.
572- رواه أحمد (2097) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الأدب (5112)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (4264)عن ابن عباس.
573- حاشية السندي على المسند (358/2).

كالجواب وقدور راسيات، ويُسخِّر له الشياطين من كلِّ بنَّاء وغوَّاص، وآخرين مقرَّنين في الأصفاد، ولم نر جنِّيا سُخر له الإنس.

خاتمة:

من تأمَّل القرآن كلَّه، ما بين فاتحته (سورة الحمد)، وخاتمته (سورة الناس): يستيقن بالاستقراء التام أن هذا القرآن كلَّه ينبِّه ويركِّز على جملة أمور أساسية:

الأول: أنه كتاب ربَّاني، فسورة الحمد أو الفاتحة كلُّها ذكر لله: أوَّلها ذكر ثناء، وآخرها ذكر دعاء. وسورة الناس كسورة (الفلق) قبلها، كلتاهما استعاذة بالله واحتماء به، من شرور خلقه عامَّة وخاصَّة، جِنَّة وناسا.

والثاني: أنه كتاب إنسانيٌّ، كتاب أُنزل من أجل الإنسان، وهداية الإنسان، وإسعاد الإنسان، ولهذا جاء في سورة الفاتحة تعليم الإنسان أن يسأل الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط السعداء المهديين المرضيين عند الله، لا المغضوب عليهم ولا الضالين، وجاء في سورة الناس: الاستعاذة من شرِّ الشيطان أو شياطين الجنِّ والإنس، وذلك ليظلَّ الإنسان بعيدا عن الشرِّ قريبا من الخير.

والثالث: أنه كتاب عالميٌّ ليس لعِرق خاص من عروق البشر، أو لإقليم معيَّن، أو لطبقة أو طائفة منهم، بل هو للعالمين. كما أعلنت أول آية في الفاتحة بعد البسملة: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الفاتحة:2]، وكما أعلنت الآيات الأولى من آخر سورة في القرآن، سورة الناس: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ}**، بتكرار كلمة الناس، دون الاكتفاء بالضمير، لينبِّه على أنه سبحانه ربُّ الناس جميعا، كما أنه ملكهم جميعا، وإلههم جميعا.

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}

هذه هي الآية الخاتمة للسورة، والخاتمة للقرآن كلِّه، و **{مِنَ}**، في هذه الآية بيانية، ولكن ماذا تبيِّن؟ أهي بيان من اسم الموصول **{الَّذِي يُوَسْوِسُ}**، ومعنى ذلك: أن الموسوسين من الجنسين: من الجنَّة

والنَّاس معا، فكلاهما يقوم بنصيبه من الوسوسة، حتى الإنس منهم لهم دور في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون أن يوسوسوا للجنِّ؛ لأنهم لا يرونهم، وإنما مجالهم في الوسوسة لإخوانهم من الإنس.

قال الحسن: هما شيطانان، أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، أما شيطان الإنس فيأتي علانية[574]!

وقال قتادة: إن من الجنِّ شياطين، ومن الإنس شياطين، نتعوَّذ بالله من شياطين الإنس والجنِّ[575]!

وأورد القرطبي في تفسيره، عن أبي ذر، أنه قال لرجل: هل تعوَّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم، أما سمعتَ قول الله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [الأنعام:112][576].

أم هي بيان من **{ وَالنَّاسِ}**، الذي يوسوس لهم، فبيَّنت أن الناس الذين يوسوس الشيطان في صدورهم ليسوا مقصورين على جنس الإنس وحدهم، وإن كانت عداوته في الأصل موجَّهة إليهم، نتيجة حسده وحقده القديم على جنس الإنسان منذ قال: **{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قَلِيلًا}** [الإسراء:62]، ولكنَّ طبيعته الشريرة التي تكره الإيمان والخير، تأبى إلا أن تمتدَّ إلى قومه من الجِنَّة.

قال الإمام القرطبي: (قيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجنِّ، كما يوسوس في صدور الناس، فعلى هذا تكون **{فِي صُدُورِ النَّاسِ}**، عاماً في الجميع، و **{مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ}**، بيان لما يوسوس في صدره)[577]. ولكن يعكِّر على هذا الفَهم: أن ينقسم الناس– الموسوس لهم في الآية– وهم جنس البشر إلى الجنسين: جِنَّة وناس؟!

574- انظر: تفسير القرطبي (263/20).
575- رواه عبد الرزاق في التفسير (846).
576- تفسير القرطبي (263/20)، والحديث رواه أحمد (21546)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والنسائي في الاستعاذة (5507).
577- تفسير القرطبي (264/20).

والأَوْلى عندي: أن يُراد بالناس الذين يوسوس في صدورهم: الناسي بحذف الياء، كما في قوله تعالى: {**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**} [الرعد:9]، وقوله: {**يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ**} [القمر:6][578].

والمعنى: أن هذا الوسواس الخنَّاس، من شأنه أن يوسوس في صدور الناسي والغافل عن ذكر الله من الجنسين: الجِنَّة والناس، أما مَن يذكر الله ولا ينساه، فهو لا يُقبل عليه، ولا ينفذ إليه، كما قال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**} [الأعراف:201]، ومعناها: أنهم إذا مسَّهم الشيطان بوسوسته وفتنته، انتبهوا وتذكَّروا ربَّهم ولقاءَه وحسابَه وجزاءَه، فإذا تذكَّروا ذلك أبصروا الغاية، وأبصروا الطريق، وأبصروا المصير، فرجعوا إلى الله وإلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم.

فائدة لطيفة:

قال الإمام الرازي: (واعلم أن في هذه السورة لطيفة أخرى: وهي أن المُستعَاذ به في السورة الأولى (الفلق) مذكور بصفة واحدة، وهي أنه ربُّ الفلق، والمُستعَاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي: الغاسق والنفاثات والحاسد، وأما في هذه السورة فالمُستعَاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدَّر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى: سلامة النفس والبدن. والمطلوب في السورة الثانية: سلامة الدين. وهذا تنبيه على أن مضرَّة الدين وإن قلَّت، أعظم من مضارِّ الدنيا وإن عظُمت، والله سبحانه وتعالى أعلم)[579] انتهى.

ولعل ما يؤيِّد هذا: الدعاء المأثور: "اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا"[580].

578- تفسير أبي السعود (217/9).
579- تفسير الفخر الرازي (378/32).
580- رواه الترمذي في الدعوات (3502)، وقال: حديث حسن غريب، والنسائي في الكبري في عمل اليوم والليلة (10162)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (1268)، عن ابن عمر.